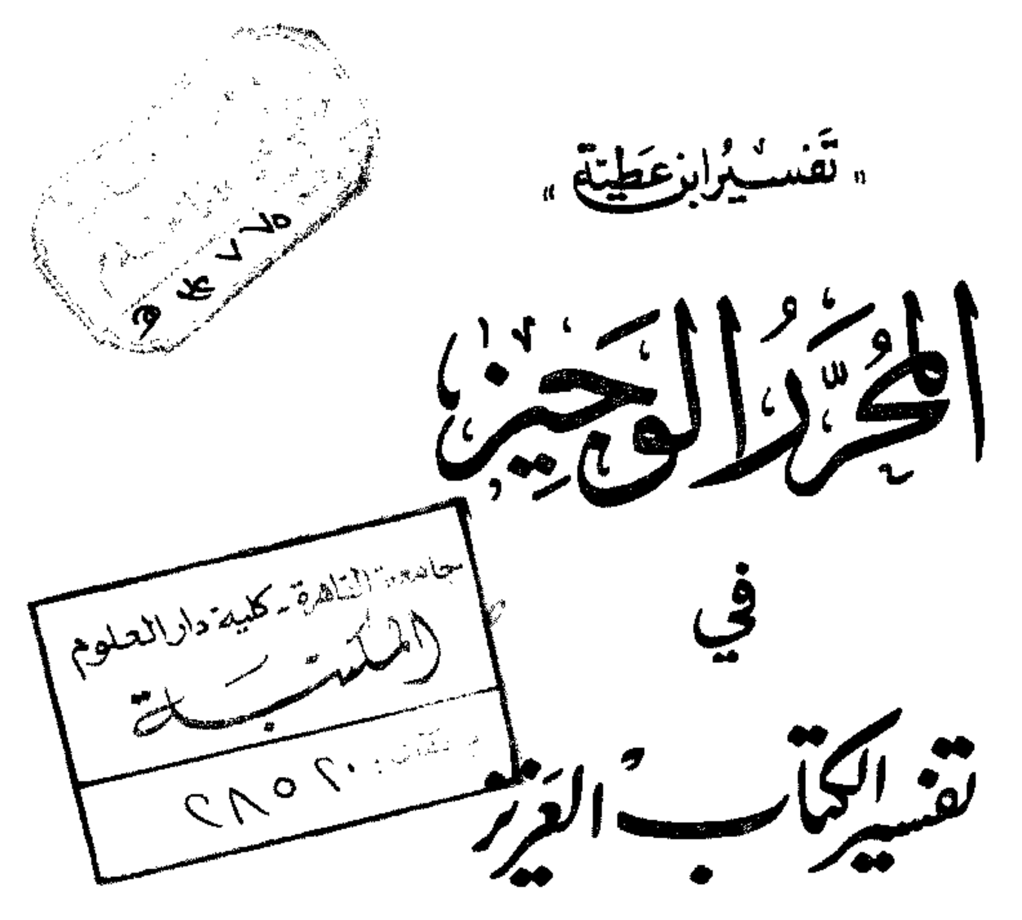


« تفسير ابن عطية »

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطيَّة الأندلسي

الجزء الحادي عشر

تحقيق وتعليق

عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

السيد عبد العال السيد ابراهيم

طبع على نفقة
صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

الطبعـــة الأولى

الدوحة : ربيع ثاني ١٤٠٦ هـ
ديسمبر ١٩٨٥ م



«تفسيرُ ابن عطية خيرُ من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا وبحثاً ، وأبعد عن البدع .... بلْ هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير» .

(ابن تيميـــة)

«لمَّا رجع النَّاسُ إلى ٱلتَّحقيق والتَّمحيص ، وجاء أبو محمد عبد الحق بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلَخَّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرَّى ما هو أقرب إلى الصحة منها» .

(ابن خلـــدون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الحادي عشر

ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير ســورة الفرقان

هذه السورة مكية في قول الجمهور ، وقال الضحاك : هي مدنية ، وفيها آيات مكية ، قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ ﴾ الآيات [١] .

---

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة : هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝ ﴾

[تَبَارَكَ] وزنه تفاعل ، وهو فعل مضارع (بارَكَ) ، من البركة ، و (بَارَكَ) فاعل من واحد ، ومعناه : زادَ ، و[تَبَارَكَ] فعل مختصٌ بالله تعالى ، لم يستعمل في غيره ، ولذلك لم يصرَّف منه مستقبل ، ولا اسم فاعل ، وهو صفة فعل[1] ، أي : كثُرت بركاته ، ومن جُمْلتها إنزال كتابه الذي هو الفُرقان بين الحق والباطل ، وصدر هذه الآية إنما هو ردٌّ على مقالات كانت لقريش ، فمن جُمْلتها قولهم : «إن القرآن افتراه محمد ، وإنه ليس من عند الله» ، فهو ردٌّ على هذه المقـــالات .

---

(١) هو صفة فعل على التأويل الذي ذكره ابن عطية ، وقد يكون صفة ذات ولكن على التأويلات الأخرى التي ذكرها المفسرون ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : تبارك : لم يزل ولا يزول ، وقال الخليل : تمجَّد ، وقال الضحاك : تعظَّم .

وقرأ الجمهور : ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ ، وقرأ عبد الله بن الزُّبير : ﴿ عَلَى عِبَادِهِ ﴾ ، والضمير في قوله : [لِيَكُونَ] يحتمل أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عبده المذكور ، وهذا تأْويل ابن زيد ، ويحتمل أن يكون للقرآن ، وأما على قراءة ابن الزبير فهو للقرآن ، لا يحتمل غير ذلك إلَّا بِكُرْه ، وقوله تعالى : [لِلْعَالَمِينَ] عامٌّ في كل إنسي وجني ، عاصَرَه أو جاء بعده ، وهذا مؤيد من غير ما موضع من الحديث المتواتر وظاهر الآيات ، و «النذير» : المُحَذِّر من الشَّرِّ ، والرسول من عند الله نذير ، وقد يكون النذير ليس برسول ، كما روي في ذي القرنين ، وكما ورد في رُسُل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجن ، فإنهم نذر وليسوا برسل .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية ، هي من الرَّدِّ على قريش في قولهم : «إن لله شريكاً» ، وفي قولهم : «اتَّخذ البنات» ، وفي قولهم في التلْبية : «إلَّا شريك هو لك» ، وقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عامٌّ في كل مخلوق ، وتقديرُ الأَشياء هو حدُّها بالأَمكنة والأَزمان والمقادير والمصلحة والإتقان .

ثم عقَّب ذكر هذه الصفات التي هي للأُلوهية بالطعن على قريش في اتخاذهم آلهة ليست لهم هذه الصفات ، فالعقل يعطي أَنهم ليسوا بآلهة . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ يحتمل أن يريد : يخلقهم البشر بالنحت ، وهذا التأْويل أَشد إبداءً لخساسة الأَصنام ،

وخلق البشر يجوز ، ولكن العرب تستعمله[١] ، ومنه قول زهير :

وَلأَنْتَ تَفْـــرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي[٢]

وهذا من : خلَقْتُ الجلد ، إذا عملتَ فيه رسوماً يقطع عليها ، فالفَرْيُ هو أن يُقَطَّع على تلك الرسوم . وقوله تعالى : ﴿ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً ﴾ يريد : إماتة ولا إحياءً ، و «النُّشور» : بعث الناس من القبور .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

---

(١) هكذا في الأصول ، ونعتقد أن الصواب : «وخلْق البشر لا يجوز ، ولكن العرب تستعمله» حتى لا يكون هناك تناقض في الكلام ، ومع ذلك ففي اللسان أن الخلْق في كلام العرب : ابتداع الشيء على مثال لم يُسبق إليه ، وفيه أيضاً : الخلق بمعنى التقدير ، يقال : خلق الأديم يخلقه خلقاً : قدَّره قبل القطع وقاسه ليقطع منه مزادةً أو قِربةً أو خُفّاً ــ فقد يُنْسب الخلق إلى البشر بهذا المعنى ، وعليه جاء قول زهير .

(٢) خلَق هنا بمعنى : قدَّر الأمر ، من قولهم : خلَق الأديم يخلُقُه بمعنى : قدَّره وقاسه قبل القَطْع ليقطع منه ما يريد من مصنوعات كالقربة أو الخف أو المزادة ، وأما الفريُ فهو التقطيع نفسه ، يقال : فرَيْتُ الشيءَ أفريه فرياً : شققته وقطّعته ــ على جهة الإصلاح ــ وأفرَيْتُه: قطّعته على جهة الإفساد ، والمراد هنا الإصلاح ، ومعنى البيت: أنت تُنفّذ ما تعزم عليه وتُقَدِّرُهُ . قال في (اللسان ــ فرا) : وهو مثلٌ .

المرادُ بـ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قريش ، وذلك أن بعضهم قالوا : هذا كذبٌ افتراه محمد ، واختلف الناس في المُعِينِين لمحمد صلى الله عليه وسلم ــ على زَغْم قريش ــ فقال مجاهد : أشاروا إلى قوم من اليهود ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أشاروا إلى عَبِيد كانوا للعرب من الفرس ، أحدهم أبو فُكَيْهة مولى الحضرميِّين ، وجبر ، ويسار ، وعدَّاس ، وغيرهم . ثم أخبر الله تعالى أنَّهم ما جاءُوا إلَّا إثْماً وزوراً ، أي : ما قالوا إلَّا بهتاناً وزوراً ، و «الزُّور» : تحسين الباطل ، هذا عرفه ، وأصله التحسين مطلقاً ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : «فأردت أن أُقدم بين يدي أبي بكر مقدمةً كنتُ زَوَّرْتُها» .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ، قال ابن عباس : يعني بذلك قول النضر بن الحارث ، وذلك أنَّهم قالو : كلُّ ما في القرآن من ذكر أساطير الأولين فإنما هو بسبب النضر بن الحارث المشهور في ذلك ، ثم رمَوْا محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه اكْتَتَبها ، وقرأ طلحة بن مصرف : «اكتُتِبها» بضم التاء الأُولى وكسر الثانية ، على معنى : اكتُتِبَتْ له ، ذكرها أبو الفتح[1] ، وقرأ طلحة : «تُتْلَى» بتاءٍ بدل

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني في «المحتسب» : «إن قراءة العامة : [اكْتَتَبَهَا] ، معناه : اسْتَكتبها ، ولا يكون معناه : كَتَبها أي : كَتَبها بيده ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان أُمِّيّاً لا يكتب ، وهو من تمام إعجازه ... وإذا كان كذلك فمعنى : [اكْتُتِبَهَا] إنما هو : استُكْتِبَهَا ، وهو على القَلْب ، أي: استُكْتِبَتْ له ، ومثله في القَلْب قراءة من قرأ : ﴿قُدِّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ ، أي: قُدِّرت لهم » ، وبعد أن ساق شواهد شعرية على القلب =

الميم . ثم أمره الله تعالى أن يقول : الذي أنزله هو الله الذي يعلم سرَّ جميع الأشياء التي في السمٰوات والأرض ، ثم أعلم أنه غفور رحيم لِيُرَجِّي كل سامع في عفوه ورحمته مع التوبة والإنابة ، والمعنى أن الله غفور رحيم في إبقائه على أهل هذه المقالات والكفر لعلهم أن يؤمنوا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾

الضمير في قوله : [وَقَالُوا] لقريش ، وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهود ، ذكره ابن إسحق في

= في العربية قال : « وليس ممتنعاً أن يكون قوله : [اكْتَتَبَهَا] : كَتَبَهَا ، وإنْ لَم يَلِ ذلك بيده ، إلا أنه لما كان عن رأيه أو أمْره نُسب ذلك إليه ، وفي الحديث : (مَن اكْتَتَبَ ضَمِناً كان له كذا) ، أي : زَمِناً ، يعني كتب اسمه في الفرض ، فعلى هذا يكونُ [اكْتُتِبَهَا] أي : اكْتُتِبَتْ له » . هذا هو كلام ابن جني كاملا ذكرناه لأن ابن عطية اختصره .

السير ، وغيرُه ، مضمنه أن سادتهم ـ عتبة وغيره ـ اجتمعوا معه ، فقالوا : يا محمد ، إن كنت تحب الرياسة وَلَّيْنَاكَ علينا ، وإن كنت تُحب المال جمعنا لك من أموالنا[١]... فلما أَبَى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا في باب الاحتجاج عليه ، وقالوا له : ما بالك ـ وأنت رسول من الله ـ تأْكل الطعام ، وتقف بالأَسواق تريد التماس الرزق ؟ أي : من كان رسول الله مستغن عن جميع ذلك ، ثم قالوا له : سلْ ربَّك أن يُنزل معك مَلَكاً يُنْذر معك ، أَو يُلقى إليك كنزٌ نُنفق منه ، أَو يردُّ لك جبال مكة ذهباً ، أَو تُزالُ الجبال ويكون مكانها جنات تطَّرد فيها المياه ، وأَشاعوا هذه المحاجَّة ، فنزلت هذه الآية .

وكُتبت اللام مفردة من قولهم : ﴿ مَالِ هَذَا ﴾ إمَّا لأَن مُمْلي المصحف قطع لفظه فاتَّبعه الكاتب ، وإمَّا لأَنهم رأَوْا أن حرف الجرّ بإنهاء الاتصال ، نحو مِنْ ، وفي ، وعَنْ ، وعَلَى . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ بالياء ، وقرأَ حمزة ، والكسائي [نَأْكُلُ] بالنون ، وهي قراءة ابن وثاب ، وابن

---

(١) أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والخبر طويل تجده في السيرة ، وفي الدر المنثور ، وفيه من أسماء المشركين : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل ، وغيرهـــم .

مُصرِّف ، وسليمان بن مهران (١) . ثُمَّ أخبر تعالى عنهم – وهُمُ الظالمون الذين أُشير إليهم – أنهم قالوا – حين يَئِسوا من محمد صلى الله عليه وسلم – : ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً ﴾ ، يجوز أن يكون من السَّحْر وهي الرئة(٢) ، فكأنهم ذهبوا إلى تحقيره ، أي : رجل منكم في الخلقة ، ذكره مكي وغيره . ثم نبَّهه الله تعالى مسلِّياً عن مقالتهم فقال : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا ﴾ ، أي : أخطئوا الطريق فلا يجدون سبيلا لهداية ، ولا يطيقونه لالتباسهم بضدِّه من الضلال .

---

(١) لُقِّب بالأعمش ، واعتاد ابن عطية رحمه الله قبل ذلك أن يذكره بلقبه ، واسمه سليمان بن مهران ، أبو محمد ، أسدي بالولاء ، تابعي مشهور ، أصله من بلاد الريّ ، نشأ وتوفي بالكوفة ، وكان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض ، وروى نحو ١٣٠٠ حديث ، قال عنه الذهبي : كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح ، وقال السخاوي : لم يُرَ السلاطين والملوك والأغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الأعمش مع شدة حاجته وفقره . (ابن سعد ، وتذكرة الحفاظ ، وتاريخ بغداد ، والوفيات) .

(٢) قال في (اللسان – سحر) : والسَّحْر أيضاً : الرئة ، والجمع أسْحار ، وسُحُر ، وسُحُور ، وقد يحرك فيقال : سَحَرٌ ، مثل نَهْر ونَهَر ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها : (مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحْري ونحري) ، أي : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مستند إلى صدرها وما يحاذي سَحْرها منه .

ويظهر أن في الكلام نقصاً ، وأن بعضه قد سقط من النساخ قبل قوله : يجوز أن يكون من السَّحْر ، ومما رُوي عن العلماء في ذلك أن يكون المعنى : غَلَب على عقله السِّحْر ، أو يُسْحَر بالطعام وبالشراب ، أي : يُغَذَّى بهما ، أو أُصيب سحره ، كما تقول : رأَسْته ، أي : أصبْت رأسَهُ .

وقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي ﴾ الآية رجوع بـأُمور محمد صلى الله عليه وسلم إلى الله ، أي : هذه جهتك ، لا هؤلاءِ الضَّالُّون في أمرك ، والإشارة بـ[ذَلِكَ] ـ قال مجاهد : هي إلى ما ذكروه في النِّقَاشِ من الكنز والجنة في الدنيا ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي إلى أكله الطعام ومشيه في الأسواق ، قال الطبري : والأول أظهر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لأن التأويل الثاني يوهم أن الجنات والقصور التي في هذه الآية ـ وهو تأويل الثعلبي وغيره ـ يَرُدُّه قوله بعد ذلك: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَة ﴾(١) ، والكل محتمل .

وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكرٍ وحفصٍ ـ ونافعٌ ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي: [وَيَجْعَلْ] بالجزم ، على العطف على موضع الجواب في قوله : [جَعَلَ] ؛ لأن التقدير : إن يشأْ يجعل ، وقرأ أبو بكر عن عاصم أيضاً ، وابنُ كثير ، وابن عامر : [وَيَجْعَلُ] بالرفع والاستئناف ، وهي قراءة مجاهد ، ووجهُه العطفُ على المعنى في قوله : [جَعَلَ] ؛ لأن جواب الشرط هو موضع استئناف ، ألا ترى أن الجمل من الابتداء والخبر قد تقع موقع جواب الشرط ؟ وقرأ عبد الله بن موسى ،

---

(١) قيل : لا يردُّه ؛ لأن المعنى به متمكن ، وهو عطف على ما حُكي عنهم ، يقول : بل أتي بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة . وقد قال ابن عطية : والكلُّ محتمل .

وطلحةُ بن سليمان : [وَيَجْعَلَ] بالنصب ، وهي على تقدير (أن) في صدر الكلام ، قال أبو الفتح : هي على جواب الجزاء ، قالوا : وهي قراءةٌ ضعيفة ، وأدغم الأعرج ﴿ جَعَلْ لَّكَ ﴾ و ﴿ وَيَجْعَلْ لَّكَ ﴾ ، وروي ذلك عن ابن محيصن .

و «القصور» : البيوت المبنية الجدران ، قاله مجاهد وغيره ، فكانت العرب تُسمِّي ما كان من الشَّعر والصوف والقصب[١] بيتاً ، وتُسمِّي ما كان بالجدران قصراً ؛ لأنه قُصر على الداخلين[٢] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

المعنى : ليس يهم في تكذيبك مشْيُك في الأَسواق ، بل إنهم كفرة لا يفهمون الحق ، فقوله : [بَلْ] تَرْكٌ لنفس اللَّفظ المتقدم لا لمعناه ، على ما تقتضيه «بَلْ» في مشهور معناها ، [وَأَعْتَدْنَا] :

(١) القَصَب : كل نبات كانت ساقُه أنابيب وكعوباً ، ونبات مائي من الفصيلة النجيلية له سوق طوال (الغاب البلدي) .

(٢) في القرطبي : «لأن مَن فيه مقصور عن أن يوصل إليه» .

جَعَلْنَا مُعَدًّا ، والعَتَادُ : مَا يُعَدُّ من الأَشياءِ ، و «السَّعِيرُ» : طَبَقٌ من أطباق جهنم .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ يريد : جهنم ؛ إذ اقتضاها لفظ «السعير» ، ولفظ [رَأَتْهُمْ] يحتمل الحقيقة ، ويحتمل المجاز على معنى : صارت منهم قدْر ما يرى الرائي من البعد ، إلَّا أنه ورد حديث يقتضي الحقيقة في هذا ، ذَكَره الطبري ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من كذب عليَّ متعمداً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار بين عيني جهنم) ، فقيل : يا رسول الله ، أَوَلجهنم عينان ؟ فقال : (اقرءُوا إن شئتم : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[١] ، وروي في بعض الآثار أن البعد الذي تراهم منه مسيرة سنة ، وروي أنه مسيرة خمسمائة سنة .

وقوله تعالى : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ لفظ فيه تجوُّز ، وذلك أن التَّغيُّظ لا يُسمع ، وإنما المسموع أصوات دالة على التَّغَيُّظ ، وهي ولا شكَّ احتداماتٌ في النَّار كالذي يسمع في نار الدُّنيا ، فَنِسْبَةُ هذا المسموع الذي في الدنيا من ذلك نِسْبَةُ الإحراق من الإحراق ، وهي سبعون درجة كما ورد في الصحيح . و «الزَّفير» : صوتٌ ممدود كصوت الحمار المرجع في نهيقه ، قال النَّقاش : الزَّفير : صوت الحمار عند

---

(١) وأخرجه الطبراني ، وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة ، وأخرج مثله عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق خالد بن دريك عن رجل من الصحابة .

نهيقه ، وقال عبيد بن عمير : إن جهنم لتَزْفِر زَفْرة لا يبقَى ملَك ولا نبيٌّ إلّا خَرَّ ترعد فرائصه .

و «المكان الضَّيِّق» فيها هو مقصد إلى التضييق عليهم من المكان في النار ، وذلك نوع من التعذيب ، قال عليه الصلاة والسلام : (إنَّهم ليُكرهون في النَّار كما يُكره الوتد في الحائط)(١) ، أيْ : يدخلون كرهاً وعنفاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تُضيَّق عليهم كما يُضيَّق الزُّج على الرمح ، وقرأ ابن كثير ، وعبيد عن أبي عمرو : [ضَيْقاً] بتخفيف الياء ، والباقون يُشدِّدون .

ومعنى [مُقَرَّنِينَ] مربوطٌ بعضهم إلى بعض ، ورُوي أن ذلك بسلاسل من نارٍ ، والقرينان من الثيران : ما قُرِنا بحبل للحرث ، ومنه قول الشاعر :

إذَا لَمْ يزَلْ حَبْلُ الْقَرِينَيْنِ بالنَّوى فَلَا بُدَّ يَوْماً مِنْ . . . . (٢)

وقرأ أبو شيبة المهري صاحب معاذ بن جبل رضي الله عنه : [مُقَرَّنُون] بالواو ، وهي قراءة شاذة ، والوجه قراءة الناس ، وقوله :

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي أُسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ ، قال : (والذي نفسي بيده إنهم ليُسْتَكْرَهون في النار كما يُسْتَكْرَه الوتد في الحائط) .

(٢) لم نتمكن من قراءة الكلمتين الأخيرتين في البيت — على أن الشاهد فيه هو كلمة «القَرِينَين» في الشطر الأول ، وهما الثوران اللذان قرنا بحبل واحد عند الحرث ، أو كل اثنين قرنا بحبل لأي غرض من الأغراض .

[ثُبُوراً] مصدر ، وليس بالمدعُوِّ ، ومفعول [دَعَوْا] محذوف ، تقديره : دعَوْا من لا يُجيبهم ، ونحو هذا من التقديرات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصح أن يكون الثُّبُور هو المدعُوّ ، كما يدعى الحسرة والويل ، و «الثُّبُورُ» قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الويل ، وقال الضحاك : هو الهلاك ، ومنه قول ابن الزِّبعرى :

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ في سَنَنِ الْغَـــيِّ ، ومَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ [1]

وقوله : ﴿ لَا تَدْعُو ﴾ إلى آخر الآية معناه : يقال لهم على معنى التَّوبيخ والإعلام بأَنهم مخلدون : لا تقتصروا على حُزْنٍ واحد ، بل احزنوا كثيراً ؛ لأَنكم أَهلٌ لذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾

(١) عبد الله بن الزِّبَعْرى كان شاعر قريش ، وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم أسلم بعد فتح مكة ، وحين أسلم قال أبياتاً من الشعر ، روى منها ابن اسحق أربعة أبيات في السيرة ، وهذا البيت واحد منها ، وأجاري : أُباري وأُعارض ، والسَّنَن (بفتح السين المشدَّدة والنُّون الأولى) : الطريق ، ومثبور : هالك . وابن عطية يستشهد بالبيت على أن معنى الثبور هو : الهلاك .

المعنى : قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين هم بسبيل مصير هذه الأحوال من النار : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ﴾ ؟ وذلك على جهة التوقيف والتوبيخ ، ومن حيث كان الكلام استفهاماً جاز فيه مجيءُ لفظة التفضيل بين الجنة والنار في الخير ؛ لأن المُوقِف جائز له أن يُوقِف مُحاوره على ما يشاءُ ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطإ ، وإنما يمنع سيبويه وغيره من التفضيل بين شيئين لا اشتراك بينهما في المعنى الذي فيه تفضيل إذا كان الكلام خبراً ؛ لأن فيه مخالفة ، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ [(١)] .

وقيل : الإشارة بقوله : [ذَٰلِكَ] إلى الجنّات التي تجري من تحتها الأنهارُ ، وإلى القصور التي في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ

---

(١) ذكر أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم عقّب عليه بقوله : « وما ذكره يخالفه قوله : ﴿ قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ ، وقوله تعالى : (فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُما الفِداءُ) فإن هذا خبر ، وكذلك قولهم : « العَسَل أحْلى مِن الخَلّ » ، إلا أن تقييد الخبر بأنه إذا كان واضحاً الحُكْمُ فيه للسامع بحيث لا يختلج في ذهنه ولا يَتَرَدَّدُ أيُّهما أفضل ، فإنه يجوز » .

وقال بعض المفسرين : إن [خَيْر] هنا لا تدل على الأفضلية ، بل هي على ما جرت عليه عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيّته بالفضل دون مقابلة ، وحسّان بن ثابت حين قال مخاطباً أبا سفيان : (فَشَرُّكُما لِخَيْرِكما الفداءُ) كان يريد بيان فضل النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يُرد أبداً أن ينسب شيئاً من الخير لأبي سفيان ، ويوسف عليه السلام لم يكن يرى في الفاحشة ما يجعله محباً لها ، وإنما أراد أن يُبَيِّن مقدار حبه للسجن في هذه الأحوال التي يرى نفسه فيها ، وكلام ابن عطية على جانب كبير من الصواب ، ووجهة نظره تستحق الاعتبار ، والخبر واضح في ذهن السامع لا يتردد فيه ، وهو الشرط الذي ذكره أبو حيان .

لَكَ ﴾ ، وهذا على أن يكون الجَعْلُ في الدنيا ، وقيل : الإشارة بقوله : [ذَلِكَ] إلى الكنز والجَنَّة اللَّتين ذكر الكفار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأصحُّ أن الإشارة بقوله : [ذَلِكَ] إلى النار كما شرحنا آنفاً .

و [ٱلْمُتَّقُونَ] في هذه الآية مَن اتَّقى الشِّرك ، فإنه داخل في الوعد ، ثم تبقى المنازل في الوعد بحسب تَقوى المعاصي[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَعْداً مَسْئُولًا ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما ــ وهو قول ابن عباس ، وابن زيد ــ أنه مسئولٌ لأن المؤمنين سألوه أو يسألونه ، ورُوي أن الملائكة سألت الله تعالى تنعيم المتقين فوعدهم بذلك ، قال محمد بن كعب : هو قول الملائكة ، وتَلا ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾[٢]، والمعنى الثاني ذكره الطبريُّ عن بعض أهل العربية : أن يريد وعداً واجباً قد حتمه ، فهو لذلك مُعَدٌّ أن يُسأل ويُقْتَضَى[٣] ، وليس يتضمن هذا التأويل أن أحداً سأل الوعد المذكور.

---

(١) أي : يبقى المتقون في درجات مختلفة داخل الوعد ، ودرجاتُهم تختلف بحسب درجاتهم في التقوى والبعد عن المعاصي .

(٢) من الآية (٨) من سورة (غافر) ، وقيل : هو وعد الله للمؤمنين بالجنة ، سألوه ذلك الوعد فقالوا : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ .

(٣) لأنه كالدَّين يطلبه صاحبه ، وهو واجب بدون سؤال أو طلب ، فقد أصبح حقاً لصاحبــــه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

المعنى : واذكر يومَ ، والضمير في [يَحْشُرُهُم] للكفار ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ يريد به كلَّ شيءٍ عُبد من دون الله ، فغلب العبارة عما لا يعقل من الأَوثان لأَنها كانت الأَغلب وقت المخاطبة .

وقرأ ابن كثير ، وعاصم - في رواية حفص - ، والأَعرج ، وأَبو جعفر : [يَحْشُرُهُمْ] ... [فَيَقُولُ] بالياء فيهما ، وقرأ ابن عامر بالنون فيهما ، وهي قراءة الحسن ، وطلحة ، وعاصم أَيضاً ، وقرأ نافع [نَحْشُرُهُمْ] بالنون [فَيَقُولُ] بالياء ، وفي قراءة عبد الله : «وَمَا يَعْبُدونَ مِنْ دُونِنَا» ، وقرأ الأَعرج [نَحْشِرُهُم] بكسر الشِّين ، وهي قليلة في الاستعمال قوية في القياس ؛ لأَن (يَفْعِلُ) بكسر العين في المتعدي أَقيس من (يفعُل) بضم العين[1] .

---

(١) قال أبو حيان في (البحر المحيط) تعقيباً على كلام ابن عطية : « وهذا ليس كما ذكر ، بل (فَعَلَ) المتعدي الصحيح جميع حروفه ، إذ لم يكن للمبالغة ، ولا حلْقِيَّ عين ولا لام ، =

وهذه الآية تتضمن الخبر على أن الله تعالى يوبِّخ الكفار في القيامة بأن موقف المعبودين على هذا المعنى ؛ ليقع الجواب بالتَّبَرِّي من الذنب فيقع الخزي على الكافرين .

واختلف الناس في المُوقَفِ المُجِيبِ في هذه الآية ــ فقال جمهور المفسِّرين : هو كل من ظُلم بأن عُبد ممن يعقل كالملائكة وعُزَير وعيسى وغيرهم ، وقال الضحاك ، وعكرمة : المُوقَفُ المجيبُ : الأَصنام التي لا تعقل ، يقدرها الله تعالى يومئذ على هذه المقالة ، ويجيءُ خزْي الكفرة لذلك أَبلغ .

وقرأَ جمهور الناس : [نَتَّخِذَ] بفتح النون ، وذهبوا بالمعنى إلى أنه من قول من يَعْقل ، وأن هذه الآية بمعنى التي في سورة سبأٌ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾(١) وكقول عيسى عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾(٢) ، و ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾

= فإنه جاء على يفعُل ويفعِل كثيراً ، فإن شهر أحد الاستعمالين اتُّبع وإلا فالخيار ، حتى أن بعض أصحابنا خيَّر فيهما سُمِعَا للكلمة أو لم يُسْمَعا » .

(١) الآية (٤٠) ومن الآية (٤١) من سورة (سبأ) .

(٢) من الآية (١١٧) من سورة (المائدة) .

ـ على هذه القراءة ـ في موضع المفعول به . وقرأ أبو جعفر ، والحسن ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وأبو رجاء ، ونصر بن علقمة ، ومكحول ، وزيد بن علي ، وحفص بن حميد (١) : [نُتَّخَذَ] بضم النون ، وتذهب هذه مذهب من يرى أن المُوقَف المُجيبَ الأوثان ، ويضعف هذه القراءة دخول [مِنْ] في قوله : ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ، اعترض بذلك سعيد بن جبير وغيره ، وقال أبو الفتح : ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ في موضع الحال (٢) ، ودخلت [مِنْ] زيادة لمكان النفي المتقدم ، كما تقول : ما اتخذت زيداً من وكيل ، وقرأ علقمة : «ما ينبغي» بسقوط [كَانَ] وثبوتها أمكن في المعنى ؛ لأنهم أخبروا عن حال كانت في الدنيا ، ووقت الإخبار لا عمل فيه .

وفسَّر هذا المُجيبُ ـ بحسب الخلاف فيه ـ الوجهَ في ضلال الكفار ، كيف وقع ؟ وأنه لما متَّعهم الله تعالى بالنعم الدنياوية وأَدَرَّها لهم ولأسلافهم الأحقاب الطويلة نسوا الذكر ، أيْ : ما ذُكِّر بِهِ النَّاسُ على ألسنة الأنبياء .

---

(١) هو حفص بن حميد القمي بالقاف ، أبو عبد الله ، روى عن عكرمة ، وروى عنه أشعث بن إسحاق وغيره ، وثَّقه النسائي .

(٢) أي : على قراءة [نُتَّخَذَ] بضم النون ، أما على قراءة الجمهور [نَتَّخِذَ] بفتح النون فإنها عنده في موضع المفعول به أيضاً ، قال : فهي كقولك : ضربت رجلا ، فإن نفيت قلت : ما ضربت من رجل (المحتسَب) .

و [بُوراً] معناه : هَلْكى ، والبوار : الهلاكُ ، واختلف في لفظه ــ فقالت فرقة : هي مصدر يوصف به الجمع والواحد ، ومنه قول ابن الزِّبعرى :

يَا رَسُولَ المَلِيكِ إنَّ لِسَانِــي رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ (١)

وقالت فرقة : هي جمع باير ، وهو الذي قد فارقه الخير فحصل بذلك في حكم الهلاك، باشره الهلاك بعْدُ أو لم يباشر ، قال الحسن : البايرُ : الذي لا خير فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ﴾ الآية ، خطاب من الله تبارك وتعالى بلا خلاف ، فمن قال : «إنَّ المُجيب الأَصنامُ» كان معنى هذه إخباره الكفار أن أَصنامهم قد كذبوهم ، وفي هذا الإخبار خِزْيٌ وتوبيخ ، والفرقة التي قالت : «إن المُجيبَ هو الملائكة ، وعُزير ، وعيسى ، ونحوهم» اختلفت في المخاطب بهذه الآية ، فقالت طائفة : المخاطب الكفار على جهة التوبيخ والتقريع ، وقالت طائفة : المخاطب

---

(١) هذا البيت من الأبيات التي قالها ابن الزِّبعرى بعد إسلامه ، وهو فيها يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

يا رَسُولَ المَلِيكِ إنَّ لِسَاني راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ
إذْ أُجَارِي الشَّيْطانَ في سَنَنِ الغـــيِّ ، ومَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

و «راتِقٌ ما فَتَقْتُ» : مُصْلِحٌ ما أفْسَدْتُ حين كنتُ أُبارِي الشيطان في طريق الضلال ، وأصْل الرَّتْق : سدٌّ ما في الثوب الممزق من خروق وإصلاحها ، والشاهد هنا أن (بور) معناها : هالك .

هؤلاء المعبودون ، أعلمهم الله تعالى أن الكفار بأفعالهم القبيحة قد كذبوا بهذه المقالة ، وزعموا أن هؤلاء هم الأولياءُ من دون الله تعالى ، وقالت فرقة : خاطب الله تعالى المؤمنين من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أي : قد كذبكم أيها المؤمنون الكفــارُ فيما تقولون من التوحيد والشرع .

وقرأ ابن كثير ، وأبو بكر عن عاصم ، والناس : [تَقُولُونَ] بالتاء من فوق [يَسْتَطِيعُونَ] بالياء من تحت ، ورجَّحها أبو حاتم ، وقرأ أبو حيوة : [يَقُولُونَ] بالياء من تحت ، ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالتاء من فوق ، وقال مجاهد : الضمير في [يَسْتَطِيعُونَ] هو للمشركين ، قال الطبري : وفي مصحف ابن مسعود : «فَمَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ صَرْفاً» ، وفي قراءة أُبيٍّ بن كعب : «لَقَدْ كَذَّبُوكَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ» ، قال أبو حاتم : في حرف عبد الله : «لَكُمْ صَرْفاً» على جمع الضمير .

و [صَرْفاً] معناه : ردُّ التكذيب أو العذاب أو ما اقتضاه المعنى بحسب الخلاف المتقدم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ ﴾ قيل : هو خطاب للكفار ، وقيل : هو للمؤمنين ، والظُّلْم هو الشِّرك ، قاله الحسن وابن جريج ، وقد يحتمل أن يعم غيره من المعاصي ، وفي حرف أُبيٌّ : «وَمَنْ يَكْذِبْ مِنْكُم نُذِقْهُ عَذَاباً أَليماً» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

هذه الآية الأُولى ردٌّ على كفار قريش في استبعادهم أن يكون من البَشَر رسولٌ ، وقولهم : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ ، وأخبر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم وأُمَّته بأنه لم يرسل قبل في سالف الدهر نبيًّا إلا بهذه الصفة .

والمفعول بـ [أَرْسَلْنَا] محذوف يدل عليه الكلام ، تقديره : رجالًا أو رُسُلا ، وعلى هذا المفعول المحذوف المقدَّر يعود الضمير في قوله : ﴿ إِلَّآ أَنَّهُم ﴾ ، وذهبت فرقة إلى أن قوله : ﴿ يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ كناية عن الحدث .

وقرأ جمهور الناس : [وَيَمْشُونَ] بضم الياء وسكون الميم وتخفيف الشين ، وقرأ علي ، وعبد الرحمن ، وابن مسعود رضي الله عنهم : [وَيُمَشُّونَ] بضم الياء وفتح الميم وشد الشِّين المفتوحة ، بمعنى : يُدْعون

إلى المشي ويُحملون عليه ، وقرأ أبو عبد الرحمن [١] بضم الياء وفتح الميم وضم الشِّين المشددة ، وهي بمعنى يَمْشُون ، ومنه قول الشاعر :

أُمَشِّي بِأَعْطَـانِ المياهِ وأَبْتَغِـي قَلَائِصَ مِنْهَا صَعْبَةٌ وَرَكوبُ [٢]

ثم أخبر تبارك وتعالى أن السبب في ذلك أنه سبحانه أراد أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس ، مؤمنٍ وكافر ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغنيُّ فتنة للفقير ، والفقير الشاكر فتنة للغنيِّ ، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس الكفار في عصره ، وكذلك العلماء وحكام العدل ، وقد تلا ابن القاسم هذه الآية حين رأى أشهب[٣]، والتوقيف بـ [أَتَصْبِرُونَ] خاص للمؤمنين الْمُحِقِّين ، فهو لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم، كأنه جعل إمهال الكفار فتنة للمؤمنين ، أي اختباراً لهم ، ثم وَقَفَهم :

---

(١) هو أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، قاله في القرطبي .

(٢) يروى البيت : «ومَشَّى بأعْطان المياهِ وابْتَغَى» بضمير الغائب ، وفي روح المعاني : (ذلولٌ) بدلا من (ركوب) . والعَطَن للإبل كالوطن للإنسان ، وقد غلب على مبركها حول الحوض ، والجمع أعْطَان . والقلائص جمع قلوص ، وهي من الإبل : الفَتِيَّةُ المُجْتَمعة الخَلْقِ وذلك من حين تُركب إلى التاسعة من عمرها ، ثم هي الناقة . والرَّكُوب : يريد بها التي ذُلِّلَتْ واعتادت الركوب عليها ، وهي ضد الصَّعبة التي لم تُسْتَأنس ، أو التي تنفر من الراكب ولا تقبل الجلوس فوقها . والشاهد في البيت أن مَشَّى بالتشديد تكون بمعنى مَشَى بالتخفيف .

(٣) ابن القاسم صاحبُ مالك رحمه الله ، وقد رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه ، فتلا الآية ، ثم أجاب نفسه بقوله : سنصْبر .

هل تصبرون أم لا[١]؟ ثم أعرب قوله ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ عن الوعد للصابرين والوعيد للعاصين .

ثم أخبر عن مقالة الكفار : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : [يَرْجُونَ] ، قال أبو عبيدة وقوم : معناه : يخافون ، والشاهد لذلك قول الهذلي :

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ[٢]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يظهر لي أن الرجاء في الآية والبيت على بابه ؛ لأن خوف لقاء الله تعالى مقترن أبداً برجائه ، فإذا نَفَى الرجاء عن أحد فإنما أخبر عنه أنه مُكَذِّب بالبعث لنفي الخوف والرجاء ، وفي ذكر الكفار بنفي الرجاء تنبيه على غبطة ما فاتهم من رجاء الله تعالى ، وأما بيت

---

(١) الفتنةُ : أن يحسُد المُبْتَلى المُعافى، ويحقِر المُعَافى المُبْتلى، والصبرُ أن يحبس كل منهما نفسه ، المُعافى عن البَطَر ، والمُبتَلَى عن الضجر ، وقوله سبحانه : [أتَصْبِرُونَ] ؟ محذوف الجواب ، يعني : أم لا ؟ ومن أجل هذا أجاب ابن القاسم نفسه حين رأى أشهب في مُلكه فقال : سنصبر .

(٢) لم يَرْجُ : لم يخف ولم يُبَالِ ، وخالَفَها (بالخاء) : جاء إلى عسلها وهي غائبة ترعى وقد سرحت ، خالَفها إلى العسل ، ويروى : حالَفَهَا (بالحاء المهملة) ، والمعنى : لازمها ؛ ونوب : تنتاب المرعى فتأكل ثم ترجع فتُعَسِّل ، وقال أبو عبيدة : إنما سُمِّيت نوباً لسوادٍ فيها ، ونوب : لا واحد له من لفظه ، وقيل : بل هو نائب ونوب ، مثل : عائذ وعوذ ، والبيت من قصيدة له مطلعها :

أَسَاءَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تُسَائِلِ عَنِ السَّكْنِ أَوْ عَنْ عَهْدِهِ بِالأَوَائِلِ ؟

الشعر المذكور فمعناه عندي : لم يرج دفعها ولا الانفكاك عنها ، فهو لذلك يوفي على الصبر ويجدُّ في شغله .

ولما تمنت كفار قريش رؤية ربِّهم أخبر تعالى عنهم أنهم عظموا أنفسهم ، وسألوا ما ليسوا له بأهل ، و [عَتَوْا] معناه : صعبوا على الحق واشتدوا ، ويقال : عِتِيٌّ وعُتُوٌّ ، عُتُوٌّ على الأصل ، وعِتِيٌّ لاستثقال الضم على الواو فقُلبت ياءً ثم كُسِر ما قبلها طلباً للتناسب (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

---

(١) جاءت الآية هنا عُتُوّاً : ﴿ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ بالواو ، وهذا على الأصل ، وفي سورة مريم بالياء في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ على استثقال اجتماع الواوين والقلب لمناسبة الفواصل . هذا ما ذكره أبو حيان وابن عطية ، وقال الفراء : وجاز أن يكون المصدر بالياء أيضاً لأن المصدر والأسماء تتفق في هذا المعنى ، ألا ترى أنهم يقولون : قاعد وقوم قعود ، وقعدت قعوداً ، فلما استويا ها هنا في القعود لم يبالوا أن يستويا في العُتُوِّ والعِتِيِّ .

المعنى في هذه الآية أن الكفار لما قالوا : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ إنما هو يوم القيامة ، وقد كان أول الآية يحتمل أن يريد يوم تُقبض أرواحهم ، لكن آخرها يقتضي أن الإشارة إلى يوم القيامة ، وأمر العوامل في هذه الظُّروف بيِّن إذا تؤُمل ، فاختصرناه لذلك . ومعنى الآية : إن هؤلاء الذين تمنوا نزول الملائكة لا يعرفون ما قدَّر الله تعالى في ذلك ؛ فإنهم يوم يرون الملائكة هو شرٌّ لهم ، ولا بُشْرى لهم ، بل لهم الخسار ولُقيا المكروه ، ويومئذ لا خير ولا بشرى ؛ لأن الظروف تكون إخباراً عن المصادر ، والضمير في قوله : [وَيَقُولُونَ] ، قال الحسن ، وقتادة ، والضحاك ، ومجاهد : هو للملائكة ، المعنى : ويقول الملائكة للمجرمين : حِجْراً مَحْجُوراً عليكم البشرى ، أي : حراماً مُحَرَّماً ، ومنه قول جرير بن عبد المسيح :

حَنَّتْ إلى النَّخْلَةِ الْقُصْوَى فَقُلْتُ لَهَا ... حِجْرٌ حَرَامٌ أَلا تِلْكَ الدَّهَارِيسُ[1]

وقال مجاهد أيضاً ، وابن جريج : إن الضمير في قوله : [وَيَقُولُونَ]

---

(١) جرير بن عبد المسيح عُرف باسم المتلمس ، والبيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن ، وهو في (اللسان – دَهْرَس) ، والرواية فيه : (حَجَّتْ) بدلا من (حَنَّتْ) ، وحنَّت : اشتاقت ، والنَّخْلة القُصوى : موضع على ليلة من مكة ، وحِجْر (بالحاء المثلَّثة) : حرامٌ ، والدَّهاريس : الدَّواهي واحدها دِهْرس (بكسر الدال وضمها) . والضمير في (حنَّت) يعود على ناقته ، يقول لها بعد أن حنَّت إلى تلك النخلة : ممنوع عليك تلك الأماكن . وفي معجم البكري رُوي البيت : (بَسْلٌ عَلَيْكِ) بدلا من (حِجْرٌ حرامٌ) ، والمعنى واحد .

هو للكفار المجرمين ، قال ابن جريج : كانت العرب إذا كرهوا شيئاً قالوا : حجراً ، قال مجاهد : حجراً : عوذاً ، يستعيذون بالملائكة (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون المعنى : ويقولون : حرام محرم علينا العفو ، وقد ذكر أبو عبيدة أن هاتين اللفظتين عوذة عند العرب ، يقولها من خاف آخَرَ في الحرم ، أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما تِرَةٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا المعنى هو مقصد بيت المتلمس الذي تقدم ، أي : هذا الذي حنَّت إليه ممنوع .

وقرأ الحسن ، وأبو رجاء : [حُجْراً] بضم الحاء ، والناس على كسرها .

ثم أخبر تعالى عما يأْتي قضاؤُه وفعله فقال حكاية عن يوم القيامة : [وَقَدِمْنَا] ، أي : قَصَد حكمنا وإنفاذنا ، ونحو هذا من الألفاظ اللائقة ، وقيل : هو قدوم الملائكة أسنده إليه لأنه عن أمره ، وحسنت لفظة [قَدِمْنَا] لأن القادم على شيءٍ مكروه لم يُقَرِّره ولا أمر به مُغَيِّر له

---

(١) قال الليث : « ظنُّوا أن ذلك ينفعهم كفعلهم في الدنيا » .

ومُذهب ، وأما قول الراجز :

وَقَدِمَ الْخَوَارِجُ الضُّلَّالُ إلى عِبَـــادِ رَبِّنَا فَقَالُوا

إنَّ دِمَاءَكُمْ لَنَـا حَـــلَالُ (١)

فالقُدوم على بابه .

ومعنى الآية : وقصدنا إلى أعمالهم التي هي في الحقيقة لا تزن شيئاً ؛ إذ لا نِيَّةَ مَعَهَا ، فجعلناها على ما تستحق لا تعدل شيئاً ، وصيَّرناها هباءً منثوراً ، أي : شيئاً لا تحصيل له ، والهباءُ : هي الأَجرام المستَدَقَّة الشائعة في الهواءِ التي لا يدركها حِسٌّ إلا حين تدخل الشمس على مكان ضيِّق يحيط به الظِّل كالكُوَّة ونحوها ، فيظهر حينئذ فيما قابل الشمس أشياء تغيب وتظهر ، فذلك هو الهباءُ ، ووصفه في هذه الآية بـ «منْثُورٍ» ، ووصفه في غيرها بـ «مُنْبَثٌ» (٢) ، فقالت فرقة : هما سواءٌ ، وقالت فرقة : المُنْبَثُ أَرَقُّ وأَدَقُّ من المَنْثُور ؛ لأَن المنثور يقتضي أن غيره نثره ، كسنابك الخيل أو الرياح أو هدم حائط ونحو ذلك ، والمُنْبَثُ كأنه انْبَثَّ من رقَّته ، وقال غيرهما (٣) ،

---

(١) استشهد أبو عبيدة بهذا الرجز في (مجاز القرآن) ، وابن عطية يرى أن القدوم في الرجز على بابه ، أما في الآية فإن القدوم يقصد معه التَّغيير لشيء مكروه .

(٢) وذلك في الآية رقم (٦) من سورة (الواقعة) ، حيث يقول تبارك وتعالى عن الجبال : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً ﴾ .

(٣) هو ابن عباس رضي الله عنهما .

الهباءُ المنثور هو ما تسفي به الرياح وتبثُّه ، وروي عنه أيضاً أنه قال : الهباءُ الماءُ المهراق ، والأَول أَصح ، والعرب تقول : هبات الغبار ونحوه إذا بثَّته ، قال الشاعر :

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ والْوَقْـــع مَنِينـــاً كأَنَّهُ أَهْبَـاءُ [1]

ومعنى هذه الآية : جعلنا أعمالهم لا حكم لها ولا منزلة .

ثم أَخبر عزَّ وجلَّ أَن مُسْتَقَرَّ أَهل الجنة خير من مُستقر أَهل النار ، وجاءَت [خَيْر] ها هنا للتفضيل بين شيئين لا شركة بينهما ، قال الزجاج وغيره : إنه لما اشتركا في أن هذا مُسْتَقَر وهذا مُسْتَقَر فضَّل الاستقرار الواحد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويظهر لي أَن هذه الأَلفاظ التي فيها عموم مَّا ، ويتوجَّه حكمها من جهات شتَّى ، نحو قولك : أَحبُّ ، وأَحْسَنُ ، وخيْر ، وشرٌّ ،

---

(١) البيت للحارث بن حِلِّزَة ، وهو من معلقته التي ألقاها في مجلس عمرو بن هند ، وبدأها بقوله :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَـــاءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَـــلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

والبيت في وصف ناقته التي آنست صوتاً وأفزعها القنَّاص وقد دنا الإمْساءُ كما يقول في البيت السابق ، والرَّجْع : رَجْع قوائمها ، والوَقْع : وقْع خِفافها ، والمَنِينُ : الغبارُ الدقيق ، والأهباءُ: الغبار المتفرق ، يقول : لقد هربت ، وجعلت تعدو بسرعة مثيرة خلفها الغبار الرقيق المتفرق . هذا ، وكلمة (هباء) ليست من ذوات الهمز ، وإنما همزت لالتقاء الساكنين ، ولهذا يقال في التصغير : هُبَيٌّ في موضع الرفع ، والواحد هباة ، والجمع أهباءٌ ، ويؤيد هذا بيتُ الحارث المذكور .

يسوغ أن يُجَاء بها بين شيئين لا شركة بينهما ، فتقول : السَّعد في الدنيا أحب إلينا من الشقاء ، أي : قد يوجد بوجه مَّا من يستحب الشقاء كالمتَعَبِّد والمغتاظ ، وكذلك في غيرها ، فإذا كانت (أفْعَل) في معنى بيِّنٌ أن الواحد من الشيئين لا حظَّ له فيه بوجه فسد الإخبار بوجه التفضيل به ، كقولك : الماءُ أبرد من النار ، ومن هذا أنك تقول في ياقوتة ومَدَرَة[1] ــ وتُشير إلى المَدَرَة ــ : هذه خير وأحسن وأحب وأفضل من هذه ، ولو قلتَ : هذه ألمع وأشدُّ شراقة من هذه ، لكان فاسداً .

وقوله : [مَقِيلًا] ، ذهب ابن عباس رضي الله عنهما ، والنَّخعي ، وابن جريج إلى أن حساب الخلق يكمل في وقت ارتفاع النهار ومَقِيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، فالمقيل من القائلة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن اللفظة إنما تضمنت تفضيل الجنة جملة وحُسْنَ هوائها ، والعربُ تفضل البلاد بحُسْنِ المقيل ؛ لأن وقت القيلولة يبدو فيه فساد هواء البلاد ، فإذا كان بلدٌ في وقت فساد الهواء حَسَناً

(١) المَدَرَةُ : واحدة المَدَرِ ، وهو قطع الطين اليابس ، وقيل : الطين العلك الذي لا رمل فيه .

جاز الفضل، ومن ذلك قول الأَسود بن يَعْفُر الإيادي :

أَرْضٌ تَخَيَّرَهَا لَطِيبِ مَقِيلِهَــــا   كَعْبُ بْنُ مامَةَ وابن أُمِّ دُوَّادِ[١]

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ ، يريد يوم القيامة عند انفطار السماء ونزول الملائكة ووقوع الجزاء بحقيقة الحساب ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [تَشَّقَّقُ] بشدِّ الشِّين والقاف ، وقرأ الباقون بتخفيف الشِّين ، وقوله : [بِالْغَمَام] ، أي : تشقَّق عنه ، والغمام : سحاب رقيق أبيض جميل لم يره البشر بعد إلَّا ما جاء في تظليل بني إسرائيل . وقرأ جمهور القراء : ﴿ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ بضم النون وشد الزاي المكسورة ورفع [ٱلْمَلَائِكَة] على مفعول لم يُسَمَّ فاعله ، وقرأ أبو عمرو في رواية عبد الوهاب : [وَنُزِلَ] بتخفيف الزاي المكسورة ، قال أبو الفتح : وهذا غير معروف ؛ لأَن (نَزَل) لا يتعدى إلى مفعول فيبنى هنا للملائكة ، ووجهه أن يكون مثل :

---

(١) الأسود بن يَعْفُر شاعر جاهلي فصيح ، كان ينادم النعمان ، ولما أسَنّ كُفَّ بصره ، وبيتُه من المفضَّلية ٤٤ ، وهي من مختار الشعر ، وفيه يصف بلاد إياد بأنها طيبة المقيل ، ولهذا اختارها كعب بن مامة ، وابن أمّ دُوَّادِ ـ وكعب مشهور بالجود عند العرب ، فقد آثر بنصيبه من الماء رفيقه النَّمَري فمات عطشاً ، وضرب به المثل في الجود ، (راجع الشعر والشعراء)، وابن أمّ دُوَّاد هو أبو دُوَّاد الإيادي جاريةُ بنُ الحجاج ، وكان في عصر كعب بن مامة، ويقال إن كعب بن مامة أجار أبي دُوَّاد حين أخافه بعض الملوك فضُرب المثل بجار أبي دُوَّاد ، قال طرفة :

إنّي كَفَــاني مِنْ هَمٍّ هَمَمْتُ بِهِ   جارٌ كجارِ الحُذَاقِيِّ الذي انْتَصَفَــا

والحُذَاقِيُّ هو أبو دُوَّاد ، وحُذَاقُ قبيلة من إياد .

«زُكِمَ الرجل وجُنَّ» ، فإنه لا يقال إلَّا أَزْكَمه الله وأَجَنَّه ، وهذا باب سماع لا قياس (١) ، وقرأ أبو رجاءٍ : [وَنَزَّل] بفتح النون وشدِّ الزاي ، وقرأ الأعمش : «وأَنْزل الملائكة» ، وكذلك قرأ ابن مسعود ، وقرأ أُبيٌّ بن كعب : «ونَزَلت الملائكة» ، وقرأ ابن كثير وحده (٢) : «ونُنَزِّل الملائكة» بنونين ، فهي قراءة أهل مكة ، ورويت عن أبي عمرو ، وقرأ هارون عن أبي عمرو : «وَنَزَّل الملائكةُ» بإسناد الفعل إليها ، وقرأت فرقة : «وينزل الملائكة» ، وقرأ أُبيٌّ بن كعب أيضاً : «وتَنَزَّلت الملائكة» .

وقرَّر أن المُلْك الحق المبين هو يومئذ للرحمن ؛ إذ قد بطل في ذلك اليوم كل ملك . وعسيرُهُ على الكافرين يُوَجَّه بدخول النار عليهم فيه ، وما في خلال ذلك من المخاوف ، وقوله : ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

---

(١) ويقول أبو الفتح أيضاً بعد ذلك : «فإمَّا أن يكون ذلك لغة لم تقع إلينا ، وإما أن يكون على حذف المضاف ، يريد : ونُزِلَ نُزُولُ الملائكة ، ثم حذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه ، فأقام [الملائكة] مقام المصدر الذي كان مضافاً إليها ، كما فعل الأعشى في قوله :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبِتَّ كما باتَ السَّليمُ مُسَهَّدَا ؟

فهو يريد : اغتماض ليلة أرمد ، فنصب (ليلة) إذاً إنما هو على المصدر لا على الظرف ، لأنه لم يرد : ألم تغتمض عيناك في ليلة أرمد ، وإنما أراد : ألم تغتمض عيناك من الشوق والأسف اغتماضاً مثل اغتماض ليلة رمد العين» .

(٢) يعني وحده من السبعة .

دليل على أن ذلك اليوم سهلٌ على المؤمنين ، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله تعالى ليهوّن يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا) [1] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

[يَوْمَ] ظرف العاملُ فيه مضمر ، و «عضُّ اليدين» هو فعل النادم الملهوف المتفجع ، وقال ابن عباس وجماعة من المفسرين : [الظَّالِمُ] في هذه الآية عُقبة بن أبي معيط ؛ وذلك أنه أسلم أو جنح للإسلام ، وكان أُبي بن خلف الذي قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده يوم أُحد خليلا لعُقبة ، فنهاه عن الإسلام ، فقبل نهيه ، فنزلت الآية

(1) أخرجه أحمد في مسنده (٣-٧٥) ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولفظه : (قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ، ما أطول هذا اليوم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إنه ليُخَفَّف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا) .

فيهما ، فالظالم عُقبة ، وفلانٌ أُبيّ . وفي بعض الروايات عن ابن عباس أَن الظالم أُبيّ ، فإنه كان يحضر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهاه عُقبة ، فأَطاعه .

قال القاضي أبو محمد رحمهُ الله :

ومن أَدخل في هذه الآية أُمَيَّةَ بن خلف فقد وهم ، إلَّا على قول من يرى [الظَّالم] اسم جنس .

وقال مجاهد ، وأَبو رجاءٍ : الظالم : اسمُ جنس ، وفلان : الشَّيطان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويظهر لي أن [الظَّالم] عامٌّ ، وأَن مقصد الآية تعظيم يوم يتبرَّأُ فيه الظالمون من خلانهم الذين أمروهم بالظلم ، فلما كان خليلُ كل ظالم غيرَ خليل الآخر ، وكان كل ظالم يسمي رجلا خاصاً به عبَّر عن ذلك بـ «فُلان» الذي فيه الشياع التَّام ، ومعناه واحد عن الناس ، وليس من ظالم إلا وله في دنياه خليلٌ يعينه ويحرِّضه ، هذا في الأَغلب ، ويشبه أَن سبب الآية وترتُّب هذه المعاني كان عُقبةً وأُبَيًّا ، وقوله : ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ يُقَوِّي ذلك بأَن نجعل تعريف[الرَّسُول] للعهد ، والإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى التأْويل الأَول التَّعريفُ للجنس .

وكلُّهم قرأَ [لَيْتَنِي] ساكنة الياءِ غير أَبي عمرو فإنه حرَّكَ الياءَ ﴿لَيْتنيَ ٱتَّخَذْتُ﴾ ، ورواها أَبو حامد عن نافع مثل أَبي عمرو ،

و «السَّبِيلُ» المتمنَّاة هي طريق الآخرة . وفي هذه الآية لكل ذي نُهْية [١] تنبيه على تجنُّب قرين السوء ، والأحاديث والحكم في هذا الباب كثيرة مشهورة [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ الياءُ فيه [٣] عِوَض عن الياء في : يا وَيْلَتِي ، والألف هي التي في قولهم : يا غُلاما ، وهي لغة ، وقرأت فرقة بإمالة : ﴿ يَا وَيْلَتِي ﴾ ، قال أبو علي : وترك الإمالة أحسن ؛ لأن أصل هذه اللفظة الياءُ «يا وَيْلَتِي» ، فبدلت الكسرة فتحة والياءُ ألفاً فِراراً من الياء ، فمن أمال رجع إلى الذي فرَّ عنه أولا .

و [ٱلذِّكْر] هو ما ذكر به الإنسان أمر آخرته من قرآن أو موعظة ونحوه ، ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ يحتمل أن يكون من قول

---

(١) النُّهْيَة : العَقْلُ .

(٢) من ذلك ما روي في الصحيح من حديث أبي موسى (واللفظ لمسلم) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يُحْذِيَكَ ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحاً خبيثة) ، وذكر أبو بكر البزَّار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله ، أيُّ جلسائنا خير ؟ قال : (من ذكَّركم بالله رؤيتُه ، وزاد في علمكم منطقُه ، وذكركم بالآخرة عملُه) . ولقد أحسن من قال :

تَجَنَّبْ قرينَ السُّوء واصْرِمْ حبالَـــهُ ... فإنْ لمْ تَجِدْ عنْهُ مَحيصاً فَـدَارِهِ

وأحْبِبْ حَبيبَ الصِّدْقِ واحْذَرْ مراءَه ... تَنَلْ منْهُ صفْوَ الوُدِّ ما لم تُمَـارِهِ

وقال آخر :

اصْحَبْ خيارَ النَّاسِ حيثُ لَقِيتَهـم ... خير الصَّحَـابة مَن يكونُ عَفِيفـا

(٣) الصواب أن يقال : الفتحة فيه عوض عن الياء ، لأن الياء ذهبت ، وجاءت بدلا منها الفتحة لتناسب الألف ، ويؤيد هذا كلامُ أبي عليٍّ بعد ذلك .

الظالم ، ويحتمل أن يكون ابتداءَ إخبار من الله تعالى على جهة الدلالة على وجه ضلالهم ، والتحذيرِ من الشيطان الذي بلغ ثَمَّ ذلك المبلغ .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ ﴾ حكاية عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الدنيا ، وتَشَكِّيه ما يلقاه من قومه ، هذا قول الجمهور ، وهو الظاهر . وقالت فرقة : هو حكاية عن قوله ذلك في الآخرة . وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو : [قَوْمِيَ] بتحريك الياء ، والباقون بسكونها . و [مَهْجُوراً] يحتمل أن يريد : مُبعداً مَقْصِيًّا ، [ويحتمل أن يكون] من الهُجْر بضم الهاء (١) إشارة إلى قولهم : شعر وكهانة وسِحْر ، هذا قول مجاهد ، والنَّخعي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويقول ابن زيد : هو تنبيه للمؤمنين على ملازمة المصحف ، وألا تكون الغَبَرة تعلوه في البيوت وتشتغل بغيره ، وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من علَّق مصحفاً ولم يتعاهده أتى

---

(١) ما بين العقفتين زيادة لابدَّ منها لسلامة المعنى ، فإن قوله : « بضم الهاء » لا يستقيم مع المعنى الذي ذكره سابقاً ، وهو أنه يريد من [مَهْجُوراً] مُبعداً ومَقْصِياً ، لأن ذلك يكون من الهَجْر بفتح الهاء ، وهو ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط ، أما الهُجْر بضم الهاء فيترتب على معنى آخر هو ما ذكره مجاهد في تفسيره « يَهْجُرُون فيه بالقول ، يقولون : سحر » ، وهذا يتفق مع قول ابن عطية بعد ذلك : « إشارة إلى قولهم : شعر وكهانة وسِحْر » . ويستقيم المعنى بما زدناه بين العَقْفَتين .

يوم القيامة معلقاً به ، يقول : هذا اتخذني مهجوراً ، اقْض يا ربّ بيني وبينه) (١) .

ثمَّ آنسه عن فعل قومه بأن أعلمه أن غيره من الرسل كذلك امتُحن بأعداء في زمنه ، أي : فاصبر كما صبروا ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، و [عَدُوًّا] يريد به الجمع ، تقول : «هؤلاءِ عدوٌّ لي» ، فتصف به الجمع والواحد والمؤنث ، ثم وعده تعالى بقوله : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ ، والباءُ في [بِرَبِّكَ] للتأكيد ، دالة على المعنى ، إذ هو : اكتف بربك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

رُوي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وغيره أن كفار قريش قالوا في بعض معارضاتهم : لو كان هذا القرآن من عند الله تعالى لنزل

---

(١) في «روح المعاني ، والبيضاوي» جاء النّص : (مَن تعلّم القرآن وعلق مصحفه ولم يتعاهده ، ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به ، يقول : ياربَّ العالمين ، إن عبدك هذا اتخذني مهجوراً ، فاقض بيني وبينه) ، على أن العلماء قد تكلموا في صحة هذا الحديث ؛ لأن في سنده أبو هُدْبة ، وهو كذاب .

جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل ، وقوله : [كَذَٰلِكَ] يحتمل أن يكون من قول الكفار ، [ويحتمل أن يكون مستأنفاً من كلام الله تبارك وتعالى لا من كلامهم][(١)] ، وهو أَوْلى ، ومعناه : كما نزل أردناه ، فالإشارة إلى نزوله متفرقاً ، وجُعل الله تعالى السبب في نزوله متفرقاً في الزمان تثبيت فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ، وليحفظه . وقال مكيٌّ ، والرُّمَّانيّ: من حيث كان أُمِّيًّا لا يكتب ، وليطابق الأسباب المؤقتة ، فنزل في نيّف وعشرين سنة ، وكان غيره من الرسل يكتب فنزل جملة واحدة ، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : [لِيُثَبِّتَ] بالياء . و «التَّرْتيلُ» : التفريق بين الشيء المتتابع ، ومنه قولهم : بقر رَتَلٌ ، ومنه ترتيل القراءة[(٢)]. وأراد الله تبارك وتعالى أن يُنَزل القرآن في النوازل والحوادث التي قدَّرها وقدَّر نزوله فيها .

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء الكفرة لا يجيئون بِمَثَلٍ - يضربونه على جهة المعارضة - مُبْهَمٍ - كتمثيلهم في هذه بالتوراة والإنجيل - إلَّا جاء القرآن بالحق في ذلك ، أي بالذي هو حقٌّ ، ثم هو أحسن تفسيراً ، أو أفصح بياناً وتفصيلا . ثم أوعد الله تعالى الكفار بما ينزل بهم

---

(١) ما بين العقفتين زيادة لا بُدَّ منها حتَّى يستقيم المعنى .

(٢) جاء في (اللسان - رتل) : «رَتَّل الكلام : أحْسن تأليفه وأبانه وتمهَّل فيه ، والترتيل في القراءة : التَّرسُّل فيها والتَّبْيين من غير بغي ، وفي صفة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : كان يُرَتِّل آيةً آيةً» . والعلماءُ على أن ترتيل القرآن هو تنزيله مفرقاً بعضه إثر بعض . وأما قولهم : «بَقَر رَتَل» فهو من الرَّتَل ، وهو حُسْن تناسق الشيء .

يوم القيامة من الحشر على وجوههم إلى النار . وذهب الجمهور إلى أن هذا المشي على الوجوه حقيقة ، ورُوي في ذلك – من طريق أنس ابن مالك رضي الله عنه – حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له رجل : يا رسول الله ، كيف يقدرون على المشي على وجوههم ؟ (قال : إن الذي أقدرهم على المشي على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم)[١]. وقالت فرقة : المشي على الوجوه استعارة للمذلة المفرطة والهوان والخزي ، وقوله تعالى : ﴿ شَرٌّ مَكَاناً ﴾ القول فيه كالقول في قوله تعالى : ﴿ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾

هذه الآيات التي ذكر فيها الأُمم هي تمثيل لهم وتوعُّد بأن يحل بهم ما حلّ بهؤلاء المعذّبين ، و [ٱلْكِتَاب] : التوراة ، و «ٱلْوَزِير» :

(١) الحديث في تفسير الطبري ، رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه من عدّة طرق .

المُعين ، وهو من تحمُّل الوزْر ، أَي ثقل الحال ، ومن الوَزَر الذي هو الملجأ[١] ، و ﴿ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا ﴾ هم فرعون ومَلَئِهِ من القبط ، ثم حذف من الكلام كثيراً دلَّ عليه ما بقي ، وتقدير المحذوف : فَذَهبا فَأَدَّيا الرسالة فكذبوهما فدمَّرْناهم . وقرأ عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، ومسلمة بن محارب : [فَدَمِّرَانِّهِمْ] ، أَي : كونا سبب ذلك ، قال أَبو الفتح : أَلْحَقَ نون التوكيد أَلف التَّثنية ، كما تقول لرجل : اضربانٍّ زيداً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وروي عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه : [فَدَمِّراهم] ، وحكى عنه أَبو عمرو الدَّاني : [فَدَمِرْناهُمْ] بكسر الميم خفيفة ، قال : وروي عنهم : ﴿فَدَمِّروا بِهِمْ﴾ على الأَمر لجماعة وبزيادة باءٍ ، والذي فسَّر أَبو الفتح وهم ، وإنما القراءة : ﴿فَدَمِّرُوا بِهِمْ﴾ بالباءِ ، وكذا ذكرها المهدوي.

ونُصِب قوله : [قَوْمَ] بفعل مضمر يدلُّ عليه [أَغْرَقْناهُمْ][٢] ،

---

(١) قال في (اللسان — وزر) : «الوَزَرُ : الملجأ ، وأصل الوزر الجبل المنيع ، وكل معقل وَزَر ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ كلاَّ لا وَزَرَ ﴾ .

(٢) في نصب [قَوْمَ] أربعة أقوال : العطف على الهاء والميم من [فَدَمَّرْنَاهُمْ] ، أو بإضمار : اذْكُر ، أو بإضمار فعل يفسِّرُه ما بَعْدَه ، والتقدير : وأغْرَقْنَا قوم نوح أغرقناهم ، والرابع أنه منصوب بـ [أغْرَقْناهُمْ] ، قاله الفراء ، وردَّه النحاس ؛ لأن «أغْرَقْنَا» ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل في المضمر ، وفي قوم نوح ، واعترض أبو حيان على الإعراب الثالث هنا ، وقال : الظَّاهر أنَّ [أغْرَقْنَاهُمْ] جواب [لمَّا] فلا يُفَسِّر ناصباً لِقَوْم . أما إن كانت [لمَّا] ظرفاً فإنه يجوز .

وقوله تعالى : [ٱلرُّسُلَ] وهم إنما كذبوا نوحاً فقط معناه أن الأُمة التي تكذب نبيًّا واحداً ففي ضمن ذلك تكذيب جميع الأَنبياء ، فجاءَت العبارة بما تضمنه فعلهم تعبيراً في القول عليهم ، وقوله تعالى : [آيَةً] أي علامةً على سطوة الله تبارك وتعالى بكل كافر بأَنبيائه .

﴿ وَعَاداً وَثَمُوداً ﴾ يُصرف ولا يصرف ، وجاءَ ها هنا مصروفاً ، وقرأَ ابن مسعود ، وعمرو بن ميمون ، والحسن ، وعيسى : [وَعَاداً] مصروفاً ، [وَثَمُودَ] غير مصروف . واختلف الناس في ﴿ أَصْحَابَ ٱلرَّسِّ ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم قوم من ثمود ، وقال قتادة : أَهل قرية من اليمامة يقال لها : الرَّسُّ ، وقال كعب ، ومقاتل ، والسُّدي : الرَّس : بئر بأَنطاكية الشام ، قُتل بها صاحب ياسين[(١)] ، وقال الكلبي : أَصحاب الرَّسِّ قوم بُعث إليهم نبيٌّ فأَكلوه ، وقال قتادة : أَصحاب الرَّسِّ وأَصحاب الأَيْكة قومان أُرسل إليهم شعيب عليه السلام ، وقاله وهب بن مُنَبِّه ، وقال عليٌّ - في كتاب الثعلبي - : أَصحاب الرَّسِّ قوم عبدوا شجرة صنوبر يقال لها : «شاه درخت» رسُّوا نبيهم في بئر أَو قبر أَو معدن ، ومنه قول الشاعر :

سبقْتَ إلى فَــرَطٍ بَاهِــلٍ تَنَابِلَةٍ يَحْفُرُونَ الرِّسَاسَا[(٢)]

---

(١) قال في البحر المحيط : وهو حبيب النجار .

(٢) استشهد بالبيت صاحب (اللسان ـ رسس) مرتين : الأولى على أن الرَّسّ : البئر القديمة ، وأن جمعها : رساسٌ . وسُمِّيت بذلك لأن أهلها رسُّوا صاحبهم فيها ، أي =

وروى عكرمة ، ومحمد بن كعب القرظي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل الرَّسِّ المشار اليهم في هذه الآية قومٌ أخذوا نَبِيَّهم فرموه في بئر وأطبقوا عليه صخرة ، فكان عبْدٌ أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى ذلك البئر فيعينه الله على تلك الصخرة فيقلعها ، وهو مؤمن بذلك النبي ، فيعطيه ما يغذيه ، ثم يردّ تلك الصخرة ، إلى أن ضرب الله على أذن ذلك الأسود نوماً أربع عشرة سنة ، وأخرج أهل القرية نبيهم فآمنوا به في حديث طويل(١) . قال الطبري : فيمكن أنهم كفروا به بعد ذلك فذكرهم الله تعالى في هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ إبهامٌ لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى ، وقد تقدم شرح «القرن» ، وكم هو ، ومن هذا اللفظ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى – ويروى أن ابن عباس رضي الله عنهما قاله – : (كذب النَّسَّابون من فوق عدنان)(٢) ، لأن

= دسُّوه ، والثانية على أن كل بئر تُسمَّى عند العرب رَسًّا ، والفَرَط بالتحريك: المتقدم إلى الماء ، يتقدم الواردة فَيُهَيِّءُ لهم الأرسان والدلاء ، ويملأ الحياض ويستقي لهم ، والباهل : بالباء : المتردِّد بلا عمل ، ويروى بالنون بدلا من الباء ، والناهل – على هذا – هو العطشان ، وهو الذي شرب حتى ارتوى ، فهو من الأضداد ، والتَّنابلة – جمع تِنْبَال وتِنْبَل بكسر التاء ، وقيل : على وزن جعفر – والتِّنبل : الرجل القصير ، وهو رباعي على مذهب سيبويه ، والمذكور في اللسان هو الشطر الثاني فقط ، والبيت من قصيدة مشهورة للنابغة الجعدي يقول فيها :

لبِسْتُ أُناساً فَأَفْنَيْتُهُـــــــم وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ أُناسٍ أُناسَـــا

(١) أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي ، وفي ابن جرير زيادات عما ذكره ابن عطية هنا .

(٢) أخرج الحاكم في الكُنَى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انتهى إلى معدّ بن عدنان أمسك ، ثم يقول : كذب النسابون)، قال الله تعالى : ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ . (الدر المنثور) .

الله تبارك وتعالى أخبر عن كثير من الأمم والخلق ولم يخبر عن غيرهم . ثم قال الله تعالى : إن كلّ هؤلاء ضُرب له الأمثال ليهتدي فلم يهتد ، فتبَّرَهُ اللهُ ، أي أهلكه ، والتَّبارُ : الهلاكُ ، والتِّبْرُ : الذهب ، أي : المُكَسَّر المُفَتَّت ، ولذلك يقال لِفُتات الرُّخام والزُّجاج : تِبْر ، وقال ابن جرير : إن أصل الكلمة نبطي ، ولكن العرب قد استعملته .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

قال ابن عباس ، وابن جريج ، والجماعة : الإشارة إلى مدينة قوم لوط ، وهي (سَدُوم) بالشام ، و ﴿ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ حجارة السِّجِّيل ، وقرأ أبو السَّمال : [ٱلسُّوءِ] بضم السين المشددة ، ثم وقفهم على إعراضهم وتعرضهم لسخط الله تبارك وتعالى بعد رؤيتهم العبرة من تلك القرية ،

ثم حكم عليهم بأن كفرهم إنما أوجبه فساد معتقدهم في أمر الآخرة ، وأنهم لا يرجون البعث ، وكذلك لا يخافونه .

ثم حكي الله تعالى عنهم أنهم إذا رأوا محمداً صلى الله عليه وسلم استهزءوا به واحتقروه ، واستبعدوا أن يبعثه الله تعالى رسولا ، فقالوا ــ على جهة الاستهزاء ــ : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ ، وفي [بَعَثَ] ضمير يعود على [الَّذِي] حذفت اختصاراً ، وحسن ذلك في الصفة .

ثم آيَسَ[1] النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن كفرهم بقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَاهُ ﴾ الآية ، و المعنى : لا تتأسف عليهم ودَعهم لرأيهم ، ولا تحسب أنهم على ما تحب من التحصيل ، بل هم كالأنعام في الجهل بالمنافع ، وقلَّة التَّحَسُّس للعواقب ، ثم حكم بأنهم أَضلُّ سبيلا من حيث لهم الفَهْم وتركوه ، والأنعام لا سبيل لها إلى فهم المصالح ، ومن حيث جهالة هؤلاء وضلالتهم ، وهي في أمر أخطر من الأمر الذي فيه جهالة الأنعام . وقوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَاهُ ﴾ أي : جعل هواهُ مطاعاً فصار كالإله ، والهوى قائد إلى كل فساد ، والنفس أمارة بالسوء ، وإنما الصلاح إذا ائتمرت العقل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الهوى إله يُعبد من دون الله عزَّ وجلَّ ، وذكره الثعلبي ، وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ إِلَٰهَهُۥ هَوَاهُ ﴾ إلى ما كانوا

(١) قال في (اللسان ــ أيس) : « أَيِسْتُ منه آيَسُ يأساً : لغة في يَئِسْتُ منه أَيْأَسُ يَأْساً ، وآيَسَني منه فلان مثل : أَيْأَسَني » .

عليه من أنهم كانوا يعبدون حجراً ، فإذا وجدوا أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الثاني الذي وقع هواهم عليه . قال أبو حاتم : وروي عن رجل من أهل المدينة – قال ابن جني : هو الأعرج – «إلاهَةً هواهُ» ، والمعنى : اتخذ شمساً يستضيءُ بها ، إذ الشمس يقال لها : أُلَاهة ، ويصرف ولا يصرف[1] ، و «الوكيل» : القائم على الأمر الناهض به .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ معناه : انتبه ، والرؤية هنا رؤية القلب ، وأدغم عيسى بن عمر : ﴿ رَبِّك كَّيْفَ ﴾ ، قال أبو حاتم : والبيان أحسن ،

(١) قال صاحب البحر المحيط نقلا عن أبي الفتح : الإلاهَةُ : الشمس ، ويقال أُلاهة بالضَّمّ ، وهي غير مصروفة للعلمية والتأنيث ، لكنها لما كانت مما يدخلها لام المعرفة في بعض اللغات صارت بمنزلة ما كان فيه اللام ثم نزعت ، فلذلك صرفت وصارت بمنزلة النعوت فتنكرت » ، وروى أبو الفتح شاهداً على صرفها عن أبي عليّ قول مَيَّةَ بنت عُتْبَةَ ترثي أخاها :

تَرَوَّحْنَا مِن اللَّعْبَاءِ عَصْراً ... فَأَعْجَلْنَا الإلاهَةَ أن تَئُوبَا

وقال : « فتكون [إلاهَةً] هذه المقروءة منزوعاً منها حرف التعريف الذي في الإلاهة ، فتنكرت فصرفت » ، واللَّعباء : سبخة معروفة بناحية البحرين بحذاء القطيف وسيف البحر ، ويروى (قصرا) بدلا من (عصرا) ، ومعناها الدخول في العشي ، وهو اختلاط الظلام أيضاً .

و «مَدُّ الظِّلِّ» بإطلاق هو ما بين أول الإسفار إلى بزوغ الشمس ، ومن بعد مغيبها مدة يسيرة ، فإن في هذين الوقتين ظلٌّ ممدود على الأرض مع أنه نهار ، وفي سائر أوقات النهار ظلال متقطعة ، و «المَدُّ» و «الْقَبْضُ» مطرد فيها ، وهو عنديٌّ المراد في الآية ، والله أعلم .

ومن الظل الممدود ما ذكر الله تبارك وتعالى في هواء الجنة ؛ لأنها لما كانت لا شمس فيها كان ظلها ممدوداً أبداً ، وتظاهرت أقوال المفسرين على أن هذا الظل هو من الفجر إلى طلوع الشمس ، وذلك معترض بأن ذلك في غير نهار ، بل في بقايا الليل ، فلا يقال له ظل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ أي ثابتاً غير متحرك ولا منسوخ ، ولكنه جعل الشمس ونسخها إياه وطردها له من موضع إلى موضع دليلا عليه مبيناً لوجوده ولوجه العبرة فيه ، وحكى الطبري أنه لولا الشمس لم يعلم أن الظل شيء ، إذ الأشياء إنما تعرف بأضدادها .

وقوله تعالى : ﴿ قَبْضاً يَسِيراً ﴾ يحتمل أن يريد : لطيفاً ، أي : شيئاً بعد شيء في مرة واحدة لا بعنف ، قال مجاهد : ويحتمل أن يريد : معجلا ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يريد : سهلا قريب التناول .

قال الطبري : ووصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث تستر الأشياء وتغشاها ، و «السُّبات» ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرض فيشبه

النائم به ، والسبت : الإقامة بالمكان ، فكأن السبات سكونٌ مّا وثبوت عليه ، و «النُّشورُ» في هذا الموضع الإحياءُ ، شبَّه اليقظة به ليتطابق الإحياءُ مع الإماتة والتوفي اللذين يتضمنهما النوم والسبات ، ويحتمل أن يريد بالنشور وقت انتشار وتفرق لطلب المعاش وابتغاء فضل الله ، و ﴿ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً ﴾ وَمَا قبله من باب : ليلٌ نائم ونهار صائم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

قرأت فرقة : [ٱلرِّيَاح] ، وقرأت فرقة : [ٱلرِّيحَ] على الجنس ، فهي بمعنى الرياح ، وقد نسبنا القراءة في سورة الأعراف ، وقراءة الجمع أوجه[1]؛ لأن عرف «الريح» متى وردت في القرآن مفردة

---

(١) قال أبو حيان في البحر : «ولا يسوغ أن يقال : هذه القراءة أوجه ؛ لأن كلا من القراءتين متواتر» .

فإنما هي للعذاب ، ومتى كانت للمطر والرحمة فإنما هي رياح ؛ لأن ريح المطر تتشعب (وتتداءب)[١] وتتفرق وتأتي لينة من ها هنا وها هنا ، وشيئاً إثر شيء ، وريح العذاب حرجف[٢] لا تتداءب ، وإنما تأتي جسداً واحداً ، ألا ترى أنها تُحَطِّم ما تجد وتهدمه ؟ قال الرُّماني : جُمعت رياح الرحمة لأنها ثلاثة لواقح : الجنوب والصَّبا والشمال ، وأُفردت ريح العذاب لأنها واحدة ، ولا تلقح ، وهي الدَّبور .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

[وَيَرُدُّ] [٣] على هذا قولُ النبي صلى الله عليه وسلم إذا هبَّت الريح : (اللَّهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً)[٤]. واختلف القراء في [بُشْراً]

---

(١) هكذا في الأصول ، ونقلها أبو حيان في البحر أيضاً بهذا اللفظ ، ولا نجد لها هنا معنى ، فلعلها تحريف عن كلمة أخرى ، أو لعل معناها : تَستمر وتدوم وتُلازم .

(٢) الحَرْجَفُ من الرياح : الباردة الشديدة الهبوب مع جفاف ، ولَيْلَةٌ حرجف : باردةُ الريح . (المعجم الوسيط)

(٣) غير موجودة في الأصول ، ولكنها في البحر نقلا عن ابن عطية ، والمعنى هنا يقتضيها . وقد قال في البحر بعد أن نقل كلام ابن عطية عن التعارض بين الحديث وكلام الرماني : «لا يظهر ؛ لأنه يجوز أن يريد بقوله عليه الصلاة والسلام : (رياحاً) الثلاثةَ اللواقح ، وبقوله : (ريحاً) الدَّبورَ ، فيكون ما قاله الرُّماني مطابقاً للحديث على هذا المفهوم .

(٤) راجع الجزء الخامس ، صفحة ٥٣٧ .

في النون والباء[١] وغير ذلك اختلافاً قد ذكرناه في سورة الأعراف[٢]، و [نَشْراً] معناه : منتشرة متفرقة .

و «الطَّهُور» بناءُ مبالغة في (طاهر) ، وهذه المبالغة اقتضت في ماءِ السماءِ وفي كل ما هو منه وبسبيله أن يكون طاهراً ومُطَهِّراً ، فإذا أفرط التغيير بخلطه بالخبث لم يكن الماءُ طاهراً ولا مطهراً ، ووصف البلدة بالميت لأنه جعله كالمصدر الذي يوصف به المذكَّر والمؤنث ، وجاز ذلك من حيث «الْبَلْدَة» بمعنى «الْبَلَد» ، وقرأ طلحة بن مصرف : «لننشيء [٣] به بلدة ونُسْقِيَهُ» بضم النون ، وهي قراءة الجمهور ، ومعناه : نجعله لهم سقيا ، هذا قول بعض اللغويِّين في (أَسْقَى) ، قالوا : و (سَقَى) معناه للشَّفَةِ[٤]، وقال الجمهور : سَقَى وأَسْقَى بمعنى واحد ، وينشد على ذلك بيت لبيد :

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى نُمَيْراً والْقَبَائِلَ مِنْ هِلالِ[٥]

(١) لأن بعض القراء قرأها بالنون ، وبعضهم قرأها بالباء ، فمن قال بالنون مع ضم الشين جعله جمعاً لريح نَشُور كصبور ، ومن قرأ بالنون مع سكون الشين جعله من النَّشْر ، كقوله تعالى : ﴿ وَالنَّاشِرَاتُ نَشْراً ﴾ ، ومن قرأ بالباء مع ضم الشين جعله جمع ريح بشور ، أي تبشِّر بالمطر والخير ، ومن سكَّن الشين مع الباء فقد خفَّف كراهةً لتوالى ضمتين .

(٢) راجع الجزء الخامس ، صفحة ٥٣٥ وما بعدها .

(٣) هكذا في جميع الأصول .

(٤) في (اللسان ــ سقى) : «يقال : سقيته لشَفَتِهِ ، وأسْقيته لماشيته وأرضه .

(٥) سَقَى وأسْقَى هنا بمعنى واحد ، وقد استشهد اللسان بهذا البيت على ذلك ، ومَجْد : ابنة تيم بن غالب ، وهي أمُّ كلاب وكليب ابني ربيعة بن عامر ، وبسببها عُدَّ بنو عامر من الحُمْس ، لأنها قرشية .

وقرأ أبو عمرو : [نَسْقِيَهُ] بفتح النون ، وهي قراءة ابن مسعود ، وابن أبي عبلة ، وأبي حيوة ، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . و [أَنَاسِيَّ] قيل : هو جمع إنسان ، والياءُ المشددة بدل من النون في الواحد ، قاله سيبويه ، وقال المبرد : هو جمع إِنْسِيٍّ ، فكان القياس أن يكون (أَنَاسِيَة)(١)، كما قالوا في مهلبي : مهالبة(٢)، وحكى الطبريُّ عن بعض اللغويين في جمع إنسان : (أَنَاسِينَ) بالنون كسرحان وبستان ، وقرأ يحي بن الحارث «أناسِي» بتخفيف الياء .

والضمير في [صَرَّفْنَاهُ] قال ابن عباس ، ومجاهد : هو عائد على الماءِ المنزل من السماء ، والمعنى أن الله تبارك وتعالى جعل لهم إنزال الماءِ تذكرة بأن يصرفه عن بعض المواضع إلى بعض ، وهو كله في كل عام بمقدار واحد ، وقاله ابن مسعود ، وقوله ـ عَلَى هذا التأْويل ـ : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴾ أيْ في قولهم: بالأَنواءِ والكواكب ، قاله عكرمة ، وقيل : [كُفُوراً] على الإطلاق لما تركوا التذكر ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الضمير في [صَرَّفْنَاهُ] للقرآن ، وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأَمر ، ويعضد ذلك قوله بعد ذلك : ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾ ، وعلى التأْويل الأَول الضمير في [بِهِ] يُراد به

---

(١) في الأصول : «إنسانية» .

(٢) المثال الذي ذكر في كتب اللغة ، وعنها أخذ المفسرون ، وقاله الفراءُ في أحد قولين له هو : «جَمْع القُرْقُور على قَرَاقِيرَ وَقَرَاقِير» ، والقُرْقُور : ضرب من السفن ، وقيل : هو السفينة الكبيرة الطويلة .

القرآن على نحو ما ذكرناه . وقال ابن زيد : يرادُ به الإسلام . وقرأ عكرمة : [صَرَفْنَاهُ] بتخفيف الراء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، والكوفيُّون : [لِيَذْكُرُوا] بسكون الذَّال ، وقرأ الباقون : [لِيَذَّكَّرُوا] بشد الذَّال والكاف .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ الآية اقتضاب يدل عليه ما ذكرناه ، تقديره : ولكنا أفردناك واصطفيناك فلا تطع الكافرين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

اضطرب الناس في تفسير هذه الآية ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : أراد : بحر السماء والبحر الذي في الأَرض ، ورُتِّبت ألفاظ الآية على ذلك ، وقال مجاهد : البحر العذب هو مياه الأَنهار الواقعة

في البحر الأُجاج ، ووقوعها فيه هو مَرْجُهَا ، قال : والبرزخ والحجر هما(١) حاجز في علم الله تعالى لا يراه البشر ، وقاله الزّجاج ، وقالت فرقة : معنى [مَرَجَ] : أدام أحدهما في الآخر ، وقال ابن عباس : عَلَّى أحدهما على الآخر ، ونحو هذا من الأَقاويل التي تتداعى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي أقول في الآية : إن القصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى ، وإتقان خلقه للأَشياء ، في أن بث في الأَرض مياهاً عذبة كثيرة من أنهار وعيون وآبار ، وجعلها خلال الأُجاج ، وجعل الأُجاج خلالها ، فترى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفتيه ، وتَلْقى الماءُ في البحر — في الجزائر ونحوها — قد اكتنفه الماءُ الأُجاج ، فَبَثَّها هكذا في الأَرض ، وهو خلطها ، ومنه قوله : [مَرَجَ] ، ومنه ﴿في أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ (٢) و «الْبَحْرَان» يراد بهما جميع الماءِ العذب وجميع الماءِ الأُجاج ،

---

(١) في الأصل (هو) .

(٢) من الآية (٥) من سورة (قٓ) . ومن هذا المعنى — وهو الاختلاط والاضطراب — قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاص: (إذا رأيت الناس مَرِجَتْ عهودهم ، وخَفَّت أماناتهم ، وكانوا هكذا وهكذا) — وشَبَّكَ بين أصابعه — فقلت له : كيف أصنع عند ذلك ؟ جعلني الله فداك ، قال : (الزم بيتك ، وامْلِكْ عليك لسانك ، وخُذ بما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بخاصَّة أمر نفسك ، ودع عنك أمر العامة) . خرَّجه النسائي ، وأبو داود ، وغيرهما .

كأنه قال : مَرَجَ نَوْعَي الماءِ ، فالبَرْزخ والحِجْر هما[1] ما بين البحرين من الأَرض واليبس ، قاله الحسن ، ومنه القدرة التي تمسكهما مع قرب ما بينهما في بعض المواضع . وبكسر الحاءِ قرأَ الناسُ كلهم هنا ، والحسن بضم الحاءِ في سائر القرآن . و«البرزخ» : الحاجز بين الشيئين .

وقرأَ الجمهور : ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ ﴾ ، وقرأَ طلحة بن مصرّف : ﴿ وَهَٰذَا مَلِحٌ ﴾ بفتح الميم وكسر اللام ، قال أَبو حاتم : هذا منكر[2] في القراءَة ، وقال ابن جني : أَراد : مالحاً ، وحذف الأَلف ، كعَرِدٍ وبَرِدٍ[3]. و «الأُجاجُ» : أَبلغ ما يكون من الملوحة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ بَشَراً ﴾ الآية . هو تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم ، والتنبيه على العبرة في ذلك ،

---

(١) في الأصل (هو) .

(٢) في الأصل : «وهذا المنكر في القراءة» ، والتصويب عن المحتَسَب لابن جني ، فقد نقل كلام أبي حاتم .

(٣) يريد : كَعَرِدٍ وبَرِدٍ في قول الراجز :

أَصْبَحَ قَلْبِي صَــــرِدا لا يَشْتَهِي أَنْ يَـرِدا
إلا عَـراداً عَــرِدا وَصِلِّيَــاناً بَـــرِدا
وَعَنْكَثاً مُلْتَبِــدا

فإنه يريد : عارداً وبارداً ، فحذف الألف تخفيفاً ، وكذلك هنا حذف الألف من (مَالِحاً) تخفيفاً فصارت (مَلِحاً) ، قال : على أن (مالِحاً) ليست فصيحة صريحة ؛ لأن الأقوى في ذلك : ماءٌ مِلْحٌ ، ومثله من الأوصاف على فِعْل : نِضْوٌ ، وهِرْط – وهو اللحم المهزول – .

وتعديد النعمة في التواشج الذي بينهم من النسب والصهر ، وقوله : ﴿ مِنَ ٱلْمَاءِ ﴾ إما أن يريد أصل الخلقة في أن كل حيٍّ مخلوق من الماء ، وإما أن يريد نُطَف الرجال ، وكلٌّ من ذلك قالته فرقة ، والأول أفصح وأبين ، و «النَّسَب والصِّهر» معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميَّيْن ، فالنَّسب هو أنْ يجتمع إنسانٌ مع آخر في أَب أَو في أُمٍّ ، قَرُبَ ذلك أو بعد ذلك ، والصِّهر هو تواشج المناكحة ، فقرابة الزوجة هم الأَخْتان[1] ، وقرابة الزوج هم الأَحْماءُ[2] ، والأَصهار يقع عامًّا لذلك كله ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : النَّسب ما لا يحل نكاحه ، والصِّهر ما يحل نكاحه ، وقال الضَّحاك : الصِّهر قرابة الرضاع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك عندي وهم أوجبه أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «حُرِّم من النَّسب سبع ، ومن الصِّهر خمس» ، وفي رواية أُخرى : «ومن

---

(١) قال ابن الأعرابي : الأَخْتَانُ : أبو المرأة وأخوها وعَمُّها ، كما قال الأصمعي ، والصِّهر : زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمُّه ، وقال محمد بن الحسن : أَخْتَانُ الرَّجُلِ : أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته وكل ذات محرم منه ، وأصهارُهُ : كلُّ ذي رحم محرم من زوجته .

(٢) في المعجم الوسيط : حما المرأة : أبو زوجها ومن كان من قِبَلِهِ من الرجال . وحما الرجل : أبو امرأته ومن كان مِن قِبَلِهِ من الرجال ، والجمع : أحماء .

الصِّهر سبع » ، يريد قوله عزَّ وجلَّ : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ فهذا هو النَّسَب ، ثم يريد بالصِّهر قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ ٱلرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ ٱللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ ٱللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾(١)، ثم ذكر المحصنات ، ويحتمل هذا أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما أراد : حرم من الصهر ما ذُكر معه ، فقصد بـ (ما ذُكِرَ) إلى عُظْمه وهو الصِّهر(٢) ؛ لا أن الرضاع صِهْرٌ ، وإنما الرضاع عديل النَّسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأْثور فيه ، ومن روى : «وحُرِّم من الصِّهر خمس» أسقط من الآيتين الجمع بين الأُختين والمحصنات وهن ذوات الأَزواج .(٣) .

---

(١) الآية (٢٣) من سورة (النساء) .

(٢) في الأصل : «وهو القصد» ، والتصويب عن القرطبي ، فقد نقل العبارة كلها عن ابن عطية .

(٣) قال القرطبي بعد أن نقل كلام ابن عطية : «فابن عطية جعل الرضاع مع ما تقدم نسباً ، وهو قول الزجاج» .

وحكى الزهراوي قولا أن النَّسب من جهة البنين ، والصِّهر من جهة البنات ، قال الحسن : وهذا حسن وفي درج ما قدمته ، وقال ابن سيرين : نزلت هذه الآية في النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ لأنه جمعه به نسب وصهر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فاجتماعهما وِكادُ حرمة إلى يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ هي [كان] التي للدوام قبل وبعد ، لا أنَّها تعطي مضيًّا فقط .

ثم ذكر تعالى خطأهم في عبادتهم أصناماً لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعاً ، وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ فيه تأْويلان : أحدهما أن «الظهير» المعينُ ، فتكون الآية بمعنى توبيخهم على ذلك ، من أن الكفار يعينون على ربِّهم غيرَهم من الكفرة ، ويعينون الشيطان بأن يطيعوه ويظاهروه ، وهذا هو تأْويل مجاهد ، والحسن ، وابن زيد . والثاني ذكره الطبري في أن يكون «الظهير» فعيلا من قولك : «ظهرتُ الشيءَ» إذا طرحته وراءَ ظهرك واتخذته ظهريًّا ، فيكون معنى الآية على هذا التأْويل احتقار الكفرة [1]، و «الكافر» في هذه الآية اسم

---

(١) ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ ، أي : هيِّناً لا قيمة له ، وعليه جاء قول الفرزدق :

جنس ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بل هو مُعيَّن أراد به أبا جهل ابن هشام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويُشبه أن أبا جهل سبب الآية ، ولكن اللفظ عام للجنس كله .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ الآية ، تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي : لا تَهْتَم بهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حرصاً عليهم ، فإنما أنت رسول تُبشر المؤمنين بالجنة ، وتنذر الكافرين بالنار ، ولست بمطلوب بإيمانهم جميعاً .

ثم أمره تعالى بأن يحتَجَّ عليهم مُزيلا لوجوه التُّهم بقوله : ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ، أي : لا أطلب مالًا ولا نفعاً يختص بي ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾ ، الظاهر فيه أنه استثناءٌ منقطع ، والمعنى : لكن مسؤولي ومطلوبي من شاء أن يهتدي ويؤمن ويتخذ إلى رحمة ربه طريق نجاة فليفعل . وقال الطبري : المعنى : لا أسألكم أجْراً إلا إنفاق المال في سبيل الله ، فهذا هو المسئول ، وهو السبيل إلى الربِّ .

= تَميمَ بن قَيْسٍ لا تكُونَنَّ حَاجَتي بِظَهْرٍ فَلا يَعْيَا عَلَيَّ جَوابُهَـا

وقيل في معنى « ظهير » : وكان الكافر على ربِّه الذي يعبده – وهو الصنم – قوياً غالباً يعمل به ما يشاء ، لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر أو جلب نفع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالاستثناءُ ـ على هذا ـ كالمتَّصل ، وكأنه قال : إلَّا أجر من شاء[1] ، والتأويل الأول أظهر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴾

المعنى : قل لهم يا محمد هذه المقالة التي لا ظَنَّ ينصرف إليك معها ، ولا تُتَّهَم معها ، وبشِّر وأنذر وتوكَّل على الحيِّ الذي لا يموت ، فهو المتكفِّل بنصرك في كل أمرك ، ثم وصف تعالى نفسه بالصفة التي تقتضي التوكل في قوله : ﴿ ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ ؛ إذ هذا

---

(١) أي : الأجر الحاصل لي من الله على دعوته إلى الإيمان وقبوله هذه الدعوة ؛ لأن الله يأجرني على ذلك ، وقيل : التقدير : إلا أجر من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة . وقيل : المعنى : إلا أجْرَ مَنْ آمَنَ ، ويريد بالأجر الإنفاق في سبيل الله ، أي : لا أسألكم أجراً إلا الإنفاق في سبيل الله ، فجعل الإنفاق أجراً . قاله في البحر والقرطبي .

المعنى يختص بالله تبارك وتعالى دون كل ما في الدنيا مما يقع عليه اسمُ حيٍّ ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أي : قل سبحان الله وبحمده ، أي : تنزيهُه واجب ، وبحمده أقول .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قال في كل يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة غُفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر) [١] ، فهذا معنى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ ، وهي إحدى الكلمتين الخفيفتين على اللسان ، الثقيلتين في الميزان . وقوله تعالى : [وَكَفَى] توعُّد ، وإزالةٌ عن كاهل محمد صلى الله عليه وسلم في همٍّ بهم [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مع جمعه [ٱلسَّمَٰوَاتِ] ، فقيل : سائغ من حيث عادل لفظ [ٱلْأَرْض] لفظ [ٱلسَّمَٰوَات] ، ومنه قول عُمَيْر بن شُيَيْم :

أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنَّ حِبَالَ قَيْسٍ وتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعاً [٣]

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأحمد .

(٢) (كَفَى) في كلام العرب يراد بها المبالغة ، تقول : كفى بالعلم جمالا ، وكفى بالأدب مالا ، وفي بعض الأخبار : كفى بك ظفرا أن يكون عدوك عاصياً .

(٣) الشاعر هو القطامي ، عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبي ، وبيته هذا من قصيدته التي مدح بها زُفَر بن الحارث الكلابي الذي أسره ثم حماه من القتل ، ومَنَّ عليه ، ووهب له مائة ناقة ، وردَّه إلى قومه : فقال فيه :

أَكُفْراً بَعْدَ ردِّ المَوْتِ عَنِّي وبَعْدَ عَطَائِكَ المِائَةَ الرِّتَاعَا ؟ =

من حيث عادَلَ حبل حبالا ، ومنه قول الآخر :

إنَّ المَنِيَّةَ والْحُتُوفَ كِلَاهُمَا يُوفي الْمَخَارِمَ يَرْقُبانِ سَوَادي (١)

وقوله تعالى : ﴿ في سِتَّةِ أَيَّام ﴾ ، اختلفت الرواية في اليوم الذي ابتدأ الله تعالى فيه الخلق ـ فأكثر الروايات على يوم الأحد ، وفي مسلم وكتاب الدلائل : يوم السبت ، ويتبين من كون ذلك في ستة أيام وضع الأناة والتمهل في الأمور ؛ لأن قدرته تقتضي أنه يخلقها في طرفة عين لو شاء ، لا إله إلا هو ، وقد تقدم القول في الاستواء .

وقوله : [ٱلرَّحْمَٰنُ] يحتمل أن يكون رفعه بإضمار مبتدأ ، أي : هو الرحمٰن ، ويحتمل أن يكون بدلا من الضمير في قوله : [ٱسْتَوَىٰ] ، وقرأ زيد بن علي بن الحسين : [ٱلرَّحْمَٰنِ] بالخفض (٢) .

= والشاهد في البيت هنا أن الشاعر قال (تَبَايَنَتَا) بالتثنية مع أن كلمة (حبال) جمع ، وذلك لأنه جعل حبال قيس جماعة ، وحبال تغلب جماعة أخرى فأعاد الضمير باعتبارهما صنفين أو مجموعتين ، وهذا هو مراد المؤلف بقوله : « حيث عادل حبل حبالا » ، فقد قدَّر لتغلب حبلا ، وقدَّر الكلامَ : « أن حبال قيس وحبل تغلب » ، ثم جاءت المعادلة بين النوعين والشيئين .

(١) البيت للأسود بن يَعْفُر ، وهو من المفضلية (٤٤) ، والشاهد موجود في الشطر الأول ، وهو أن الشاعر عادل لفظ الموت بلفظ الحتوف ، فأعاد الضمير عليهما باعتبارهما صنفين أو شيئين فقال : كلاهما ، مع أن الأول مفرد والثاني جمع ، كما جاء التعادل في الآية الكريمة بين لفظ [الأرض] وهو مفرد ، ولفظ [السَّموات] وهو جمع . وسوادي : شخصي .

(٢) في قراءة الرفع يجوز على مذهب الأخفش أن يكون [الرَّحْمنُ] مبتدأ و [فاسْأَلْ] خبره ، على حدِّ قول الشاعر : « وقائلة خَوْلان فانكح فتاتهم » .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما : فاسأل عنه ، و [خَبِيراً] – على هذا – منصوب بوقوع السؤال عليه ، والمعنى : اسأل جبريل والعلماء وأهل الكتب المنزلة . والثاني أن يكون المعنى كما تقول : لو لقيتَ فلاناً لَلَقيتَ به البحر كرماً ، أي : لقيتَ منه ، والمعنى : فاسأل الله عن كل أمر ، و [خَبِيراً] – على هذا – منصوب إمّا بوقوع السؤال ، وإمّا على الحال المؤكدة ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً ﴾(١) ، وليست هذه بحال مُتَنَقِّلة ؛ إذ الصِّفة العَلِيَّة لا تتغير (٢) .

ولما ذكر [ٱلرَّحْمٰن] في هذه الآية كانت قريش لا تعرف هذا في أسماء الله تبارك وتعالى ، وكان مسيلمة كذّاب اليمامة تَسمَّى بالرحمن ، فتغالطت قريش بذلك ، وقالت : إن محمداً يأمر بعبادة رحمن اليمامة ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وَمَا ٱلرَّحْمٰنُ ﴾ ؟ استفهامٌ عن مجهول عندهم ، ف [مَا] على بابها المشهور . وقرأ جمهور القراء : [تَأْمُرُنا] بالتاء ، أي أنت يا محمد ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، والأسود بن يزيد ، وابن مسعود : [يَأْمُرُنَا]

---

(١) قال في البحر : «كونه منصوباً على الحال المؤكدة على هذا التقدير لا يصح ، إنما يصح أن يكون مفعولا به» . وهو من الآية رقم (٩١) من سورة (البقرة) .

(٢) هذا رأي المهدوي ، قال : لا يصح أن تكون حالا ، لا من الفاعل ولا من المفعول ، والحال في أغلب أمرها تتغير وتنتقل ، لكن إذا حملناها على أنها حال مؤكدة جاز ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً ﴾ .

بالياءِ من تحت ، إمَّا على إرادة محمد صلى الله عليه وسلم ، والكناية عنه بالغيبة ، وإمَّا على إرادة رحمٰن اليمامة ، وقوله تعالى : [وَزَادَهُمْ] أي : أَضَلَّهُمْ هذا اللفظ ضلالًا يختص به حاشى ما تقدم منهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾

لما جعلت قريش سؤالها عن الله تعالى وعن اسمه الذي هو الرحمٰن سؤالًا عن مجهول نزلت هذه الآية مصرحةً بصفاته التي تُعرِّف به ، وتُوجب الإقرار بألُوهيته . و « البروج » هي التي علمتها العرب بالتجربة وكلُّ أُمة مُصْحِرة[١] ، وهي الشهور عند اللغويِّين وأَهل تعديل الأَوقات ، وكل برج منها على منزلتين وثلث من منازل القمر التي ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾[٢] ، والعرب تُسمي

(١) البروج المعروفة هي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت .

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (يٰس) .

البناء المرتفع المستغني بنفسه برجاً تشبيهاً ببرج السماء ، ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾[1] ، وقال الأخطل :

كَأَنَّهَا بُرْجُ رُومِيٍّ يُشَيِّـــدُهُ بانٍ بِجِصٍّ وَآجُرٍّ وَأَحْجَارِ [2]

وقال بعض الناس في هذه الآية التي نحن فيها : البروج : القصور في الجنة ، وقال الأعمش : كان أصحاب عبد الله يقرءونها : «في السماء قصوراً » ، و قيل : البروج : الكواكب العظام ، حكاه الثعلبي عن أبي صالح ، وهذا غير ما بيَّنَّاه إلَّا أنه غير مخلّص ، والقول بأنها قصور في الجنة يحط من غرض الآية في التنبيه على أشياء مدركات تقوم بها الحجة على كل منكرٍ للهِ أو جاهل به .

وقرأ الجمهور : [سِرَاجاً] ، وهي الشمس ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعبد الله بن مسعود ، وعلقمة ، والأعمش : [سُرُجاً] ، وهو اسم جميع الأنوار ، وقد خصَّ القمر بالذكر تشريفاً ، وقرأ النَّخَعي ، وابن وثاب ، والأعمش أيضاً : [سُرْجاً] بسكون الراء ، قال أبو حاتم ، وروى عصمة عن الحسن : [وَقُمْراً] بضم القاف ساكنة الميم ، ولا أدري

---

(١) من الآية (٧٨) من سورة (النساء) .

(٢) البيت في وصف الناقة ، يُشَبِّهها في ضخامتها بالقصر الكبير المرتفع ، وهذا كثير في كلام العرب ، وشيَّد البناء : رفعه وعلاه ، أو طَلاه بالشِّيد ، وهو كل ما طُلِيَ به البناء ، والشاهد في البيت أن البرج هو البناء المرتفع المستغني بنفسه .

ما أراد إلا أن يكون جمعاً كثَمَر وثُمُر ، قال أبو عمرو : وهي قراءة الأعمش ، والنَّخَعي (١) . وقوله : [خِلْفَةً] أي : هذا يخلف هذا ، ومن المعنى قول زهير :

بِهَا الْعِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَـــةً وَأَطْلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ (٢)

ومنه قول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء لمنزل في الصيف دأباً :

ولها بالْمَاطِـــرُونِ إذَا أَكَلَ النَّمْلُ الذي جَمَعَا
خِلْفَةً حتَّى إذا ارتَبَعَتْ سَكَنَتْ من جِلَّقٍ بِيَعَـا
في بُيوتٍ وَسْط دَسْكَرَةٍ حَوْلَهَا الزَّيتُونُ قَدْ يَنَعَا (٣)

---

(١) في البحر أن عِصْمة قرأها عن عاصم لا عن الحسن وفي القرطبي – عصمة عن الأعمش ، وقال في البحر : «والظاهر أنه لغة في القمر كالرَّشَد والرُّشْد والعَرَب والعُرْب» ، وقيل : جمع قمراء ، أي ليلة قمراء ، كأنه قال : «وذا قمر منير» ؛ لأن الليلة تكون قمراء بالقمر ، فأضافه إليها ، ونظيره في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه قول حسَّان : (بَرَدَى يُصَفَق بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ) ، يريد : ماء بَرَدَى ، لأنه لو لم يراع المضاف لقال : تُصَفَّق بالتاء .

(٢) العِينُ : البقر ، واحدها أعْيَن وعيناء ، سُمِّيت عيناء لِسَعَة عينها ، والآرام : الظباء البيض الخوالص البياض ، والواحد ريم ، وخِلْفَةً معناه : إذا مَضَى فوج جاء فوج آخر خَلَفَه في مكانه ، وحَكَى يعقوب عن بعض اللغويين أن المعنى : مُخْتَلِفَة ، يريد أنها تَتَردَّد في كل وجْهٍ ، وهذا علامة الأمن والخصب ، والطَّلا : ولد البقرة والظبي والشاة ، والمَجْثَم : الموضع الذي يجثم فيه الحيوان ، ويروى المجثَم بفتح الثاء على أنه اسم من جَثَم يَجْثُم ، ويروى بكسر الثاء فهو الاسم من جَثَم يَجْثِم .

(٣) الأبيات ليزيد بن معاوية ، وهي من مقطوعة قالها يتغزل في امرأة نصرانية ، كانت قد ترهبت في دير عند بستان بظاهر دمشق يسمَّى الماطرون ، وخِلْفَة باللام: ما يطلع من =

وقال مجاهد : [خِلْفَةً] من الخلاف ، هذا أبيض وهذا أسود ، نحو ما قدمناه ، وقال مجاهد وغيره : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ﴾ أي : يعتبر بالمصنوعات ويشكر الله تبارك وتعالى على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والحسن ، وابن عباس : معناه : لمن أراد أن يذكر ما فاته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما فيستدركه في الذي يليه ، وقرأ حمزة وحده [1] : [يَذْكُرَ] بسكون الذال وضم الكاف ، وهي قراءة ابن وثاب ، وطلحة ، والنَّخَعي ، وقرأ الباقون : [يَذَّكَّرَ] بشد الذال ، وفي مصحف أبي بن كعب : [يَتَذَكَّر] بزيادة تاءٍ .

ثم لمَّا قال تعالى : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ جاءَ بصفة عباده الذين هم أَهْلُ التذكُّر والشكور ، و «العباد» و «العبيد»

= الثمر بعد الثمر ، وهي رواية البغدادي في الخزانة ، والعيني عن ابن القوطية ، والطبري والقرطبي في تفسيريهما ؛ ورواها المبرد في الكامل : (خُرْفة) بالخاء المضمومة والراء ، وهو ما يُخترف ويُجْتنى . وارتبعت : دخلت في الربيع ، ويروى ذكرت بدلا من سكنت ، وجلَّق : مدينة بالشام ، يقال إنها دمشق ، والبِيَع : جمع بِيعَة بكسر الباء ، وهي مكان التعبد عند اليهود ، ولكن هذا لا يتفق مع ما قاله البغدادي من أن المرأة كانت نصرانية ، والدَّسْكرة : القرية العظيمة ، وجمعها دساكر ، ويَنَعَ الثَّمر : أَدْرَك وطاب وحان قطافه . يقول الشاعر : إن هذه المرأة تتردَّد بين الماطرون حيث تفد إليه في الشتاء حين يأكل النمل ما جمعه في الصيف ، وبين بيع العبادة في دمشق إذ جاء الربيع حيث تقيم في بيوت تقع وسط قرية كبيرة قد أينعت حولها ثمار أشجار الزيتون وحان قطافها .

(1) يعني من السبعة المعروفين في القراءات .

بمعنى ، إلا أن العبادَ تستعمل في مواضع التنويه ، وسُمي قومٌ من عبد القيس العبادَ لأن كسرى ملكهم دون العرب ، وقيل : لأنهم تألّهوا مع نصارى الحيرة وصاروا عباداً لله ، وإليهم ينسب عديٌّ بن زيد العِبَادي ، وقرأ الحسن : «وعُبُد الرحمٰن» ، ذكره الثعلبي ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ ﴾ خبر ابتداء ، والمعنى : وعباده حق عباده هم الذين يمشون ، وقوله : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً ﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم ، فذكر من ذلك المعظم ، لاسيما وفي ذلك الانتقال في الأرض معاشرةُ الناس وخلطتهم ، ثم قال : [هَوْناً] بمعنى أَمْرُه كله هون ، أي لَيِّنٌ حسن ، قال مجاهد : بالحلم والوقار ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بالطاعة والعفاف والتواضع ، وقال الحسن : حلماً ، إن جُهل عليهم لم يجهلوا ، وذهبت فرقة إلى أنَّ [هَوْناً] مرتبط بقوله تعالى : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أن المشي هو الهون ، ويشبه أن يُتأَول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيه ، فيرجع القول إلى نحو ما بيَّنَّاه ، وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل ؛ لأنه رُبَّ ماشٍ هوناً رُوَيْداً وهو ذئب أطلس ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفَّأُ في مشيه كأنما يمشي في صبب ، وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الآية ، وقوله عليه الصلاة والسلام : (مَن مشى منكم في طمع فليمش رويداً)

إنما أراد في عقد نفسه ، ولم يرد المشي وحده ، ألا ترى أن المبطلين المتَحَلِّين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط حتى قال فيهم الشاعر ذمًّا لهم :

كُلُّهُمْ يَمْشِي رُوَيْـــد كُلُّهُمْ يَطْلُبُ صَيْد(١)

وقال الزهري : سرعة المشي تذهب بهاء الوجه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يريد الإسراع الحثيث ؛ لأنه يخل بالوقار ، والخير في التوسط ، وقال زيد بن أسلم : كنت أسأل عن تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً ﴾ فما وجدت في ذلك شفاء ، فرأيت في النوم من جاءني فقال لي : هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا للتفسير في الخلق ، و [هَوْناً] معناه : رفقاً وقصداً ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَحْبِبْ حبيبك هوناً ما) الحديث (٢) ،

---

(١) قال ذلك أبو جعفر المنصور الخليفة في مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور ، وتمامه :

غَيْرَ عَمْرِو بن عُبَيْـــد

(٢) أخرجه الترمذي في البر ، وفيه : (أحْبب حبيبك هوناً مّا عسى أن يكون بغيضك يوماً مّا) ، وفي « الأدب المفرد » للبخاري : هو من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ونصّه : (أحبب حبيبك هوناً مّا عسى أن يكون بغيضك يوماً مّا ، وأبغض بغيضك هوناً مّا عسى أن يكون حبيبك يوماً مّا) ، ولم يثبت في المرفوع .

وقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾ ، اختلفوا في تـأْويل ذلك ـ فقالت فرقة : ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل : «سلاماً» بهذا اللفظ ، أي : سلمنا سلاماً أو تسليماً أو نحو هذا ، فيكون العامل فيه فعلا من لفظه على طريقة النحويين ، والذي أقول : إن قوله : [قَالُوا] هو العامل في [سَلَاماً] ؛ لأن المعنى : قالوا هذا اللفظ ، وقال مجاهد : معنى [سَلَاماً] : قولا سداداً ، أي : يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين ، فقالوا في هذا التأْويل : العامل في قوله [سَلَاماً] على طريقة النحويين ، وذلك أنه بمعنى : قولًا ، وهذه الآية كانت قبل آية السيف ، فنسخ منها ما يخُصُّ الكفرة ، وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة ، وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه ، وما تكلم على نَسْخ سواه ، رجَّح به أن المراد السلامة لا التسليم ؛ لأن المؤمنين لم يؤْمروا قط بالسلام على غير المسلمين ، والآية مكِّيَّة نسختها آية السيف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ورأيت في بعض [مصاحف][1] التواريخ أن إبراهيم بن المهدي ـ وكان من المائلين على عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ـ قال يوماً

---

(١) هكذا في الأصل ، ولم يذكرها أحد من المفسرين الذين ذكروا القصة ، وأظنها من زيادات النساخ .

بمحضر المأمون ـ وعنده جماعة ـ : كنت أرى عليّاً بن أبي طالب في النوم ، فكنت أقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا علي بن أبي طالب ، فكنت أجيءُ معه إلى قنطرة ، فيذهب يتقدمني في عبورها ، فكنت أقول له : إنما تدَّعي هذا الأمر بامرأةٍ ، ونحنُ أحق به منك ، فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يُذكر عنه ، قال المأمون : وبماذا جاوبك ؟ قال : كان يقول لي : سلاماً سلاماً ، قال الراوي : فكأن إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية ، أو ذهبت عنه في ذلك الوقت ، فنبهه المأمون على الآية أمام من حضره ، وقال : هو والله يا عم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد جاوبك أبلغ جواب ، فخزي إبراهيم واستحيا ، وكانت رؤياه لا محالة صحيحة .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾

هذه آية فيها تحريض على قيام الليل بالصلاة ، قال الحسن : لما فرغ من وصف نهارهم وصَفَ في هذه ليلهم ، وقال بعض الناس : من صلى العشاء الآخرة ، وشفع وأوتر ، فهو داخل في هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

إلّا أنه دخول غير مستوفى ، وقرأ أبو البرهسم : [سجوداً] ، ومدحهم تبارك وتعالى بدعائهم في صرف عذاب جهنم من حيث ذلك دليل على صحة عقيدتهم وإيمانهم ، ومن حيث أعمالهم بحسبه ، و [غَرَاماً] معناه : ملازماً ثقيلا مجحفاً ، ومنه غرام الحب ، ومنه قول الأعشى :

إنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَاماً وإنْ يُعْـــطِ جَزِيلا فإنَّهُ لا يُبَالِي (١)

وقول بشر بن أبي خازم :

ويَوْمَ النِّسَارِ ويَوْمَ ٱلْجِفَـــارِ كانَ عقاباً وكانَ غَراماً (٢)

وقرأ جمهور الناس : [مُقَاماً] بضم الميم ، من الإقامة ، ومنه قول الشاعر :

حَيُّوا المُقامَ وحَيُّوا ساكِنَ الدَّارِ (٣)

---

(١) البيت من قصيدته التي مدح بها الأسود بن المنذر اللخمي ، والتي يقول في مطلعها :

ما بُكَاءُ الكَبِيرِ بالأطْـــلالِ وَسُؤَالي فَهَلْ تَرُدُّ سُـــؤَالي ؟

والشاهد في البيت أن (غراماً) بمعنى : شديداً ثقيلا دائماً .

(٢) قال بِشْر هذا البيت في قصيدة يفخر فيها بقومه ، وبما سجلوه من أيام ، ويومُ النِّسار ويومُ الجفار من أيام العرب ، الأول نسبة إلى جبل ، والثاني نسبة إلى ماء لبني تميم ، ويوم النِّسار كان لبني أسد وأحلافها على بني عامر ، ويوم الجفار كان لهم على بني تميم حين أرادت أن تثأر لبني عامر بعد هزيمتها يوم النِّسار ، ولكن دارت الدائرة على بني تميم وانتصر بنو أسد في المعركتين ، ولهذا قال : إنه كان عقاباً وكان عذاباً شديداً دائماً ، وقد نسبه في اللسان للطِّرِمَّاح .

(٣) المُقام : مكان الإقامة ، فالتحية لكل من الدار وساكنها .

وقرأت فرقة : [مَقَاماً] بفتح الميم ، وأنه من قام يقوم ، فجهنم موضع قيام لهم ، والأول أفصح وأشهر .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

اختلف المفسرون في هذه الآية التي في الإنفاق ، فعبارة أكثرهم أن الذي لا يسرف هو المنفق في الطاعة وإن أفرط ، والمسرف هو المنفق في المعصية وإن قَلَّ إنفاقه ، وأن المقتر هو الذي يمنع حقاً عليه ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد . وقال عون بن عبد الله ابن عتبة : الإسرافُ : أن تنفق مال غيرك . وغير هذا من الأقوال التي هي غير مرتبطة بلفظ الآية ، وخلْط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر ، والوَجْه أن يُقال : إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره ، وكذلك التعدي على مال الغير ،

وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك ، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات ، فأدب الشرع فيها ألّا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيالًا ونحو هذا ، وألّا يضيق أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشُّح ، والحسن في ذلك هو القَوَام ، أي : العدل ، والقَوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ، وخفَّة ظهره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه من الخصال ، وخير الأمور أوساطُها ، ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه يتصدق بجميع ماله ؛ لأن ذلك وسط بنسبة جَلَدِه وصبره في الدين ، ومنع غيره من ذلك ، ونعم ما قال إبراهيم النَّخَعي : هو الذي لا يجيع ولا يعري ، ولا ينفق نفقة يقول الناس : قد أسرف . وقال يزيد بن أبي حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب للجمال ، ولا يأكلون الطعام للذة . وقال عبد الملك بن مروان لعمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه حين زوّجه ابنته فاطمة : ما نَفَقَتُك ؟ فقال له عمر : الحسنة بين سيئتين ، ثم تلا هذه الآية . وقال يزيد ابن حبيب أيضاً في هذه الآية : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتَّنَعُّم واللَّذة ، ولا يلبسون ثياباً للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدُّ عنهم الجوع ، ويقوِّيهم على عبادة ربِّهم ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ، ويكنُّهم من الحرِّ والبرد .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كفى بالمرءِ سرفاً ألَّا يشتهي شيئاً إلا اشتراه وأكله . وفي سنن ابن ماجه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ من السَّرف أن تأْكل ما اشتهيتَه) ، وقال الشاعر :

وَلَا تَغْلُ في شَيْءٍ من الأَمْرِ واقْتَصِدْ   كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمورِ ذَميمُ (١)

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر ، ومجاهد ، وحفص عن عاصم (٢) : [يَقْتِرُوا] بفتح الياء وكسر التاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي بفتح الياء وضم التاء ، وهي قراءة الحسن ، وطلحة ، والأعمش ، وعاصمٌ ــ بخلاف ــ ، وقرأ أبو عبد الرحمن بضم الياء وفتح التاء (٣) .

---

(١) الغُلُوُّ : الإفراط في الشيء ومجاوزة الحدّ فيه ، قال في اللسان : «وخير الأمور أوساطها ، و ... كِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذميمُ» فاستشهد بالنصف الثاني على أن المراد الاعتدال في الأمور ، وعدم مجاوزة الحدّ في الطرفين بالإفراط أو التفريط ، وعلى هذا فالاقتصاد هو الاعتدال ، أو هو ما بين الإسراف والتقتير ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ ﴾ أي بين الظالم والسابق ، وقال : ﴿ وَاقْصِدْ في مَشْيِكَ ﴾ ، وفي الحديث الشريف : (ما عال مقتصد ولا يَعيل) ، أي : ما افتقر من لا يسرف في الإنفاق ولا يُقَتِّر .

(٢) الثابت في المصحف أن قراءة حفص عن عاصم [يَقْتُرُوا] بفتح الياء وضم التاء ، لا بكسرها ، ونظن أن الخطأمن الناسخ .

(٣) إذا راجعنا ذلك على ما في كتب القراءات نجد اختلافات متعددة ، وحتّى نأمن العثار والخطأ ننقل لك هنا ما أثبته الحافظ ابن الجزري في كتابه (النَّشر في القراءات العشر) ، قال : «قرأ المدنيان وابن عامر بضم الياء وكسر التاء ، وقرأ ابن كثير والبصريان بفتح الياء وكسر التاء ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم التاء» . هذا والحجة لمن فتح الياء وكسر التاء أنه أخذه من قَتَرَ يَقْتِرُ ، مثل : ضَرَبَ يَضْرِبُ ، ومن ضمّ التاء أخذه من قَتَرَ يَقْتُرُ ، مثل : خَرَجَ يَخْرُجُ ، والحجة لمن ضمّ الياء وكسر التاء أنه أخذه من أقْتَرَ يُقْتِرُ ، وهما لغتان معناهما : قِلَّة الإنفاق ، قاله ابن خالويه في كتاب : «الحجة» .

وقرأ أبو عمرو والناس : [قَوَاماً] بفتح القاف ، أي : معتدلًا [١] ، وقرأ حسّان بن عبد الرحمن بكسر القاف ، أي : مبلغاً وسداداً وملاك حال ، و [قَوَاماً] خبر [كَانَ] ، واسمُها مُقَدَّرٌ ، أي : الإنفاق ، وجوّز الفراءُ أن يكون اسمها قوله : ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ ﴾ الآية ، إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في : عبادتهم الأوثان ، وقتلهم النفس بوأد البنات ، وغير ذلك من الظلم والاغتيال والغارات ، وبالزنى الذي كان عندهم مباحاً ، وفي نحو هذه الآية قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : قلت يوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيُّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداًّ وهو خلقك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تُزاني حليلة جارك ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية [٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبالقتل والزنى يدخل في هذه الآية العصاة من المؤمنين ، ولهم من الوعيد بقدر ذلك ، والحق الذي تُقتل به النفس هو قَتْلُ النفس ،

---

(١) في بعض النسخ : اعتدالا .

(٢) أخرجه الفريابي ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان — عن ابن مسعود رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

والكفرُ بعد الإيمانْ ، والزنى بعد الإحصانْ ، والكفر الذي لم يتقدمه إيمان في الحربيِّين .

و «الأثامُ» في كلام العرب : العقاب ، وبه فسَّر ابن زيد هذه الآية ، ومنه قول الشاعر :

جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى ... عُقُوقاً والْعُقُوقُ لَهُ أَثَـام (١)

أي : جزاءً وعقوبة . وقال عكرمة ، وعبد الله بن عمرو ، ومجاهد : إن «أثاما» وادٍ في جهنم ، هذا اسمه ، وقد جعله الله تعالى عقاباً للكفرة .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يُضَاعَفْ] ، [وَيَخْلُدْ] جزماً . وقرأ ابن كثير ، وأبو جعفر ، والحسن ، وابن عامر : [يُضَعَّفْ] بشد العين وطرح الألف ، وبالجزم في [يُضَعَّفْ] ، [وَيَخْلُدْ] . وقرأ طلحة بن سليمان : [نُضَعِّفْ] بضم النون وكسر العين المشددة [الْعَذَابَ] بالنصب ، و [يَخْلُدْ] بالجزم ، وهي قراءة أبي جعفر . وقرأ طلحة بن سليمان : [وَتَخْلُدْ] بالتاء ، على معنى مخاطبة

---

(١) البيت لِبَلْعَاء بن قَيْس بن ربيعة بن عبد الله بن يعمر ، اسمه حميضة ، وهو من كنانة بن خزيمة ، وكان بلعاء رأس بني كنانة وقائدهم في الحروب والغزوات ، وله أخبار كثيرة بسبب إكثاره من الغارات على العرب ، وقد أكثر من القول في فنون الشعر المختلفة ، وشعره حسن ، وقد استشهد صاحب اللسان بالبيت ، ونسبه إلى شافع الليثي ، قال : «قال أبو إسحق : تأويل الأثام : المجازاة ، وقال أبو عمرو الشيباني : لقي فلانٌ أثام ذلك ، أي جزاء ذلك ، فإن الخليل وسيبويه يذهبان إلى أن معناه : يَلْقَ جزاء الأثام ، وقول شافع الليثي في ذلك : جزى الله ... البيت ، أي : عقوبة مجازاة العقوق ، وهي قطيعة الرحم» . أما أبو عبيدة فقد نسبه إلى بلعاء في مجاز القرآن .

الكافر بذلك ، ورُوي عن أبي عمرو : [وَيُخْلَد] بضم الياء من تحت ، وفتح اللام ، قال أبو عليٍّ : «وهي غلط من جهة الرواية» ، و [يُضَاعَفْ] بالجزم بدلٌ من [يَلْقَ] ، قال سيبويه : مضاعفة العذاب لُقِيُّ الأثام ، قال الشاعر :

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا في دِيارِنَـــا تَجِدْ حَطَباً جَزْلا ونَاراً تَأَجَّجَا (١)

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ الآية ، لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل في الكافر والزاني ، واختلفوا في القاتل من المسلمين — فقال جمهور العلماء : «لَهُ التوبة» ، وجعلت هذه الفرقة قاعدتها قوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(٢) ، فحصل القاتل في المشيئة كسائر التائبين من ذنوب ، ويتأولون الخلود الذي في آية القتل في سورة النساء (٣) بمعنى الدوام إلى مدة كخلود الدول ونحوه ،

(١) البيت لعُبَيْد الله بن الحُرِّ الجُعْفِيِّ ، كان مع معاوية على علي ، ثم حدثت بينهما مناقشة خرج بعدها وانضم إلى عليٍّ رضي الله عنه — اقرأ خبر ذلك في (خزانة الأدب) للبغدادي . والجزْل : الغليظ ، وهذا يجعل النار قوية فينظر إليها الضيوف عن بُعد ، وتأجَّجَا بضمير الاثنين ، للحطب والنار ، أو أن الألف في (تأجَّجا) للإطلاق مع تذكير النار ، أو عاد الضمير على النار مذكراً لأن النار مؤنث مجازي ، والشاهد في البيت جزم (تُلْمِمْ) لأنه بدلٌ من قوله : (تَأْتِنَا) ، ولو أمكن رفعه على تقدير الحال لجاز ، قال سيبويه : سألت الخليل عن البيت فقال : (تُلْمِمْ) بدل من الفعل الأول ، أراد أن يفسر الإتيان بالإلمام ، كما تقول : مررت برجلٍ عبدِ الله ، فتفسِّر الأول وهو رجل بالثاني وهو عبد الله .

(٢) من الآية (٤٨) من سورة (النساء) ، وتكررت في الآية (١١٦) من السورة نفسها .

(٣) وهي قوله تعالى في الآية (٩٣) : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ .

وروى أبو هريرة لمن قَتَل حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم[١] .
وقيل : إن هذه الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه ، وقاله سعيد بن جبير ، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره : لا توبة للقاتل ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وهذه الآية إنما أُريد بالتوبة فيها المشركون ، وذلك أنها لما نزلت قالت طوائف من المشركين : كيف لنا بالدخول في الإسلام ونحن قد فعلنا جميع هذا ؟ فنزلت ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ ﴾ الآية [٢] ، فما رأيت رسول الله

---

(١) الحديث الذي يشير إليه أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : صلَّيْتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم العتمة ثم انصرفت ، فإذا امرأةٌ عند بابي ، فقالت : جئتك أسألك عن عمل عملتُه هل ترى لي منه توبة ؟ قلت : وما هو ؟ قالت : زنَيْتُ وَوُلد لي وقتلتُه . قلت : لا ولا كرامة ، فقامت وهي تقول : واحسرتاه ، أيخلق هذا الجسد للنار ؟ فلما صلَّيت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح من تلك الليلة قصصْتُ عليه أمر المرأة ، قال : وما قلت لها ؟ قلت : لا ولا كرامة ، قال : بئس ما قلت ، أما كنت تقرأ هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ إلا مَنْ تَابَ ﴾ الآية،قال أبو هريرة: فخرجت فما بقيت دار بالمدينة ولا خطة إلا وقفتُ عليها فقلتُ : إن كانت فيكم المرأة التي جاءت أبا هريرة فلتأتِ ولْتُبْشِر ، فلما انصرفتُ من العشيّ إذا هي عند بابي ، فقلت: أبشري ، إني ذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم ما قُلتِ وما قلتُ لك فقال : بئس ما قلت ، أما كنت تقرأ هذه الآية ؟ وقرأتها عليها ، فخرت ساجدة وقالت : أحمد الله الذي جعل لي توبة ومخرجاً ، أشهد أن هذه الجارية (لجارية معها وابنٍ لها) حُرَّان لوجه الله ، وإني قد تبت مما عملت .

(٢) من الآية (٥٣) من سورة (الزُّمَر) .

صلى الله عليه وسلم فرح بشيء فرحه بها وبسورة الفتح[١] . وقال غير ابن عباس رضي الله عنهما ممن قال بأَنْ لا توبةَ للقاتل : إن هذه الآية منسوخة بآية سورة النساء ، قاله زيد بن ثابت ، ورواه أيضاً سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال أبو الجوزاء : صحبت ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث عشرة سنة فما رأيت شيئاً من القرآن إلَّا سألتُه عنه ، فما سمعته يقول : إن الله تبارك وتعالى يقول للذنب : لا أغفره .

وقوله تعالى : ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ معناه : يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأُولى طاعة ، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله عزَّ وجلَّ إياهم ، قاله ابن عباس ، وابن جبير ، وابن زيد ، والحسن ، ورَدُّوا على من قال : «هو في يوم القيامة لمن يريد المغفرة له من الموحدين ، يبدل السيئات حسنات» ، وهذا تأْويل ابن المسيب في هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهو معنى كرم العفو .

وقرأ ابن أبي عبلة : [يُبْدِل] بسكون الباء وتخفيف الدال .

---

(١) أخرجه بلفظ آخر في أوله ابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

أكّد هذا اللفظ أمر التوبة ، والمعنى : ومن تاب فإنه قد تمسّك بأمر وثيق ، وهذا كما تقول لمن يُسْتَحْسن قوله في أمْر : لقد قلتَ يا فلان قولًا ، وكذلك الآية معناها مدح المتاب ، كأنه قال : فإنه يجد باباً للفرج والمغفرة عظيماً . ثم استمرت الآية في صفة عباد الله – تبارك وتعالى – المؤمنين بأن نفى عنهم شهادة الزّور . و [يَشْهَدُونَ] في هذه الآية ظاهرُ معناها : يشاهِدونَ ويحضُرون . و «الزُّورُ» : كل باطلٍ زُوِّرَ وزُخْرف ، فَأَعْظَمُه الشِّركُ ، وبه فسّر الضحاك ، وابن زيد ، ومنه الغناءُ ، وبه فسّر مجاهد ، ومنه الكذب ، وبه فَسَّر ابن جريج ، وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، ومحمد بن علي : المعنى : لا يشهدون الزّور ، فهي من الشهادة لَا من المشاهدة ، و «الزّور» : الكذب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والشاهد بالزُّور ـ حاضره ومُؤَدِّيه ـ فجرةٌ ، فالمعنى الأوَّل أعَمُّ ، لكن المعنى الثاني أغرق في المعاصي وأنكى .

و «اللَّغْوُ» : كل سقط من فعل أو قول ، ويدخل فيه الغناءُ واللهو وغير ذلك مما قاربه ، ويدخل في ذلك سَفَهُ المشركين وأذاهم للمؤمنين ، وذكر النساء وغير ذلك من المنكر ، و [كِرَاماً] معناه : معرضين مُسْتَخِفِّينَ يتجافَوْن عن ذلك ، ويصبرون على الإيذاء منه ، وروي أن عبد الله بن مسعود سمع غناءً فأسرع في مشيه وذهب ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (لقد أصبح ابن أم معبد كريماً) ، وقرأ الآية (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأما إذا مرَّ المسلم بمنكر فكَرَمُه أنْ يُغيِّره ، وحدود التغيير معروفة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ، يريد : ذكروا بالقرآن آخرتهم ومعادهم ، وقوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ يحتمل تأويلين : أحدهما أن المعنى : لم يكن خرورهم بهذه الصفة بل يكون خرورهم سجداً وبُكيّاً ، وهذا كما تقول : لم يخرج زيد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن عساكر ، عن إبراهيم بن ميسرة رضي الله عنه ، وفيه أن الذي قرأ الآية هو إبراهيم بن ميسرة ، وجاء بلفظ : (ثم تلا إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ . (الدر المنثور) .

إلى الحرب جزعاً ، أي : إنما خرج جريئاً مقدماً ، أو كأن الذي يَخِرُّ أصمَّ أعمى هو المنافق أو الشاك ، وهو التأويل الثاني ، وإليه ذهب الطبري ، وهو أنَّ ﴿ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وعُمْيَاناً ﴾ هي صفة الكفار ، وهي عبارة عن إعراضهم وجهدهم في ذلك ، وقرن ذلك بقولك : «قعد فلان يشتمني ، وقام فلان يبكي» ، وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام ، وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر ، فإذا أعرض وضلَّ كان ذلك خروراً ، وهو السقوط على غير نظام وترتيب ، وإن كان قد شبه به الذي يخر ساجداً ، لكن أصله أن يكون على غير ترتيب .

ثم مدح المؤمنين حال الدعاء إليه بأن يُقِرَّ العيون بالأهل والذرية . و «قُرَّة العين» يحتمل أن تكون من القرار ، ويحتمل أن تكون من القَرِّ ، وهو الأشهر ؛ لأن دمع السرور باردٌ ودمع الحزن سخن ، فمن هذا يقال : أَقَرَّ الله عينك وأَسْخَنَ الله عين العدو[1] ، وقُرّة العين في الأزواج والذرية أن يراهم الإنسان مطيعين لله تبارك وتعالى ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وحضرمي ، وبيَّن المقداد بن الأسود الوجه في ذلك بأنهم كانوا في أول الإسلام يهتدي الابن والأب كافر ،

(١) أخذه الشاعر فقال :

فَكَمْ سَخِنَتْ بالأمْسِ عَيْنٌ قريرةٌ وقَرَّتْ عيونٌ دَمْعُهَا اليَوْمَ ساكِبُ

والزَّوجُ والزوجة كافرة ، فكانت قرة عيونهم في إيمان أحبابهم . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والحسن : [وَذُرِّيَّاتِنَا] ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وطلحة ، وعيسى : [وَذُرِّيَّتِنَا] بالإفراد .

وقوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ قيل : هو جمع (آمٍّ) ، مثل قائم وقيام ، وقيل : هو مفرد اسم جنس ، أي: اجعلنا يأتم بنا المتقون ، وهذا لا يكون إلَّا أن يكون الداعي مُتَّقياً قدوة ، وهذا هو قصد الداعي ، وقال إبراهيم النَّخَعي : لم يطلبوا الرياسة ، بل أن يكونوا قدوة في الدين ، وهذا حسن أن يُطلب ويُسعى إليه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

قرأ أُبيُّ بن كعب : [يُجَازَوْنَ] بألف ، و [ٱلْغُرْفَة] من منازل الجنة ، وهي الغُرف فوق الغُرف ، وهي اسم جنس ، كما قال :

وَلَوْلَا ٱلْحَبَّةُ السَّمْــرَا ءُ لمْ أَحْلُلْ بِوَادِيكُمْ (١)

(١) الحَبَّة : واحدة الحَبِّ ، وهو ما يكون في السنبل والأكمام كالقمح والشعير ، وجمع الحَبِّ : حبوب ، والحُلُول : النزول ، والشاهد أن الحَبَّة : اسم جنس كالغرفة .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : [وَيُلَقَّوْنَ] بضم الياء وفتح اللام وشدّ القاف ، وهي قراءة أبي جعفر ، وشيبة ، والحسن ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، وعاصم ، وطلحة ، ومحمد اليماني ، ورُويت عن النبي صلى الله عليه وسلم : [وَيَلْقَوْنَ] بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ، واختلف عن عاصم[١] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَـأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ الآية . أمرٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يخاطب بذلك ، و [ما] تحتمل النفي ، وتحتمل التقرير ، والكلام في نفسه يحتمل تأويلات : أحدها أن تكون الآية إلى قوله : ﴿ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ خطاباً لجميع الناس ، فكأنه قال لقريش منهم : ما يبالي الله بكم ، ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت ، وذلك الذي يُعبأُ بالبَشَر من أجْله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون ﴾[٢] ، وقال النقاش : المعنى : لولا استغاثتكم إليه في الشدائد ، ونحو ذلك ، فهو عرف الناس المرعي[٣] فيهم ، وقرأ ابن الزُّبير وغيره : «فقد كذَّب الكافِرونَ» ، وهذا يؤيد أن الخطاب بـ ﴿ مَا يَعْبَـأُ بِكُمْ ﴾ هو لجميع الناس ، ثم يقول لقريش : فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه ، فسوف يكون العذاب ـ أو يكون التكذيب الذي هو سبب العذاب ـ لزاماً .

(١) لأن القراءة الثابتة في المصحف عن عاصم من طريق حفص جاءت بضم الياء وتشديد القــاف .

(٢) الآية (٥٦) من سورة (الذاريات) .

(٣) في بعض النسخ : المدّعى فيهم .

الثاني أن يكون الخطاب بالآيتين لقريش خاصة ، أي : ما يعبأُ بكم ربي لولا دعاؤُكم الأَصنام دونه ، فإن ذلك يوجب تعذيبكم .

الثالث وهو قول مجاهد : ما يعبأُ بكم ربِّي لولا دعاؤُكم إلى شرعه ، فوقع منكم الكفر والإعراض .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمصدر في هذا التأْويل مضاف إلى المفعول ، وفي الأَولين مضاف إلى الفاعل ، و [يَعْبَأُ] مشتق من العبء وهو من الثقل الذي يعبأُ ويُرَتَّب كما يُعَبَّأُ الجيش[1] ، قال ابن جني : قرأَ ابن الزبير وابن عباس رضي الله عنهما : «فقد كذب الكافرون» ، قال الزهراوي : وهي قراءَة ابن مسعود ، قال : وهي على التفسير .

وأكثر الناس على أن اللِّزام المشار إليه في هذا الموضع هو يوم بدر ، وهو قول أُبيّ بن كعب ، وابن مسعود ، والمعنى : فسوف يكون جزاءُ التكذيب ، وقالت فرقة : هو توعُّد بعذاب الآخرة ، وقال ابن مسعود : اللِّزام هو التكذيب نفسه ، أي : لا يُعْطَوْن توبة ، ذكره الزهراوي ،

---

(١) في (اللسان ــ عبأ) : «عبأ الأمر عَبْئاً وعَبَّأه يُعَبِّئُهُ : هيَّأه ، وعبَّأتُ المتاع : جعلت بعضه على بعض ، وقيل : عَبَأَ المتاعَ وعَبَّأه : كلاهما هيَّأه ، وكذلك الخيل والجيش ، وكان يونس لا يهمز تعبية الجيش» .

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً : اللِّزام الموتُ ، وهذا نحو القول ببدر ، وإن أراد به متأول الموت الفناءَ في الناس عرقاً فهو ضعيف ، وقرأ جمهور الناس : [لِزَاماً] بكسر اللام ، من لوزم ، وأنشد أبو عبيدة لِصَخْرِ الغَيِّ (١) :

فَإِمَّا يَنْجُوَا مِنْ حَتْفِ أَرْضٍ فَقَدْ لقِيَا حُتُوفَهُمَا لِزَاماً

وقرأ أبو السمال : [لَزَاماً] بفتح اللام ، من لَزِم (٢) ، والله أعلم .

كمل تفسير سورة الفرقان والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

---

(١) هو صخر بن عبد الله الخيثمي الهذلي ، وفي الأغاني أنه لُقِّب بصخر الغيّ لخلاعته وشدة بأسه وكثرة شرِّه ، وله ترجمة في الإصابة ، وفي الأغاني ، والبيت في (اللسان ـ لزم) وفيه «قال أبو عبيدة : وجاء في التفسير عن الجماعة أنه يوم بدر ، وما نزل بهم فيه ، فإنه لوزم بين القتلى لزاماً ، أي : فُصِل ، وأنشد أبو عبيدة لصخر الغيّ : فإمَّا ينجُوَا ... البيت ، وتأويل هذا أن الحتف إذا كان مقدراً فهو لازم ، إن نجا من حتف مكانٍ لَقِيَهُ الحتف في مكان آخر لِزاماً» .

(٢) قال أبو جعفر : يكون مصدر لَزِم ، والكسر أولى ، وقال غيره : اللِّزام بالكسر مصدر لازَم لِزاماً ، مثل خاصم خِصاماً ، واللَّزام بالفتح مصدر لَزِم ، مثل سَلِم سلاماً ، أي سلامة ، فاللَّزام بالفتح اللُّزوم ، واللِّزام : الملازمة ، والمصدر في القراءتين وقع موقع اسم الفاعل ، فاللِّزام في موقع : مُلازِم ، واللَّزام في موقع : لازَم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة الشُّعَراء

هذه السورة مكية كلُّها ، قاله جمهور الناس ، وقال مقاتل : منها مدني الآية التي يذكر فيها الشعراء ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (١) .

---

(١) وقال ابن عباس ، وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة : من قوله : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إلى آخرها .

وعدد آيات السورة مائتان وسبع وعشرون آية ، وفي رواية : ست وعشرون ، وعن البراء ابن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ الله أعطاني السَّبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني الْمِئين مكان الإنجيل ، وأعطاني الطواسين مكان الزَّبور ، وفضلني بالحواميم والمُفَصَّل ، ما قرأهن نبيٌّ قبلي) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ ﴾

تقدم القول في الحروف في أوائل السُّوَر مستوعباً ، و [تِلْكَ] مرتفع بالابتداء ، وهو وخبره سادٌّ مسَدَّ الخبر عن [طسٓمٓ] في بعض التأْويلات . والإشارة بـ [تِلْكَ] هي بحسب الخلاف في [طسٓمٓ] ، وفي بعض الأَقوال أن تكون [تِلْكَ] إشارة إلى حاضر ، و «ذلك» إلى موجود ، كما أن «هذه» قد تكون الإشارة بها إلى غائب معهود كأنه حاضر . و ﴿ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِين ﴾ القرآن .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : [طِسٓمٓ] بكسر الطاء ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر بفتحها وبإدغام النون من (سِين) في الميم ، وقرأ حمزة وحده بإظهارها ، وهي قراءة أبي جعفر ، ورويت عن نافع ، وروى يعقوب عن أبي

جعفر ونافع قَطْع كل حرف منها على حِدَة ، قال أبو حاتم : الاختيار فتح الطاء وإدغام آخر (سين) في أول (ميم) فتصير الميم متصلة [١] .

وقوله تعالى : [لَعَلَّكَ] الآية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم عما كان فيه من القلق والحرص على إيمانهم ، فكان في شغل البال في حيِّز الخوف من نفسه ، و «الْبَاخِعُ» القاتل نفسه والمهلك لها بالهم ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والناسُ ، ومن ذلك قول ذي الرمة :

أَلَا أَيُّهَذَا البَاخِعُ الْوَجْدُ نَفْسَهُ لِشَيْءٍ نَحَتْهُ عَنْ يَدَيْهِ المَقَادِرُ[٢]

وخوطب بـ «لَعَلَّ» على ما في نفس البشر من توقع الهلاك في مثل تلك الحال . ومعنى الآية أَلَّا تَهْتَم يا محمد بهم ، وبلِّغ رسالتك ، وما عليك من إيمانهم ، فإن ذلك بيد الله تعالى لو شاء لآمنوا ، وقوله : [أَلَّا] مفعول من أجله .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ نَشَأْ ﴾ شرطٌ ، وما في الشرط من الإيهام هو ـ في هذه الآية ـ في حيِّزنا ، وأما الله تعالى فقد علم أنه لا ينزل عليهم

---

(١) قال النحاس : للنون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه : يُبَيَّنان عند حروف الحلق ، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء ، ويقلبان ميماً عند الباء ، ويكونان من الخياشيم ، أي لا يُبَيَّنان فيما عدا ذلك ، وعلى ذلك لا تجوز قراءة إظهار النُّون من (سين) ؛ لأنه ليس ها هنا حرف من حروف الحلق .

(٢) البيت في الديوان ، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن ، وذكره في (اللسان ـ بَخَع) ، قال : بَخَع نفسه يَبْخعها بَخْعاً وبُخُوعاً : قتَلَها غيظاً أو غماً ، ونَحته : عَدَلته وصرفته وأبعدته عن يديه . يريد : نَحَّته فخفف .

آية اضطرار ، وإنما جعل الله تعالى آيات الأنبياء والآيات الدالة عليه معرضة للنظر والفكر ليهتدي من سبق في علمه هداه ، ويضل من سبق ضلالُه ، وليكون للنظرة تكسب به يتعلّق الثواب والعقاب ، وآية الاضطرار تدفع جميع هذا إن لو كانت .

وقرأ : [نُنَزِّل] بفتح النون وشدِّ الزاي أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع ، والأعرج ، وعاصم ، والحسن ، وقرأ أبو عمرو وأهل البصرة بسكون النون وتخفيف الزاي . وروى هارون عن أبي عمرو ﴿ يَشَأْ يُنَزِّل ﴾ بالياء فيهما . والخضوع للدلالة في الآية المنَزَّلة كان يترتب بأحد وجهين : إما بخوف هلاك في مخالفة الأمر المقترن بها كنَتْق الجبل على بني إسرائيل ، وإمَّا أن تكون من الوضوح بحيث يقع الإذعان لها وانقياد النفوس ، وكلٌّ هذيْن لم يأْت به نبيٌّ ، ووجه ذلك ما ذكرناه ، وهو توجيه منصوص للعلماء . وقرأ طلحة : «فَتَظَل أَعْنَاقُهُم» ، وهو المراد في قراءة الجمهور ، وجعل الماضي موضع المستقبل إشارة إلى تقوية وقوع الفعل[1] . وقوله تعالى : [أَعْنَاقُهُم] يحتمل تأْويلين :

---

(١) قال الفراء في (معاني القرآن) : «صواب أن تعطف على مجزوم الجزاء بـ (فَعَل) ؛ لأن الجزاء يصلح في موضع فَعَل يَفْعَل ، وفي موضع يَفْعَل فَعَل ، ألا ترى أنك تقول : إن زُرْتَني زُرْتك وإن تزرني أزرك ، والمعنى واحد ؟ قال تبارك وتعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ ﴾ ثم قال : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴾، فردَّ يَفْعَل عَلَى فَعَلَ ، وقال الشاعر ـ وهو قعنب بن أم صاحب :

إنْ يَسْمَعُوا سُبَّةَ طَارُوا بِهَا فَرَحاً   مِنِّي ومَا يَسْمَعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

فردَّ الجواب بفَعَلَ وقبله يَفْعَل» .

أحدهما ـ وهو قول مجاهد ، وابن زيد ، والأخفش ـ أن يريد : جماعاتهم ، يقال : «جاء في عُنُق من الناس» أي جماعة ، ومنه قول الشاعر :

أَنَّ الْعِــرَاقَ وَأَهْلَــــهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا [١]

وعليه حُمل قول أبي مِحْجن :

. . . . وأَكْتُمُ السِّرَّ فيهِ ضَرْبَةُ الْعُنُقِ[٢]

ولهذا قيل : «عُنُق رقبة» ، ولم يُقَل : «عُنُق عُنُق» فراراً من الاشتراك ، قاله الزهراوي .

---

(١) جاء في (اللسان ـ عنق) : «جاء القوم عُنُقًا عُنُقًا ، أي طوائف ، وقال الأزهري : إذا جاءوا فرقاً كل جماعة منهم عُنُق ، قال الشاعر يخاطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أَبْلِـغْ أَمِيـرَ الْمُؤْمِنِيـ ـنَ أَخَا الْعِراقِ إِذَا أَتَيْتَا
أَنَّ العِرَاقَ وأَهْلَـــه عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

أراد أنهم أقبلوا إليك بجماعتهم ، وقيل : هم مائلون إليك ومنتظروك» .

(٢) هذا عجز بيت ، وهو واحد من أبيات افتخر بها عبيد بن أبي محجن عند معاوية ، وهي :

لا تَسْأَلِ النَّاسَ ما مَالي وكَثْرَتُهُ وسائِلِ القَوْمَ : ما حَزْمي وما خُلُقي
القَوْمُ أَعْلَمُ أَنِّي مِنْ سَرَاتِهِـمُ إذا تَطِيشُ يَدُ الرِّعْدِيدَةُ الْفَرِقُ
قَدْ أَرْكَبُ الهَوْلَ مَسْدولا عَسَاكِرُهُ وأَكْتُمُ السِّرَّ فيهِ ضَرْبَةُ العُنُقِ

وابن عطية يستشهد بالبيت على أن العُنُق هنا من نفس المعنى الموجود في الشاهد السابق ، والذي يبدو لي أن العُنُق هنا بمعنى الجارحة المعروفة .

والتأويل الآخر أن يريد بـ «الأَعْنَاقِ» الجارحة المعلومة ، وذلك أن خضوع العُنُق والرقبة هو علامة الذِّلة والانقياد ، ومنه قول الشاعر :

وَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ خُضُعَ الرِّقَابِ نَوَاكِسَ الأَبْصَارِ (١)

فمعنى هذا التأويل أنْ نتكلم على قولهْ : [خَاضِعِينَ] ، كيف جُمع جَمْع من يعقل ؟ وذلك متخرج على نحويْن من كلام العرب : أحدهما أن الإضافة إلى من يعقل أفادت حُكْمَه لمن لا يعقل ، كما تفيد الإضافة إلى المؤنث تأنيث علامة المذكر ، ومنه قول الأعشى :

. . . . كما شَرَقَتْ صدْرُ الْقَنَاةِ منَ الدَّمِ (٢)

(١) البيت للفرزدق ، وهو من قصيدة له يمدح فيها آل المهلب ، واستشهد به في (اللسان — خضع) قال : «وقوم خُضُع الرِّقاب : جمع خَضُوع بمعنى خاضع ، قال الفرزدق : وإذا الرجال ... البيت » . ومعنى «خُضُع الرقاب » : مطأطؤ الرؤوس ذلا ، و « نواكس الأبصار » كناية عن الإجلال والتَّهيُّب ، وهو مخالف للفصاحة عند البيانيين لأنه جمع ناكسة لا ناكس . قال في (اللسان — نَكَس) : « نكَس رأسه إذا طأطأه من ذُلٍّ ، وجُمع في الشِّعر على نواكس وهو شاذ ، وأنشد الفرزدق : وإذا الرجال ... البيت . قال سيبويه : إذا كان الفعل لغير الآدميين جُمع على فواعل ؛ لأنه لا يجوز فيه ما يجوز في الآدميين من الواو والنون في الاسم والفعل فضارع المؤنث » . وقد ذكر ابن عطية تخريجين لهذا .

(٢) هذا عجز البيت ، وهو بتمامه :

وتَشْرَقُ بالقَـــوْلِ الَّذي قَدْ أذَعْتَهُ كَمَا شَرَقَتْ صدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

وقد استشهد به صاحب (اللسان — شرق) ، وهو في الديوان من قصيدة يهجو بها عمير بن عبد الله بن المنذر بن عَبدان حين جمع بينه وبين جهنام الشاعر ليهاجيه ، يقول : وحتَّى تشرق بما أذعت من القول ، كما يشرق مقدم القناة بالدم ، وصدر القناة هو أعلاها ، والشاهد فيه أنه أنث الفعل (شرق) بالتاء مع أن الفاعل وهو (صدْر) مذكَّر ، ولكنه لما أُضيف إلى القناة وهي مؤنثة لحقته تاء التأنيث بالفعل ، فكأنه جعل الفعل للقناة لا لصدرها ، وابن عطية=

وهذا كثير . والنحو الآخر أن تكون «الأَعناقُ» لمَّا وُصفت بفعل لا يكون إلَّا مقصود البَشَر – وهو الخضوع – ؛ إذ هو فعل يتبع أَمْراً في النفس جمعت فيه جمع من يعقل ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[(١)]، وقوله : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾[(٢)]، وقرأ ابن أبي عبلة : «لَهَا خَاضِعَةً» .

ثم عنَّف الكفار ، ونبَّه على سوءِ فعلهم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : [مُحْدَثٍ] يريد : مُحْدَثَ الإتيان ، أي : مجيءُ القرآن للبشر كان مجيءَ شيءٍ بعد شيءٍ ، وقالت فرقة : يحتمل أن يريد بـ «الذِّكْر» محمداً صلى الله عليه وسلم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ، رَسُولًا ﴾[(٣)]، فيكون الوصف بالمُحْدَثِ متمكنـــاً .

= يقيس على ذلك أنه يجوز أن تخلع على غير العاقل صفة العاقل وحكمه فتقول: أعناقهم خاضعين ، بدلا من « خاضعة » وذلك لأن الأعناق أضيفت إلى ضمير العاقل . ومثل البيت قول الراجز :

لمَّا رأى مَتْنَ السَّماء أبْعَدَتْ

فقد أنَّث الفعل (أبعدت) بالتاء مع أن الضمير يعود على مذكر وهو (مَتْن) ، ولكن لما أضيف المَتْن إلى مؤنث وهو السماء جاز أن ينظر الشاعر إلى المضاف إليه وأن يتناسى المضاف ، وكأنه قال : لما رأى السماء أبعدت .

(١) من الآية (١١) من سورة (فُصِّلت) .

(٢) من الآية (٤) من سورة (يوسف) .

(٣) من الآيتين (١٠ ، ١١) من سورة (الطَّلاق) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
والقول الأول أفصح .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ الآية وعيد بعذاب الدنيا ، والآخرة ، ويُقَوِّي أنه وعيد بعذاب الدنيا أن ذلك قد نزل بهم كبدر وغيرها .

ولما كان إعراضهم عن النظر في الصانع والإله أعظم كفرهم ، وكانوا يجعلون الأصنام آلهة ، ويعرضون عن الذكر في ذلك – نبَّه على قدرة الله تعالى ، وأنه الخالق المنشئُ الذي يستحق العبادة بقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية . و «الزَّوْجُ» : النوع والصنف ، و «الكريم» : الحسن المُتْقن ، قاله مجاهد وقتادة ، ويراد الأشياءُ التي بها قوام الأمور والأغذيةُ والنباتاتُ ، ويدخل في ذلك الحيوان لأنه عن إنبات ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً ﴾[1] ، قال الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن صار إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار بضد ذلك فهو لئيم . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ حتم على أكثرهم بالكفر . ثم توعَّد بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، يريد : عزَّ في نقمته من الكفار وَرَحِمَ مُؤمني كل أُمَّة ، وقال نحو هذا ابن جريج ، وفي لفظة [ٱلرَّحِيم] وعْدٌ .

---

(١) الآية (١٧) من سورة (نوح) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

التقدير : واذكر إذ نادى ربك موسى . وسوق هذه القصة تمثيل لكفار قريش لتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱئْتِ ﴾ يجوز أن تكون مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب ، بمنزلة (أي) ، ويجوز أن تكون غيرها ، وهي في موضع نصب[١] ، وقوله : ﴿ أَلَّا يَتَّقُونَ ﴾ ، أي : قل لهم ، فجمع في هذه العبارة من المعاني نَفْيَ التقوى عنهم وأَمْرَهُم بالتقوى ، وقرأ الجمهور : [يَتَّقُونَ] بالياء من تحت ، وقرأ عبد الله بن مسلم ، وحماد بن سلمة ، وأبو قلابة : [تَتَّقُونَ] بالتاء من فوق ، وعلى معنى : فقل لهم .

---

(١) على أنها مصدرية ، كما قال أبو حيان في البحر .

ولِعِظَم قُوَّة فرعون وتألُّهه وطول مُدَّته وما أُشربت القلوب من مهابته قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ ، وقرأ جمهور الناس : [وَيَضِيقُ] بالرفع ، و [يَنْطَلِقُ] كذلك ، وقرأ الأعرج ، وطلحة ، وعيسى ذلك بالنصب فيهما ، فقراءة الرفع هي إخبارٌ من موسى عليه السلام بوقوع ضيق صدره ، وعدم انطلاق لسانه ، ولهذا رجَّح أبو حاتم هذه القراءة ، وقراءة النصب تقتضي أن ذلك داخل تحت خوفه ، وهو عطف على [يُكَذِّبُونِ] . وكان في خلق موسى عليه السلام حِدَّة ، وكانت في لسانه حبْسة بسبب الجمرة في طفولته ، وحكى أبو عمرو عن الأعرج أنه قرأ بنصب [وَيَضِيق] وبرفع [يَنْطَلِق] ، وقد يكون عدم انطلاق اللسان بالقول لغموض المعاني التي تطلب ألفاظاً محررة ، فإذا كان هذا في وقت ضيق صدره لم ينطلق اللسان ، وقد قال عليه السلام : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾(١) ، فالراجح قراءة الرفع . وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ معناه : يُعينني ويُؤازرني ، وكان هارون عليه السلام وزيراً فصيحاً واسع الصدر ، فحذف بعض المراد من القول إذ باقيه دالٌّ عليه .

ثم ذكر موسى عليه السلام خوفَ القبط من أجل ذَنْبِهِ ، وهو قتله الرجل الذي وكزه ، قال قتادة ومجاهد والناس : فخشي أن

(١) الآية (٢٧) من سورة (طه) .

يستقاد منه ، فقال الله عزَّ وجلَّ له : [كَلَّا] ردًّا لقوله : «إِنِّي أَخَافُ» ، أي : لا تخف ردًّا لذلك فإني لم أُحَمِّلك ما حُمِّلت إلا وقد قضيتُ بظهورك ونصرك . وأمر موسى وهارون بخطاب موسى فقط لأن هارون ليس بمكلَّم بإجماعٍ ، ولكن قال لموسى : [اذْهَبَا] أي أنت وأخوك ، و «الآيات» تعم جميع ما بعثهما الله تعالى به ، وأعظم ذلك العصا ، وبها وقع العجز ، [وَٱلْيَد ٱلْبَيْضَاءُ][1] ، وبالآيتين تحدَّى موسى عليه السلام فرعون ، ولا خلاف في أن موسى عليه السلام هو الذي حمله الله تبارك وتعالى أمر النبوة كلها ، وأن هارون عليه السلام كان نبيًّا رسولا معيناً وزيراً . وقوله : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إما أن يجعل الاثنين جمعاً ، وإما أن يريدهما والمبعوث إليهم وبني إسرائيل ، وقوله : [مُسْتَمِعُونَ] على نحو التعظيم والجبروت الذي لله تبارك وتعالى ، وصيغة [مُسْتَمِعُونَ] تُعْطي اهتبالًا بالأمر ليس في صيغة «سامعون» ، وإلَّا فليس يوصف الله تبارك وتعالى بطلب الاستماع ، وإنما المقصد إظهار التَّهَمُّم ليعظم أُنس موسى عليه السلام ، أو تكون الملائكة ـ بأمر الله إيَّاها ـ تستمع .

(١) [اليد البيضاء] زيادة يقتضيها المقام وسلامة العبارة ، حيث قال ابن عطية بعدها : «وبالآيتين تحدَّى ... » ، والآيات التي بعث الله بها موسى هي : (العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدَّم ، والسنين ، والنقص من الثمرات) ، مع وجود اختلاف بين العلماء في بعضها .

وقوله : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ هو أن العرب أجرت «الرسول» مجرى المصدر في أن وصفت به الجمع والواحد والمؤنث ، ومن ذلك قول الهذلي :

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ ٱلرَّسُـو لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي ٱلْخَبَرْ (١)

وقول الشاعر وإن كان مُوَلَّدا :

إِنَّ ٱلَّتِي أَبْصَرْتُهَـــا سَحَراً تُكَلِّمُني رسُولُ (٢)

وقوله : ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ معناه : سرِّح ، فهو بمعنى الإرسال الذي هو بمعنى الإطلاق ، كما تقول : أرسلت الحجر من يدي .

---

(١) قال أبو ذؤيب هذا البيت من قصيدة قالها حين بيَّت ناسٌ من بني سُلَيْم ناساً من هذيل فقتلوهم ، قال شارح أشعار الهُذَليِّين : «أَلِكْني : أبلغ عنِّي أَلُوكي ، و «الألوك» الرسالة ، كما تقول : أعْكِمْني ، أي أعني على عِكْمي واعكُم معي ، وخير الرسول : يريد الرُّسل ، والرسول في موضع جمع ، كقولك : «كثير الدينار والدرهم» ، وقوله : بنواحي الخبر ، أي : حروف الكلام وجوانبه وما أشكل منه» . وقال القرطبي : أَلِكْني إليها : أرسلني إليها .

(٢) الشاهد أن (رسول) هنا جاء في صفة المؤنث ولم تلحقه علامات التأنيث . ومثل هذين الشاهدين قول كُثَيِّر عزَّة :

لقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ ما بُحْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُـــول

لأن الرسول هنا بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر كما قال في اللسان ، ومن الشواهد أيضاً في هذا المقام قول العباس بن مرداس :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي خُفَافـــاً رَسُولا بَيْتُ أهْلِكَ مُنْتَهَاهَـــا ؟

فإنه يعني بقوله : «رسولا» : رسالةً ، ولذلك أنَّث الهاء في قوله : منتهاها .

وكان موسى عليه السلام مبعوثاً إلى فرعون في أمريْن : أحدهما أن يرسل بني إسرائيل ويزيل عنهم ذُلَّ العبودية والغلبة . والثاني أن يؤمن ويهتدي ، وأمر بمكافحته ومقاومته في الأول ، ولم يؤمر بذلك في الثاني على ما بلغ من أمره ، وبُعثَ بالعبادات والشرع إلى بني إسرائيل فقط ، هذا قول بعض العلماء .

وقول فرعون لموسى : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ ﴾ هذا على جهة المنِّ عليه والاحتقار ، أي: ربَّيْنَاكَ صغيراً ، أوْ لم نقتلك في جملة من قتلنا فلبثت فينا سنين ، فمتى كان هذا الذي تدَّعيه ؟ وقرأ جمهور القراء : ﴿ مِنْ عُمُرِكَ ﴾ بضم الميم ، وقرأ أبو عمرو : [عُمْرِكَ] بسكونها ، ثم قرَّره على قتل القبطي بقوله : ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ والفَعلة ـ بفتح الفاء ـ المرَّة من الفعل ، وقرأ الشَّعبي : [فِعْلَتَكَ] بكسر الفاء ، وهي هيئة الفعل ، وقوله : ﴿ وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه : أحدهما أن يريد : وقتلتَ القبطي وأنت في قتلك إياه من الكافرين ؛ إذْ هو نفس ولا يحل قتله ، قاله الضحاك . أو يريد : وأنت من الكافرين بنعمتي في قتلك إياه ، قال ابن زيد : وهذان بمعنى واحد في حق اللفظ ، وإنما اختلفا باشتراك لفظ الكفر . والثاني أن يكون بمعنى الهزؤ ، أي : وأنت على هذا الدين وأنتَ من الكافرين بزعمك ؟ قاله السدي . والثالث ـ وهو قول الحسن ـ أن يريد : وأنتَ من الكافرين الآن ، يعني فرعون : بالعقيدة التي يكون بيَّنها ، فيكون الكلام مقطوعاً من

قوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ﴾ ، وإنما هو إخبارٌ مبتدأً أنه كان من الكافرين ، وهذا التأويل أيضاً يحتمل أن يريد به كُفْرَ النعمة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه إلى فرعون نبيًّا أحد عشر عاماً غير أشهر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

القائل هو موسى عليه السلام ، والضمير في قوله : [فَعَلْتُهَا] لقتله القبطي ، وقوله : [إِذًا] صلة في الكلام ، وكأنها بمعنى : حينئذ(١) ،

---

(١) قال أبو حيان في (البحر) تعقيباً على كلام ابن عطية : « وليس بصلة ، بل هي حرف معنى ، وقوله : « وكأنها بمعنى حينئذ » ينبغي أن يجعل قوله تفسير معنى ، إذ لا يذهب أحدٌ إلى أنَّ (إذاً) ترادف من حيث الإعراب (حينئذ) » .

وقوله : ﴿ وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ ﴾ قال ابن زيد : معناه : من الجاهلين بأنَّ وَكْزتي إيَّاه تأتي على نفْسه ، وقال أَبو عبيدة : معناه : من النَّاسِين لذلك ، ونزع لقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾(١) ، وفي قراءة ابن مسعود ، وابن عباس رضي الله عنهم : «وأنا من الجاهلين» ، ويشبه أن تكون هذه القراءة على جهة التفسير (٢) .

وقوله : [حُكْماً] يريد النبوة وحكمتها ، وقرأ عيسى : [حُكُماً] بضم الحاء والكاف ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ درجة ثانية للنبوة ، فرُبَّ نَبِيٍّ ليس برسول .

ثم حاجَّه عليه السلام في منِّه عليه بالتربية وترْك القتل بقوله : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، واختلف الناس في تأْويل الكلام ــ فقال قتادة : هذا منه على جهة الإنكار أن تكون نعمة ، كأنه قال : أَو يَصِحُّ لك أَن تعد علي نعمة ترك قتلي من أَجل أَنك ظلمتَ بني إسرائيل وقتلتهم ؟ أَي : ليست بنعمة ؛ لأَن الواجب كان أَلَّا تقتلني وأَلَّا تقْتلهم ، وأَلَّا تستعبدني ولا تستعبدهم بالقتل ولا بالخدمة وغير ذلك . وقرأ الضحاك : «وتلك نعمة مالَكَ أن تَمُنَّها» ،

---

(١) من الآية (٢٨٢) من سورة (البقرة) ، وذلك أن المتأولين قالوا : إنَّ [تَضِلَّ] بمعنى «تَنْسَى» بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ ، والتَّذكير يكون للناسي .

(٢) وقال الزمخشري : «من الفاعلين فعل أُولي الجهل ، كما قال يوسف لإخوته : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾» .

وهذه قراءة تؤيد هذا التأويل، وقال الأخفش: قيل : الواو ألف الاستفهام محذوفة ، والمعنى: أَوَتلك ؟ وهذا لا يجوز إلا إذا عادَلَتْها «أَمْ» كما قال :

تَرُوحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرْ ؟ . . . . (١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا القول تكلُّف (٢)، وقــولُ موسى عليه الســلام تقريرٌ

---

(١) القائل هو امرؤ القيس ، وهذا صدر بيت من قصيدة قالها يصف فرسه وخروجه إلى الصيد ، والبيت بتمامه :

تَرُوحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرْ وماذَا عَلَيْكَ بِأَنْ تَنْتَظِرْ ؟

والرواح : السَّير في العشي ، والابتكار : الخروج مبكِّراً ، يقول : أتروح في آخر النهار أم تخرج مبكراً ؟ ولماذا تتعجل الذهاب ؟ وماذا عليك لو انتظرت فالانتظار خير لك ؟ والشاهد حذف ألف الاستفهام في (تروح) ، إذ أصلُها : أَتَرُوحُ ؟ والدليل هو وجود (أم) في الكلام .

(٢) قال النحاس : وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى ، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام (أمْ) ، ولكن الفراء قال : يجوز حذف ألف الاستفهام في أفعال الشك ، وحكى : تُرى زيد منطلقاً ؟ بمعنى : أَتُرَى ، وعلَّق عليٌّ بن سليمان على كلام الفراء بقوله : إنما أخذه من ألفاظ العامة ، وقال الثعلبي حكاية عن الفراء : إن الآية إنكار من موسى عليه السلام على طريق الاستفهام الذي حذفت ألفه ، كقوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا رَبِّي ﴾ وقوله : ﴿ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ ، وكقول الشاعر :

رفَوْنِي وقالوا يا خُوَيْلِدُ لا تُــرَعْ فقُلْتُ وأنْكَرْتُ الوجوهَ : هُمُ هُمُ ؟

وأنشد الغزنوي شاهداً على ترك الألف قولهم :

لَمْ أَنْسَ يَوْمَ الرَّحِيلِ وَقْفَتَهَـا وَجَفْنُهَـا من دُمُوعها شَـرِقُ

وقَوْلَهَا والرِّكَابُ وَاقِفَـةٌ تَرَكْتَني هكذا وتَنْطَلِـقُ ؟

قال القرطبي : ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم (أمْ) خلاف قول النحاس .

بغيـر ألف ، وهـو صحيح كما قـال قتادة ، والله المعين .

وقال السدي ، والطبري : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ، كأنه يقول : «نعم ، وتربيتك نعمةٌ عليَّ من حيث عبَّدت غيري وتركتني ، ولكن ذلك لا يدفع رسالتي» [١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولكلٍّ وَجْه ناحيةٌ من الاحتجاج ، فالأول ماض في طريق المخالفة لفرعون ونقْض كلامه ، والثاني مُبْد مِنْ موسى عليه السلام أنه منتصف من نفسه معترف بالحق ، ومتى حصل أحد المتجادليْن في هذه الرتبة ، وكان حجيجه في ضدها غلب المنتصف بذلك ، وكان قوله أوقع في النفوس .

ولمَّا لم يُجْدِ فرعون ـ لعنه الله ـ هذا الطريق من تقريره على التربية وغير ذلك رجع إلى معارضة موسى عليه السلام في قوله : ﴿ رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأشياء ،

(١) وهناك رأي ثالث قاله الضحاك وهو أن الكلام خرج مخرج التبكيت ، والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام ، والمعنى : لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي ، فأيُّ نعمة لك عليَّ ؟ فأنت تَمُنُّ علي بما لا يجب أن تَمُنَّ به ؟

قال مكي : كما يستفهم عن الأجناس ، فلذلك استفهم بـ «ما» ، وقد ورد له استفهام بـ «من» في موضع آخر (١)، ويشبه أنها مواطن ، فأجابه موسى عليه السلام بالصفات التي يتبيَّن السامع منها أنه لا مشاركة لفرعون فيها ، وأنها ربوبية السموات والأرض ، وهذه المجادلة من فرعون تدل على أن موسى عليه السلام دعاه إلى التوحيد ، فقال فرعون عند ذلك : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ على معنى الإغراء أو التعجب من شنعة المقالة ؛ إذ كانت عقيدة القوم أن فرعونَ ربُّهم ومعبودهم ، والفراعنة قبله كذلك ، وهذه ضلالة منها في مصر وديارنا إلى اليوم بقية ، فزاده موسى عليه السلام في البيان بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ، فقال فرعون حينئذ – على جهة الاستخفاف – : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ . وقرأ جمهور الناس : [أَرْسَل] على بناء الفعل للفاعل ، فزاد موسى عليه السلام في بيان الصفات التي تُظهر نقص فرعون ، وتُبَيِّن أنه في غاية البعد عن القدرة عليها ، وهي ربوبية المشرق والمغرب ، ولم يكن لفرعون إلَّا مُلْك مصر من البحر إلى أسوان وأرض الإسكندرية ، وفي قراءة ابن مسعود وأصحابه : «رَبُّ المشَارِقِ والمغَارِبِ وما بَيْنَهُمَا» .

(١) هو قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ؟

قوله عزّ وجلّ :

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

لما انقطع فرعون – لعنه الله – في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغَلب ، وهذا أبين علامات الانقطاع ، فتوعَّد موسى عليه السلام حين أعياه خطابه ، وفي توعُّده بالسجن ضعف ؛ لأَنه حارب طباعه مَعَه[1] ، وكان – فيما روي – يفزع منه فزعاً شديداً حتى كان لا يُمسك بوله . ورُوي أَن سجنه كان أَشد من القتل ، إذ كان في مطبق من الأَرض لا ينطلق منه أبداً ، وكان مخوفاً .

(١) يريد أن فرعون خالف طبيعته في العنف والقتل مع موسى ، ولهذا توعده بالسجن ولم يأمر بقتله مباشرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه نزعة دار [. . .] إلى اليوم (١) .

وكان عند موسى عليه السلام من أمر الله تبارك وتعالى مالا يروعه معه توعُّد فرعون ، فقال موسى له على جهة التَّلَطُّف والطمع في إيمانه : ﴿ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِين ﴾ يتَّضح لك معه صدقي ؟ أفكنتَ تسجنني ؟(٢) فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة ، فقال له : ﴿ فَأْتِ بِهِۦٓ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ، فَأَلْقَى عَصَـٰاهُ ﴾ مِنْ يده ، وكانت من عصى الجنة ، وكانت عصا آدم عليه السلام ، وروي أنها كانت من ورق الريحان ، وكانت عند شعيب عليه السلام في جملة عصي الأنبياء عليهم السلام فأعطاها لموسى عليه السلام عند رعايته له الغنم على صورة قد تقدم ذكرها دلَّت على نُبوَّة موسى ، وكان لها في رأسها شعبتان ، فثمَّ كان فمُ الحيَّة . والثعبانُ أعظم ما يكون من الحيَّات ، وقد ذكرنا فيما تقدم ما روي في عظم الحيَّات وغير ذلك من قصص هذه الآية . ونزع موسى عليه السلام يده من

---

(١) بين العلامتين [.....] كلمة غير واضحة .

(٢) قال الزمخشري : ﴿ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ ﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام ، ومعناه : أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين ؟ وقال الحوفي : هي واو العطف دخلت عليها همزة الاستفهام للتقرير ، والمعنى : أتسجنني حتى في هذه الحالة التي لا تناسب أن أسْجَن وأنا متلبِّس بها ؟

جيبه فإذا هي تتلألأُ كأنها قطعة من الشمس ، فلما رأي فرعون ذلك هالَه ، ولم يكن له فيه مدفع ، غير أنه فزع إلى رميه بالسِّحر ، وطمِـع - لِعُلُوِّ علم االسِّحر في ذلك الوقت وكثرته - أن يكون فيه سبب لمقاومة موسى عليه السلام ، فأوهم قومه وأتباعه أن موسى عليه السلام ساحر ، وانتصب [حَوْلَه] على الظرف وهو في موضع الحال ، أي : كائنين حوله ، فالعامل فيه محذوف ، والعامل فيه هو الحال حقيقة ، والناصب له [قَالَ] لأنه هو العامل في ذي الحال بواسطة لام الجرِّ ، نحو مررت بهند ضاحكة .

ثم استشارهم في أمره وأغراهم به في قوله : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾[١] ، فأشاروا عليه بتأْخير أمره وأمر أخيه وجمْع السحرة لمقاومته ، ورُوي أنهم أشاروا بسجنه ، وهو كان الإرجاء عندهم ، «والإرجاءُ» : التَّأْخير ، ولم يشيروا بقتله لأَن حجّته نيِّرة وضلالتهم في ربوبية فرعون مبينة ، فخشوا الفتنة ، وطمعوا أن يُغلب بحجّة تقنع العوام . و «الحاشر» : الجامع . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ ، وهو بناءُ للمبالغة ، وقرأ عاصم أيضاً والأعمش : ﴿ بِكُلِّ سَاحِرٍ ﴾ .

---

(١) قال المفسرون : أوهم قومه أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ليقوّي تنفيرهم عنه ، إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن الذي نبتوا فيه . وقد استأمرهم فرعون واستشارهم فيما يفعل مع موسى وذلك لما حلّ به من الحيرة والدهشة ، وانحط عن مرتبة ألوهيته إلى مرتبة أصبح فيها يستشيرهم في أمره فيأمرونه ، فصار مأموراً بعد أن كان آمراً .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

اليوم هو يوم الزينة ، ويقال : يوم كسر خليج النيل ، فهو يوم الزينة على وجه الدهر بمصر ، وقال ابن زيد : إن هذا الجمع كان بالإسكندرية .

وقوله : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ ﴾ ليس معناه نتبعهم في السِّحْرِ ، إنما أراد ما معناه : نتَّبعهم في نصرة ديننا وملَّتنا ، والإبطال على معارضهـا .

وقرأ الأعرج ، وأبو عمرو : ﴿ أَئِنَّ لَنَا ﴾ بألف الاستفهام ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وشيبة : ﴿ إِنَّ لَنَا ﴾ على الإيجاب ، وقرأ عيسى : [نَعِم] بكسر العين ، والتقريب الذي وعدهم به فرعون هو الجاه الزائد على العطاء الذي طلبوه ، والقرب من الملك الذي كان عندهم إلٰهَهُم . واختلف الناس في عدد السحرة ، وقد ذكرنا ذلك

فيما تقدم ، وكانوا مجموعين من مدائن مصر وريف النيل ، وهي كانت بلاد السِّحر كالفرما وغير ذلك ، ومعظمهم كان من الفرما والجبال ، والعصي كانت أوقار الإبل[١] ، وقوله : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما القسم ، فكأنهم أقسموا بعزة فرعون ، كما تقول : بالله لا أفعل كذا وكذا ، فكان قسمهم بعزة فرعون غير مبرور ، والآخر أن يكون على جهة التعظيم لفرعون ــ إذ كانوا يعبدونه ــ والتبرُّك باسمه ، كما تقول ــ إذا ابتدأت بعمل شغل ــ : باسم الله ، وعلى بركة الله ، ونحو هذا .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

---

(١) الأوقار : جمع وِقْر وهو الحمل الثقيل ــ يقول : إن العصيّ كانت من الكثرة بحيث لا تحملها إلا الإبل الكثيرة .

تقدم في غير هذه السورة ما ذكر النـــاس في عظم الحيَّة حين ألقى موسى عليه السلام عصاه ، وفي هذه الآية متروك كثير يدل عليه الظاهر ، وقد ذُكر في مواضع أُخر ، وهو خوف موسى عليه السلام من ظهور سحرهم واسترهابهم للناس وتخييلهم في حبالهم وعصيهم أنها تسعى بقصد . ثم إن الحيَّة التي خلق الله من العصا التقمت تلك الحبال والعصي عن آخرها ، وأعدمها الله تعالى في جوفها ، وعادت العصا إلى حالها حين أخذ موسى عليه السلام بالفرجة التي كانت في رأسها فأدخل يده في فمها فعادت عصا بإذن الله تبارك وتعالى .

وقرأ جمهور القراء : [تَلَقَّف] بفتح التاء خفيفة واللام وشد القاف ، وقرأ حفص عن عاصم : [تَلْقَف] بسكون اللام وتخفيف القاف ، وروي البزِّي وابن فليح[1] عن ابن كثير بشد التَّاء وفتح اللَّام وشدّ القاف ، ويلزم على هذه القراءة إذا ابتدأ أن يجلبَ همزة الوصل ، وهمزةُ الوصل لا تدخل على الأفعال المضارعة ، كما لا تدخل على أسماء الفاعلين [2].

---

(١) في الأصول : « البزّي وفليح » ، والتصويب عن كتب القراءات وتفسير البحر المحيط الذي نقل عبارة ابن عطية بنصها ليعقب عليها بالتعقيب التالي .

(٢) قال في البحر المحيط تعقيباً على ذلك : «كأنه تخيل أنه لا يمكن الابتداء بالكلمة إلا باجتلاب همزة الوصل ، وليس ذلك بلازم ، وكثيراً ما يكون الوصل مخالفاً للوقف والوقف مخالفاً للوصل ، ومن له تمرُّن في القراءات عرف ذلك » .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي : ما يكذبون معه وبسببه في قولهم : إنها معارضة موسى عليه السلام ونوع من فعله ، والإفك : الكذب.

ثم إن السحرة لما رأوا العصا خالية من صنعة السِّحر ورأوا فيها بَعْدُ من أمر الله تعالى ما أيقنوا أنه ليس في قوة البشر أذعنوا ، ورأوا أن الغنيمة هي الإيمان والتمسك بأمر الله عزَّ وجلَّ ، فسجدوا كلهم لله تعالى مُقِرِّينَ بوحدانيته وقدرته ، ووصلوا إلى إيمانهم بسبب موسى وهارون عليهما السلام ، وصرحوا بأن ذلك على أيديهما ؛ لأن قولهم : ﴿ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يعني ذلك ، فلم يكرروا البيان في قولهم : ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ إلَّا لما ذكرناه .

فلما رأى فرعون والملأُ إيمان السحرة ، وقامت الحجّة بإيمان أهل علمهم ومظنّة نصرتهم وقع فرعون – لعنه الله – في الورطة العظمى ، فرجع إلى السحرة بهذه الحجة الأُخرى ، فوقفهم مُوَبِّخاً لهم على إيمانهم بموسى قبل إذنه ، وفي هذه اللفظة مفارقة عظيمة ؛ لأن أحد احتمالاتها أنهم لو طلبوا إذنه في ذلك أَذِنَ . ثم توعدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف ، وبالصلب في جذوع النخل ، فقالوا له : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أي : لا يضيرنا ذلك مع انقلابنا إلى مغفرة الله تعالى ورضوانه [1] ،

---

(١) يقال : لا ضَيْرَ ولا ضَوْرَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ ولا ضارورة بمعنى واحد ، وأنشد أبو عبيدة لخداش بن زهير :

فإنَّكَ لا يَضُورُكَ بعْدَ حَـــوْلٍ أَظَبْيٌ كانَ أُمُّكَ أَمْ حمَـــارُ

ورُوي أنه أنفذ فيهم ذلك الوعيد وصلبهم على النيل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : «أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء» ، وقولهم : ﴿ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يريد : من القبط وصنيعتهم ، وإلَّا فقد كانت بنو إسرائيل آمنت . وقرأ الناس : [أنَّا] بفتح الألف ، وقرأ أبان بن تغلب : [إنَّا] بكسر الألف بمعنى أن طمعهم إنما هو بهذا الشرط .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

ثم إن الله عزَّ وجلَّ لما أراد إظهار أمره في نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وقومه أمَر موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل إلى الملإ من مصر ، وأخبره أنهم سيُتَّبعون ، وأمره بالسير تجاه البحر ، وأمره بأن يستعير بنو إسرائيل حلي القبط وأموالهم ، وأن يكثروا من أخذ

أموالهم كيفما استطاعوا ، هذا ما رواه بعض المفسرين ، وأمره باتخاذ جراءِ الزاد ، فأمره أن اتخذه فطيراً لأنه أبقى وأثبت ، وروي أن الحركة أعجلتهم عن اتخاذ جراءِ الزاد ، وخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَراً ، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر ، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول موسى عليه السلام : كذا أُمرت ، فلما أَصبح فرعون وعلم بسرى موسى ببني إسرائيل خرج في أثرهم ، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر ، فروي أنه لحقه ومعه ستمائة ألف أدهم من الخيل حاشى سائر الألوان ، وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، والله أعلم بصحته ، وإنما اللازم من الآية الذي يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم في بني إسرائيل ، وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك العدد ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان مع فرعون ألف جبّار ، كلهم عليه تاج ، وكلهم أمير خيل .

و «الشِّرذمة» : الجمع القليل المحتقر ، وشرذمة كل شيءٍ بقيته الخسيسة ، وأنشد أبو عبيدة :

* مجدَّين في شراذِمِ النِّعَالِ *

وقال الآخر :

جاءَ الشِّتَاءُ وقَمِيصي أَخْـــلاقْ شَرَاذِمٌ يَضْحَكُ مِنْهَا التَّوَّاقْ (١)

وقوله : [لَغَائِظُونَ] يريد : بخلافهم الأمر وبأخذهم المال عارية وهروبهم منهم تلك الليلة على ما رُوي ، وقال أبو حاتم : وقرأ من لا يؤخذ عنه : «لَشِرْدِمَةٌ قَلِيلُونَ» ، وليست هذه موقوفة (٢) .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [حَذِرُونَ] ، وهو جمع (حَذِر) ، وهو المطبوع على الْحَذَرِ ، وهو هنا غير عامل ، وكذلك هو في قول ابن أحمر :

هَلْ أُنْسَـــأَنْ يَوْماً إلى غَيْرِهِ إنِّي حَـــوَالِيٌّ وإنِّي حَـذِرْ (٣)

---

(١) البيت في (اللسان — خَلَق وشَرْذَم) — عن ابن بري ، وفي (تَوَق) عن الأصمعي ، والثوب الأخلاق يصفون به الواحد إذا صار خَلَقا كلُّه ، كأن كل قطعة فيه خَلَقٌ ، فجمعه باعتبار أجزائه ، ومثل ذلك قولهم : «أرضٌ سَبَاسِب، وبُرْمَة أعشار ، وحَبْلٌ أَرْمام» ، والشراذم جمع شرذمة ، وهي الجماعة القليلة من الناس ، وثياب شراذم : أخلاق متقطعة ، وثوب شراذم : قطع . ويقال : نَفْسٌ تواقة : مشتاقة ، وقيل : التَّوَّاق اسم ابن الشاعر ، ويروى البيت بالنون ، ويكون المعنى حينئذ : الرجل الذي يروض الأمور ويصلحها ، قاله في الصحاح ، هذا وقد سبق الاستشهاد به .

وقال تعالى : [قَلِيلُونَ] لأن كل جماعة منهم كان يلزمها معنى القلة ، فلما جمع قيل : [قَلِيلُونَ] ، ومثل ذلك : حيٌّ واحدٌ ، وحيٌّ واحدون ، قال الكميت :

فَرَدَّ قَوَاصِيَ الأحْيَاءِ مِنْهُمْ فَقَدْ صارُوا كَحَيٍّ وَاحِدِينَا

(٢) يعني أن هذه القراءة ليست موقوفة على أحد رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ذلك أبو حيان الأندلسي ، وفي بعض الأصول : «وليست هذه موثوقة» .

(٣) البيت في (اللسان — حَوَل) ، استشهد به على أن الحواليّ هو الجَيِّد الرأي ذو الحيلة ، ونسبه لابن أحمر أيضاً، لكنه قال : (ويقال إنه للمرّار بن مُنْقذ العدوي) ، والرواية فيه =

واختُلف في عمل (فَعِل) ـ فقال سيبويه : إنه عامل ، وأنشد :

حَذِرٌ أُمُـــوراً لا تَضِيرُ وآمِنٌ ما لَيْسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الأَقْدَارِ (١)

وادَّعى اللاحقيُّ تدليس هذا البيت على سيبويه . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [حَاذِرُونَ] وهو الذي أخذ يحذر (٢) ، وقال عباس بن مرداس :

وإنِّي حاذِرٌ أَنْمي سِـــلاحِي إلى أَوْصَالِ ذَيَّالٍ صنيع (٣)

=« أوْ تَنْسأَنْ يَوْمِي »، وابن أحمر هو عمرو بن أحمر بن الغمرَّد بن فرَّاص ، كان أعور ، وعُمِّر تسعين سنة ثم سقي بطنه فمات . وابن عطية يستشهد بالبيت على أن (حَذِر) غير عامل على خلاف ما يراه سيبويه ، والحَذِرُ ــ كما في اللسان ــ هو المتيقظ المتحرر الشديد الحذر والفزع .

(١) استشهد سيبويه بهذا البيت على أن (حَذِر) تعمل مثل (حاذر) ،وقد ذكر ذلك في اللسان ، والبيت في خزانة الأدب ، وفي العَيْني حيث قال : « قائله أبو يحيى اللاحقي » ، وساق خبر أنه مصنوع ، وأنشده ابن الشجري دون أن ينسبه ، وروايته هو والعيني كما هنا : « لا تَضير » ، أي : لا تَضُرُّ ، ورواية الكتاب لسيبويه ، واللسان : « لا تُخَافُ » ، وقد رُوي عن اللاحقي أنه قال : سألني سيبويه عن شاهد في تعدِّي (فَعَل) فعملت له هذا البيتَ . وإعمالُ فَعِلٍ وفعيل مذهب لسيبويه ؛ لأنهما عنده محولان من (فاعل) المتعدي لإرادة المبالغة فيعملان عمله قياساً على (فَعُول وفَعَّال) ، وعورض سيبويه في هذا لأنهما بناءان لما لا يتعدى مثل كريم ولئيم وبَطِرٍ وأَشِرٍ . ومعنى البيت أن هذا الإنسان جاهل قليل المعرفة وأنه يحذر مالا ينبغي أن يُحذر أو يُخاف منه ، ويأمن ما لا يصح أن يُؤْمن .

(٢) يريد أن يقول : إن معنى (حَذِر) متيقظ وفي خِلْقته وطبيعته الحذر ، ومعنى (حاذر) مُسْتَعِدٌ أخذ يحذر ، أي : بدأ يتعلم الحذر في المستقبل لا في قصته ، وحكى النحاس عن أبي عبيدة أنهما بمعنى واحد ، وهو قول سيبويه الذي استشهد عليه ببيت ابن أحمر .

(٣) العباس بن مرداس شاعر وفارس ، أسلم قبل فتح مكة ، وحضر مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح في تسعمائة ونيِّف من قومه بني سُلَيْم، وكان يرجع إلى بلاده ولا يقيم =

وقرأ ابن أَبي عمَّار[١] ، وسُميْط بن عجلان: [حَادِرُونَ] بالدال غير منقوطة ، من قولهم : «عيْن حَدِرة» أَي : ممتلئة ، فالمعنى : ممتلئون غيظاً وأَنفة [٢].

والضمير في قوله تعالى : [فَأَخْرَجْنَاهُمْ] عائد على القبط ، و «الجنَّات والعيون» بحافتي النيل من أَسوان إلى رشيد ، قاله ابن عمر – رضي الله عنهما – وغيره ، و «الكُنُوز» قيل : هو إشارة إلى الأَموال التي خربوها ، قال مجاهد : لأَنهم لم ينفقوها قط في طاعة ، وقيل : هي إشارة إلى كنوز المقطَّم ومطالبه ، وهي باقية إلى اليوم ، و «المقام الكريم» قال ابن لَهيعَة : هو الفيُّوم ، وقيل : يعني به المنابر ، وقيل : مجالس الأُمراء والحكام ، وقال الحسن : المجالس الحسان ، وقرأ الأَعرج وقتادة بضم الميم ، من : أَقام [٣] .

= في مكة و لا المدينة . والبيت في (اللسان – ذَيَل)، ذكره شاهداً على أن (ذَيَّال) معناها : طويل الذَّيْل ، ومعنى «أَنْمي سلاحي» : أزيده وأَمُده ، يقال : أَنْميت الشيء ونَمَّيْته : جعلته نامياً ، والأوصال : المفاصل ، والذَّيَّال قد يقال للمختال المتبختر في مشيه من الخيل ، وقد يقال للرجل إذا تبختر فَجَرَّ ذيله وراءه ، والشاهد أن (حاذر) هنا هو الذي يأخذ في الحذر .

(١) في الأصول : «ابن أبي عمارة» ، والتصويب عن «البحر المحيط» و «القرطبي» ، قال القرطبي : «حكاها المهدوي عن ابن أبي عمَّار ، والماوردي والثعلبي عن سُمَيْط بن عجلان» .

(٢) وقال ابن خالويه : الحادر : السمين القويُّ الشديد ، يقال : غُلامٌ حدِرٌ بدِرٌ ، وقال صاحب اللوامح : حَدِر الرَّجل : قوي بأسه ، يقال : رجل حَدِرٌ بَدِرٌ إذا كان شديد البأس في الحرب ، وقال الشاعر :

أَحِبُّ الصَّبِيَّ السُّوءَ مِنْ أَجْـــلِ أُمِّهِ وأبغضهُ مِنْ بُغْضِهَا وهو حَـــادِرُ

(٣) المَقام – بالفتح – يكون الموضع ، ويكون مصدراً ، وهو من «قام يقوم» ، والمُقام – بالضم – يكون أيضاً الموضع والمصدر ، وهو من : أَقام يُقيم .

وتوريث بني إسرائيل يحتمل مقصدين : أحدهما أن الله قد ورَّثهم هذه الضفة من أرض الشام ، والآخر أنه ورَّثهم مصر ولكن بعد مدة طويلة من الدهر ، قاله الحسن ، على أن التواريخ لم تتضمن ملك بني إسرائيل في مصر ، و [مُشْرِقين] معناه : عند شروق الشمس ، أي : حين دخلوا فيه ، وقيل : معناه : نحو الشرق ، وقرأ الحسن : [فاتَّبَعُوهُم] بصلة الألف وشدِّ التاء (١) .

فلما لحق فرعونُ بِجَمْعه جمْعَ موسى عليه السلام وقرُب منهم ، ورأت بنو إسرائيل العدوَّ القويَّ وراءهم والبحر أمامهم ــ ساءت ظنونهم ، وقالوا لموسى عليه السلام ــ على جهة التَّوبيخ والجفاء ــ : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ، أي : هذا دأبك ، فردَّ عليهم قولهم وزَجَرهم ، وذَكَر وعْد الله تبارك وتعالى له بالهداية والظَّفر ، وقرأ الجمهور : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ، وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير : ﴿ إِنَّا لَمُدَّرَكُونَ ﴾ بتشديد الدال وفتح الرَّاء (٢) ، ومعناه : يُتَتَابع علينا حتى نفنى ،

(١) في الأصول : «بصلة الألف وسكون التاء» ، والتصويب عن البحر المحيط ، وهي أيضاً قراءة الذماري .

(٢) الذي في الأصول أن هذه القراءة بفتح الدال وشد الراء ، أي : «لَمُدَرَّكُون» ، والتصويب عن القرطبي ، والبحر المحيط ، والمحتسَب ، وكتب القراءات ، وهي أيضاً قراءة الزهري ، وهي من ادَّرَكَ ، ووزنها (مُفْتَعلون) ، وقال الفراء في معاني القرآن: «كما تقول : حَفَرت واحْتَفرت بمعنى واحد ، فكذلك [لَمُدَّركون] و [لَمُدركون] معناهما واحد ، والله أعلم» . وعلَّق النحاس على كلامه فقال: وليس كذلك يقول النحويون الحذَّاق ، إنما =

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ تَرِيءَ الْجَمْعَانِ ﴾ بكسر الراءِ وبمدٍّ ثُمَّ بِهَمْزٍ ، ورُوِي مثله عن عاصم ، ورُوِي أيضاً عنه مفتوحاً ممدوداً ، والجمهور يقرؤُونه مثل (تَراءَى) ، وهذا هو الصواب ؛ لأنه تفاعل ، قال أبو حاتم : «وقراءة حمزة في هذا الحرْف محال» ، وحَمَل عليه وقال : «وما رُوِي عن ابن وثاب والأعمش خطأ» (١) .

=يقولون : مُدْرَكون: مُلْحقون ، ومُدَّرَكون : مجتهد في لحاقهم ، والذي يعنينا هو الضبط الصحيح للقراءة ، ونعتقد أن النساخ قد كثر منهم الخطأ في ضبط القراءات وفي كثير من الكلمات في هذا الجزء بالذات ، ونحن نحاول التصويب عن كتب القراءات وكتب التفسير ودواوين الشعر ، والله الموفق والمعين .

(١) قال ابن خالويه في كتابه (الحجة في القراءات السبع) : «الخُلف في الوقف عليه ، فوقف حمزة [تَرِي] بكسر الراء ومدٍّ قليل ؛ لأن من شرطه حذف الهمزة في الوقف ، فكان المد إشارة إليها ودلالة عليها ، ووقف الكسائي بالإمالة والتمام ، ووقف الباقون بالتفخيم والتمام على الأصل ، فإن كانت الهمزة للتأنيث أشير إليها في موضع الرفع وحذفت في موضع النصب» . وقال الدانيُّ : «حمزة قرأ بإمالة فتحة الراء في الوصل ، وإذا وقف أتبعها الهمزة فأمالها مع جعلها بَيْن بَيْن على أصله ، فتصير بين ألفيْن مُمَالتَيْن : الأولى أميلت لإمالة فتحة الراء ، والثانية أميلت لإمالة فتحة الهمزة» . وقال الأستاذ أبو جعفر أحمد ابن الأستاذ أبي الحسن بن الباذش في كتابه (الإقناع) : «إذا قف عليها حمزة والكسائي أمالا الألف المنقلبة عن لام الفعل ، وحمزة يُميل ألف تفاعل وصلا ووقفاً لإمالة الألف المنقلبة ، ففي قراءته إمالة الإمالة ، وفي هذا الفعل ، وفي (رَاءى) إذا استقبله ألف وَصْل لمن أمال للإمالة حَذْف السبب وإبقاءُ المسبب» .

وبهذا يتضح لنا حقيقة قراءة حمزة التي حمل عليها أبو حاتم ، وأفاد كلام ابن عطية أنها خطأ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

لما عظم البلاءُ على بني إسرائيل أمر الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر ؛ وذلك أنه عزَّ وجلَّ أراد أن تكون الآية متَّصلة بموسى عليه السلام ، ومتعلقة بفعل فَعَله ، وإلَّا فضرب العصا ليس بفالق البحر ولا مُعين على ذلك بذاته ، إلَّا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه ، ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماءُ بينها كالجبل العظيم . و « الطَّوْدُ »: الجبل (١) ، ورُوي عن ابن جريج والسّدي وغيرهما أن بني إسرائيل ظن كل فريق منهم أن الثاني قد غرق ، فأمر الله تعالى الماءَ فصار كالطِّيقان ، فرأى بعضهم بعضاً فتأسوا (٢) .

---

(١) ومنه قول امرئ القيس :

فَبَيْنَا المَرْءُ في الأحْيَـاءِ طَوْدٌ رَمَاه النَّاسُ عَنْ كَثَبٍ فَمَالا

وقول الأسود بن يعفُر :

حَلُّوا بأَنْقِرَةٍ يَسيلُ عَلَيْهِمُ مَاءُ الفُراتِ يَجيءُ مِن أطْوَادِ

(٢) يريد : تأسَّى كل فريق منهم بالآخر ، أي : اتَّخذه أُسوة واقتدى به في عبور البحر .

[وَأَزْلَفْنَا] معناه : قربنا ، وقرئ بالقاف ، ونسبها أبو الفتح إلى عبد الله بن الحارث[١] ، وقرأ الحسن وأبو حيوة : [وَزَلَفْنَا] بغير ألف ، وذلك أن فرعون ـ لعنه الله تعالى ـ لما وصل إلى البحر وقد دخله بنو إسرائيل ، قيل : صمّم وقال لقومه : إنما انفلق بأمري ، فدخل على ذلك ، وقيل : بل كعَّ[٢] وهمَّ بالانصراف ، فعرض جبريل عليه السلام على فرسٍ وَدِيقٍ[٣] ، فمضى وراءها حصان فرعون ، فدخل على نحو هذا واتّبعه الناسُ ، ورُوي أن الله تعالى جعل ملائكة تسوق قومه حتى حصلوهم في البحر ، ثم إن موسى عليه السلام وقومه خرجوا إلى البر من تلك الطرق ، ولما أَحَسُّوا باتباع فرعون وقومه فزعوا من أن يخرج وراءهم ، فهَمَّ موسى عليه السلام بخلط البحر ، فحينئذ قيل له : ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً ﴾[٤]، ولما تكامل جند فرعون وهمَّ مقدمتهم بالخروج انطبق البحر عليهم وغرقوا ، ودخل موسى عليه السلام البحر بالعرض وخرج في الضفة التي دخل منها بعد مسافة ،

---

(١) قال أبو الفتح في كتابه « المحتسب » بعد أن نسب القراءة إلى عبد الله : « مَنْ قرأ : [وَأَزْلَفْنَا] بالفاء فالآخرون موسى عليه السلام وأصحابه ، ومن قرأها بالقاف فالآخرون فرعون وأصحابه ، أي : أهلكنا ثمَّ الآخرين ، أي : فرعون وأصحابه » .

(٢) كعَّ : جَبُنَ وضعف ، يقال : كعَّ كعّاً وكُعُوعاً فهو كعٌّ وكاعٌّ . (المعجم الوسيط) .

(٣) يعني أنها فرسٌ استسلمت لحصان فرعون ، بأن قربت منه ، وأمكنته منها ، واستأنست له ، وفي المَثَل : « وَدَقَ الْعَيْرُ إلى الماء » أي : دنا منه ، يضرب لمن خضع للشيء . (راجع الصحاح والمعجم الوسيط) .

(٤) من الآية (٢٤) من سورة (الدخان) .

وكان ذلك في يوم عاشوراء . وقال النقاش : البحر الذي انفلق لموسى عليه السلام نهر النيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مردود إن شاء الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ تنبيه على موضع العبرة ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي : عزَّ في نقمته من الكفار ، ورحم المؤمنين من الأُمة ، وقد مضى كثير مما يلزم ذكره من قصة موسى عليه السلام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

هذه القصة تضمنت الإعلام بغيب ، والإتيان بما يقطع أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرفه ، ثم ظهر على لسانه في ذلك ما في

الكتب المتقدمة ، وليست هذه الآية مثالا لقريش في أمر الأصنام فقط ، لأنه ليس فيها تكذيب وعذاب ، وقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير ، والصّنم ما كان من الأوثان على صورة بني آدم ، كان من حجر أو عود أو غير ذلك ، و « ظَلَّ » عرفها في فعل الشيءِ نهاراً ، و « بات » عرفها في فعله ليلًا ، و « طفق » عامة للوجهين ، ولكن قد يجيءُ « ظَلَّ » بمعنى العموم ، وهذا الموضع من ذلك . و « العُكوفُ » ؛ اللُّزوم ، ومنه المعتكف ، ومنه قول الراجز :

. . . . عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الْفَنْزَجَا (١)

ثم أخذ إبراهيم عليه السلام يوقفهم على أشياء يشهد العقل أنها بعيدة عن صفة الإلٰه ، وقرأ الجمهور بفتح الياء من [يَسْمَعُونَكُمْ] ، وقرأ قتادة بِضَمِّها وكسر الميم ، من أسمع ، والمفعول ـ على هذه القراءة ـ محذوف (٢) . وقرأ جمهور القراءِ : ﴿إِذْ تَدْعونَ﴾ بإدغام الدال في

---

(١) هذا شطر بيت قاله العجاج الراجز ، وهو في (اللسان ـ عكَفَ) ، قال : « عكَفَ على الشيءِ يعكُف ويعكِف عكْفاً وعُكُوفاً : أقبل عليه مواظباً لا يصرف عنه وجهه ، وقيل : أقام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ أي : مُقيماً ، يقال : فلانٌ عاكف على فرْج حرام ، قال العَجّاج يصف ثوراً :

فَهُنَّ يَعْكُفْنَ بِهِ إذَا حَجَا عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الْفَنْزَجَا

أي : يقبلن عليه » . وحَجَا : وَقَفَ ، والنَّبيط : جيلٌ ينز لون السَّواد من العراق، وهم الأنباط ، والفَنْزَجَةُ والفَنْزَج : النَّزَوان ، وقيل : هو اللعب الذي يقال له : الدَّسْتَبَنْد ، وهو رقص المجوس إذا أخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون .

(٢) تقديره : هل يُسمِعونكم الجوابَ أو الكلامَ ؟

التاء بعد القلب ، ويجوز فيه قياس (مُذَّكر) ، ولم يقرأ به أحد ، والقياس أن يكون اللفظ به «إذْ دَدْعون» ، والذي منع من هذا اللفظ اتصال الدال الأصلية في الفعل فكثرت التماثلات [١] .

وقولهم : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أقبح وجوه التقليد ؛ لأنه على ضلالة ، وفي أمْر بيِّنٍ خلافُه ، وعظيمٍ قدرُه ، فلما صرحوا لإبراهيم عليه السلام عن عظم ذلك وعدم نظرهم ، وأنه لا حجة لهم ، خاطبهم ببراءته من جميع ما عُبد من دون الله عزَّ وجلَّ وعداوته له ، وعبَّر عن بغضته واطِّراحه لكل معبود سوى الله تعالى بالعداوة ؛ إذ هي تقتضي التفسير ، وقيل : في الكلام قلْبٌ ؛ لأن الأصنام لا تُعَادِي وإنما هو عاداها [٢] . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ قالت فرقة :

---

(١) علَّق أبو حيان على ذلك بقوله : «وهذا الذي ذكَر أنه يجوز فيه قياس (مذَّكر) لا يجوز ؛ لأن ذلك الإبدال – وهو إبدال التاء دالا – لا يكون إلا في (افْتَعل) مما فاؤه ذالٌ أو زايٌ أو دالٌ ، نحو : اذْدكر ، وازْدَجر ، وادَّهن ، أصله : اذْتكَر ، وازْتَجَر ، وادْتَهَن ، أو جيم شذوذاً ، قالوا : إجْدَمَع في اجتمع . ومن تاء الضمير بعد الزاي والدال ، ومثلوا بتاء الضمير للمتكلم ، فقالوا في فُزْت : فُزْدُ ، وفي جلَدْتُ : جلَدُّ . ومن تاء تُولج شذوذاً ، قالوا : دولج ، وتاءُ المضارعة ليست شيئاً مما ذكرناه فلا تبدل تاؤه . وقول ابن عطية : (والذي منع من هذا اللفظ ... الخ) يدل على أنه لولا ذلك لجاز إبدال تاء المضارعة دالا وإدغام الذال فيها ، فكنت تقول في اذتخرج : ادَّخرج ، وذلك لا يقوله أحد ، بل إذا أدغم مثلُ هذا أبدل من الذال تاءً وأدغم في التاء فتقول : اتَّخرج » . (البحر المحيط ٧–٢٣) .

(٢) قال بعض العلماء : «لا ضرورة تدعو إلى ذلك ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ فهذا معنى العداوة ، ولأن المغري على عداوتها عدوُّ الإنسان وهو الشيطان» .

هو استثناءٌ متصل ؛ لأَن في الآباءِ الأَقدمين مَنْ قَدْ عبد من دون الله تبارك وتعالى ، وقالت فرقة : هو استثناءٌ منقطع ؛ لأَنه إنما أَراد عبادة الأَوثان من كل قرن منهم ، ولفظة [عَدُوّ] تقتضي الجمع والمفرد والمؤنث .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

أَثنى إبراهيم عليه السلام على الله تعالى بهذه الأَوصاف التي وصف اللهَ تعالى بها ، والمتصف بها يستحق الأَوصاف الفعلية التي تخصّ البشر . و ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي ﴾ بقدرته ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أَي : يرشدني إلى طاعته ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ تجديد للنعمة في الرزق ، وقال أَبو بكر الورَّاق في كتاب الثعلبي : «المعنى : يطعمني بلا طعام ، ويسقيني بلا شراب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنِّي أَبيت

عند ربِّي يطعمني ويسقيني)(١) ، وأسند إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله عزَّ وجلَّ ، وهذا من حسن الأَدب في العبارة ، والكل من عند الله ، وهذا كقول الخضر عليه السلام : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾(٢) ، وقال جعفر الصادق : إذا مرضتُ بالذنوب شفاني بالتوبة ، وقرأ الجمهور هذه الأَفعال : [يَهْدِينِ – يَسْقِينِ – يَشْفِينِ – يُحْيِينِ] بغير ياءٍ ، وقرأ نافع وابن إسحق : [يَهْدِينِي] بالياء ، وكذلك ما بعده .

وأوقف إبراهيم عليه السلام نفسه على الطمع في المغفرة ، وهذا دليل على شدة خوفه مع منزلته وخلَّته ، وقوله : [خَطِيئَتِي] ذهب فيه أكثر المفسرين إلى أنه أراد كذباته الثلاث : قوله : «هي أُخْتِي» في شأْن سارة ، وقوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾(٣) وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾(٤) ، وقالت فرقة : أراد بالخطيئة اسم الجنس ، قدرها في كل أمره من غير تعْيِين .

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والدارمي ، والإمام أحمد ، ولفظه كما في سنن الدارمي عن أبي هريرة : (قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال ، فقال له رجل من المسلمين : فإنك تُواصل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنِّي لستُ مثلكم ، إنِّي أبيت يطعمني ربِّي ويسقيني ، فلما أبَوْا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال ، فقال : لو تأخَّر لزدتكم ، كالمتنكِّل لهم حين أبوْا أن ينتهوا) .

(٢) نسب العيبَ إلى نفسه في هذه الآية ، ونسب الخيرَ إلى الله في قوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ ، الآيتان (٧٩) ، (٨٢) من سورة (الكهف) .

(٣) من الآية (٨٩) من سورة (الصافَّات) .

(٤) من الآية (٦٣) من سورة (الأنبياء) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أظهر عندي ؛ لأن تلك الثلاث قد خرّجها كثير من العلماء على المعاريض ، وهي ـ وإن كانت كذبات بحكم قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلّا ثلاث كذبات) (١) ، وبحكم ما في حديث الشفاعة من قوله في شأن إبراهيم عليه السلام : نفسي نفسي ، وذِكْر كذباته (٢) ـ فهي في مصالح وعون شرع وحق .

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء والنكاح ، ومسلم في الفضائل ، وأبو داود في الطلاق ، والترمذي في تفسير سورة الأنبياء ، وأحمد ٢ـ٤٠٣ ، ولفظه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دعي إلى آلهتهم : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ ، وقوله لسارة : إنها أختي ، قال : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، فقيل : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار : من هذه معك ؟ قال : أختي ، قال أرسل بها ، فأرسل بها إليه وقال لها : لا تكذّبي قولي ، فإني قد أخبرته أنك أختي ، إنْ على الأرض مؤمن غيري وغيرك ، قال : فلما دخلت إليه قام إليها ، قال : فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول : اللّهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي ، فلا تسلط عليّ الكافر ، قال : فغطّ حتى ركض برجله ...) الخ الحديث .

(٢) أخرجه البخاري ، والترمذي ، وأحمد ، وهو حديث طويل رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن الشفاعة ، وفيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيّد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون ممّ ذلك ؟ يُجْمع الناس الأوّلين والآخرين في صعيد واحد ، يُسْمِعهم الداعي وَيَنْفُذُهم البصر وتدنو الشمس ، فيبلغ الناسَ من الغَمّ والكَرْب مالا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناسُ : ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربّكم ؟) ... فيذهبون إلى آدم، ثم إلى نوح ، ثم إلى إبراهيم ... (فيقولون : يا إبراهيم ، أنت نبي الله وخليله من =

وقرأ الجمهور : [خَطِيئَتِي] بالإفراد ، وقرأ الحسن : [خَطَايَايَ] بالجمع .

و «الحُكْمُ» الذي دَعَا به إبراهيم عليه السلام هو الحكمة والنبوة ، ودعاءُ إبراهيم عليه السلام في مثل هذا هو في معنى التثبيت والدوام ، و «إلحاقه بالصالحين» : توفيقه لعمل ينتظمه في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في الجنة ، وقد أجابه تبارك وتعالى حيث قال : ﴿ وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴾[1] ، و «لِسَانُ الصِّدْق» هو الثناءُ وتخليد المكانة بإجماع من المفسرين ، وكذلك أجاب الله دعوته ، فكلُّ ملَّة تتمسَّك به وتُعظِّمه ، وهو على الحنيفية التي جاءَ بها محمد صلى الله عليه وسلم . قال مكِّيٌّ : وقيل : معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق فأُجيبت الدعوة في محمد صلى الله عليه وسلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا معنى حسن إلَّا أن لفظ الآية لا يعطيه إلَّا بتحكُّم في اللفظ .

ولما فرغ من مطالب الدنيا طلب سعادة الآخرة وهي جنَّة النَّعيم ،

= أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات ـ فذكرهن أبو حيان في الحديث ـ نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى) ... وهكذا حتى ينتهي بهم الموقف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عزَّ وجلَّ ... الخ الحديث) ... فيَشْفَع ويُشَفَّع ، صلى الله عليه وسلم.

(١) من الآية (١٣٠) من سورة (البقرة) ، وتكررت في الآية (١٢٢) من سورة (النحل) ، وفي الآية (٢٧) من سورة (العنكبوت) .

وشبهها بما يورث ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾[١] ، واستغفاره لأبيه في هذه الآية هو قبل أن يتبيَّن له بموته على الكفر أنَّه عدوٌّ له ، أي محتوم عليه ، وهو عن الموعدة المذكورة[٢] ، وقرأ أُبيُّ بن كعب : « واغْفِرْ لِأَبَوَيَّ إنهما كانا من الضالِّين ».

﴿ وَلَا تُخْزِنِي ﴾ إما من الخزْي وهوَ الهوان ، وإما من الخزاية وهي الحياءُ ، والضمير في [يُبْعَثُونَ] ضمير العباد لأنَّه معلوم ، أو ضمير الضَّالين ، ويكون من جملة الاستغفار .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

[يَوْمَ] بدل من الأول في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ ، والمعنى : يوم لا تنفع أعلاق الدنيا ومحاسنها[٣] ، فقصد من ذلك الذكرِ العظيمَ

---

(١) الآية (٦٣) من سورة (مريم) .
(٢) في قوله تعالى في الآية (١١٤) من سورة (التوبة) : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ .
(٣) العِلْق : النَّفيس من كل شيءٍ يتعلق به القلب ، والجمع : أعلاق .

والأَكْثَرَ ؛ لأَن المال والبنين هما زينة الحياة الدنيا ، والظاهر أَن الاستثناء منقطع ، أَي : لكن من أَتى الله بقلب سليم ينفعه سلامة قلبه ، وقوله : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ معناه : خالص من الشِّرك والمعاصي وعلق الدنيا المتروكة وإن كانت مباحة كالمال والبنين ، قال سفيان : هو الذي يلقى ربَّه وليس في قلبه شيءٌ غيره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يقتضي عموم اللفظة ، ولكن السليم من الشِّرك هو الأَهم ، وقال جنيد : بقلب لديغ من خشية الله ، و «السليم» : اللديغ .

[وَأُزْلِفَتْ] معناه : قربت ، و «الغاوون الذين بُرِّزت لهم الجحيم» هم المشركون بدلالة أَنهم خوطبوا في أَمر الأَصنام ، والقول لهم : ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ ﴾ هو على وجه التقريع والتوبيخ والتوقيف على عدم نظرتهم نحوه . وقرأَ الأَعمش : [فَبُرِّزَت] بالفاء ، والجمهور بالواو [1] ، وقرأَ مالك بن دينار : [وَبَرَزَت] بفتح الباء والتخفيف ورفع [ٱلْجَحِيم] .

ثم أَخبر عن حال يوم القيامة من أَن الأَصنام تُكَبْكَب في النَّار ، أَي تُلْقَى كَبَّةً واحدة ، ووصل بها ضمير من يعقل من حيث ذكرت

(١) قراءة الأعمش بالفاء تجعل تبريز الجحيم بعد تقريب الجنة مباشرة ، وذلك لأن الفاء للترتيب والتعقيب ، أما الواو فلمطلق الجمع فيمكن أن يكون كل واحد منهما قد ظهر قبل الآخر ، وقراءة الفاء تدل على تقديم الرحمة على العذاب ، وهو حسن لولا أن جمهور القراء قرأ بالواو ، وهو رسم المصحف . (قاله في البحر المحيط) .

بالعبادة ، وكادت تسند إليها أفعال من يعقل ، والضمير في قوله : [هُمْ] يعود على الكفار ، و [ٱلْغَاوُونَ] : الشياطين . و «كُبْكِبَ» مضاعف من «كَبَّ» ، هذا قول الجمهور ، وهو الصحيح ؛ لأن معناهما واحد ، والتضعيف بيِّن ، مثل : صرَّ وصرصر ، وغير ذلك . و [ٱلْغَاوُونَ] : الكفرة الذين شملتهم الغواية ، و ﴿جُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ : نَسْلُه وكلٌّ من تبعه لأنهم جنْدٌ له وأعوان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

ثم وصف تعالى أن أهل النار يختصمون فيها ويتلاومون ، ويأْخذون في شأْنهم بجدال ، ومن جهلهم قولهم لأَصنامهم ـ على جهة الإقرار وقول الحقِّ ـ : قسماً بالله إن كنَّا لفي ضلال مبين في أن نعبدكم ونجعلكم سواءً مع الله تعالى الذي هو ربُّ العالمين وخالقهم ومالكهم ، ثم عطفوا يردُّون الملامة على غيرهم ، أي : ما أَضلَّنا إلا كبراؤُنا وأهل الحزم والجرأة والمكانة ، ثم قالوا ـ على جهة التلهف والتأَسف ـ

ـ حين رأوا شفاعة الملائكة والعلماء والأنبياء نافعة في أهل الإيمان عموماً ، وشفاعة الصديق في صديقه خاصة ـ : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ، وفي هذه اللفظة تنبيه على محلِّ الصديق من المرء ، قال ابن جريج : [شَافِعِينَ] من الملائكة ، و [صَدِيقٍ] من الناس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولفظة «الشفيع» تقتضي رفعة مكانة عند المشفوع عنده ، ولفظة «الصديق» تقتضي شدة مساهمة ونصرة ، وهو (فعيل) من صدق الودِّ من أبنية المبالغة [1] .

و «الحميم» : الوَلِيُّ والقريب الذي يخصك أمره ويخصه أمرك ، وجامعة الرجل خاصته ، وباقي الآية بيِّن قد مضى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الآياتُ من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ هي عندي منقطعة من كلام إبراهيم عليه السلام ، وهي إخبارٌ من

---

(١) نقل ابن عطية هذا الكلام عن ابن جريج ، وللكلام بقية منها : «ونفي الشفعاء والصديق يحتمل أن يكون نفياً لوجودهم إذ ذاك وهم موجودون للمؤمنين ، إذ تشفع الملائكة ، ويتصادق المؤمنون ، كما قال تعالى : ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ، أو ذلك على حسب اعتقادهم في معبوداتهم أنهم شفعاؤهم عند الله ، وأن لهم أصدقاء من الإنس والشياطين ، فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع ؛ لأن مالا ينفع حكمه حكم المعدوم ، فصار المعنى : فمالا مِنْ نفع من كنا نعتقد أنهم شفعاء وأصدقاء» .

الله عزَّ وجلَّ تعلق من صفة اليوم الذي وقف إبراهيم عليه السلام عنده في دعائه ألا يخزى (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ * قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

---

(١) ناقض أبو حيان ابن عطية في كلامه هذا فقال : «كان ابن عطية قد أعرب ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ ﴾ بدلا من ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ وعلى هذا لا يتأتى هذا الذي ذكره ؛ لأنه يفكك الكلام ويجعل بعضه من كلام إبراهيم وبعضه من كلام الله تعالى . لأن العامل في البدل ـــ على مذهب الجمهور ـــ فعل آخر من لفظ الأول ، أو الأول ، وعلى كلا التقديرين لا يصح أن يكون من كلام الله تعالى ؛ إذ يصير التقدير : «ولا تخزني يوم لا ينفع مال ولا بنون» . »

أسند [كَذَّبَتْ] إلى «القوم» وفيه عدم التأنيث من حيث «القوم» في معنى الأُمة والجماعة(١) . وقوله : [ٱلْمُرْسَلِينَ] من حيث أنَّ من كذَّب نبيًّا واحداً فقد كذَّب جميع الأنبياءِ ؛ إذ قولهم واحد ، ودعوتهم سواءٌ ، وقوله تعالى : [أَخُوهُمْ] يريد : في النسب والمنشإ ، لا في الدين ، و [أَمِينٌ] معناه : على وحي الله تعالى ورسالته ، يريد : في المنشإ .

وقرأ ابن كثير ، وعاصم(٢) : [أَجْرِي] ساكنة الياء ، وقرأ نافع ، وأبو جعفر ، وشيبة بفتح الياءِ في كل القرآن ، ثم ردَّد عليهم الأمرَ بالتقوى والدعاءِ إلى الطاعة تحذيراً ونذارة وحرصاً عليهم ، فذهب أشرافهم إلى استنقاص أتباعه بسبب صغار الناس الذين اتبعوه وضعفائهم ، وهذا كقول قريش في عمَّار بن ياسر ، وصهيب ، وغيرهما . وقال بعض الناس : [ٱلْأَرْذَلُونَ] : الحاكة والحجَّامون والأساكفة .

---

(١) وقيل : (قوم) مؤنث مجاوي ، ويصغر قويمة ، فلذلك جاء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ، ولما كان مدلوله أفراداً ذكوراً عقلاء عاد الضمير عليه كما يعود على الجمع المذكَّر العاقل .

(٢) لعلَّ هذه القراءة عن عاصم برواية أبي بكر ، وإلا فإن قراءة عاصم برواية حفص هي [أَجْرِيَ] بفتح الياء ، كما هي ثابتة في المصحف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي على جهة المثال ، أي : أهل الصنائع الخسيسة ، لا أن هذه الصنائع المذكورة خصت بهذا ، و [ٱلْأَرْذَلُونَ] : جمع الأرذل ، ولا يستعمل إلَّا مُعرفاً أو مضافاً ، أو بمن ، ويظهر من الآية أن مراد قوم نوح بنسبة الرذيلة إلى المؤمنين تهجين أفعالهم ، لا النظر في صنائعهم ، ويدل على ذلك قول نوح : ﴿ وَمَا عِلْمِي ﴾ الآية ؛ لأن معنى كلامه : ليس في نظري وعلمي بأعمالهم ومعتقداتهم فائدة ، فإنما أقنع بظاهرهم واجتزئ به ، ثم حسابهم على الله تبارك وتعالى ، وهذا نحو ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ... الحديث بجملته) (١) .

وقرأ جمهور الناس : [وَٱتَّبَعَكَ] على الفعل الماضي ، وقرأ ابن السميفع اليماني ، وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري: [وَأَتْبَاعُكَ]

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد في مسنده ، ولفظه كما في البخاري في كتاب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أمرت أن أقاتل النّاس حتى يشهدوا أن لا إلــه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله) .

على الجمع ، ونسبها أبو الفتح إلى ابن مسعود ، والضحاك ، وطلحة ، قال أبو عمرو : وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما ، والأعمش ، وأبي حيوة [١] . وقرأ عيسى بن عمر الهمذاني : ﴿ لَوْ يَشْعُرُونَ ﴾ بالياء من تحت ، وقرأ الجمهور : [تَشْعُرُونَ] بتاء الخطاب . وإعراب قوله : [وَأَتْبَاعُكَ] إما جعله في موضع الحال ، وإما عطف على الضمير في قوله : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ ، وحسَّن ذلك الفصلُ بقوله : [لَكَ] [٢] .

وقوله : ﴿ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ يحتمل أن يريد : بالحجارة ، ويحتمل أن يريد : بالقرآن والشتم ونحوه وهو شبيه برجم الحجارة ، وهو من الرجم بالغيب والظن ونحو ذلك . وقوله : [ٱفْتَحْ] معناه : احكم ، والفَتَّاح : القاضي بلغة يمنية ، و [ٱلْفُلْكُ] : السفينة ، وجمعها فُلْكٌ أيضاً ، وقد تقدم بسط القول في هذا الجمع في سورة الأعراف ، و [ٱلْمَشْحُون] معناه : المملوءُ بما ينبغي له من قدر ما يحمل ، وباقي الآية بيِّن .

---

(١) قال أبو الفتح في المحتسَب : «تحتمل هذه القراءة ضربين من القول مختلفي الطريق إلا أنهما متفقا المعنى : أحدهما أن يكون أراد : أنؤمن لك وإنما أَتْبَاعُك الأرذلون ؟ فـ[أَتْبَاعُك] مرفوع بالابتداء ، و [الأَرْذَلُونَ] خبر ، والآخر أن يكون [أَتْبَاعُكَ] معطوفاً على الضمير في [أَنُؤْمِنُ] ، أي : أنؤمن لك نحن و[أَتْبَاعُكَ] الأرذلون ، فـ[الأَرْذَلُون] وصفٌ للأتباع» . وقد نقل ابنُ عطية خلاصة لهذا .

(٢) فصار طول الكلام به كالعوض من توكيد الضمير بقوله : نحن ، وذلك أن العوَض ينبغي أن يكون في شِقّ المعوَّض منه ، وأن يكون قبل حرف العطف ، وهذه هي صورة قوله : [لَكَ] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

[عَادٌ] : قبيلة ، وانصرف للخفة ، وقيل : هو اسم أبيهم ، وخاطبهم هود عليه السلام بمثل مخاطبة سائر الرُّسل ، ثم كلمهم فيما انفردوا به من الأفعال الّتي اقتضتها أعمالهم ، فقال : [أَتَبْنُونَ] على جهة التوبيخ ، و «الرِّيعُ» : المرتفع من الأَرض ، ومنه قول المسيَّب ابن علس يصف طريقاً :

في الآلِ يخْفِضُهَا ويرْفَعُهَـا ريعٌ يَلُوحُ كأنَّهُ سَحْـلُ (١)

والسَّحْل : الثوب الأبيض ، ومنه قول ذي الرُّمَّة :

طِرَاقُ الْخَوَافِي مُشْرِقٌ فوْقَ رِيعَةٍ نَدَى لَيْلِهِ في رِيشِهِ يَتَرَقْرَقُ (٢)

ومنه قول الأعشى :

ويَهْمَاءَ قَفْـرٍ تَجَاوَزْتُهَـا إِذَا خَبَّ في رِيعِهَا آلُهَا (٣)

ويقال : (ريعٌ) بكسر الراءِ ، ويقال : (رَيْعٌ) بفتحها ، وبها قرأ ابن أبي عبلة ، وعبَّر بعض المفسرين عن «الرِّيع» بالطريق ، وبعضهم بالفَجِّ ، وبعضهم بالثَّنِيَّة الصغيرة .

---

(١) المسيَّب (بفتح الياء المشدَّدة) ، و (علَس) بفتحتين ، اسمه : زهير بن علَس ابن مالك ، والمسيَّب لَقَب لُقِّب به ببيت قاله . وهو من شعراء بكر بن وائل المعدودين ، وخال الأعشى ، والبيت في اللسان (رَيَع) ، قال : الرِّيع والرَّيْعُ : الطريق المنفرج عن الجبل (عن الزجاج) ، وفي الصحاح : الطريق ، ولم يقيد ، ومنه قول المسيَّب ، شبَّه الطريق بالسَّحْل ، وهو الثوب الأبيض .

(٢) البيت في (اللسان — رَيَع) وفي (طَرَقَ) أيضاً ، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن ، وطائر طِراقُ الريش : إذا ركب بعضُه بعضا ، والخوافي : ما تحت القوادم في الطائر من الريش ، والقوادم : جمع قادمة وهي أربع ريشات طويلة في أول جناح الطائر ، قال : (فَإِنَّ الْخَوَافي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ) ، والرِّيع : المرتفع من الأرض ، وقيل : الجبل ، واختلفوا في الجمع والمفرد ، ويترقرق : يلمع . يصف الطائر بأن ريش الخوافي فيه كثيف يركب بعضه على بعضه ، وندى الليل يلمع في ريشه حين وقف فوق المكان المرتفع .

(٣) البيت منسوب للأعشى هنا ، وفي الطبري ، ولم نجده في الديوان على الرغم من وجود قصيدة على نفس الوزن والقافية ، واليهماءُ : الفَلاةُ لا يُهْتَدَى فيها ، وليس فيها ماءٌ ولا أنيس ، وتجاوزتها : قطعتها ، وخَبَّ : تحرك واضْطَرب في سرعة ، والآل : السراب ، نسب سرعة الحركة والاضطراب إلى السراب في هذه الصحراء ، والبيت شاهد على أن الريعَ هو المكان المرتفع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وجملة ذلك أنَّه المكان المشرق ، وهو الذي يتنافس الناس في هيآته . و «الآية» : البنيَّات ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه عَلَم ، وقال مجاهد : أبراج الحمام ، وقال النقاش وغيره : القُصور الطوال ، و «المصانع» : جمع مصنع ، وهو ما أُصنع وأُتقن في بنائه من قصر مشيد ونحوه ، وقال قتادة : هي مآخذ للماء ، وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ، إما أن يريد : على أَمَلِكم ورجائكم ، وإما أن يريد الاستفهام على معنى التوبيخ والهزء بهم ، وقرأ الجمهور : [تَخْلُدُونَ] بفتح التاء وضم اللام ، وقرأ قتادة : [تُخْلَدُونَ] بضم التاء وفتح اللام ، يقال : خَلَد الشيءُ ، وأَخْلَدَهُ غيره ، وقرأ أُبيٌّ وعلقمة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُخَلَّدُونَ ﴾ بضم التاء وفتح الخاء وفتح اللام وشدها ، وروي عن أُبي : «كأَنكم تخلدون» ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : «كأَنكم خالدون» .

و «البَطْشُ» : الأَخذ بقوة وسرعة ، و «الجَبَّارُ» : المتكبر ، ومنه قولهم : «نخلة جبارة» إذا كانت لا تُدرَك علوًّا ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في المرأة التي أبت أن تنحى عن طريقه : (إنها جبارة) [1] ، ومنه الجبروت ، فالمعنى : إنكم كفار الغضب ، لكم السطوات المفرطة ، والبوادر من غير تثبت .

---

(١) أشار ابن الأثير في كتابه النهاية لهذا الحديث عند شرحه لكلمة جبَّارة ، وذكر صاحب اللسان الحديث في جبَر ، ولفظه فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم حَضَرَتْهُ امرأة ، فأمرها بأمر=

ثم ذكَّرهم عليه السلام بأَيادي الله تعالى قِبَلهم فيما منحهم من الأَنعام والذرية والجنات والمياه المطردة فيها ، ثم خوفهم عذاب الله تعالى في الدنيا ، وكانت مراجعتهم أَن سوَّوا بين وعظه وتركه الوعظ . وقرأَ ابن محيصن : [وَعَظتَّ] بإدغام الظَّاءِ في التَّاءِ ، ثم قالوا : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ، واختلف القراءُ في ذلك - فقرأَ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر : [خُلُق] بضم اللام ، فالإشارة بـ [هَذَا] إلى دينهم وعبادتهم وتصرفهم في المصانع ، أَي : هذا الذي نحن عليه خُلُق الناس وعادتهم ، وما بعد ذلك بعث ولا تعذيب كما تزعم أَنت ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأَبو قلابة [خُلْق] بضم الخاءِ وسكون اللام ، ورواها الأَصمعي عن نافع ، وقرأَ أَبو جعفر ، وأَبو عمرو : ﴿ خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ بفتح الخاءِ وسكون اللام ، وهي قراءَة ابن مسعود ، وعلقمة ، والحسن ، وهذا يحتمل وجهين : أَحدهما : وما هذا الذي تزعمه إِلَّا اختلاق الأَولين من الكَذَبَة قبلك ، فأَنت على منهاجهم ، والثاني أَن يريدوا : ما هذه البنية التي نحن عليها إلا البنية التي عليها الأَولون ، حياة وموت ، وما ثَمَّ بعثٌ ولا تعذيب ، وكل معنى مِمَّا ذكرته تحتمله

=فتأبت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (دعوها فإنها جبَّارة) ، أي : عاتية متكبرة ، وقيل : الجبَّار : المتسلِّط ، قال الشاعر :

سَلَبْنَا من الجبَّار بالسَّيْف مُلْكَه عشياً وأطْرافُ الرِّماح شـوارعُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ .

قراءة [خُلْق] ، وروى علقمة عن ابن مسعود : «إلَّا اخْتِلَاقُ الأَوَّلين» ، وباقي الآية قد مضى تفسيره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

[ثَمُود] : قبيلة عربية ، وتصرف ولا تصرف ، على مقصد الحيِّ أو القبيلة ، وقرئ بالوجهين : الجمهور بغير صرف ، وابن وثاب وغيره بالصرف . و [صَالح] أخوهم في النَّسب ، والأنبياءُ

من العرب أربعة : هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين ، وإسماعيل عليه السلام عربيٌّ اللسان سرياني النَّسب ، وهو أب العرب الموجودين اليوم .

وقوله : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا ﴾ تخويف لهم ، بمعنى : أتطمعون أن تقروا في النعم على معاصيكم ؟ و « الْهَضِيم » معناه : اللَّيِّن الرَّطْب ، و « الطَّلْع » : الكفري ، وهو عنقود النخل قبل أن يخرج من الكم في أول نباته ، فكأن الإشارة إلى أن طلعها يثمر ويرطب ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : أَيْنَع وبلغ وهو يُهضم ، وقال الزهري : الهضيم : الرَّخْصُ اللطيف أول ما يخرج ، وقال الزجاج : هو – فيما قيل – الذي رطبه بغير نوى ، وقال الضحاك : الهضيم : المنضَّد بعضه على بعض .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقرأ الجمهور : [تَنْحِتُونَ] بكسر الحاء ، وقرأ الكسائي بفتحها ، وذكر أنها لغة ، قال أبو عمرو : وهي قراءة الحسن ، وأبو حيوة . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، وابن عامر : [فَارِهِينَ] ، وهي قراءة ابن مسعود ، وابن عباس ، وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو : [فَرِهين] ، وقرأ مجاهد : « مُتَفَرِّهين » بميم ، على وزن : مُتَفَعِّلين ، واللفظة مأخوذة من الفراهة ، وهي جودة منظر الشيء وقوة كماله

في نوعه ، فمعنى الآية : كَيِّسين مُهْتَمِّينَ ، قاله ابن عباس ، وقال مجاهد: شرهين ، وقال ابن زيد : أقوياء ، وقال أبو عمرو بن العلاء : أَشِرين بَطِرين ، وذهب عبد الله بن شداد إلى أنه بمعنى : مستفرهين ، أي : مبالغين في استحازة[1] الفاره من كل شيء مما يصنعونه ويشتهونه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ خاطب به جمهور قومه ، وعنى بالمسرفين كبراءهم وأعلام الكفر والإضلال فيهم . وقوله : ﴿ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ فيه تأويلان : أحدهما مأخوذ من السِّحر (بكسر السِّين) ، أي : قد سُحِرْتَ فأنت لذلك مخبولٌ لا تنطق بقويم ، والثاني أنه مأخوذ من السَّحر (بفتح السِّين) وهي الرئة ، وقيل : السَّحر : قصبة الرئة وما يتعلق بها من كبد وغيره ، أي : انت ابن آدم مثلنا لا يصح أن تكون رسولا عن الله تعالى ، وما بعده في الآية يُقَوِّي هذا التأويل[2] ، ومن اللفظة قول لبيد :

فَإِنْ تَسْأَلِينا فيمَ نَحْن فَإِنَّنَا ... عَصافيرُ مِن هَذا الأَنام المُسَحَّرِ[3]

---

(١) استَحازَ الشيء واحتازَه بمعنى : ضمه وامتلكه . (المعجم الوسيط) .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ ، ومن الغريب أن أبا حيّان قال بعد ذكره هذا التأويل : «ويُضْعِفُ هذا القولَ قولُهم بعدُ : ﴿ مَا أَنْتَ إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ ؛ إذ تكون هذه الجملة توكيداً لما قبلها ، والأصل التأسيس» .

(٣) البيت من قصيدة له يذكر فيها من مات من قومه ، ويتأمل سطوة الموت وضعف الإنسان أمامه ، ومطلعها :

أعَاذِلُ قُومِي فاعذُلي الآنَ أوْ ذَرِي ... فلَسْتُ وإنْ أقْصَرْتِ عَنِّي بمُقْصِرِ

وهو من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن ، قال : وكلٌّ من أكل من إنس أو دابة فهو مُسَحَّر ، وذلك أن له سحراً يقري فيه ما أكل . وعصافير معناها : ضعاف.

ويقال للاغتداء : التَّسْحير ، ومنه قول امرئ القيس :

. . . . ونُسْحَر بالطَّعَام وبالشَّراب (١)

ثم اقترحوا عليه آية ، ورُوي أنهم اقترحوا خروج ناقة من جبل من جبالهم ، وقصتها في هذه الآية قد مضت مستوعَبة ، فلما خرجت الناقة قال لهم : ﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ ﴾ ، أي : حظٌّ من الماءِ ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿ لَهَا شُربٌ وَلَكُمْ شُرْبٌ ﴾ بضم الشين فيهما ، وقد تقدم قصص ورود الناقة . و « السُّوءُ » : عَقْرها ، وتوعدهم عليه بعذاب ، وظاهر أمره أنه أراد : في الدنيا ، ونسب عقرها إلى جميعهم مع اختصاص قدار الأحمر بعقرها من حيث اتفقوا على ذلك رأياً وتدبيراً . وقوله : ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ ، لما ظهر لهم تغير ألوانهم حسبما كان صالح عليه السلام أخبرهم ندموا ، ورأوا أن الأمر على ما أخبر به حتى نزل

---

(١) هذا عجز بيت ، وهو مطلع قصيدة له ، والبيت بتمامه :

أرانا مُوضِعِينَ لأمْــــر غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعَـــــام وَبالشَّرَابِ

وقد ذكره صاحب اللسان في مادة (سَحَر) شــاهداً على أن السَّحَــر هو الغــذاء ، وموضعين : مُسْرِعين ، ولأمْــر غيب : لِلْمَــوْت ، ونُسْحَــر : نُغَــذّى ، أو نُلْهَى عن الموت بالطعام وبالشراب ، ومن اللطيف أنه في البيت التالي يصف الناس بأنهم عصافير فيلتقي في ذلك بلبيد ، قال :

عَصَــــافِيرٌ وذُبَّانٌ وَدُودٌ وَأجْرَأُ مِنْ مُجَلِّحَةِ الذّئَاب

والمجَلِّحة : هي المقدمة على الأمر إقداماً شديداً ، والهاجمة على الناس ، فهم مع ضعفهم كأنهم العصافير أو الديدان يفعلون فعل الذئاب المجَلِّحَة .

بهم العذاب ، وكانت صيحة جمدت لها أبدانهم ، وانشقت قلوبهم ، وماتوا عن آخرهم ، وصبت عليهم حجارة خلال ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾

قال النقاش : إن في مصحف ابن مسعود ، وأُبي ، وحفصة رضي الله تعالى عنهم : « إِذْ قَالَ لهم لُوط » وسقط « أخوهم » ، واختُصرت الياءُ في الخط واللفظ من قوله : [وأَطِيعونِ] مراعاةً لرؤُوس الآي أن تتناسب .

ثم وقفهم على معصيتهم البشعة في «إتيان الذكران» وترك فروج الأزواج ، والمعنى : ويذر ذلك العاصي في حال المعصية ، لا أنَّ معناه : تركوا النساء جملة ، وفي قراءة ابن مسعود : «ما أَصْلح لكُمْ ربُّكم» ، و [عَادُونَ] معناه : ظالمون مرتكبون للخطر ، فتوعَّدهم بالإخراج من أرضه فلا يُتَّهم عند ذلك ، واقتصر على الإخبار بأنه قال: [لِعَمَلِكُمْ].
و «ٱلْقِلَى» : بُغْض الشيء وتركه ، ثم دعا بالنجاة فنجاه الله تعالى بأن أمره بالرحلة ليلا ، وكانت امرأته تعين عليه قومَه فأصابها حجر فهلكت فيمن هلك .

وقوله : ﴿ فِي ٱلْغَابِرِينَ ﴾ معناه : في الباقين ، فإما أن يريد : في الباقين من لِذَاتها وأهل سُنَّتها ، وهو تأْويل أبي عبيدة ، وإما أن يريد : في الباقين في العذاب النازل بهم ، وهو تأْويل قتادة ، والمشهور أنها بمعنى : بَقِي ، وغابر الزمان : مستقبله ، ولكن الأعشى قد استعمل «غابر الزمان» بمعنى ماضيه في شعر المنافرة المشهور [١] ، وقال الزهراوي : يقال للذاهب غابر ، وللباقي غابر . و «التدمير» :

---

(١) جاء ذلك في قصيدة قالها الأعشى يهجو علقمة بن علاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، والبيت الذي استعمل فيه (غابر) بمعنى الماضي هو :

عَضَّ بِمَا أَبْقَى الْمَوَاسِي لَـــهُ مِنْ أُمِّهِ فِي الزَّمَنِ الغَـــابِرِ

يريد : ما تركه الموسى بعد إجراء عملية الختان لأمه وهي صغيرة .

الإهلاك بإمطار الحجارة ، وبذلك جرت السِّير في رجم اللوطي ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

قال النقاش : في مصحف ابن مسعود ، وأُبيٍّ ، وحفصـــة : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُم شُعَيْب ﴾ ، وقالوا : لا وجه لمراعاة النسب ، وإنما هو أخوهم من حيث هو رسولهم وآدميٌّ مثلهم .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر : [لَيْكَةَ] على وزن فَعْلَة هنا وفي (صٓ)(١) ، وقرأ الباقون : [الْأَيْكَةَ] وهي الدوحة الملتفة من الشجر على الإطلاق ، وقيل : من شجر معروف له غضارة يألفه الحمام والقمارى ونحوه ، وقال قتادة : كان شجرهم هذا دوماً ، و «لَيْكَة» اسم البلد في قراءة مَنْ قرأ ذلك ، قاله بعض المفسرين ، وذكره أبو عبيد القاسم بن سلام ، وذهب قوم إلى أنها مُسَهَّلةٌ من الأيكة ، وأنها وقعت في المصحف هنا وفي سورة (صٓ) بغير ألف ، وقال أبو علي : سقوط ذلك في المصحف لا يرجح النطق بها هكذا ؛ لأن خط المصحف اتُّبع فيه تسهيل اللفظ ، كلَّما سقطت الألف من اللفظ سقطت من الخط ، نحو سقوط الواو من قوله : ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾(٢) لمَّا سقط من اللفظ ، وأما ترجيح القراءة في [لَيْكَةَ] بفتح الياء في موضع الجرِّ فلا يقتضيه ما في المصحف ، وهي قراءة ضعيفة ، ويدل على ضعفها أن سائر ما في القرآن غير هذين الموضعين مُجمع فيه على [الأَيْكَةِ] بالهمز والألف والخفض .

وكانت مدن القوم سبعة فيما روي ، فلم يكن شعيب منهم ، فلذلك لم يذكر هنا بأنه أَخٌ لهم ، وإنما كان من بني مدين ، ولذلك ذُكِر بِأَخُوهم ، وجاءت الألفاظ في دعاء كل واحد من هؤلاء الأنبياء

---

(١) في قوله تعالى في الآية (١٣) : ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ ﴾ .

(٢) الآية (١٨) من سورة (العَلَق) .

واحدة بعينها إذْ كان الايمانُ المدعُوُّ إليه معنًى واحداً بعينه ، وفي قولهم عليهم السلام : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عرض رقيق وتلطف ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾[1] ، وكانت معصيتهم المضافة إلى كفرهم بخس الموازين وتنقص أموال الناس بذلك .
و «الْقِسْطَاسُ» : المعتدل من الموازين ، وهو بناءُ مبالغة من القسط ، وذهب ابن عباس، ومجاهد إلى أن قوله : ﴿ وَزِنُوا بِالْقُسْطَاسِ ﴾ بضم القاف [من القسطاس][2]، وقرأ عيسى وأهل الكوفة بكسرها ، و [تَعْثَوْا] معناه : تفسدون ، يقال : «عَثَا» إذا أفسد .

[وَٱلْجِبِلَّة] : القرون والخليقة الماضية ، قال الشاعر :

والْمَوْتُ أَعْظَمُ حـــادِثٍ فيما يَمُرُّ عَلَى الجِبِلَّة[3]

وقرأ جمهور الناس : [وَٱلْجِبِلَّة] بكسر الجيم والباء ، وقرأ أبو حصين والحسن : [وَٱلْجُبُلَّة] بضمها ، و «الكِسَفُ» : القطع ، واحدها : كِسْفَة ، كتَمْرَة وتَمْر[4]، و ﴿ يَوْمِ ٱلظُّلَّة ﴾ يوم عذابهم ، وصورته ــ فيما رُوي ــ أن الله تعالى امتحنهم بِحَرٍّ شديد ، فلما كان

---

(١) الآية (١٨) من سورة (النازعات) .
(٢) هكذا في نسخ الأصول ، ونعتقد أن ما بين العقفتين . من زيادة النساخ .
(٣) هو شاهد على أن الجِبِلَّة هي : الخليقة ، قال في (اللسان ــ جَبَلَ) : « الجِبِلَّة : الخِلْقَة ، وفي التنزيل العزيز ﴿ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾ ، وقرأها الحسن بالضَّمِّ ، قال الكسائي : الجِبِلَّة والجُبُلَّة تكسر وترفع مشدَّدة كُسِرت أو رفعت » .
(٤) ورد هذا التنظير في الطبري ، وعنه أخذ ابن عطية ، قال محقق الطبري : « وقياس الجمع غير واضح » .

ذلك اليوم غشى بعض قطرهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ، فاضطرمت عليهم تلك السحابة ناراً فأحرقتهم عن آخرهم ، وللناس في حديث يوم الظلة تطويلات لا تثبت ، والحق أنه عذاب جعله الله تبارك وتعالى ظُلَّة ، وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : من حدثك ما عذاب يوم الظُّلَّة فقد كذب ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

الضمير في [إِنَّهُ] للقرآن ، أي : إنه ليس بكهانة ولا سحر ، إنما هو من عند الله تبارك وتعالى ، و ﴿ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِين ﴾ : جبريل عليه السلام بإجماع ، ونزل باللفظ العربي والمعاني الثابتة في الصدر والمصاحف ، والضمير على ذلك كله عائد في [بِهِ] ، و «اللسان» عبارة عن اللغة ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم — في رواية حفص — : [نَزَلَ] خفيفة الزاي [ٱلرُّوحُ] بالرفع ، وقرأ

ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم – وحمزة ، والكسائي بشدّ الزاي [الروحَ] نصْباً ، ورجحها أبو حاتم بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾[١] ، وبقوله : ﴿ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وقوله : [بِهِ] في موضع الحال ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾[٢]. وقوله تعالى : ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ إشارة إلى حفظه إياه ، وعلّل النزول على قلبه بكونه من المنذرين ؛ لأنه لا يمكن أن يُنذر به إلا بعد حفظه ، وقوله : [بِلِسَانٍ] يمكن أن يتعلق بلفظ الباء بـ ﴿ نَزَلَ بِهِ ﴾ ، وهذا على أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يسمع من جبريل عليه السلام حروفاً عربية ، وهو القول الصحيح ، وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة الصوت وتداخل حروفه وعجلة مورده وإغلاظه ، ويمكن أن يتعلق بقوله : [لِتَكُونَ] ، وتمسّك بهذا من رأى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع أحياناً مثل صلصلة الجرس يتفهم له منه القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف يقتضي أن بعض ألفاظ القرآن هي من لدن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مردود .

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٩٧) من سورة (البقرة) : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ .

(٢) من الآية (٦١) من سورة (المائدة) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي في كتبهم ، يريد أنَّ القُرآن مذكور في الكتب المنزلة القديمة مُنَبَّه عليه مشارٌ إليه [1]، وقرأ الجمهور : [زُبُر] بضم الباء ، وقرأ الأعمش بسكونها [2] .

ثم احتج عليهم بأنهم كان ينبغي أن يُصَحِّح عندهم أمره ، كان علماءُ بني إسرائيل يعلمونه ، كعبد الله بن سلام ونحوه ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ـ فيما حكى عنه الثعلبي ـ : إن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هذا زمانه ، ووصفوا بعثه ، ثم خلطوا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية في ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويؤيد هذا كون الآية مكية ، وقال مقاتل : هذه الآية مدنية ، فمن قال : إنها مكية ، ذهب إلى أن علماء بني إسرائيل ذكروا أن في التوراة صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه الإشارة إلى ذلك . وكلهم قرأ : [يكُنْ] بالياء [آيَةً] نصباً ، غير ابن عامر فإنه قرأ :

(١) وقيل : إن معانيه فيها ، وبهذا يُحْتَج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة، على أن القرآن قرآن إذا تُرجم لغير العربية حيث قيل : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ لكون معانيه فيها .

(٢) السكون للتخفيف ، والأصل الضم .

[تَكُن] بالتاء من فوق : [آيَةٌ] رفعاً ، وهي قراءة عاصم والجحدري(١) ، وقرأ جمهور الناس : ﴿ أَنْ يَعْلَمَهُ ﴾ بالياء من تحت ، وقرأ الجحدري : ﴿ أَنْ تَعْلَمَهُ ﴾ بالتاء من فوق .

ثم سلَّى محمداً صلى الله عليه وسلم عن صدود قومه عن الشرع بأن أخبر أن هذا القرآن العربي لو سمعوه مِن أَعْجَم ، أي : من حيوان غير ناطق ، أو جماد ، ــ والأعجم : كل مالا يُفصح ــ ما كانوا يؤمنون ، أي : قد حتم الكفر عليهم فلا سبيل إلى إيمانهم ، و « الأَعْجَمون» جمع أعجم ، وهو الذي لا يفصح ، وإن كان عربيَّ اللسان(٢) يقال له : أعجم ، وكذلك يقال للحيوانات والجمادات ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (جُرْحُ العَجْماء جُبَارٌ)(٣) ، وأسند الطبري عن عبد الله بن مطيع أنه قال حين قرأ هذه الآية وهو واقف بعرفة :

---

(١) الصحيح أن الواو في قوله (والجحدري) زائدة من النساخ ، وأن الذي قرأ هو عاصم الجحدري ، والتصحيح عن كتب التفسير والقراءة .

(٢) في بعض النسخ : « عربيَّ النسب » ، وهو الأشبه ، ويوافق ما في « البحر المحيط » حين نقل كلام ابن عطية .

(٣) أخرجه البخاري في الديات والزكاة والمساقات ، ومسلم في الحدود ، وأبو داود في الديات ، والترمذي في الزكاة والأحكام ، والنسائي في الزكاة ، وابن ماجه في الديات ، والدارمي في الزكاة والديات ، والموطأ في العقول ، وأحمد في أماكن كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في الدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه : (جرح العجماء جُبار ، والبير جُبار ، والمعدن جُبار ، وفي الرِّكاز الخمس) . قال ابن الأثير في كتابه « النهاية في غريب الحديث والأثر » : « العجماءُ : الدَّابَّة ، والجُبارُ : الهَدَرُ » .

«جملي هذا أَعجم ، فلو أُنزل عليه ما كانوا يؤمنون» ، والعجمي هو الذي نسبه في العجم وإن كان فصيح اللسان . وقرأَ الحسن : «الْأَعْجَمِيِّينَ» ، قال أَبو حاتم : أَراد جمع «الْأَعْجَمِيِّ» المنسوب ، وقال بعض النحويين : الأَعجمون جمع أَعْجَم ، وهو أَعجم ، أُضيف فقويت بالإضافة رتبته في الأَسماء فجمع ، وليس بأَعجمي النسبة إلى العجم[١] . وقرأَ جمهور الناس : ﴿ أَوَ لَمْ يَكُنْ ﴾ بالياء ﴿ لَهُمْ آيَةً ﴾ بالنصب ، وقرأَ : «أَوَ لَيْس لَكم آيَة» ابن مسعود والأَعمش ، وفي مصحف أُبيٍّ «أَلَيْسَ» بغير واوٍ أَو فاءٍ ، وقرأَت فرقة : [تَكُنْ] بالتاء من فوق [آيَةٌ] رفعاً ، وقرأَ بعض من قرأَ بالتاء [آيَةً] بالنصب ، وسائرهم بالرفع ، وقد مضي ذكر ما في السبع ، وذكر الطبريُّ أَن

---

(١) قال الطبري : «وإنما قيل : ﴿ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ ﴾ ، ولم يُقل : «على بعض الأعجميِّين» لأنالعرب تقول إذا نَعَتَت الرجل بالعجمة وأنه لا يُفصح بالعربية : هذا رجل أعجم ، وللمرأة : هذه امرأةٌ عجماء ، وللجماعة : هؤلاء قومٌ عُجْمٌ وأعْجَمون ، وإذا أُريد هذا المعنى وصف به العربي والأعجمي ؛ لأنه إنما يعني أنه غير فصيح اللسان ، وقد يكون كذلك وهو من العرب» . وقال أبو الفتح ابن جني في المحتسَب تعليقاً على قراءة الحسن : [الأعْجَميِّين] : «هذه القراءة عُذْر في القراءة المجتمع عليها ، وتفسير للغرض منها ، وهي قوله : ﴿ عَلَى بَعْض الأعْجَمِينَ ﴾ ، وذلك أن ما كان من الصفات على أفْعَل ، وأُنثاهُ فعلاء ــ لا يجمع بالواو والنون ، ولا مؤنثه بالألف والتاء ، ألا تراك لا تقول في أحمر : أحمرون ، ولا في حمراء : حمراوات ، فكأن قياسه ألا يجوز فيه «الأعجمون» ، لأن مؤنثه عجماء ، ولكن سببه أنه يريد : «الأعْجَميُّون» ثم حذفت ياءُ النسب ، وجُعل جمعه بالواو والنون دليلا عليها وأمارة لإرادتها» . وأجاز الفراءُ أن يقال : رجلٌ عَجمي ، بمعنى : أعجميّ ، ومذهب سيبويه هو ما ذكره ابن جني .

الضمير في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عائد على « الذِّكْرِ » في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ ﴾ [١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

الإشارة بـ « ذَٰلِكَ » إلى ما يتحصل لسامع الآيات المتقدمة من الحتم عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ الآية . و [سَلَكْنَاهُ] معناه : أدخلناه ، والضمير فيه للكفر الذي يتضمنه قوله : ﴿ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، قاله الحسن . قال الرُّمَّاني : لا وجه لهذا إلَّا أنه لم يجر ذكره ، وإنما الضمير للقرآن وإخطاره بالبال ، وحكى الزهراوي أن الضمير للتكذيب المفهوم ، وحكاه الثعلبي ، وقرأ ابن مسعود : « كذلك جعلناه في قلوب » ،

---

(١) من الآية (٥) من هذه السورة (الشعراء) .

ورُوي عنه : «نَجْعَلُه» ، و «المجرمون» أراد به مجرمي كل أُمة ، أي أن هذه عادة الله تبارك وتعالى فيهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب ، ولا ينفعهم الإيمان بعد تلبس العذاب بهم ، وهذا على جهة المثال لقريش ، أي : هؤلاء كذلك . وكشف الغيب ما تضمنته هذه الآية يوم بدر .

وقرأ الجمهور : [فَيَأْتِيَهُمْ] بالياء ، أي العذاب ، وقرأ الحسن : [فَتَأْتِيَهُمْ] بالتاء من فوق ، يعني الساعة ، وفي قراءة ابن كعب : «فَيَرَوْهُ بَغْتَةً» ، ومن قول كل أُمّة مُعَذَّبة : ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ أي مُؤَخَّرون ، وهذا على جهة التمني منهم والرغبة حيث لا تنفع الرغبة .

ثم رجع لفظ الآية إلى توبيخ قريش على استعجالهم عذاب الله تعالى في طلبهم سقوط السماء كسفاً وغير ذلك ، وقولهم لمحمد صلى الله عليه وسلم : أين ما تَعِدُنا ؟ أي أنه لا ينبغي لهم ذلك لأن عذابنا بالمرصاد إذا حان حينه . ثم خاطب محمداً صلى الله عليه وسلم بإقامة الحجة عليهم في أن مُدَّةَ الإرجاء والإمهال والإملاء لا يغني منع نزول العذاب بعدها ، ووقوع النقمة ، وذلك في قوله : [أَفَرَأَيْتَ] الآية ، قال عكرمة : [سِنِينَ] يريد : عُمْر الدنيا ، ولأبي جعفر المنصور قصة في هذه الآية .

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه لم يُهلك قرية من القرى إلا بعد إرسال من ينذرهم عذاب الله تعالى ذِكْرى لهم وتبصرةً وإقامة حجة ؛

﴿ لِئَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [(١)] و [ذِكْرى] عند الكسائي نصب على الحال ، ويصح أن يكون نصب على المصدر ، وهو قول الزجاج ، ويصح أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء ، تقديره : «ذلك ذكرى»[(٢)] ، ثمَّ نفى عن جهته عزَّ وجلَّ الظلم ؛ إذ هو مما لا يليق به .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

---

(١) من الآية (١٦٥) من سورة (النساء) .

(٢) وأجاز الزمخشري في [ذِكْرَى] أن تكون مفعولا له ، على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة ، وأن تكون مرفوعة صفةً بمعنى : «مُنْذِرُونَ ذَوُو ذِكْرى» ، أو «جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها» ، وأجاز أيضاً أن تكون متعلقة بـ[أَهْلَكْنَا] مفعولا له ، والمعنى : وما أهلكنا من قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم لتكون تذكرةً وعبْرةً لغيرهم ، فلا يعصوا مثل عصيانهم ، وما كنا ظالمين فنهلك قوماً غير ظالمين ، وهذا الوجه عليه المعول» . ا.هـ . — ومع ذلك ناقشه فيه أبو حيان ليثبت أنه لا معول عليه .

لما كان في هذا الموضع ما قال الكفار ـ لأنهم قالوا : إن هذا القرآن كهانة ـ نزلت هذه الآية مكذبة لذلك ، أي : ما تنزلت به الشياطين ؛ لأنها عُزلت عن السمع الذي كانت تأخذ له مقاعدها ، وقوله : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ أي : ما يمكنهم ، وقد تجيءُ هذه اللفظة عبارة عمَّا لا يكون ، وعبارة عمَّا لا يليق وإن كان ممكناً ، ولما جاءَ الله تعالى بالإسلام حرسَ السماءَ بالشهب الجارية إثر الشياطين ، فلم يخْلص شيطان بشيءٍ يُلَقِّنه كما كان يتفق لهم في الجاهلية .

وقرأ الجمهور : [ٱلشَّيَاطِين] ، وروي عن الحسن أنه قرأ : « الشياطون » ، وهي قراءة مردودة ، قال أبو حاتم : هي غلط منه أو عليه ، وحكاها الثعلبي أيضاً عن ابن السميقع ، وذكر عن يونس بن حبيب أنه قال : سمعت أعرابيًّا يقول : دخلت بساتين من ورائها بساتون ، قال يونس : ما أشبه هذا بقراءة الحسن .

ثم وصَّى عزَّ وجلَّ نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالثبوت على أمر الله تبارك وتعالى ، وأمر بنذارة عشيرته تخصيصاً لهم ، إذ العشيرة مظنة المقاربة والطواعية ، وإذ يمكنه معهم من الإغلاظ عليهم مالا يحتمله غيرهم ، فإن البِرَّ بهم في مثل هذا الحمل عليهم ، والإنسان غير متَّهم على عشيرته ، وكان هذا التخصيص مع الأمر العام بنذارة العالم ،

وروي عن ابن جريج أن المؤمنين من غير عشيرته في ذلك الوقت نالهم همٌّ من هذا التخصيص وخروجهم منه ، فنزلت : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ولما أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه النذارة عظُم موضع الأمر عليه وصعُب ، لكنه تلقَّاه بالجَلَد ، وصنع أشياء مختلفة كلها بحسب الأمر ، من ذلك «أنه أمر عليًّا رضي الله عنه بأن يصنع طعاماً ، وجمع عليه بني جَدِّه عبد المطلب ، وأراد نذارتهم ودعوتهم في ذلك الجمع ، فظهر منه عليه الصلاة والسلام بركة في الطعام ، قال علي : وهم يومئذ أربعون رجلا ، ينقصون رجلًا أو يزيدونه ، فرماه أبو لهب بالسحر ، فوجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافترق جمعهم من غير شيء ، ثم جمعهم مرة ثانية كذلك وأنذرهم ووعظهم فتضاحكوا ولم يجيبوا» (١) ، ومن ذلك أنه نادى عمَّه العباس ، وصفيَّة عمته ، وفاطمة ابنته رضي الله عنهم ، وقال : (لا أُغْني عنكم من الله شيئاً ، إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد) في حديث مشهور (٢) ، ومن ذلك أنه صعد على الصَّفا ، أو أبي قُبَيْس ، ونادى :

---

(١) أخرجه ابن مردويه عن البراء بن عازب ، وأخرج مثله ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في الدلائل — من طرق — عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه . وهو حديث طويل تجده في سيرة ابن هشام ، وفي الدر المنثور .

(٢) أخرجه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، — وليس فيه عمه العباس — إذ قالت : لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة=

يا بني عبد مناف ، واصباحاه ، فاجتمع إليه الناس من أهل مكة ، فقال : يا بني فلان ، يا بني فلان ، حتى أتى على بطون قريش جميعاً ، فلما تكامل خلق كثير من كل بَطْن قال لهم : (أرَأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل تريد الغارة عليكم ، أكنتم مُصَدِّقي) ؟ قالوا : نعم ، فإنا لم نجرب عليك كذباً ، فقال لهم : (فإنِّي نذير لكم بين يديْ عذابٍ شديد) ، فقال له أبو لهب لعنه الله : ألهذا جمعتنا ؟ تبًّا لك سائر اليوم ، فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ السورة [١] .

و «الْعَشِيرَة» : قرابة الرجل ، وهي في الرتبة تحت الفخذ وفوق العصبة . و «خفض الجناح» استعارة ، ومعناه : لِينُ الكلمة وبَسْط

=عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما شئتم)، وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه عن عروة مرسلا مثله . (الدر المنثور) . وفي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ فقال : (يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أُغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد ، سليني ماشئت ، ما أُغني عنك من الله شيئاً) .

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، والبخاري ، وابن مردويه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم — عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرج مثله عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

الوجه والبِرُّ ، والضمير في [عَصَوْكَ] عائد على عشيرته من حيث جمعت رجالًا ، فأَمره الله تعالى بالتَّبَرِّي منْهم (١) ، وفي هذه الآية موادعةٌ نسختها آية السيف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾

قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، وشيبة : [فَتَوَكَّلْ] بالفاء ، وكذلك في مصاحف أهل المدينة والشام ، والجمهور بالواو ، وكذلك في سائر المصاحف ، وأمره تعالى بالتوكل عليه في كل أمره ، ثم جاء

(١) من النظرات العميقة ما رواه في البحر عن بعض العلماء ، قال : « قيل : الضمير يعود على من اتَّبعه من المؤمنين ، والمعنى : فإن عصوك يا محمد في الأحكام وفروع الإيمان بعد التصديق والإيمان فقل : إني بريءٌ مما تعملون لا منكم ، أي : أظْهر عدم رضاك بأعمالهم ، وإنكارك عليهم ، ولو أمره بالبراءة منهم ما بقي بعد هذا شفيعاً للعصاة » .

بالصفات التي تؤنس المتوكِّل ، وهي العزَّة والرحمة المذكورتان في آخر قصص الأُمم المذكورة في هذه السورة وضمنها نصر كل نبي على الكفرة ، والتَّهمُّم بأَمره والنظر إليه .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ عبارة عن إدراك ، وظاهر الآية أنه أراد قيام الصلاة ، ويحتمل أنه يريد سائر التصرفات ، وهو تأْويل مجاهد وقتادة ، وقوله : ﴿ فِي ٱلسَّاجِدِينَ ﴾ أي : في أهل الصلاة ، أي صلاتك مع المصلين ، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وقال أَيضاً مجاهد : تقليب أَعينك وأَبصارك في الساجدين حين تراهم من وراءِ ظهرك [١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا معنى أَجنبي هنا .

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – أَيضاً وقتادة : أَراد : تقلُّبك في المؤمنين ، فعبَّر عنهم بالساجدين . وقال ابن جبير : أَراد الأَنبياءَ ، أَي : تقلبك كما تقلب غيرك من الأَنبياءِ [٢] .

---

(١) يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (أتموا الركوع والسجود ، فوالله إني لأراكم من خلفي) .

(٢) وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – أيضاً : « تقلبك في أصلا ب آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء حتى خرجت إلى الوجود » ، وقال الزمخشري: « ذكر ما كان يفعله =

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ ﴾ ، هنا استفهام وتوقيف تقرير ، و «الأَفَّاكُ» : الكذاب ، و «الأَثيم» : الآثم ، ويريد الكهنة لأَنهم كانوا يتلقون من الشيطان الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء فيخلطون معها مائة كذبة ، فإذا صدقت تلك الكلمة كانت سبب ضلالة لمن سمعها . وقوله : [يُلْقُونَ] يعني الشياطين ، ومُقْتَضى ذلك أَن الشيطان المسترق أَيضاً كان يكذب إلى ما سمع ، هذا في الأَكثر ، ويحتمل الضمير في [يُلْقُونَ] ـ أي يكذبون ـ الكهنة . ولما ذكر الكهنة بإفْكهم وكذبهم الذي يقتضي نفي كلامهم عن كلام الله تعالى عقَّب ذلك بذكر الشعراء وحالهم لينَبِّه على بُعْد كلامهم من كلام الله تعالى في القرآن ، إذ قال في القرآن بعض الكفرة : إنَّه شعر ، وهذه الكناية عن شعر الجاهلية ، حكى النقاش عن السدِّي أَنها في ابن الزِّبعرى ، وأَبي سفيان بن الحرث ، وهبيرة بن أَبي وهب ، ومسافع الجمحي ، وأَبي عزة[1] ، وأُميَّة ابن أَبي الصلت .

= صلى الله عليه وسلم في جوف الليل من قيامه للتهجد، وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ويستبطن سرائرهم وكيف يعملون لآخرتهم » .

(١) هو أبو عزَّة الجمحيُّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

الأولان ممن تاب وآمن رضي الله عنهما ، ويدخل في الآية كل شاعر مخلط يهجو أو يمدح شهوة ، ويقذف المحصنات ، ويقول الزُّور .

وقرأ نافع : [يَتْبَعُهُمُ] بسكون التاء وفتح الباء ، وهي قراءة أبي عبد الله ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ ،وقرأ الباقون بشدِّ التاء وكسر الباء .

واختلف الناس في قوله : [ٱلْغَاوُونَ] ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الرُّواة ، وقال أيضاً : هم المستحسنون لأشعارهم ، المصاحبون لهم ، وقال عكرمة : هم الرعاع الذين يتبعون الشاعر ، وهذا أرجح الأقوال . وقال مجاهد وقتادة : [ٱلْغَاوُونَ] : الشياطين . وقوله تعالى : ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ عبارة عن تخليطهم وخوضهم في كل فن من غثِّ الكلام وباطله ، وتحسينهم القبيح وتقبيحهم الحسن ، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ﴾ ذكر لتعاطيهم وتعمُّقهم في مجاز الكلام حتى يؤول إلى الكذب ، ولكن في هذا اللفظ عذرٌ لبعضهم أحياناً ، فإنه يُرْوى أن النعمان بن عدي لما ولَّاه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ميسان ، وقال لزوجته الشعر المشهور عَزَلَهُ

عمر رضي الله عنه ، فاحْتَجَّ عليه بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ﴾ فدرأ عنه عمر رضي الله عنه الحدَّ في الخمر [١] .

وروى جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَن مشى سبع خطوات في شعر كُتب من الغَاوين) ، ذكره أسد بن موسى ، وذكره النقاش .

---

(١) النعمان بن عديّ بن نضلة ، ولاّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاية ميسان ، فقال شعراً جاء فيه :

مَن مُبْلغ الحسْناء أنَّ حَليلَهَـا ... بِمَيْسَانَ يُسْقَى في زُجاج وَحَنْتَمِ

إذا شِئْتُ غَنَّتْني دَهَاقينُ قَـرْيَةٍ ... وَرَقَّاصَةٌ تَجْذُو علَى كُلِّ مَنْسَمِ

فَإنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فبالأكْبَرِ اسْقِني ... ولا تَسْقِني بالأصْغَرِ المُتَثَـلِّمِ

لعَلَّ أمِـيرَ المؤمنين يَسُـوؤهُ ... تَنَادُمُنا بالجَوْسَقِ المُتَهَـدِّمِ

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليه بالقدوم عليه ، فلما قدم قال له : أي والله إنه ليسوؤني ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما فعلت شيئاً ممَّا قلتُ ، وإنما كان من فضـلة القول ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالا يَفْعَلُونَ ﴾ ، فقال له عمر رضي الله عنه : أما عذرك فقد درأ عنك الحدَّ ، ولكن لا تعمل لي أبداً وقد قلتَ ما قلتَ .

وقد رُوي أن سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق :

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ ... وبِتُّ أفُضُّ أغْلاقَ الْخِتَامِ

فقال له : قد وجب عليك الحدُّ ، قال الفرزدق : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحدَّ بقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالا يَفْعَلُونَ ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

هذا الاستثناءُ هو في شعراءِ الإسلام ، كحسّان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكل من اتصف بهذه الصفة ، ورويَ عن عطاء بن يسار أن هؤلاءِ شقَّ عليهم ما ذكر قَبْلُ في الشعر ، وذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية للاستثناء في الشعر (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً ﴾ يحتمل أن يريد : في أشعارهم ، وهو تأويل ابن زيد ، ويحتمل أن يريد : ذلك خُلُق لهم وعادة وعبادة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذا كما قال لبيد حين طلب منه شعر : « إن الله أبدلني بالشعر القرآنَ خيراً منه » ، وكلٌّ شاعر في الإسلام يهجو أو يمدح عن غير حقٍّ ، ويقذف ولا يرتدع عن

(١) أخرج مثله عن أبي هريرة ابنُ مردويه ، قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من الشِّعر حكمة) ، قال : (وأتاه قرظة بن كعب ، وعبد الله بن رواحة ، وحسَّان بن ثابت ، فقالوا : إنا نقول الشعر ، وقد نزلت هذه الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرؤوا ، فقرؤوا : ﴿ وَٱلشُّعَرَاءُ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، قال: أنتم هم ، ﴿ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً ﴾ ، قال : أنتم هم ، ﴿ وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ ، قال : أنتم هم) .

قول دنيءٍ ، فهو داخل في هذه الآية ، وكل تقيٍّ منهم يكثر من الذكر ، ويُمسك عن كل ما يعاب فهو داخل في الاستثناء . وقولُه : [وَٱنْتَصَرُوا] إشارة إلى ما قالوه من الشعر وغيره في قريش ، قال قتادة : وانتصروا بمثل ما ظلموا .

وباقي الآية وعيدٌ للظَّلَمة كفارِ مكة ، وتهديدٌ لهم . وعَمِل [يَنْقَلِبُونَ] في [أَيَّ] لتأخره (١) ، والحول والقوة لله عزَّ وجلَّ ، والله تبارك وتعالى أعلم .

تمَّ بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الشُّعراء

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) ومعنى ﴿أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ : أيَّ مصير يصيرون ، وأيَّ مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العذاب وهو شرُّ مرجع .

وقال الماوردي : الفرق بين المُنْقَلَب والمرجع أن المُنْقَلَب هو الانتقال إلى ضدٍّ ما هو فيه ، والمرجع هو العودُ إلى حالٍ كان عليها من حالٍ هو فيها ، فصار كل مرجع مُنْقلبا ، وليس كل منقلب مرجعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كتب أبي في وصيته سطرين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، ويتقي الفاجر ، ويصدق الكاذب : إني استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذلك ظني به ورجائي فيه ، وإن يَجُرْ وَيُبَدِّلْ فلا أعلم الغيب ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة النمل[١]

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة في كل السُّور ، وكل ما قيل مترتب هنا ، وعلى القول بأنها حروف من أسماءِ الله تبارك وتعالى

(١) هذه السورة مكية في قول الجميع ، وآياتها ثلاث وتسعون آية ، وقيل : أربع وتسعون آية .

فالأسماءُ هنا : لطيف وسميع ، وكونها إشارة إلى نوع حروف المعجم أبيْن الأقوال ، وعطف [كِتَاب] على [الْقُرْآن] وهما لِمُسَمًّى واحد من حيث هما صفتان لمعنيين ، فالقرآن لأنه اجتمع ، والكتاب لأنه كُتب ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ بالرفع [١]، وقوله : ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ يحتمل أن يكون في موضع نصب على المصدر ، ويحتمل أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداءٍ مضمر ، تقديره : ذلك هدى وبشرى .

ثم وصف تعالى المؤمنين بالأوصاف الخليقة بهم ، وإقامة الصلاة : إدامتها على وجهها ، و [ٱلزَّكَاة] هنا يحتمل أن تكون غير المفروضة لأن السورة مكية قديمة ، ويحتمل أن تكون المفروضة من غير تفسير ، وقيل : [ٱلزَّكَاةُ] هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق ، وتكرار الضمير في قوله : ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ للتأكيد .

ثم ذكر تعالى الكفرة الذين لا يؤمنون بالبعث ، والإشارة إلى قريش ، وقوله تعالى : ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ يحتمل أنه تعالى حتم عليهم الكفر ، وحبَّب إليهم الشرك ، وزيَّنه بأن خلقه واخترعه في نفوسهم ، ومع ذلك اكتسابهم وحرصهم على كفرهم ، وهذا على أن تكون الأعمال المُزَيَّنة كفرهم وطغيانهم ، ويحتمل أن الأعمال

---

(١) والتقدير : «وآياتُ كتابٍ» ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فأعرب بإعرابه . قاله في البحر .

المُزيَّنة هي الشريعة التي كان الواجب أن تكون أعمالهم ، فأخبر الله تبارك وتعالى على جهة الذكر أنه بفضله ورحمته زيَّن الدِّين وبيَّنه ، ورسم الأعمال والتوحيد ، لكن هؤلاء [يَعْمَهُونَ] ، أي : يُعرضون ، و «العَمَه» : الحيرة والتردُّد في الضلالة . ثم توعدهم تعالى بسوءِ العذاب ، فمن ناله شيءٌ منه في الدنيا نفى عنه عذاب الآخرة ، ومن لم ينله عذاب في الدنيا كان سوءُ عذابه في موته وفيما بعده ، و [ٱلْأَخْسَرُونَ] : جمع أَخْسَر ؛ لأن (أفعل) صفة ، لا يجمع إلا أن يضاف فتقوى رتبته في الأسماء ، وفي هذا نظر[١].

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

---

(١) علَّق أبو حيان على ذلك بقوله : «ولا نظر في كونه يجمع جمع سلامة وجمع تكسير إذا كان بألْ ، لا يجوز فيه إلا ذلك إذا كان قبله ما يطابقه في الجمعية ، فيقال : الزيدون هم الأفضلون والأفاضل ، والهندات هن الفُضليات والفُضَل ، وأما قوله : (لا يجمع إلا أنْ يضاف) فلا يتعين إذْ ذاك جمعه ، بل إذا أُضيف إلى نكرة فلا يجوز جمعه ، وإن أُضيف إلى معرفة جاز فيه الجمع والإفراد على ما تقرر في كتب النحو» .

«تُلَقَّى» تُفَعَّل ، مضاعف ، ومعناه : تعطى ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (١) ، قال الحسن : المعنى : إنك لتقبل القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا شك أنه يفيض عليه فضل الله تعالى فيقبله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الآية ردٌّ على كفار قريش في قولهم : إن القرآن من تلقاء محمد ابن عبد الله ، و ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ معناه : من عنده ومن جهته . و « الْحَكِيمُ » : ذو الحكمة في معرفته حيث يجعل رسالاته ، وفي غير ذلك ، لا إلٰه إلَّا هو .

ثم قصَّ تعالى خبر موسى ، والتقدير : اذكر إذ قال موسى ، وكان من أمر موسى عليه السلام أنه حين خرج بزوجته بنت شعيب عليهما السلام يريد مصر – وقد قرب وقت نبوته – مشوا (٢) في ليلة

---

(١) من الآية (٣٥) من سورة (فُصِّلَت) .

(٢) جاء الضمير في كلام ابن عطية للجمع ، لأن الظاهر أن قول الله تعالى : [لِأَهْلِهِ] يدل على الجمع ، لقوله سبحانه بعد ذلك : [سَآتِيكُمْ] ، و [تَصْطَلُونَ] ، هذا وقد قيل : لم يكن معه غير زوجته ، وهذا واضح من كلام ابن عطية حين بدأ يقص قصة موسى عليه السلام ، وقيل : كانت امرأته قد ولدت له ولداً وهو عند شعيب عليه السلام فكان هذا الولد مع أُمه ، ويمكن أن يكون الكلام من باب التعظيم والإكرام باستعمال ضمير الجمع .

ظلماء ذات برد ومطر ، ففقدوا النار ومسّهم البرد واشتدت عليهم الظلمة وضلوا الطريق ، وأَصْلَدَ [١] زناد موسى عليه السلام ، فبينا هو في هذه الحال إِذْ رأى ناراً على بُعد . و [آنَسْتُ] معناه : رأيتُ ، ومنه قول حسّان بن ثابت :

انْظُرْ خَليلي بِبَابِ جِلِّقَ هَلْ   تُؤْنِسُ دونَ الْبَلْقاءِ مِنْ أَحَدِ [٢] ؟

فلما رأى موسى ذلك قال لأهله ما في الآية ، ومشى نحوها ، فلما دنا منها بعدت هي منه ، وكان ذلك نوراً من نور الله عزّ وجلّ ، ولم يكن ناراً في نفسه ، لكن ظنه موسى ناراً ، فناداه الله تبارك وتعالى عند ذلك ، وسمع موسى عليه السلام النداء من جهة الشجرة ، وأسمعه الله تعالى كلامه . و «الْخَبَر» الذي رجاه موسى عليه السلام هو الإعلام بالطريق . وقوله : ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ ، شبه النار التي توجد في طرف عود أو غيره بالشهاب ، ثم خصّصه بأنه مما اقتبس ؛ إذ الشهب قد تكون من غير اقتباس ، والقبس اسم لقطعة النار تُقْتَبس في عود

---

(١) يقال : أَصْلَدَ الزَّنْد : صوَّتَ ولَمْ يُورِ .

(٢) البيت في الديوان ، وفي اللسان ، وقد وردت الرواية : (بطن جِلَّق) ، ويُروى : (انظر نهاراً) ، ويروى : (انْظُرْ حبيبي) ، وهي رواية ابن دريد ، وجاءت في تاريخ ابن عساكر : (٤-١٣٣) . وجلّق بفتح اللام المشددة وبكسرها : دمشق ، والبلقاء : من أعمال دمشق ، والشاهد فيه هنا أن (تؤنس) بمعنى : ترى .

أو غيره ، كما أن القبض اسم ما يُقْبض ، ومنه قول أبي زيد :

في كَفِّـهِ صَعْـدَةٌ مُثَقَّفَـةٌ فيها سِنَانٌ كَشُعْلَةِ الْقَبَسِ (١)

وقول الآخر :

مَنْ شَاءَ مِنْ نارِ الْجَحِيمِ اسْتَقْبَسَا (٢)

وأصل الشهاب الكوكب المنقض في أثر مُسْتَرِق السمع ، وكل ما يقال له شهاب من النيران فعلى التشبيه ، وقال الزجاج : كل أبيض ذي نور فهو شهاب ، وكلامه مُعترَض ، والقبس يحتمل أن يكون اسماً غير صفة أضاف إليه بمعنى : بشهاب أقتبسه أو اقتبسته ، وعلى كونه صفة يكون ذلك كإضافة الدار إلى الآخرة (٣) ، والصلاة إلى الأُولى ، وغير ذلك . وقرأ الجمهور بإضافة [شِهَابٍ] إلى [قَبَسٍ] ، وهي قراءة الحسن وأهل المدينة ومكة والشام . وقرأ عاصم ، وحمزة ،

(١) البيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن ، قال : «﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ ، أي : بشعلة نارٍ» . والصَّعْدَةُ : القناةُ ، وقيل : القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى التثقيف ، والمثَقَّفة : التي أقيم وأصلح ما فيها من اعوجاج ، والشاهد في البيت إضافة (الشعلة) إلى (القبس) ، أي : شعلة مقتبسة من نار ، فهي كقوله تعالى : ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ في قراءة من قرأ بالإضافة .

(٢) الجحيم : النَّار الشديدة التَّأَجُّج ، وكلُّ نار تُوقد على نار فهي جحيم ، والاقْتِباسُ : الأخذ من النار ، واسْتَقْبَسَا : طلب الاقتباس من النار ، والقَابِسُ : طالب النَّار ، ويقال : قَبَسْتُ منه ناراً أَقْبِسُ قَبْساً فَأَقْبَسَنِي ، وكذلك اقْتَبَسْتُ منه .

(٣) في قوله تعالى في الآية (١٠٩) من سورة (يوسف) : ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ .

والكسائي : ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بتنوين [شِهَابٍ] ، وهذا على الصفة ، ويجوز أن تكون الصفة مصدر : قَبَسَ يَقْبِسُ ، كما أن الحَلْب مصدر : حَلَب يَحْلب ، وقال أبو الحسن : الإضافة أجود وأكثر في القراءة ، كما تقول : دارُ آجُرٍّ وسوارُ ذهبٍ ، حكاه أبو علي . و [تَصْطَلُونَ] معناه : تستدفئون من البرد .

والضمير في [جَاءَهَا] للنار التي رآها موسى عليه السلام ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ يحتمل أن تكون [أَنْ] مُفسِّرة ، ويحتمل أن تكون في موضع نصب على تقدير : بِأَن بُورك ، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على تقدير : «نُودِيَ أَنَّهُ» ، قاله الزَّجاج . وقوله : [بُورِكَ] معناه : قُدِّس وضوعف خيره ونُمِّي ، والبركة مختصة بالخير ، ومن هذا قول أبي طالب بن عبد المطلب :

بُورِكَ المَيِّتُ الْغَرِيبُ كما بُو رِكَ نَبْعُ الرُّمَّانِ والزَّيْتُونِ [1]

و «بَارَكَ» مُتعد بغير حرف ، تقول العرب : بَارَكَكَ اللهُ [2] .

---

(١) البيت في (اللسان — بَرَكَ) — والرواية فيه : «نَضْحُ الرُّمَّان» بدلا من «نَبْعِ الرُّمَّانِ» ، قال : «قال الأزهري : معنى بركةِ الله عُلُوُّه على كل شيء ، قال أبو طالب : بورك ... البيت».

(٢) قال في (اللسان — برك) : «بارك الله الشيء وبارك فيه وعليه» . وقال الفراء : «والعرب تقول : «بارَكَكَ الله وبارك فيك» ، وقال الثعلبي : «العرب تقول : باركك الله ، وبارك =

وقوله تعالى : ﴿مَنْ فِي ٱلنَّارِ﴾ اضطرب المتأولون فيه ـ فقال ابن عباس ، وابن جبير ، والحسن ، وغيرهم : أراد عزَّ وجلَّ نفسه ، وعبَّر بعضهم في هذا القول عبارات مردودة شنيعة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أراد النورَ . وقال الحسن ، وابن عباس : أراد بـ ﴿مَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكة وموسى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فأما قول الحسن وغيره فإنما يتخرج على حذف مضاف ، بمعنى : بُورِكَ مَنْ قدرتُه وسلطانه في النار ، والمعنى : في النَّار على ظنِّك وما حسبتَ ، وأما القول بأن ﴿مَنْ فِي ٱلنَّارِ﴾ النورُ ، فهذا على أن يُعبَّر عن النور من حيث كان أنه من نور الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من الملائكة ؛ لأن ذلك النور الذي حسبه موسى ناراً لم يخْل من ملائكة ، و ﴿مَنْ حَوْلَهَا﴾ يكون موسى والملائكة المطيفين به . وقرأ أُبيٌّ بن أبي كعب «بُورِكَت النَّارُ» ، و ﴿مَنْ حَوْلَهَا﴾ يكون موسى والملائكة ، كذا حكى

= فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أربع لغات » ، ثم أنشد قول الشاعر :

فبُورِكْتَ مَوْلُوداً وبُورِكْتَ ناشِئاً وبُورِكْتَ عِنْدَ الشَّيْبِ إذْ أنْتَ أشْيَبُ

وقال عبد الله بن الزبير :

فبُورِكَ في بَنِيكَ وفي بَنِيهِمْ إذَا ذُكِرُوا ونَحْنُ لَكَ الفِدَاءُ

ومعنى هذا أن (بَارَكَ) تتعدّى بالحرف وبغير الحرف .

أبو حاتم ، وحكى ابن مكي أنه قرأ : «تباركت النَّارُ ومَنْ حولها» ، وحكى الداني أبو عمرو أنه قرأ : «ومَنْ حَوْلَهَا مِنَ الملائكة» ، قال : وكذلك قرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد (١) .

وقوله تعالى : ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون مما قيل في النداء لموسى عليه السلام ، ويحتمل أن يكون خطاباً لمحمد صلى الله عليه وسلم اعتراضاً بين الكلامين ، والمقصد به ـ على كلا الوجهين ـ تنزيه الله عزّ وجلّ ممّا عسى أن يخطر ببال في معنى النداء في الشجرة ، وكون قدرته وسلطانه في النَّار ، وعَوْد [مَنْ] عليه ، أي : هو مُنَزَّه ـ في جميع هذه الحالات ـ عن التشبيه والتَّكْييف ، قال الثعلبي : وإنما الأمر ـ كما رُوي في التوراة ـ : «جاء الله من سيناء ،

---

(١) قال النحاس عمّا رواه الداني ومكي من قراءة أُبي وابن عباس ومجاهد وعكرمة : «ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح ، ولو صحّ لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النَّار ومن حولها الملائكة وموسى» .

وقال أبو الفتح في قراءة أُبي : «تباركت» ـ ورواها : «تباركت الأرضُ» ـ : «هو تفاعل من البركة ، وهو تأكيد لمعنى البركة ، كقولك : (تعالى الله) ، فهو أبلغ من (علا) ، وأصل هذا من فَعَّل في الفعل ، فَقَطَّعْتُ وكسَّرْت أقوى معنى مِنْ قَطَعْتُ وكَسَرْتُ ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ فهو أبلغ من قادر ، ولهذا أيضاً جاء قوله : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ، فقد عبّر عن لفظ الحسنة بـ (كَسَبَ) وذلك لاحتقار الحسنة إلى ثوابها ، لقوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ ، وجاء (اكْتَسَبَ) في السيئة تنفيراً منها ، وتهويلا وتشنيعاً بارتكابها» .

وأشرق من ساعير ، واستَعلن من فاران» ، المعنى : ظهرت أوامره بأنبيائه في هذه الحالات[1] . والضمير في [إِنَّهُ] للأمر والشأن ، قال الطبري : ويُسميها أهل الكوفة المجهولة ، آنَسَه الله تعالى بصفاته من العزّة التي لا خوف معها ، والحكمة ، أي : لا نقْص في أفعاله .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

أمره الله تعالى بهذين الأمرين تدريباً له في استعمالهما ، وفي الكلام حذف تقديره : «فألْقى مُوسى العصا» ، ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ ، وأمال [رَآهَا] بعض القراءِ ، و «الجانُّ» : الحيّات ؛ لأنها تخفي أنفسها ، أي تسترها ، وقالت فرقة : «الجان» : صغار الحيّات ، وعصا موسى

---

(١) قال القرطبي : «فمجيئه من سيناء بعثُه موسى عليه السلام منها ، وإشراقه من ساعير بعثه المسيح عليه السلام منها ، واستعـــلاؤه من فاران بعثه محمداً صلى الله عليه وسلم منها ، وفاران : مكة» .

عليه السلام صارت حيَّة ثعباناً وهو العظيم ، وإنما شبهت بالجانّ في سرعة الاضطراب ؛ لأن الصغار أكثر حركة من الكبار ، وعلى كل قول فإن الله تبارك وتعالى خلق في العصا وغيَّر أوصافها وأغراضها فصارت حيَّة . وقرأ الزهري ، وعمرو بن عُبَيْد : [جأْن] بالهمز .

فلما أبصر موسى عليه السلام هول ذلك المنظر ﴿وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ، قال مجاهد : لم يرجع ، وقال قتادة : ولم يلتفت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعقَّب الرجل : إذا ولَّى عن أمر ثم صرف بدنه أو وجهه إليه كأنه انصرف على عقبيه ، وناداه الله مؤنساً ومُقَوِّياً على الأمر : ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ فإن رسلي الذين اصطفيتهم للنبوة لا يخافون عندي ومعي ، فأخذ موسى عليه السلام الحيَّة فرجعت عصاه ، ثم صارت له عادة .

واختلف الناس في الاستثناء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ — فقال مقاتل وغيره : الاستثناءُ متَّصل [1] ، وهو من الأنبياء ، وروي الحسن أن الله تعالى قال لموسى : أخفتك لِقَتْلك النفس ، وقال الحسن

(١) قال أبو حيان : «الأظهر أن قوله : ﴿إلا مَنْ ظَلَمَ﴾ استثناءٌ منقطع ، والمعنى : لكن مَن ظلم من غيرهم ، قاله الفراءُ وجماعة ؛ إذ الأنبياءُ معصومون من وقوع الظلم الواقع من غيرهم» .

أيضاً : «كانت الأنبياءُ تذنب فتُعَاقَب ، ثم تذنب ـ والله ـ فتعاقب ، فكيف بنا؟» ، وقال ابن جريج : لا يخيف الله تعالى الأنبياءَ إلا بذنب يصيبه أحدهم ، فإن أصابه أخافه حتى يأْخذه منه ، قال كثير من العلماء : لم يعرف أحد منَّ البشر لهم من ذنب إلا ما رُوي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام [١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأجمع العلماءُ أن الأنبياءَ عليهم السلام معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل ، واختلف فيما عدا هذا ، فعسى أن يشير الحسن وابن جريج إلى ما عدا ذلك .

وفي الآية ـ على هذا التأْويل ـ حذف اقتضى الإيجاز والفصاحة ترك نَصِّه ، تقديره : «فمن ظلم ثم بدَّل حسناً بعد سوءٍ» ، وقال الفراءُ وجماعة : الاستثناءُ منقطع ، وهو إخبارٌ عن غير الأنبياء ، كأَنه قال : من ظلم من الناس ثم تاب فإني غفور رحيم ، وقالت فرقة : [إلَّا] بمعنى الواو .

---

(١) وأشار الزمخشري إلى أن الصغائر التي فرطت منهم قد تسمى ظلماً ، كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى بوكزه القبطي ، وسمَّاه الله ظُلْماً كما قال موسى : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ ، لكن بعض العلماء قالوا : إن ذلك يكون قبل النبوَّة ، فالأنبياءُ معصومون من الكبائر والصغائر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول لا وجه له [١] . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ، وزيد ابن أسلم : «أَلَا مَنْ ظَلَمَ» على الإستفتاح . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً﴾ معناه : عملًا صالحاً مقترناً بتوبة ، وهذه الآية تقتضي حتم المغفرة للتائب ، وأجمع الناس على ذلك في التوبة من الشرك ، وأهل السُّنة في التائب من المعاصي ، على أنه في المشيئة كالمُصِرّ ، لكن يغلب الرجاءُ على التائب والخوف على المُصِرّ ، وقوله تعالى : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [٢] عمَّت الجميع من التائب والمُصِرّ ، ولا فرق بين المشرك وغيره ؛ لأنه يذهب فائدته ، إذْ الشِّرك يُغفر للتائب ، وما دونه كذلك على تأْويلهم ، فما فائدة التفصيل في الآية ، وهذا الاحتجاج لازم فتأمله ، ورُوي عن أبي عمرو أنه قرأ : ﴿حَسَناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ بفتح الحاء والسين ، وهي قراءة مجاهد ، وابن أبي ليلى ، وقرأ محمد بن علي الأصبهاني [٣] : [حُسْنَى] مثل فُعْلَى .

---

(١) لأن التقدير يكون : «وَلا مَنْ ظَلَمَ» ، وهذا ليس بشيء ؛ لأن معنى (إلا) مُبَاين لمعنى الواو مباينة كبيرة ؛ إذْ الواو للإدخال و إلا للإخراج ، فلا يمكن وقوع أحدهما موقع الآخر .

(٢) تكررت في الآيتين (٤٨) و (١١٦) من سورة (النساء) .

(٣) في البحر المحيط : «محمد بن عيسى الأصبهاني» .

ثم أمر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يدخل يده في جيب جبته لأنها لم يكن لها كُمٌّ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال مجاهد : مِدْرَعة صوف إلى بعض يده ، و «الجيب» : الفتح في الثوب لرأس الإنسان ، ورُوي أنَّ يد موسى عليه السلام كانت تخرج كأنها قطعة نور يتلألأ ، ومعنى إدخال اليد في الجيب ضم الآية إلى موسى ، وإظهار تلبسها به ؛ لأن المعجزات من شروطها أن يكون لها اتصال بالرائي ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي : من غير برص ولا علّة ، وإنما هي آية تجيءُ وتذهب ، وقوله : ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ متصل بقوله : [أَلْقِ] و [أَدْخِلْ] ، وفيه اقتضاب وحذف ، تقديره : تمهد وتيسر لك ذلك في جملة تسع آياتٍ ، وهي : العصا ، واليد البيضاءُ ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمس ، والحجر ، وفي هذين الأخيرين اختلاف ، والمعنى : يجيءُ بهن إلى فرعون وقومه .

قوله عزّ وجلّ :

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

الضمير في قوله تعالى : [جَاءَتْهُمْ] لفرعون وقومه ، و [مُبْصِرَةً] معناه : معها الإبصار والوضوح ، وعلى هذا نحو قولهم : نهارٌ صائم ،

وليل قائمٌ ونائمٌ . وقرأ قتادة والحسن : [مَبْصَرَة] بفتح الميم والصاد (١).

وظاهر قوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ حصول الكفر عناداً ، وهي مسألة فيها قولان : هل يجوز أن يقع أَمْ لا ؟ فجوَّزت ذلك فرقة وقالت : يجوز أن يكون الرجل عارفاً إلَّا أنَّه يجحد عناداً ويموت على معرفته وجحوده ، فهو بذلك في حكم الكافر المخلد ، قالوا : وهذا حكم إبليس ، وحكم حيي بن أخطب وأخيه حسب ما رُوي عنهما .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإن عورض هذا المثال فُرض إنسان يجوز ذلك فيه . وقالت فرقة : لا يصح لوجهين : أحدهما أن هذا لا يجوز وقوعه من عاقل ، والوجه الآخر أن المعرفة تقتضي أن يحل في القلب ، وذلك إيمانٌ ، وحكم الكافر لا يلحقه إلَّا بأن يحلَّ في القلب كفر ، ولا يصح اجتماع

---

(١) في البحر المحيط : «وقرأ قتادة وعلي بن الحسين» ، وعلى هذه القراءة تكون الكلمة مصدراً ، كما تقول : الولد مَجْبَنَةٌ ، وأُقيم المصدر مكان الاسم ، وانتصب أيضاً على الحال ، وهذا الوزن كثير في صفات الأماكن ، قيل : أرض مَسْبَعة ، ومكان مَضَبَّة ، ومَثْعَلَة ، بمعنى : كثيرة السباع ، أو الضباب ، أو الثعالي ، وهذا في الجواهر أو الأعيان ، وأما في الأحداث فمنه : الحقُّ مَجْدَرَةٌ بك ومخلقة ومَعْسَاةٌ ومَقْمَنَةٌ .

الضدين في محل ، قالوا : ويشبه في هذا العارف الجاحد أن يسلب عنف الموافاة تلك المعرفة ويحل بدلها الكفر .

قال القاضي أبو محمد رحمه ٱلله :

والذي يظهر عندي في هذه الآية وما جرى مجراها أن هؤلاء الكفرة إذا نظروا في آيات موسى أعطتهم قولهم : «إن هذا ليس تحت قدرة بشر» ، وحصل لهم اليقين أنها من عند الله تعالى ، فيغلبهم أثناء ذلك الحسدُ ، ويتمسكون بالظنون في أنها سحر وغير ذلك حتى يُسلب ذلك اليقين أو يدفع ، وحكمه حكم المستلب في وجوب عذابهم .

و [ظُلْماً] معناه : على غير استحقاق للجحد ، و «العُلُوّ» في الأرض أعظم آفة على طالبه ، قال الله تعالى : ﴿تِلْكَ الدَّارُ ٱلآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾[1] . ثم عجَّبه تعالى من عاقبة المفسدين قوم فرعون ، وسوءِ مُنقلبهم حين كذَّبوا موسى ، وفي هذا تمثيل لكفار قريش إذْ كانوا مفسدين مسْتَعْلِينَ . وقرأ ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : [وَعِلِيًّا] ، وحكى أبو عمرو الداني عنهم وعن أبان بن ثعلب أنهم كسروا العين من [عِلِيًّا] .

---

(١) من الآية (٨٣) من سورة (القصص) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

هذا ابتداءُ قصص فيه غيوب وعبر ، وليس بمثال لقريش ، وداود عليه السلام من بني إسرائيل وكان ملكاً ، وورث سليمانُ عليه السلام مُلْكه ومنزلته من النبوة ، بمعنى : صار ذلك إليه بعد موت أبيه ، ويُسمى ميراثاً تجوزاً ، وهذا نحو قولهم : «العلماءُ ورثة الأَنبياء» ، وحقيقة الميراث في المال ، والأَنبياءُ لا تورث أَموالهم ؛ لأَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّا معشر الأَنبياء لا نورث)[1]، يريد به أَن ذلك من فعل الأَنبياء عليهم السلام وسيرتهم ، وإن كان فيهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢–٤٦٣) — عن أبي هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركتُ بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة) .

من ورث ماله كزكريا عليه السلام على أشهر الأقوال فيه ، وهذا كما تقول : «إنَّا معشر المسلمين إنما شغلنا العبادة » ، فالمراد أن ذلك فعل الأكثر ، ومنه ما حكى سيبويه : «إنَّا معشر العرب أقْرى الناس للضيف».

وقوله تعالى : ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ إخبارٌ بنعمة الله تبارك وتعالى عندهما في أن فهمهما من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها ، فهذا نحو ما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يسمع أصوات الحجارة بالسلام ، وسليمان عليه السلام حكى عن البلبل أنه قال . «أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاءُ» ، إلى كثير من هذا النوع ، وقال قتادة والشعبي وغيرهما : إنما كان هذا الأمر في الطير خاصة ، والنملة طائر إذ قد يوجد لها الأجنحة ، قال الشعبي : وكذلك كانت هذه القائلة ذات جناحين ، وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان ، وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جنود سليمان عليه السلام يحجب عنه الشمس ، ويحتاجه في البعث في الأمور ، فخُصَّ لكثرة مداخلته ، ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير ، والنمل حيوان فطن قوي شمام جدًا ، يدَّخر ويتَّخذ القِرى ، ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت ، ويشق الكزبرة بأربع قطع لأنها تنبت إذا قسمت نصفين ، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره مدة .

وقوله تعالى : ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه : يصلح لنا ونتمنَّاه ، وليست على العموم ، ثم رَدَّد شُكْر الله تبارك وتعالى .

ثم قصَّ تعالى حال سليمان فقال : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ﴾ أي : جُمِع ، واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام اختلافاً شديداً لم أُرِدْ ذكره لعدم صحته ، غير أَن الصحيح أَن مُلْكه كان عظيماً ملأَ الأَرض ، وانقادت له المعمورة كلها ، وكان كرسيه يحمله أَجناده من الجن والإِنس ، وكانت الطير تظلله من الشمس ، ويبعثها في الأُمور ، فكان له في الكرسي الأَعظم موضع يخصه . و [يُوزَعُونَ] معناه : يُرَدُّ أَوَّلهم على آخِرهم ويُكفُّون ، قال قتادة : فكان لكل صنف وزعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأَرض إذا مشوا فيها، – فرُبَّ وقت كان يسير فيه في الأَرض – ، ومنه قول الحسن البصري حين وَلي قضاءَ البصرة : «لابُدَّ للحاكم من وَزَعة» ، ومنه قول أَبي قحافة حين وصفت له الجارية في يوم الفتح أَنها ترى سواداً أَمامه فارس قد تقـدم من الصَّف ، فقـال لها : ذاكَ الـوازع[1]،

---

(١) روى محمد بن إسحق عن أسماءَ بنت أَبي بكر رضي الله عنهم قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طُوَى – تعني يوم الفتح – قال أبو قحافة – وقد كُفَّ بصره يومئذ – لابنته : اظهري بي على أَبي قُبَيْس. قالت : فأَشرفت به عليه فقال : ما تَرَيْن ؟ قالت : أرى =

ومنه قول الشاعر :

عَلَى حِينَ عاتَبْتُ الْمَشيبَ عَلَى الصِّبَا وَقُلْتُ أَلَـمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟ (١)

أي : كافٌّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

ـــــــــــــــ

= سواداً مُجْتَمِعاً ، قال : تلك الخيل ، قالت : وأرى رجلا من السَّواد مُقبلا ومُدبراً ، قال: ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر ... إلخ الخبر .

(١) البيت للنابغة الذبياني ، وهو من قصيدة له يمدح النعمان ويعتذر إليه مما وشت به بنو قُرَيع بن عوف من تميم . و (عَلَى) في البيت بمعنى (في) ، كقوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وأَصْحُ : أفيق ، والوازِع : الزَّاجر الكافُّ ، والصِّبا : الصَّبوة وما فيها من أعمال الشباب ولهوهم ، والبيت مرتبط بما قبله وهو قوله :

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ وَدَامِعُ

يقول : كَفْكَفْتُ دَمْعِي في الوقت الذي عاتبت فيه نفسي في حال مَشيبها على أفعال التَّصَابي ، وقلت لنفسي : أَلَم أفق بعد من طيشي وجهالتي والشيب وازع يزجرني ويكُفّني ؟ والشاهد في البيت أن (وازع) بمعنى كافّ ، ومثله في ذلك قول الآخر :

ولمَّا تَلاقَيْنَا جَرَتْ مِنْ جُفُونِنَا دُمُوعٌ وَزَعْنَا غَرْبَهَا بالأَصَابِعِ

وقول الآخر :

وَلا يَزَعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنِ الْهَوَى مِنَ النَّاسِ إلا وَافِرُ العَقْلِ كامِلُهْ

ظاهر هذه الآية أن سليمان عليه السلام وجنوده كانوا مشاةً في الأرض ، ولذلك يتفق حطم النمل [بنزولهم في وادي النمل](١)، ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح وأَحَسَّت النمل بنزولهم في وادي النمل [ووادي النمل قيل : بالشام ، وقيل بأقصى اليمن ، وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها](١) .

وأمال أبو عمرو الواو من [وَادي] ، والجميع فخَّم ، والإمالة قراءة ابن أبي إسحٰق ، وقرأ المعتمر بن سليمان عن أبيه : [ٱلنَّمُلِ] بضم الميم كالشَّمُس ، و ﴿قَالَتْ نَمُلَةٌ﴾ أيضاً بالضَّم كسَمُرة ، ورُوي عنه أيضاً ضم النون والميم من [النمل] ، قال نَوْف البِكَالي:(٢) كان ذلك النمل على قدر الذباب ، وقالت فرقة : بل كانت صغاراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يقال في هذا أن النمل كانت نسبتها من هذا الخلق نسبة هذا النمل منَّا ، فيحتمل أن كان الخلق كله أكمل ، وهذه النملة

---

(١) ما بين العلامتين [......] غير موجود في الأصول ، ولكنا نقلناه عن البحر المحيط حيث نقل نصَّ كلام ابن عطية .

(٢) هو نوْفُ بن فَضَالة البِكاليّ ، شامي مستور ، من الثانية ، مات بعد التسعين . (تقريب التهذيب) .

قالت هذا المعنى ـ الذي لا يصلح له إلَّا هذه العبارة ـ قولًا فهمه عنها النمل ، فسمعه سليمان عليه السلام على بُعْده ، وجاءت المخاطبة كمن يعقل لأنها أمرتهم بما يؤمر به من يعقل ، وروي أنه كان على ثلاثة أميال فَتَبَسَّم من قولها ، والتَّبَسُّم ضحك الأنبياء في غالب أمرهم ، لا يليق بهم سواه(١) ، وكان ضحكه سروراً ، واختُلِف بِمَ؟ فقالت فرقة : بنعمة الله تبارك وتعالى في إسماعه وتَفْهيمه ونحو ذلك ، وقالت فرقة : بنَبَإِ النملة عليه وعلى جنوده في أن نَفَت عنهم تعمُّد القبيح من الفعل ، فجعلت الحطم وهم لا يشعرون .

وقرأ شهر بن حوشب : [مَسْكَنَكُمْ] بسكون السِّين على الإفراد ، وفي مصحف أُبيٍّ رضي الله عنه [مَسَاكِنَكُنَّ] . وقرأ جمهور القراء : ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ بشد النون وسكون الحاء ، وقرأ أبو عمرو في رواية

---

(١) في الصحيح عن جابر بن سمُرة وقيل له : أكنت تجالس النبيَّ صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، كثيراً ، كان لا يقوم من مُصَلاه الذي يصلي فيه الصبح ـ أو الغداة ـ حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّم . وفيه أيضاً عن سعد قال : كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين ـ أي أثخن فيهم ، وعمل فيهم نحو عمل النار ـ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ـ أي قال لسعد ـ ارْمِ فداك أبي وأُمّي ، قال : فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأَصبتُ جنبه فسقط فانكشفت عورته ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظرتُ إلى نواجذه . ومن هذا نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في أكثر أحواله يتبسَّم ، ولكنه كان يضحك في بعض الأحيان ضحكاً أعلى من التَّبسُّم .

عبيدة : ﴿لَا يَحْطِمَنْكُمْ﴾ بسكون النون ، وهي قراءة ابن أبي إسحٰق ، وقرأ الحسن ، وأبو رجاء : ﴿لَا يُحَطِّمَنَّكُمْ﴾ بضم الياء وفتح الحاء وكسر الطاء وشدِّها وشدِّ النون ، وعنه أيضاً ﴿لَا يَحِطِّمَنَّكُمْ﴾ بفتح الياء وكسر الحاء والطَّاء وشدِّها[1]، وقرأ الأعمش وطلحة : ﴿لَا يَحْطِمَكُمْ﴾ مخففة بغير نون ، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب ﴿لَا يَحْطِمَنْكُمْ﴾ مخففة النون التي قبل الكاف .

و [ضَاحِكاً] نصب على الحال ، وقرأ محمد بن السمَيْفَع : [ضَحِكاً] ، وهو نصب على المصدر [بفعل محذوف يدلُّ عليه [تَبَسَّم] ، كأَنه قال : «ضَحِكَ ضَحِكاً» ، وهذا مذهب صاحب الكتاب ، أو يكون منصوباً بنفس [تَبَسَّمَ] لأَنه في معنى (ضَحِك)][2] .

ثم دعا سليمان ــ عليه السلام ــ ربَّه في أن يُعينه الله تعالى ويفرغه لشكر نعمته ، وهذا هو معنى إيزاع الشكر . وباقي الآية بيِّن .

---

(١) في المحتسب لابن جني أن القراءة بفتح الياء والحاء وتشديد الطاء والنون ، وأنه روي عن الحسن أيضاً بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطاء والنون ، أما ضمُّ الياء مع فتح الحاء وتشديد الطاء والنون فقد ذكرها القرطبي عن الحسن .

(٢) اضطربت الأصول في الجزء الذي أثبتناه هنا بين العلامتين [....] حتى صار الكلام تخليطاً ، ولما كان ابن عطية قد أخذ هذا الكلام عن ابن جني فقد آثرنا أن ننقل نفس العبارة التي أثبتها ابن جني في المحتسب حتى نضمن صحة التعبير وسلامته من التحريف والتصحيف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

اختلف الناس في معنى «تفَقُّده الطيرَ» ـ فقالت فرقة : ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأُمور المُلْك والتَّهمُّم بكل جزءٍ منه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر الآية أنه تفقَّد جميع الطير ، وقالت فرقة : بل تفَقَّد الطير لأَن الشمس دخلت على المَلِك من موضع الهدهد حين غاب ، فكان ذلك سبب تفقد الطير ليتبيَّن من أين دخلت الشمس ، وقال عبد الله بن سلام : إنما طلب الهدهد لأَنه احتاج إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأَرض ؛ لأَنه كان نزل في مفازة حُرم فيها الماءَ ، ولأَن الهدهد كان يرى بطن الأَرض وظاهرها ، كانت تشف له ، فكان يخبر سليمان عليه السلام بموضع الماء ، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة ، تسلخ عنه وجه الأَرض كما تسلخ الشاة ، قاله ابن

عباس رضي الله عنهما فيما روى عنه ابن سلام وغيره ، وقال في كتاب النقاش : كان الهدهد مهندساً ، ورُوي أن نافع بن الأَزرق سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول هذا ، فقال له : قف يا وقاف ، كيف يرى الهدهدُ بطن الأَرض وهو لا يرى الفخَّ حين يقع فيه ؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : إذا جاءَ القضاءُ عمي البصر ، وقال وهب ابن منبه : كانت الطير تنتاب (١) سليمان عليه السلام كل يوم ، من كل نوع واحد نوبة معهودة ، فتفقد الهدهد .

وقوله تعالى : ﴿مَالِيَ لَا أَرَى﴾ إنما المقصد أَن الهدهد غاب ، لكنه أَخذ اللازم عن غيابه وهو أَلَّا يراه ، فاستفهم – على جهة التوقيف – عن اللازم ، وهذا ضرب من الإيجاز ، والاستفهامُ الذي في قوله [مَالِيَ] ناب مناب الأَلف التي تحتاجها [أَمْ](٢) . ثم توعَّده عليه السلام بالعذاب ، وروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أَن تعذيبه للطير كان بـأَن ينتف ريشه أَجمع ، وقال يزيد بن رومان (٣) : جناحه ،

(١) أي : تقصده مرة بعد أُخرى ، يقال : انتاب صديقَه : قصده مرة بعد أُخرى ، وفلان يَنْتَابُنَا ، والسباعُ تنتاب المنهل ، (المعجم الوسيط) .

(٢) معنى هذا أنَّ [أَمْ] متصلة ، وأَن الاستفهام الذي في [مَالِيَ] ناب مناب أَلف الاستفهام ، ويكون المعنى عند ابن عطية : « أَغابَ عنّي الآن فلم أَره حالة التفقد أَم كان ممَّن غاب من قَبْل ولم أَشعر بغيبته ؟ »

(٣) هو يزيد بن رومان المدني ، مولى آل الزبير ، ثقة ، من الخامسة ، مات سنة ثلاثين ، وروايته عن أبي هريرة مرسلة . (تقريب التهذيب) . ومعنى كلام ابن رومان أنه ينتف ريش جناحه .

ورُوي عن وهب أنه بأن ينتف بعضه ويبقي بعضه . و «السُّلْطَانُ» : الحُجَّة حيث وقع في القرآن ، قاله عكرمة عن ابن عباس ، وقرأ عكرمة وحده : ﴿لَيَأْتِيَنَّنِـي﴾ بنونين ، وفعل سليمان عليه السلام هذا بالهدهد وحده غلاظاً على العاصين ، وعلى إخلاله بِنَوْبه ورتبته .

وقرأ جمهور القراء : [فَمَكُثَ] بضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده : [فَمَكَثَ] بفتحها ، ومعناه — في القراءتين — : أقامَ ، والفتح في الكاف أحسن ؛ لأنها لغة القرآن في قوله : [مَاكِثِينَ] (١) ؛ إذ هو من (مَكَثَ) بفتح الكاف ، ولو كان من (مَكُثَ) بضم الكاف لكان جُمِع (مَكِيثٌ)(٢)، والضمير في مكث يحتمل أن يكون لسليمان عليه السلام أو الهدهد ، وفي قراءة ابن مسعود : «فَتَمَكَّثَ ثم جاء فقال» ، وفي قراءة أُبي : «فَتَمَكَّثَ ثم قال أَحطتُ» . وقوله : ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ كما في مصاحف الجمهور يريد به الزمن والمدة ، وقوله : [أَحَطْتُ] أي : علمتُ علماً تامًّا ليس في علمك .

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٣) من سورة (الكهف) : ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ .

(٢) يقال : مَكَثَ يَمْكُثُ فهو ماكِثٌ مثل قَعَدَ يَقْعُدُ فهو قَاعِدٌ ، ومَكُثَ يَمْكُثُ مثل عظُم يَعْظُم فهو مَكيثٌ مثل عظيم . هذا مذهب سيبويه ، وقال غيره : بل يجوز في مكُث بالضم أن يقال : مكُث يَمْكُث فهو ماكِثٌ ، مثل حمُض يَحْمُضُ فهو حامضٌ . (راجع كتب اللغة) .

واختلف القراءُ في [سَبَإٍ] – فقرأ الجمهور : [سَبَإٍ] بالصرف ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [سَبَأَ] بفتح الهمزة وترك الصرف ، وقرأ الأعمش : ﴿مِنْ سَبَإِ﴾ بالكسر وترك الصرف ، وروى ابن حبيب عن اليزيدي [سَبَاْ] بالألف ساكنة ، وقرأ قنبل – عن النبال – بسكون الهمزة ، فالأُولى على أنه اسم رجل ، وعليه قول الشاعر :

الْوَارِدُونَ وَتَيْمٌ فِي ذُرَى سَبَإٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ(١)

وقال آخر :

مِنْ سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ ... .(٢)

وهذا على أنها قبيلة ، والثانية(٣) على أنها اسم بلدة ، قاله الحسن وقتادة ، وكلا القولين قد قيل ، ولكن رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث فروة بن مُسَيْك وغيره أَنَّهُ وُلد له عشرة من الولد ،

---

(١) هذا البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن ، ويُرْوى : ذُرَى ، وذَرَا ، ومعنى (عَضَّ أعناقَهُم جِلْدُ الجواميسِ) أن القيود المصنوعة من جلد الجواميس قد أثرت في أعناقهم . والشاهد هنا أن (سَبَأً) اسم رجل هو أبو القبيلة ، ولهذا صرف ، والبيت لجرير قاله في هجاء عمرو بن لجأ التيمي ، وقد سبق الاستشهاد به في الجزء الثامن صفحة ٤٣٢ .

(٢) هذا جزء من بيت للنابغة الجعدي ، والبيت بتمامه :

مِنْ سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إذْ يَبْنُونَ مِنْ دونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا

والشاهد فيه أن (سَبَأَ) اسم قبيلة ، ولهذا منع من الصرف .

(٣) يريد القراءة الثانية في القراءات التي ذكرها في كلمة (سَبَأَ) ، وكذلك يقصد القراءات في قوله بعد ذلك ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة .

تيامن منهم ستة وتشامَ أربعة(١) ، وحُكي(٢) هذا الحديث على الزجاج فخبط عشواء ، والثالثة على البناء ، والرابعة والخامسة لتوالي الحركات السبع فسكن تخفيفاً للتثقيل في توالي الحركات ، وهذه القراءة لا تبنى على الأُولى ، بل هي إما على الثانية أو الثالثة . وقرأت فرقة دون تنوين على الإضافة ، وقرأت فرقة [بِنَبَي] بالألف مقصورة (٣) .

وقوله : ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة ، أي : مما تحتاجه المملكة ، قال الحسن : من كل أمر الدنيا ، ووصف عرشها بالعظم

---

(١) الحديث رواه الترمذي في سُنَنه (٢-١٥٤) عن فــروة بن مُسَيْك المرادي ، قال : (قال رجل: يا رسول الله ، وما سبأ ؟ أرْض أو امرأة ؟ قال : ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب ... الخ الحديث) ، قال الترمذي : هذا حديث غريب حسن ، ورواه الطبري ، وقال الحافظ بن حجر في (الإصابة) عن هذا الحديث ــ عند ترجمة فروة بن مُسَيْك ــ : أخرجه ابن سعد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن السكن مطوّلا ومختصراً .

(٢) في بعض النسخ : (وخفـي) وهي أشبه وأقرب .

(٣) هذا الأسلوب في قوله تعالى : ﴿مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ يُسمى في علم البديع تجنيس التصريف ، قيل : وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ ، وما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم : (الخيل معقود في نواصيها الخير) ، وقول الشاعر :

لله مَا صَنَعَتْ بِنَــا تِلْكَ الْمَعَاجِرُ والْمَحَاجِر

وقيل : إن هذا النوع من الأسلوب يسمى التَّرْديد ، وقال الزمخشري : « إنه من جنس الكلام الذي سمَّاه المحدثون البديع ، ولقد جاء هنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنىً ، ألا ترى لو وضع (بِخَبَرٍ) مكان [بِنَبَإٍ] لكان المعنى صحيحاً ؟ وهو كما جاء أصحُّ لما في (النَّبَإِ) من الزيادة التي يطابقها وصف الحال » ، والزيادة التي يقصدها الزمخشري هنا أن (النبأ) لا يكون إلا الخبر الذي له شأنٌ ، أما لفظ (الخبر) فمطلق ، يطلق على ما له شأنٌ وما ليس له شأن .

في الهيئة ورتبة السلطان ، وروي عن نافع الوقف على [عَرْشٍ] ، ف [عَظِيم] – على هذا – متعلق بما بعده ، وهذه المرأة هي بلقيس بنت شراحيل فيما قال بعضهم ، وقيل : بنت القَشْرح ، وقيل : كانت أُمُّهَا جِنِّيَّة ، وأكثر بعْض الناس في قصصها بما رأيت اختصاره لعدم صحته ، وإنما اللازم من الآية أنها مختصة بامرأة ملكت على مدائن اليمن ، وكانت ذات مُلْك عظيم ، وكانت كافرة من قوم كفار .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

كانت هذه الأُمة أُمة تعبد الشمس ؛ لأَنهم كانوا زنادقة فيما روي ، وقيل : كانوا مجوساً يعبدون الأَنوار ، وقوله : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ إلى قوله : ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيم﴾ ظاهر أنه من قول الهدهد ، وهو قول ابن زيد وابن إسحق ، ويعترض بأَنه غير مخاطب فكيف يتكلم

في شرع ، [ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم] (١) ، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى ، فهو اعتراض بين الكلامين ، وهو الثابت مع التأمل ، وقراءة التشديد في [أَلَّا] تعطي أن الكلام للهدهد ، وقراءة التخفيف تمنعه وتقوي الآخر حسب ما سمع ، ويتأمل إن شاء الله تعالى .

وقرأ جمهور القراء [أَلَّا] ، أي : «لَا يَسْجدوا» ، فـ [أَنْ] في موضع نصب على البدل من [أَعْمَالَهُم] ، أو في موضع خفض على البدل من [ٱلسَّبِيلِ] ، أو يكون الكلام بتقدير : «لِئَلَّا يَسْجُدوا» ، فـ [أَنْ] متعلقة إمَّا بـ [زَيَّنَ] ، وإمَّا بـ [فَصَدَّهُمْ] ، واللام الداخلة على [أَنْ] داخلة على مفعول له (٢) .

وقرأ ابن عباس ، وأبو جعفر ، والزهري ، وأبو عبد الرحمن ، والحسن ، والكسائي ، والحسين : ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ بتخفيف اللام ، فعلى هذا له أن يقف عَلَى ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ويبتدئُ بـ ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ ،

---

(١) ما بين العلامتين [......] زيادة نقلناها عن القرطبي ، لأنه نقل كلام ابن عطية وفيه هذه العبارة ، أما الأصول التي بين أيدينا فقد خلت منها . وإن كان قول ابن عطية بعد ذلك : «وتُقَوِّي الآخر» يدل على أنه ذكر احتمالين فقط .

(٢) وقيل : العامل فيها ﴿لا يَهْتَدُونَ﴾ ، أي : لا يهتدون أنْ يسجدوا ، وعلى هذا القول تكون (لا) زائدة ، كقوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدَ﴾ أي : ما مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ ، وعلى هذه القراءة فليست هذه الآية بموضع سجدة ؛ لأنها خبر عنهم بترك السجود ، إمَّا بالتزيين أوْ بالصدِّ أو بمنع الاهتداء .

وإن شاء وقف عَلَى ﴿أَلَا يَا﴾ ثم يبتدئ : [ٱسْجُدُوا](١) ، واحتج الكسائي لقراءته هذه بأنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه موضع سجدة وإن جعلناه من كلام الهدهد ، بمعنى : ألا يا قوم ونحو هذا ، ومنه قول الشاعر :

أَلَا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيٍّ عَلَى البِلَى وَلَا زالَ مُنْهَلاًّ بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ(٢)

ونحو قول الأخطل :

أَلَا يا اسْلَمِي يا هِنْدُ هِنْدَ بَنِي بَدْرِ وَإِنْ كانَ حَيَّانَا عِداً آخِرَ الدَّهْرِ(٣)

---

(١) وتكون [ألا] للاستفتاح ، و [يا] حرف نداء ، والمنادى محذوف ، والتقدير : ألا يا قوم : اسجدوا ، أوْ : ألا يا هؤلاء اسجدوا ، و [اسْجُدُوا] فعل أمْر وسقطت ألف الوصل في [اسْجُدوا] ، وكتبت الياءُ من [يا] متصلة بالسين بعد أن سقطت الألف منها ، والسبب في سقوط الألفين ــ ألف الوصل وألف النداء ــ في الخطِّ هو سقوطهما لفظاً ، (راجع الألوسي والبحر) .

(٢) البيت لذي الرُّمّة ، والجرعاءُ : الأرض الرملة السهلة المستوية الطيِّبة المنبت التي لا وُعُوثةَ فيها ، يدعو لها بالري والسقيا الدائمة بعد السلامة من الفناء ، والشاهد هنا أن حرف النداء دخل على منادى محذوف ، والتقدير : ألا يا هذه أسلمي ، و (اسلمي) فعل أمْرٍ ، تماماً كما حذف المنادى في الآية الكريمة في قراءة [ألا] بالتخفيف ، وجيءَ بفعل الأمر : [اسْجُدُوا] .

(٣) البيت في (اللسان ــ عدا) منسوباً أيضاً إلى الأخطل التغلبي الشاعر الأموي ، واللسان يستشهد به على أن العِدَى بمعنى الأعداء ، ونقل عن ابن الأعرابي قوله : العِدَى : التباعد ، وقومٌ عِدَى : إذا كانوا متباعدين لا أرحام بينهم ولا حلف ، وقومٌ عِدَى : إذا كانوا في حرب ، وأكثر من الكلام في ضبط العين من عِدَى . والشاعر يدعو لهند بالسلامة على الرغم مما بين الحيَّيْن من عداوة دائمة إلى آخر الزمن . والشاهد الذي قصده ابن عطية هنا هو حذف المنادى تماماً كما في بيت ذي الرُّمّة .

ومنه قول الآخر :

أَلَا يَا اسْمَــعْ أَعِظْكَ بِخِطْبَــةٍ فقُلْتُ سَمِعْنَا فانْطِقِي وَأَصِيبِي (١)

وتحتمل قراءة من شَدَّد [أَلَّا] أن نجعلها بمعنى التَّحْضيض ، ويقدر هذا النداءُ بعدها ، ويجيءُ في الكلام إضمار كبير ولكنه متوجه ، وسقطت الأَلف كما كتبت في : يا عيسى ، وياقوم . وقرأَ الأَعمش :

---

(١) الوَعْظ : النُّصْح والتذكير بالعواقب ، وفي الحديث : (لأجعلنَّك عظة) أي موعظة وعبرة لغيرك ، والشاهد فيه هنا هو حذف المنادى ، كما حذف في البيتين السابقين وفي الآية الكريمة ، والتقدير : يا هذا ، ثم جيء بعده بفعل الأمر (اسْمَعْ) . وهذا التركيب كثير في كلام العرب ، ومنه قول الشاعر :

ألا يا اسْلَمِي ذاتَ الدَّمالِجِ والعقد

وقول الآخر : ألا يا اسْقِيانِي قَبْلَ غارَةِ سَنْجَالِ

قال الفراءُ : وسمعت بعض العرب يقول : « ألا يا ارْحَمَانا ، ألا يا تَصَدَّقا » ، وفي كل هذه الأمثلة يكون المنادى محذوفاً وما بعده فعل أمر ، وأنشد سيبويه :

يا لَعْنَةُ اللهِ والأَقْوَامِ كُلِّهِــم والصَّالِحِينَ عَلَى سمْعَانَ مِنْ جارِ

والشاهد فيه حذف المنادى لدلالة حرف النداء عليه، والمعنى : يا قوم أو يا هؤلاء ، لعنةُ الله على سمعان ، ولهذا رفع « لعنة » بالابتداء ، ولو أوقع الشاعر النداءَ عليها لنصبها .

ونقل الكسائي عن عيسى الهمداني قال : ماكنت أسمع المشيخة يقرؤونها – يريد الآية الكريمة – إلا بالتخفيف على نيَّة الأمر ، وقراءة عبد الله ﴿هَلا تَسْجدونَ﴾ بالتاء حُجَّة لمن خفف .

ومع ذلك فإن أبا حيان الأندلسي ينفي أن تكون الياءُ في كل هذه الأمثلة للنداء مع حذف المنادى ، إذ لا يجوز حذف المنادى هنا بعد أن حذف الفعل العامل في النداء وانحذف فاعله لحذفه ، ولو حذفنا بعد ذلك المنادى لكان في ذلك حذف جملة النداء ومتعلقه ، وفي هذا إخلال كبير ، ولهذا كله فإنه يرى أن (يا) في هذه الأمثلة حرف تنبيه أُكِّد به (ألا) التي للتنبيه أيضاً ، وجاز ذلك لاختلاف الحرفين .

«هَلَّا يَسْجُدونَ» ، وفي حرف عبد الله : «أَلَا هَلْ تَسْجُدُونَ» بالتَّاء ، وفي قراءة أُبيٍّ : «أَلَّا تَسْجُدُوا» بالتاء أيضاً .

و [ٱلْخَبْءَ] : الخفيُّ من الأُمور ، وهو من : «خبأْتُ الشيءَ» ، وخبْءُ السماء : مطرها ، وخبْءُ الأَرض : كنوزُها ونباتُها ، واللفظة ـ بعد هذا ـ تعُمُّ كل خفي من الأُمور ، وبه فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما ، وقرأ جمهور الناس : [ٱلْخَبْءَ] بسكون الباء وبالهمز (١)، وقرأ أُبيٌّ بن كعب : [ٱلْخَبَ] بفتح الباء وترك الهمز ، وقرأ عكرمة : [ٱلْخَبَا] بالأَلف مقصورة ، وحكى سيبويه أن بعض العرب [يقلب الهمزة ألفاً إذا كانت مفتوحة وقبلها ساكن] ، ويقلبها واواً إذا كانت مضمومة وقبلها ساكن ، ويقلبها ياءً إذا كانت مكسورة وقبلها ساكن ، ومثل سيبويه في ذلك بالوَثْي ، تقول : رأيتُ الْوَثا ، وهذا الوَثْوُ ، وعجبت من الوَثْيِ (٢) ، وكذلك يجيءُ (الْخَبا) في حال النَّصب ،

(١) العبارة في الأصول : «بسكون الباء والهمز» ، ولما كان من الممكن أن يفهم منها أن الكلمة بسكون الباء وسكون الهمز آثرنا زيادة الباء على كلمة (الهمز) حتى يتضح المعنى المقصود مباشرة ، وهو أن الكلمة بالهمز لا بغير همز .

(٢) في (اللسان) : الوَثْي : الضرب حتى يرهص اللحم ويصل الضرب إلى العظم من غير كسر . وما بين العلامتين [......] زدناه ليستقيم كلام سيبويه ؛ حيث أن الأمثلة التي أوردها تقتضي وجود هذه الزيادة ، ولأن القاعدة تطرد مع الحروف الثلاثة : الألف والواو والياء .

وتقول : اطلعت على الخَبِي ، وراقني الخَبوُ . وقرأ جمهور القراء : ﴿وَيَعْلَمُ ما يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بياء الغائب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه القراءة تعطي أن الآية من كلام الهدهد . وقرأ الكسائي ، وعاصم – في رواية حفْص – : ﴿وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بتاء المخاطبة ، وهذه القراءة تعطي أن الآية من خطاب الله عزَّ وجلَّ لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي مصحف ابن كعب : «أَلَّا تَسْجُدوا لِلهِ الذي يخرج الخَبَا من السموات والأرض ويعلم سِرَّكم وما تُعلنون» ، وخصَّ العرش بالذكر في قوله : ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ لأنه أعظم المخلوقات ، وما عداه في ضمنه وفي قبضته .

ثم إن سليمان عليه السلام أَخَّر أمر الهدهد إلى أن يتبيَّن له حقه من باطله ، فسوَّفه بالنظر في ذلك[1] ، وأمر بكتاب فكُتب ، وحمَّله إياه ، وأمره بإلقائه إلى القوم والتَّوَلِّي بعد ذلك ، وقال وهب بن منبه : أمره بالتَّولِّي حُسْن أدب ليتَنَحَّى حسب ما يتأدب به مع الملوك ، بمعنى : وكن قريباً حتَّى ترى مراجعاتهم ، قال : وقوله : ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله : ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ .

---

(١) المراد بالنظر التَّأمل والتفكر في الموضوع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واتّساق رتبة الكلام أظهر ، أي : ألْقه ثمّ تَوَلَّ ، وفي خلال ذلك فانظر ، وإنما أراد أن يكل الأمر إلى حكم ما في الكتاب دون أن يكون الرسول ملازمه وبلا إلحاح . وقرأ نافع : [فَأَلْقِهِ] بكسر الهاء ، وفرقة : [فَأَلْقِهُ] بضمها ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، والكسائي بإشباع بعد الكسرة في الهاء ، وروى عنه ورش بعد الهاء في الوصل بياء ، وقرأ قوم بإشباع واوٍ بعد الضمة ، وقرأ اليزيدي عن أبي عمرو ، وعاصم ، وحمزة : [فَأَلْقِهْ] بسكون الهاء[1]، وروي عن وهب بن منبه في قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألْفَى دون هذه الملكة حجب جدران ، فعمد إلى كُوَّة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إيَّاها ، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي ــ فيما يُروى ــ نائمة ، فلما انتبهت وجدته فراعها وظنت أنه قد دخل عليها أحد ، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدته ، فنظرت إلى الكُوَّة تَهَمُّماً بأمر الشمس فرأت الهدهد فعلمت أمره ، ثم جمعت أهل مملكتها وعِلْيتهم فخاطبتهم بما يأتي بعد .

(١) في قوله تعالى : ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ دليل على إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام يبلغهم الدعوة ويدعوهم إلى الإسلام ، وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

في هذه المواضع اختصار يدل ظاهر القول عليه ، تقديره : «فأُلْقي الكتاب وقرأته وجمعت له أهل ملكها» ، و «الْمَلَأُ» : أَشراف الناس الذين ينوبون مناب الجميع ، ووصفت الكتاب بالكرم ، إمَّا لأَنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم ، فعظَّمته إجلالا لسليمان ، وهذا قول ابن زيد ، وإمَّا أَنها إشاراتٌ إلى أَنه مطبوع عليه بالخاتم ، ورُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (كرم الكتاب ختمه)[١] ، وإمَّا أَنها أَرادت أَنه بدأَ ببسم الله تعالى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، ولفظه فيه : (كرامة الكتاب ختمه) ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه ضعيف .

(كل كلام لم يبدأ باسم الله تعالى فهو أجذم) [١]، ثم أخذت تصف لهم ما في الكتاب ، فيحتمل اللفظ أنه نصُّ الكتاب موجزاً بليغاً ، وكذلك كتب الأنبياء عليهم السلام ، قدم فيه العنوان – وهي عادة الناس على وجه الدهر – ثم سمَّى الله تعالى ، ثم أمرهم ألَّا يعلوا عليه طغياناً وكفراً ، وأن يأتوه مسلمين ، ويحتمل أنها قصدت إلى اقتضاب معانيه دون ترتيبه ، فأعلمتهم أنه من سليمان ، وأن معناه كذا وكذا .

وقرأ أُبيٌّ : ﴿وَأَنْ بِاسْمِ اللهِ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاء ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿أَنَّهُ مِنْ﴾ ﴿وَأَنَّه بِسْمِ اللهِ﴾ بفتح الهمزة فيهما ، وفي قراءة عبد الله : ﴿وَإِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ بزيادة واو ، و ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استفتاح شريف بارع المعنى مُعبَّر عنه بكل لغة ، وفي كل شرع .

و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ يحتمل أن تكون رفعاً على البدل من [كِتاب] ، أو نصباً على معنى : بأَنْ لا تعلوا ، أو مفسِّرة بمنزلة أيْ ، قال سيبويه : وقرأ وهب بن منبه : ﴿أَلَّا تَغْلُوا﴾ [٢] بالغين

---

(١) أخرج أبو داود عن أبي هريرة حديثين ، الأول بلفظ : (كُلُّ خطبة ليس فيها تَشَهُّد فهي كاليد الجذماء) ، والثاني بلفظ : (كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم) ، ذكرهما الإمام السيوطي في الجامع الصغير ورمز لهما بالصحة .

(٢) قال أبو الفتح ابن جني في المحتسب : «غَلَا في قوله غُلُوّاً ، وغَلَا السعر يغلو غلاءً ، فصلوا بينهما في المصدر وإن اتفقا في الماضي» وقال: إن الماضي والمضارع واسم الفاعل والمصدر =

منقوطة : قال أبو الفتح : رواها وهب عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهي قراءة أشهب العقيلي ، ذكرها الثعلبي .

ثم أخذت في حُسْن الأدب مع رجالها ، ومشاورتهم في أمرها ، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمْر ، فكيف في هذه النازلة الكبرى ؟ فراجعها الملأُ بما يقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأْس ، أي : وذلك مبذول لك ، فقاتلي إن شئت ، ثم سلّموا الأَمر إلى نظرها ، وهذه محاورة حسنة من الجميع . وفي قراءة عبد الله : « مَا كُنْتُ قَاضِيَةً أَمْراً » بالضاد من القضاء .

وذكر مجاهد في عدد أحشادها أنها كان لها اثنا عشر ألف قَيْل ، تحت يد كل واحد مائة ألف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد ، وذكر غيرهُ نحوه فاختصرته لعدم صحته .

ثم أخبرت بلقيس عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون عليها ، وفي الكلام خوف على قومها ، وحيطة لهم ، واستعظام لأَمر

= تجري مجرى المثل الواحد، فإذا خولف فيها بين المصادر قام ذلك الخلاف مقام ما كان يجب من اختلاف الأمثلة لاختلاف ما تحتها من المعاني المقصودة ، ومن ذلك قولهم : وجَدْتُ الشيء وجوداً ، ووَجَدْتُ في الحزن وَجْداً ، ووجدت في الغنى وُجْداً وَوِجْداً وجِدَة » .

سليمان عليه السلام ، وقالت فرقة : إن ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هو من قول بلقيس تأكيداً منها للمعنى الذي أرادته ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو من قول الله تبارك وتعالى معرفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، ومخبراً به .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

رُوي أن بلقيس قالت لقومها : إني أجرب هذا الرجل بهدية أعطيه فيها نفائس الأموال ، وأغرب عليه بأمور المملكة ، فإن كان مَلِكاً دنياويًّا أرضاه المال فعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبيًّا لم يرضه المال ، ولازَمَنَا في أمر الدين ، فينبغي أن نؤمن به ونتبعه على دينه ، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر بعضُ الناس في تفصيلها ، فرأيت اختصار ذلك لعدم صحته . واختَبَرَتْ علمه — فيما رُوي — بأن بعثت إليه قدحاً فقالت له : املأه لي مِمَّا ليس من الأرض ولا من السماء ، وبعثت إليه دُرَّة فيها ثقب مخلوق وقالت : تدخل سلكها

دون أن يقربها إنسٌ ولا جان ، وبعثت إليه أُخرى غير مثقوبة وقالت : يثقب هذه غير الإنس والجن ، فملأ سليمان عليه السلام القدح من عرق الجبل ، وأدخلت السلك دودةٌ وثقبت الدرَّة أرضة ، وراجع سليمان عليه السلام في رَدِّ الهدية بما في الآية ، وعبَّر عن «المرسلين» بـ [جَاءَ] وبقوله : [ارْجِـعْ] لَمَّا أراد به «الرَّسولَ» الذي يقع على الجمع والإفراد والتأنيث والتذكير . وقرأ ابن مسعود : «فَلَمَّا جاؤُوا سُلَيْمَانَ» ، وقرأ : «ٱرْجِعُوا» ، ووعيد سليمان لهم مقترن بدوامهم على الكفر ، وذكر مجاهد أيضاً أنها بعثت في هديتها بعدد كثير من العبيد بين غلمان وجواري ، وجعلت زِيَّهم واحداً ، وجربته في التفريق بينهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ليس بتجربة في مثل هذا الأمر الخطر .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [أَتُمِدُّونَنِـي] بنونين وياء في الوصل ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، والكسائي : [أَتُمِدُّونَنِ] بغير ياء في وقف ووصل ، وقرأ حمزة : [أَتُمِدُّونِّي] بشد النون وإثبات الياء ، وقرأ عاصم[1] : ﴿فَمَا آتَانِ ٱللَّهُ﴾ بكسر النون دون ياء ، وقرأت

---

(١) في رواية أبي بكر عنه .

فرقة : [آتَانِـيْ] بياءٍ ساكنة ، وقرأ أبو عمرو ، ونافع : [آتَانِـيَ] بياءٍ مفتوحة (١) . ثم توعدهم بالجنود والغلبة والإخراج ، والمعنى : إذا لم يُسْلموا ، وقرأ عبد الله : «لَا قِبَلَ لهم بهم» على جمع ضمير الجنود ، و ﴿لَا قِبَلَ﴾ معناه : لا طاقة ولا مقاومة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

القائل سليمان عليه السلام ، والملأُ المنادى جمعه من الجن والإنس ، واختلف المتأولون في غرضه في استدعاءِ عرشها – فقال قتادة : ذُكر له بِعِظَمٍ وجَوْدة ، فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومَها الإسلامُ ويحمي أموالهم ، والإسلام – على هذا – الدِّينُ ، وهو قول ابن جريج ،

(١) وكذلك هي قراءة عاصم في رواية حفص عنه .

وقال ابن زيد : استدعاه لِيُرِيَها القدرة التي هي من عند الله عزَّ وجلَّ ، ولِيُغْرِب عليها ، و [مُسْلِمِينَ] – في هذا التأويل – هو بمعنى : مُسْتسلمين ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما (١) ، وذُكر صلةً في العبارة ، ولا تأثير لاستسلامهم في عرض سليمان عليه السلام ، ويحتمل أن يكون بمعنى : الإسلام ، وأما في التأويل الأول فيلزم أن يكون بمعنى الإسلام.

وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديتها وردِّه إياها ، وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المفسرين ، وحكى الطبري أنه قال ذلك في اختباره صدق الهدهد من كذبه لمَّا قال له : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ، فقال سليمان : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ؟ ثم وقع في ترتيب القصص تقديم وتأخير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقول الأول أصح (٢) .

---

(١) في الأصول: «وهو قول ابن عبد الله» ، والتصويب عن القرطبي والبحر .

(٢) استدل الطبري على رأيه بأدلة ، قال : «قالوا : إنما كتب سليمان الكتاب مع الهدهد إلى المرأة بعد ما صحَّ عنده صدق الهدهد بمجيء العالِم بعرشها إليه على ما وصفه به الهدهد، قالوا: ولولا ذلك كان محالا أن يكتب معه كتاباً إلى من لا يدري ، هل هو في الدنيا أم لا ، وقالوا : وأخرى أنه لو كان كتب مع الهدهد كتاباً إلى المرأة قبل مجيء عرشها إليه، وقبل علمه صدقَ الهدهد بذلك ، لم يكن لقوله : ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ معنى ؛ لأنه لا يُلِمُّ بخبره الثاني من إبلاغه إياها الكتاب، أو ترك إبلاغه إياها ذلك ، إلا نحو =

ورُوي أن عرشها كان من ذهب وفضة مرصعاً بالجوهر والياقوت، وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق .

وقرأ الجمهور : ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ ، وقرأ أبو رجاءٍ ، وعيسى الثقفي : ﴿قَالَ عِفْرِيَةٌ﴾[1] ، ورُويت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقرأت فرقة : ﴿قَالَ عِفْرٌ﴾ بكسر العين[2] ، وكل ذلك لغات فيه ، وهو من الشياطين : الماردُ القويُّ ، والتاءُ في (عفريت) زائدة ، وقد قالوا : «تَعَفْرَتَ الرجل» إذا تخلق بخلق الإذاية ، قال وهب بن منبه : اسم هذا العفريت (كوري) ، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صخر الجني ، ومن هذا الاسم قول ذي الرُّمَّة :

كأنَّهُ كَوْكَبٌ في إثْرِ عِفْرِيَةٍ   مُصَوَّبٌ في سوادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبُ[3]

= الذي علم بخبره الأول حين قال له: ﴿جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ ، وإن لم يكن في الكتاب امتحان صدقه من كذبه ، وكان محالا أن يقول نبي الله قولا لا معنى له ، وقد قال: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وعلم أن الذي امتحن به صدق الهدهد من كذبه هو مصير عرش المرأة إليه ، على ما أخبر به الهدهد الشاهد على صدقه، ثم كان الكتاب معه بعد ذلك إليها » . وابن عطية يردُّ هذا الكلام دون أن يذكر دليلا، أو يفند أدلة الطبري .

(١) بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياءٌ مفتوحة بعدها تاء التأنيث .

(٢) بكسر العين وبدون ياءٍ أو تاءٍ .

(٣) البيت في وصف ثور وحشي ، ورواية الديوان : (مُسَوَّمٌ) بدلا من (مُصَوَّب) ، ومُنْقَضِب : مُنْقطع ، يقال: انقضب الكوكب من مكانه انقطع وانقض فهو مُنْقَضِبٌ ، يقول : كأن الثور كوكب مُصَوَّب مُنْقَضٌ في إثْر عفريَةٍ في سواد الليل، والبيت في اللسان بلفظ (مُسَوَّم) أيضاً .

وقوله : ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ ، قال مجاهد ، وقتادة ، وابن منبه : معناه : قبل أن تستوي من جلوسك قائماً ، و ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ، قال ابن جبير ، وقتادة : معناه : قبل أن يصل إليك من يقع طرفك عليه من أبعد ما ترى ، وقال مجاهد : معناه : قبل أن تحتاج إلى التَّغْمِيضِ ، أي: مُدَّة ما يمكنك أن تَمُدَّ بصرك دون تغميض ، وذلك ارتدادُه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان يقابلان قول من قال : إن القيام هو من مجلس الحكم ، ومن قال : إن القيام هو من الجلوس ، فيقول في ارتداد الطَّرْف : هو أن يطرف ، أي : قبل أن تُغْمِضَ عينيك وتفتحهما [١] ، وذلك أن الثاني [٢] يعاطي الأقصر في المدة ولابُدَّ . وقوله : ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ معناه : لَقَوِيٌّ على حملِه ، أمينٌ على ما فيه .

ويُروى أن بلقيس لما فصلت من بلدها متوجهة إلى سليمان عليه السلام ، تركت العرش تحت سقف حصين ، فلما علم سليمان بانفصالها

---

(١) في الأصول : قبل أن (تُصْلِح) عينيك وتفتحهما ، والمعنى يستقيم بالفعل تُغْمِض، وهو ما نقله البحر عن ابن عطية .

(٢) يريد به الثاني في اللّذين تقدما للإتيان بالعرش .

أراد أن يُغْرب عليها بأن تجد عرشها عنده لتعلم أن مُلْكه لا يُضَاهى ، فاستدعى سَوْقَه ، فدعا الذي عَلِمَ من التوراة ـ وهو الكتاب المشار إليه ـ باسم الله الأعظم الذي كانت العادة في كل الزمان ألَّا يدعو به أحد إلَّا أُجيب ، فشُقت الأرض بذلك العرش حتى نبع بين يديْ سليمان عليه السلام ، وقيل : بل جيء به في الهواء ، قال مجاهد : وكان بين سليمان وبين العرش كما بين الكوفة والحيرة ، وحكى الرماني أن العرش حُمل من مأْرب إلى الشام في قدر رجع البصر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه مسيرة شهرين للمُجِدِّ ، وقول مجاهد أشهر .

ورُوي أن الجن كانت تخبر سليمان عليه السلام بمناقل سريرها ، فلما قربت قال : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ؟ واختلف المفسرون في الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب ، من هو ؟ فجمهور الناس على أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصِف بن برخيا ، رُوي أنه صلى ركعتين ثم قال لسليمان عليه السلام : يا نبي الله امدُد بصرك ، فمَدَّ بصره فإذا بالعرش نحو اليمن ، فما ردَّ سليمان بصره إلَّا والعرش عنده ، وقال قتادة : اسمه مليخا ، وقال إبراهيم النَّخَعي : هو جبريل عليه السلام ، وقال ابن لهيعة : هو الخضر ، وحكى النقاش عن جماعة

أنهم سمعوا أنه ضبَّة بن أُدٍّ جَدُّ بني ضبة من العرب ، قالوا : وكان رجلا فاضلا يخدم سليمان على قطعة من خيله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وهذا قولٌ ضعيف .

وقالت فرقة : بل هو سليمان عليه السلام ، والمخاطبة – في هذا التأويل – للعفريت ، لما قال هو : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قيل : كأن سليمان عليه السلام استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ، واستدل قائل هذا القول بقول سليمان عليه السلام : ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ ، واستدلَّ أيضاً بهذا اللَّفظ مناقضه ؛ إذْ في كلا الأمرين علم سليمان فضل الله تعالى ، وعلى الأقوال الأُوَل المخاطبةُ لسليمان عليه السلام (١) ، ولفظ [آتِيكَ] يحتمل أن يكون فعلا مستقبلًا ، ويحتمل أن يكون اسم فاعل ، وفي الكلام حذف تقديره : فدعا باسم الله تعالى فجاء العرش بقدرة الله تعالى ، فلما رآه سليمان مستقراً عنده جعل يشكر نعمة ربِّه بعبارة فيها تعليم للناس ، وهي عرضة للاقتداء بها والاقتباس

(١) الرأي الذي ذكره ابن عطية من أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام عارضه أبو حيان في البحر قائلا : «إنه من أغرب الأقوال» ، وقال القرطبي : «ما ذكره ابن عطية قاله النحاس في معاني القرآن له ، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى» .

منها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أأشكر على السرير وسوقه أَمْ أكفر إذ رأيت من هو دوني في الدنيا أعلم منّي ؟ (١) وظهر العامل في الظرف من قوله : [مُسْتَقِرًّا] ، وهذا هو المقدَّر أبداً في كل ظرف جاء هنا مُظْهَراً ، وليس في كتاب الله تعالى مثله ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أراد سليمان في هذا «التَّنْكير» تجربة ميزها ونظرها ، وليزيد في الإغراب عليها ، وروت فرقة أن الجن أحسَّت من سليمان أو ظنَّت به أنه ربما تزوج بلقيس ، فكرهوا ذلك ، ورَمَوْها عنده بأنها غير عاقلة ولا مميزة ، وبأن رجلها كحافر دابَّة ، فجرَّب عقلها وميزها

(١) وقيل : المعنى : أأشكر ذلك من فضل الله عليَّ أم أكفر نعمته بترك الشكر له ؟ قاله ابن جرير .

بتنكير عرشها ، وجرَّب أَمر رجلها بـأَمر الصرح لتكشف عن ساقها عنده ، وقرأَ أَبو حيوة : [نَنْظُرُ] بضم الراءِ .

وتنكير العرش تغيير وصفه وستر بعضه ونحو هذا ، وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : تنكيره بـأَن زيد فيه ونقص منه ، وهذا يعترض بـأَن من حقِّها ـ على هذا ـ أَن تقول : ليس به وتكون صادقة ، وقولها : ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ تحرُّز فصيح ، ونحوه قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(١) ، وقال الحسن بن الفضل : شبَّهوا عليها فشبهت عليهم ، ولو قالوا : هذا عرشك ؟ لقالت : نعم ، وفي الكلام حذف تقديره : فنكَّروا عرشها ، ونظروا ما جوابها إذا سُئِلت عنه ، فلما جاءَت قيل : أَهكذا عرشك ؟ وقال سليمان عليه السلام عند ذلك : ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ الآية ، وهذا منه على جهة تعديد نعمة الله تعالى عليه وعلى آبائه .

وقوله تعالى : ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ﴾ الآية ، يحتمل أَن يكون من قول نبي الله سليمان عليه السلام ، ويحتمل أَن يكون من قول الله تبارك وتعالى إخباراً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، و «الصَّادُّ» ما كانت تعبد ، أَي عن الإيمان ونحوه ، قال الرماني : عن التَّفَطُّن للعرش ؛ لأَن المؤمن فطن يقظ والكافر خبيث ، أَو يكون الصادُّ

---

(١) من الآية (٣٤) من سورة (فُصِّلَت) .

سليمان عليه السلام ، قاله الطبري ، أو يكون الصّادُّ الله عزّ وجلّ ، ولما كان [صَدَّهَا] بمعنى (مَنَعَهَا) تجاوز – على هذا التأويل – بغير حرف جرٍّ ، وإلَّا فإنه لا يتعدى إلَّا بـ (عَنْ) . وقرأ جمهور الناس : [إِنَّهَا] بكسر الهمزة ، وقرأ سعيد بن جُبير ، وابن أبي عبلة : [أَنَّهَا] بفتح الهمزة ، وعلى تقدير : ذلك أَنَّهَا ، أو على البدل من [مَا] ، قاله محمد ابن كعب القرظي .

ولما وصلت بلقيس أَمَرَ سليمان عليه السلام الجِنَّ فصنعت له صرحاً ، وهو السطح في الصحن من غير سقف ، وجعلته متيناً كالصهريج ، ومُلِئَ ماءً ، وبث فيه السمك والضفادع ، وطُبِّق بالزجاج الشَّفَّاف ، وبهذا جاءَ صرحاً ، والصَّرْح أيضاً كل بناءٍ عالٍ ، وكل هذا من التصريح ، وهو الإعلان البالغ ، وجُعل لسليمان في وسطه كرسيٌّ ، فلما وصلته بلقيس قيل لها : ادخلي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأت اللجة وفزعت وظنت أنه قصد بها الغرق ، وعجبت من كون كرسيه على الماءِ ، ورأت ما هالَهَا ، ولم يكن لها بُدٌّ من امتثال الأَمر فكشفت عن ساقيها ، فرأى سليمان ساقيها سليمتين غير أَنَّها كثيرة الشَّعْر ، فلمَّا بلغت هذا الحدّ قال لها سليمان عليه السلام : ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ ، والمُمَرَّد : المكحول الأَملس ، ومنه : الأَمْرَدُ ،

والشجرةُ المَرْدَاءُ : التي لا ورق عليها ، والمُمَرَّدُ أيضاً : المُطَوَّل ، ومنه قيل للحصن : ماردٌ[(١)] ، وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت ، وأقرت على نفسها بالظلم ، فيروى أن سليمان عليه السلام تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام ، قاله الضحاك ، وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقَّاش : تزوجها وردَّها إلى مُلْكها باليمن ، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة ، فولدت له ولداً أسماه داود ، مات في حياته ، و [مَعَ] ظرف ، وقيل : حرف بُني على الفتح ، وأمَّا إذا سُكِّنت العَيْن فلا خلاف أنه حرفٌ جاءَ لمعنى [(٢)] .

وقرأ ابن كثير وحده - في رواية الإخريط - : ﴿عَنْ سَأْقَيْهَا﴾ بالهمز ، قال أبو عليٍّ : وهي ضعيفة ، وكذلك يضعف الهمز في قراءة قنبل : ﴿يُكْشَفُ عَنْ سَأْقٍ﴾[(٣)] ، وأما همز [بِالسُّؤْقِ][(٤)]،

---

(١) وقال أبو صالح : هو الطويل على هيئة النخلة ، وقال ابن شجرة : مُمَرَّدٌ : واسعٌ في طوله وعرضه ، قال الشاعر :

غَدَوْتُ صباحاً باكراً فوَجَدْتُهُم قُبَيْلَ الضُّحَى في السَّابِرِيِّ المُمَرَّدِ

أي : الدروع الواسعة .

(٢) قال أبو حيان في البحر : «والصحيح أنها ظرف فُتحت العين أو سُكِّنَت ، وليس التسكين مخصوصاً بالشعر كما زعم بعضهم ، بل ذلك لغة لبعض العرب ، والظرفية فيها مجاز ، وإنما هو اسمٌ يدل على معنى الصحبة» .

(٣) في الآية (٤٢) من سورة (القلم) ، وهي قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ .

(٤) من قوله تعالى في الآية (٣٣) من سورة (ص) : ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ .

و ﴿عَلَى سُؤْقِهِ﴾(١) فلغة مشهورة في همز الواو التي قبلها ضمة ، حكى أبو عليٍّ أن أبا حيَّةَ النُّمَيْرِيَّ كان يهمز كلَّ واو قبلها ضمَّة ، وأنشد :

أَحَبُّ المؤْقِـدان إِلَيْكَ مُؤْسَى . . . . (٢)

وَوَجْهُهَا أن الضمة تقدر على الواو إذ لا حائل بينهما ، وقرأ ابن مسعود : «عَنْ رِجْلِهَا» . ورُوي أن سليمان عليه السلام لما أراد زوال شَعْر ساقيها أشفق من حمل الموسى عليها ، وقيل : إنها قالت : ما مَسَّنِي

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة (الفتح) : ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ .

(٢) هذا صدر بيت نسبه في اللسان لجرير ، والبيت بتمامه :

أَحَبُّ الْمُؤْقِدَانِ إِلَيْكَ مُؤْسَى وَجَعْدَةَ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوَقُودُ

ولم يذكر اللسان إلا الشطر الأول ، قال : «وساقُ الشجرة : جذعُهَا ، وجمعُ ذلك أَسْوُقٌ وأَسْؤُقٌ ... توهموا ضمة السِّين على الواو ، وقد غلب ذلك على لغة أبي حيَّةَ النُّمَيْرِيِّ ، وهمزها جريرٌ في قوله : أَحَبُّ المؤْقِدَان إليك مُؤْسَى . ورُوي : أحبُّ المؤْقدين ، وعليه وجَّه أبو علي قراءة من قرأ : ﴿عَاداً الأُؤْلَى﴾ . اهـ .

واستشهد أبو عثمان ابن جني بهذا الشطر أيضاً ، والرواية فيه : لحَبَّ المؤقدان إليَّ مُؤْسَى ، وقال محقق الكتاب في الهامش : وعجزه : وجعدة ... الخ . ويُعَلِّل ابن جني الهمز في (مؤسى) تعليلا طويلا خلاصته أن العرب تقدِّر أن حركة المتحرك إذا جاور الساكن كأنها في الساكن ، فكأن ضمة (مُوسَى) في الواو ، والواوُ إذا انضمت ضماً لازماً فهمزُهَا جائز ، تقول في (وُجُوه) : أُجُوه ، وعلى هذا جاء همزُ (مُؤْسَى) ، ثم ذكر الشاهدَ عن شيخه أبي عليّ .

حديد قط ، فأمر الجن بالتَّلَطُّف في زواله فصنعوا النُّورَةَ (١) ولم تكن قبل في الأُمم .

وهذه الأُمور التي فعلها سليمان عليه السلام : من سَوْق العرش ، وعمل الصَّرْح ، وغير ذلك ، قصد بها الإغرابَ عليها ، كما سلكتْ هي قبْلُ سبيل ملوك الدنيا في ذلك بأن أرسلت الجواري والغلمان ، واقترحت في أمر القَدَح والدُّرَّتَيْن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

هذه الآية على جهة التمثيل لقريش ، و [أَنْ] في قوله سبحانه : ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن تكون مُفَسِّرَة ، وأن تكون في موضع نصب ، والتقدير : بأن اعبدوا الله ، و [فَرِيقَانِ] يريد به : من آمن

(١) النُّورة : أخلاط من أملاح الكلسيوم والباريون تستعمل لإزالة الشعر (المعجم الوسيط ـ عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة) .

بصالح ومن كفر به ، و «اخْتِصَامُهُم» تنازُعهم وحدهم ، فذكر اللهُ تبارك وتعالى ذلك في سورة الأعراف .

ثم إن صالحاً عليه السلام تلطَّف بقومه ، وترفَّق بهم في الخطاب ، فوقفهم على خطئهم في استعجالهم العذاب مما يقتضي هلاكهم ، ثم حضهم على ما هو أسرُّ من ذلك وأعْود بالخير ، وهو الإيمان وطلب المغفرة ورجاءُ الرحمة ، فأجابوا – عند ذلك – بقول سَفْسَاف [١]، معناه : تَشَاءمْنَا بك ، قال المفسرون : وكانوا في قحط فجعلوه لذات صالح عليه السلام ، وأصل الطِّيَرَةَ ما تعارفه أهل الجهل من زَجْر الطَّيْر ، وشبَّهت العرب ما عَنَّ بما طار حتى حصل ، سُمي ما حصل للإنسان في فزعه ونحوه طائرا ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[٢] ، وخاطبهم صالح ببيان الحق ، أي : طائركم على زعمكم وتسميتكم – وهو حَظُّكُم في الحقيقة – من تعذيب أو إعفاء هو عند الله تعالى ، وبقضائه وقدره ، وإنما هُو أنهم قوم يختبرون ، وهذا أحد وجوه الفتنة ، وقد يمكن أن يريد : بل أنتم قوم تولعون بشهواتكم ، وهذا معنى قد تعارف الناسُ استعمال لفظ الفتنة منه ، ومنه قولك : «فُتِن فلانٌ بفلان» ، وشاهد ذلك كثير .

---

(١) السَّفْساف : الرديء من كلّ شيء ، والأمر الحقير ، وكل عمل دون الإحكام .
(٢) من الآية (١٣) من سورة (الإسراء) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١)﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية تسعة رجال كانوا من أوجه القوم وأقناهم وأغناهم ، وكانوا أهل كفر ومعاص جَمَّة ، جملة أمرهم أنهم يفسدون في الأرض ولا يُصلحون ، قال عطاءُ بن أبي رباح : بلغني أنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا نحو الأثر المروي : (قطع الدنانير والدراهم من الفساد في الأرض) ، و [ٱلْمَدِينَة] : مجتمع ثمود وقريتهم ، و «الرَّهْطُ» : من أسماءِ الجمع القليل ، العشرة فما دونها ، و «تِسْعَةُ رَهْطٍ» كما تقول : تسعة رجال ، وهؤلاءِ المذكورون كانوا أصحاب قدار بن سالف عاقر الناقة ، وقد تقدم في غير هذا الموضع ما ذُكر في أسمائهم .

وقوله تعالى : [تَقَاسَمُوا] ، حكى الطبري أنه يجوز أن يكون فعلا ماضياً في موضع الحال ، كأنه قال : متقاسمين ، أو متحالفين بالله، وكأن قولهم : [لَنُبَيِّتَنَّهُ] حَلِفٌ ، ويؤيد هذا التأويل أن في قراءة عبد الله : «وَلَا يُصْلِحُونَ ، تَقَاسَمُوا» بسقوط [قَالُوا] ، ويحتمل ـ وهو تأويل الجمهور ـ أن يكون [تَقَاسَمُوا] فعل أمر ، أشار بعضهم على بعض بأن يتحالفوا على هذا الفعل بصالح ، ف [تَقَاسَمُوا] هو قولهم على هذا التأويل . وهذه الألفاظ الدالة على قسم أو جواب تجاب باللام وإن لم يتقدم قَسَم ظاهر ، فاللَّام في [لَنُبَيِّتَنَّهُ] جوابُ ذلك . وقرأ جمهور القراء : [لَنُبَيِّتَنَّهُ] ، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بالنون فيهما ، وقرأ الحسن ، وحمزة ، والكسائي بالتاء فيهما ، وبِضَمِّ التَّاء واللام على الخطاب ، أي : تخاطبوا بذلك ، وقرأ مجاهد ، وحميد بن قيس بالياء فيهما على الخبر ، فهذا ذَكَرَ اللهُ فيه المعنى الذي أرادوه لا بحسب لفظهـــم .

وروي في هذه الآية أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة وقد أخبرهم صالح عليه السلام بمجيء العذاب اتفق هؤلاء التسعة فتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلا فيقتلوه وأهله المختصين به ، قالوا : فإن كان كاذباً في وعيده أوقعنا به ما يستحق ،

وإن كان صادقاً كنا قد أعجلناه قبلنا وشفينا نفوسنا . قال الراوي : فجاؤُوا واختفوا لذلك في غار قريب من داره ، فروي أنه انحدرت عليهم صخرة سدحتهم(١) جميعاً ، ورُوي أنها طبقت عليهم الغار فهلكوا فيه حين هلك قومهم ، وكل فريق لا يعلم بما جرى على الآخر ، وكانوا قد بنوا على جحود الأمر من قرابة صالح الذين يمكن أن يغضبوا له ، فهذا مكرهم ، والمكر نحو الخديعة ، وسمَّى الله تبارك وتعالى عقوبتهم باسم ذنبهم ، وهذا مهيع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾(٢) ، وغير ذلك.

وقرأ الجمهور : [مُهْلَكَ] بضم الميم وفتح اللام ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتحهما ، ورُوي عنه بفتح الميم وكسر اللام(٣).

و «العَاقِبَةُ» حالٌ تقتضيها البدأة وتؤدي إليها ، ويعني بالأهل كل من آمن معه ، قاله الحسن ، وقرأ جمهور القراء ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بكسر الألف ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ ، وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحٰق ، ف [كَانَ] ـ على قراءة الكسر في الألف ـ تامَّة ، وإن قُدِّرت ناقصة فخبرها محذوف ، أو يكون الخبر [كَيْفَ] مقدماً ؛ لأن صدر الكلام لها ، ولا يعمل ـ على هذا ـ [أنْظُرْ]

(١) أي صرعتهم وبطحتهم على وجوههم .
(٢) من الآية (١٥) من سورة (البقرة) .
(٣) وهي رواية حفص عن عاصم ، أما قراءة الجمهور فتحتمل المصدر والزمان والمكان ، وأما الثانية وهي رواية أبي بكر عن عاصم فالقياس يقتضي الزمان والمكان ، أي : ما شهدنا زمان هلاكه ولا مكانه ، وأما قراءة حفص عن عاصم فإن القياس يقتضي أن تكون مصدراً ، أي : ما شهدنا هلاكه .

في [كَيْفَ] ، لكن يعمل في موضع الجملة كلها ، وهي على قراءة فتح الألف ناقصة ، وخبرها [أَنَّا] ، ويجوز أن يكون الخبر [كَيْفَ] ، ويكون [أَنَّا] بدلًا من «العاقبة» ، ويجوز أن تكون [كَانَ] تامة و [أَنَّا] بدلًا من «العاقبة» ، ووقع تقدير السؤال بـ [كَيْفَ] عن جملة قوله : ﴿كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ ، وقرأ أُبي بن كعب : «أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ» ، وهذه تؤيد قراءة الفتح في [أَنَّا] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

أمر البيوت وخرابها مما أخبر الله تعالى ، ففي كل الشرائع أنه إنما يعاقب به الظلمة ، وفي التوراة : «ابن آدم ، لا تظلم ، يخرب بيتك» ، و [خَاوِيَةً] نصب على الحال التي فيها الفائدة ، ومعناها :

الخالية قفراً[١] ، قال الزّجاج : وقرئت [خَاوِيَةٌ] بالرفع ، وذلك على الابتداء المضمر ، والتقدير : هي خاوية ، أو عن الخبر عن [تِلْكَ] و [بُيُوتُهُمْ] بدلٌ ، أو على خبر ثان ، وهذه البيوت المشار إليها هي التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم عام تبوك : (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلَّا أن تكونوا باكين ... الحديث) [٢] .

ثم قال تبارك وتعـالى : [وَلُوطاً] ، تقـديره : واذكر لوطاً ، و [ٱلْفَاحِشَة] : إتيان الرجال في الأدبار [تُبْصِرُونَ] معناه : بقلوبكم أنها خطيئة وفاحشة . وقالت فرقة : تبصرون بأبصاركم ؛ لأنكم تتكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضكم من بعض .

واختلف القراءُ في قوله : [أَئِنَّكُمْ] ، وقد تقدم ، وقرأ جمهور القراء : [جَوَابَ] نصباً ، وقرأ الحسن ، وابن أبي إسحق : [جَوَابُ]

---

(١) هذا رأي الفراء والنحاس ، والمعنى أنها صارت خراباً ليس بها ساكن ، وقال الكسائي وأبو عبيدة : نصبت [خَاوِيَة] على القطع ، مجازُهُ : فتلك بيوتُهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف واللام نصبت على الحال .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة والمغازي ، ومسلم في الزهد ، وأحمد (٢–٥٨ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩١ ، ١١٣ ، ١٣٧) ؛ ولفظه كما في المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين أصحاب الحجر إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم) .

بالرفع ، ونسب ابن جني قراءة الرَّفع إلى الحسن ، وفسَّرها في الشَّاذِّ (١).

وأخبر الله تعالى عن قوم لوط أنهم كانوا تركوا في جوابهم طريق الحجة ، وأخذوا بالمغالبة ، فتآمروا بإخراجه وإخراج من آمن معه ، ثم ذمُّوهم بمدحة وهي التَّطهُّر من هذه الدناءة التي هم أصفقوا عليها ، قال قتادة : عابوهم والله بغير عيب . وقرأ عاصم – في رواية أبي بكر – : [قَدَرْنَاهَا] بتخفيف الدال ، وقرأ جمهور القراء بشد الدَّال ، والأُولى بمعنى : جعلناها وحصلناها ، والثانية بمعنى : قدَّرنا عليها ، من القدر والقضاء.

و «الغابرون» : الباقون في العذاب ، وغَبَرَ بمعنى بَقِـيَ ، وقد يجيءُ أحياناً في بعض كلام العرب ما يوهم أنه بمعنى مَضَى ، وإذا تُؤمل توجه حمله على معنى البقاء ، والمطر الذي أُمطر عليهم هو حجارة السِّجِّين أهلكت جميعهم ، وهذه الآية أصل لمن جعل من الفقهاء الرَّجم في اللوطية ، وبها تأنَّس لأَن الله تعالى عذَّبهم على كفرهم به ، وأرسل عليهم الحجارة لمعصيتهم ، ولم يقس هذا القول على الزِّنى فيعتبر الإحصان ، بل قال مالك وغيره : يرجمان في اللُّوطية أُحصنا

---

(١) قال ابن جني في المحتسب : «أقوى من هذا [جوابَ] بالنصب ، ويجعل اسم [كان] قوله : ﴿أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ لِشَبَه [أَنْ] بالمضمر من حيث كانت لا توصف كما لا يوصف . (٢–١٤١) .

أو لم يُحْصنا ، وإنما ورَدَ عن النبي صلى الله عليه وسلم : (اقتلوا الفاعل والمفعول به)(١)، فذهب من ذهب إلى رجمهما بهذه الآية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

قرأ أبو السمال : ﴿قُلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بفتح اللام ، وكذلك في آخر السورة(٢)، وهذه ابتداءُ تقرير وتثبيت لقريش ، وهو أيضاً يعم كلَّ مكلف من الناس جميعاً ، وافتتح ذلك بالقول بحمده وتمجيده والسلام على عباده الذين اصطفاهم للنبوة والإيمان ، وهذا اللفظ عام

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ، وكذلك الترمذي وابن ماجه ، والإمام أحمد (١-٢٦٩) ، واللفظ عند الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة) .

(٢) في قوله سبحانه في الآية (٩٣) : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ .

لجميعهم من ولد آدم ، وكأن هذا صدر خطبة للتقرير المذكور ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : العبادُ المُسَلَّم عليهم هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، واصطفاهم لنبيِّه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا الاختصاص توبيخ للمعاصرين من الكفار .

وقال الفراءُ : الأَمر بالقول في هذه الآية هو لِلُوطٍ عليه السلام ، قال المفسرون : وهذه عجمة من الفَرَّاءِ .

ثم وقف قريشاً والعربَ – على جهة التوبيخ – على موضع التَّبايُن بين الله عزَّ وجلَّ وبين الأوثان والأَنصاب ، وقرأ جمهور الناس : [تُشْرِكُونَ] بالتاءِ من فوق ، وحكى المهدوي عن أبي عمرو ، وعاصم : [يُشْرِكُونَ] بالياءِ من تحت .

وفي هذا التفضيل بلفظة [خَيْر] أقوال : أحدها أن التفضيل وقع بحسب معتقد المشركين ؛ إذْ كانوا يعتقدون أن في آلهتهم خيراً بوجه مَّا ، وقالت فرقة : في الكلام حذف مضاف في الموضعين ، التقدير : أتوحيد الله خير أم عبادة ما تشركون ؟ ف [ما] في هذا التأْويل بمعنى الذي ، وقالت فرقة : [مَا] مصدرية ، وحذف المضاف

إنما هو أولا ، وتقديره : أتوحيد الله خير أَمْ شِرْكِكُم ؟ وقيل : [خَيْرٌ] هنا ليست بأفعل ، وإنما هي بفعل ، كما تقول : «الصلاة خيْرٌ» دون تفضيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد تقدم أن هذه الألفاظ التي تعم معاني كثيرة كخَيْر وشَرّ وأحب ونحو ذلك قد يقع التفضيل بها بيْن أشياء متباينة ؛ لأن المتباينات رُبَّما اشتركت فيها ولو بوجه ضعيف بعيد ، وأيضاً فهذا تقرير ، والمجادل يقرر خصمه لتنبيهه على خطئه وإلزامه بحصر التفضيل في جانب واحد وانتفائه عن الآخر ، وقد استوعبنا هذا فيما مضى . وقالت فرقة : تقدير هذه الآية : آللهُ ذو خير أمَّا تُشركون ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا النوع من الحذف بعيد .

وقرأ الحسن ، وقتادة ، وعاصم : [يُشْرِكُونَ] بالياء من تحت ، وقرأ أهل المدينة ومكة والكوفة بالتَّاء من فوق .

وقوله : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ وما بعدها من التوقيفات توبيخٌ لهم ، وتقرير على مالا مندوحة لهم عن الإقرار به ، وقرأ الجمهور : [أَمَّنْ]

بشدِّ الميم ، وهي (أَمْ) دخلت على (مَنْ) ، وقرأ الأعمش : [أَمَنْ] بفتح الميم مسهَّلة ، ويحتمل — على هذه القراءة — أن تكون الألف للاستفهام و (مَنْ) ابتداءٌ ، وتقدير الخبر : يُكْفَر بنعمته ويُشْرَك به ؟ ونحو هذا من المعنى [١] . و «الحدائق» مُجْتَمع الأشجار من العنب والنخيل وغير ذلك ، وقال قوم : لا يقال : «حديقة» إلَّا لما عليه جدار قد أحدق به ، وقال قوم : تقول ذلك إذا كان جدار أَوْ لم يكن لأَن البياض محدق بالأشجار ، و «الْبَهْجَة» : الجمال والنُّضرة ، وقرأ ابن أبي عبلة : «ذَوَاتِ بَهْجَةٍ» . ثم أخبر سبحانه — على جهة التوقيف — أنه ما كان للبشر ، أي : ما يتهيَّأُ لهم ، ولا يقع تحت قدرتهم أَنْ ينْبتوا شجرها ؛ لأَن ذلك يكون بإخراج شيءٍ من العدم إلى الوجود . وقد تقدم ترتيب القراءة في الهمزتين من قوله : [أَئِنَّ] [٢]

---

(١) وقدر الزمخشري الخبر : «خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكون» ؟ ، قال أبو حيان تعليقاً على رأي الزمخشري : «قدَّر ما أثبت في الاستفهام الأول ، بدأ أوَّلا في الاستفهام باسم الذات ، ثم انتقل فيه إلى الصفات» .

(٢) من قوله تعالى في الآية (١١٣) من سورة (الأعراف) : ﴿إنَّ لَنَا لأَجْراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ فقد قرئ بتحقيق الهمزتين ، وبتحقيق الأولى وتَلْيين الثانية ، وبطرح الأولى وتحقيق الثانية .

و ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾[١] . وقوله : [أَإِلَهٌ][٢] ، قال أَبو حاتم : القراءة باجتماع الهمزتين محدثة لا توجد في كلام العرب ولا قرأ بها قارئٌ عتيق . و [يَعْدِلُونَ] يجوز أَن يراد به : يعدلون عن طريق الحق ، أَي : يجورون في فعلهم ، ويجوز أَن يراد به : يعدلون بالله غَيْرَه ، أَي : يجعلون له عديلًا ومثيلًا .

و [خِلَالَهَا] معناه : بَيْنها وأَثناءها ، و «الرَّوَاسِي» : ، الجبال ، رَسَا الشيءُ يرسو إذا ثبت وتأَصَّل ، و «الْبَحْرَانِ» : الماءُ العذب بجملته ، والماءُ الأُجاج بجملته ، و «الحاجِزُ» : ما جعل الله بينهما من حواجز الأَرْض وموانعها على رِقَّتها في بعض المواضع ولطافتها التي لولا قدرة الله تبارك وتعالى لغلب المِلْحُ العذبَ ، وكلُّ ما مضى من القول في تأْويل قوله تعالى : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ الآية[٣] فهو مترتب هنا فتأَمله ، وباقي الآية بيِّن .

---

(١) من الآية (٩٠) من سورة (يوسف) فإنه يقرأُ بهمزتين محقَّقتَيْن ، وبهمزة ومدَّة وياء بعدها ، وبالإخبار من غير استفهام ، وسيأتي مثل ذلك في قوله تعالى في الآية (٦٧) من هذه السورة : ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ . كما أنه مضى أيضاً في قوله تعالى في الآية (٥٥) من هذه السورة : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ .

(٢) في هذه الآية ، وفيها من القراءات ما في مثيلاتها .

(٣) من الآية (٥٣) من سورة (الفرقان) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وقفهم في هذه الآيات على المعاني التي يتبيَّن لكل عاقل أنه لا مدخل لِصَنم ولا لِوَثن فيها ، فهي عِبَرٌ ونِعَمٌ ، فالحجة قائمة بها من الوجهين .

وقوله تعالى : ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ معناه : بشرط أنْ يشَاءَ على المعتقد في الإجابة ، لكن المضطر لا يُجيبه متى أُجيب إلَّا الله عزَّ وجلَّ ، و [ٱلسُّوٓءَ] عامٌّ في كل ضر يكشفه الله تعالى عن عباده ، وقرأ الحسن : [وَيَجْعَلُكُمْ] بياءٍ على صيغة المستقبل ، ورويت عنه بنون . وكل

قرْنٍ خلف لِلَّذِي قبله (١) ، وقرأ الجمهور : [تَذَكَّرُونَ] بالتاء على المخاطبة ، وقرأ أبو عمرو وحده (٢) ، والحسن ، والأعمش بالياء على الغيبة .

و «الظُّلُمَات» عام لظُلْمة الليل التي هي الحقيقة في اللغة ، ولِظُلَم الجهل والضَّلال والخوف التي هي مجازات وتشبيهات ، وهذا كقول الشاعر :

* تَجَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجالِ عَنِ الصِّبَا * (٣)

وكما تقول : أَظْلَم الأَمر وأنار ، وقد تقدم اختلاف القراء في قوله : [بُشْراً] ، وقرأ الحسن وغيره : [يُشْرِكُونَ] بالياء على الغيبة ، وقرأ الجمهور : [تُشْرِكُونَ] على المخاطب .

و «بَدْءُ الْخَلْق» اختراعُه وإيجادُه ، و [الخلْق] : هنا المخلوق من جميع الأشياء ، لكن المقصود بني آدم من حيث ذكر الإعادة والبعث من القبور ، ويحتمل أن يريد بـ [ٱلْخَلْق] مصدر : خَلَق

---

(١) أي : يُهْلِكُ قوماً ويُنْشِئُ آخرين يخلفونهم ، وفي كتاب النقاش : أي ويجعل أولادكم خَلَفاً منكم ، وقال الكلبي : خَلَفاً من الكفار ينزلون أرضهم ، وقيل : خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وقيل : الخلافة في الأرض هي المُلْك والتسلط .

(٢) أي : من السبعة ، وإلا فقد قرأ بها الحسن والأعمش على ما ذكره المؤلف .

(٣) الموجود في الأصول : (تَجَلَّت عماياتُ الرِّجال) فقط ، وأكملنا عن (اللسان — عمي) ، قال : «والعَمَاية : الجهالة بالشيء ، ومنه قوله : * تَجَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجالِ عَنِ الصِّبَا * ، وعَمَايَةُ الجاهلية : جهالَتُها» ، والمعنى : ذهبَت جهالات الصِّبا وزالت . والشاهد أن الظلمات تطلق مجازاً على جهالات الصِّبا .

يخلُق ، ويكون [يَبْدَأُ] و [يُعيدُ] استعارة للإتقان والإحسان ، كما تقول : فلان يبدئ ويعيد في أمر كذا وكذا ، أي يُتقنه . و «الرِّزْق» من السماءِ بالمطر ، ومن الأَرض بالنبات ، هذا مشهور ما يحسُّه البشر ، وكم لله تبارك وتعالى من لطف خفي .

ثم أمر عزَّ وجلَّ نبيَّه أن يوقفهم على أن الغيب ممَّا انفرد به الله عزَّ وجلَّ ، ولذلك سُمِّي غيباً لغيبته عن المخلوقين ، ورُوي أن هذه الآية من قوله : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ﴾ إنما أُنزلت لأَن الكفار سأَلوا وأَلَحُّوا عن وقت القيامة الّتي يعدهم فنزلت هذه الآية بالتسليم لأَمر الله تعالى وترك التحديد ، وأعلم عزَّ وجلَّ أنه لا يعلم وقت الساعة سواه ، فجاءَ بلفظ يعُمُّ السامع وغيره ، وأخبر عن البشر أنهم لا يشعرون أيَّان يُبعثون ، وبهذه الآية احتجت عائشة رضي الله تعالى عنها على قولها : «ومَنْ زَعم أن محمداً يعلم الغيب فقد أعظم على الله الفرية» (١) .

---

(١) أخرج الطيالسي ، وسعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات — عن مسروق قال : كنت مُتَّكِئاً عند عائشة ، فقالت عائشة : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : وما هُنَّ ؟ قالت : من زعم أن محمداً رأى ربَّه فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت مُتَّكِئاً فجلست ، فقلت : يا أُم المؤمنين أَنْظِريني ولا تعجلي عليَّ ، أَلم يقل الله : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأُمة سأل عن هذا =

والمكتوبة في قوله : ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بدل مِنْ [مَنْ][١] . وقرأ جمهور الناس : [أَيَّانَ] بفتح الهمزة ، وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي : [إِيَّانَ] بكسرها ، وهما لغتان [٢] .

وقرأ جمهور الناس : ﴿بَلِ ٱدَّارَكَ﴾ ، أصله : تَدَارَك ، أُدغمت التاءُ في الدال بعد أن أُبدلت ، ثم احتيج إلى ألف الوصل ، وقرأ

= رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : جبريل : لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرَّتَيْن ، رأيته منهبطاً من السماء سادّاً عُظْمُ خلقه ما بين السماء إلى الأرض ، قالت : أو لم تسمع الله عز وجلّ يقول : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ، أو لم تسمع الله يقول : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْياً﴾ إلى قوله : ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ ؟ ومن زعم أنّ محمداً كتَم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، واللهُ جلّ ذكره يقول : ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى قوله : ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ، قالت : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلا اللهُ﴾ ، (الدر المنثور ، وفتح القدير) .

(١) المكتوبةُ هي لفظ الجلالة في قوله : ﴿إلا اللهُ﴾ ، يقول ابن عطية إنَّها بدلٌ من [مَنْ] في قوله تعالى : ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ﴾ ، ومعنى هذا أنه يرى أن الاستثناء مُتَّصل ، والرفع على البدل أفصح من النصب على الاستثناء ؛ لأنه استثناءٌ من نفي متقدم ، ويصح أن يكون الرفع على الصفة . لكن أبا حيَّان الأندلسي يرى أنه لا يصح أن يكون ﴿إلا اللهُ﴾ مندرجاً في مدلول [مَنْ] فيكون قوله : ﴿في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ظرفاً حقيقيّاً للمخلوقين فيهما ، وظرفاً مجازيّاً بالنسبة إليه تعالى ، بمعنى أنه فيهما بِعِلْمِه ؛ لأن في ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز ، ثم قال أبو حيّان : «وأكثر العلماء ينكر ذلك ، وإنكاره هو الصحيح» .

(٢) يقول العلماءُ : إن الله تعالى لما نفى عنهم علم الغيب على العموم عاد ونفى عنهم هذا الغيب المخصوص وهو وقت الساعة والبعث ، فصار منتفياً مرَّتين ؛ إذ هو مندرج في عموم الغيب ومنصوص عليه بخصوصه .

أُبيُّ بن كعب : [تَدَارَكَ] فيما رُوي عنه (١)، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - : ﴿بَلِ ادَّرَكَ﴾ على وزن افتَعَل (٢)، وهي بمعنى تفاعل ، وقرأ سليمان بن يسار (٣) ، وعطاءُ بن يسار (٤) : ﴿بَلَ ٱدَّرَكَ﴾ بفتح اللام ولا همز وبتشديد الدال دون ألف (٥)، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وجعفر ، وأهل مكة : ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾ (٦) وفي مصحف أُبيٍّ

---

(١) وهي قراءة على الأصل ؛ لأن (ادّارك) أصلها (تَدَارك) ثم حصل الإبدال والإدغام والاحتياج إلى ألف الوصل .

(٢) قال أبو الفتح عنها : لا سؤال فيها ، مع كسر اللام لسكون اللام وسكون الدال بعدها .

(٣) هو سليمان بن يسار الهلالي ، المدني ، مولى ميمونة ، وقيل : أم سَلَمَة ، ثقة فاضل ، أحد الفقهاء السبعة : من كبار الثالثة ، مات بعد المائة ، وقيل قبلها . (تقريب التهذيب) .

(٤) هو عطاءُ بن يسار الهلالي ، شقيق سليمان بن يسار ، وهو أيضاً مولى ميمونة ، ثقة فاضل ، صاحب مواعظ وعبادة ، من الثالثة ، مات سنة أربع وتسعين ، وقيل : بعد ذلك . (تقريب التهذيب) ، وقد أجمعت كل كتب التفسير على نِسْبة هذه القراءة إلى سليمان وأخيه ، إلا أن كتاب المحتسب لابن جني قال في الجزء الثاني صفحة ١٤٢ : (ومن ذلك قراءة سليمان ابن يسار وعطاء بن السائب) ، وأعتقد أن الصواب : « عطاء بن يسار » ، والله أعلم .

(٥) أكثر كتب التفسير والقراءات على هذا الضبط ، وفيه تشديد الدال ، إلا في المحتسب لابن جني ، فقد ضبطها المحققون بسكون الدال مع فتح اللام في (بَلَ) ، قال أبو حيان الأندلسي : « وذلك بناءً على أن وزنه افْتَعَل ، فأدغم الدال - وهي فاءُ الكلمة - في التاء بعد قلبها دالا ، فصار قَلْبُ الثاني للأول ؛ لقولهم : اثَّردَ ، وأصله : اثْتَردَ من الثَّرْد ، والهمزة المحذوفة المنقول حركتها إلى اللام هي همزة الاستفهام أُدخلت على ألف الوصل فانحذفت ألف الوصل ، ثم انحذفت هي وأُلقيت حركتها على لام (بَلْ) . وهذا يؤكد أن الدال مشددة لا ساكنة .

(٦) وهي من الإدْراك ، قاله القرطبي ، وقال في البحر المحيط : ورويت عن أبي بكر عن عاصم .

ابن كعب : ﴿أَمْ تَدَارَكَ عِلْمُهُم﴾[١] ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿بَلَى أَدْرَكَ﴾[٢] ، وقرأ ابن عباس أيضاً : ﴿بَلْ آدَّارَكَ﴾ بهمزة ومدَّة على جهة الاستفهام [٣] ، وقرأ ابن محيصن : ﴿بَلْ آدْرَكَ﴾ على الاستفهام ، ونسبها أبو عمرو الداني إلى ابن عباس والحسن [٤] .

فأمَّا قراءة الاستفهام فهي على معنى الهُزْءِ بالكفرة ، والتقرير لهم على ما هو في غاية البعد عنهم ، أيْ : أَعَلِمُوا أَمْر الآخرة وأدركها

---

(١) قال الثعلبي : «إن العرب تضع (بَلْ) موضع (أَمْ) و (أَمْ) موضع (بَلْ) إذا كان في أول الكلام استفهام» ، ومن ذلك قول الشاعر :

فوَالله لا أدْري أَسَلْمَى تَغَوَّلَتْ أمِ النَّوْمُ أمْ كُلٌّ إليَّ حَبِيبُ ؟

أي : بَلْ كُلٌّ إليَّ حبيب . ويروى : (تَلَوَّنَتْ) بدلا من (تَغَوَّلَتْ) ، ويروى : (أَمِ الْقَوْمُ) بدلا من (أمِ النَّوْمُ) .

(٢) قال ذلك في المحتسب ؛ لكنه جعل (بَلَى) بالياء مع الفعل (آدْرَكَ) ممدوداً ، ووضحها بقوله : «أمَّا (بَلَى) فكأنَّهُ جوابٌ ، وذلك أنه لما قال : ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ الْغَيْبَ إلا اللهُ﴾ فكأنَّ قائلا قال : ما الأمر كذلك ، فقيل له : (بَلَى) ، ثم استؤنف الكلام» .

(٣) قال أبو حيان : «أيْ بهمزة داخلة على (ادَّارَكَ) ، فيسقط همزة الوصل المجتلبة لأجل الإدغام والنطق بالساكن .

(٤) أصله : (أَأَدْرَكَ) فقلبت الثانية ألفاً تخفيفاً كراهة الجمع بين همزتين ، وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه الرواية وَوَجَّهَهَا . قال ذلك في البحر المحيط ، والقراءات المروية في هذه الجملة اثنتا عشرة قراءة ، منها اثنتان فقط للقراء السبعة .

هذا وقد أحسن الإمام ابن خالويه حين قال ملخصاً هذه القراءات : «﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾ يُقْرَأُ بفتح الألف وسكون الدال — وبوصل الألف وتشديد الدال وزيادة ألف بين الدال والراء ، فالحجة لمن قرأ بقطع الألف أنه جعله ماضياً من الأفعال الرباعية ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ ، والحجة لمن وصلَ وشدَّد وزاد ألفاً أن الأصل عنده (تدارك) فحصل الإبدال والإدغام والإتيان بألف الوصل» .

علمهم ؟ وأما القراءة الأُولى (١) فتحتمل معنيَيْن : أحدهما : بَلْ أدْركَ عِلْمُهم ، أيْ : تناهَى ، كما تقول : أدْرك النباتُ وغيره ، وكما تقول : هذا ما أدرك علمي من كذا وكذا ، فهذا قد تتابع وتناهَى علمُهم بالآخرة إلى أن يعرفوا لها مقداراً فيؤمنوا ، وإنما لهم ظنون كاذبةٌ ، أو ألّا يعرفوا لها وقتاً ، وكذلك ادَّارَكَ وتَدَارَكَ وسواها ، وإن حملت هذه القراءة معنى التوقيف والاستفهامِ ساغَ ، وجاء إنكاراً لِأنْ أدركوا شيئاً نافعاً ، والمعنى الثاني : بَلْ أدْرَك بمعنى يُدْرك ، أيْ أنهم في الآخرة يدرك علمهم وقت القيامة ، ويرَوْا العذاب والحقائق التي كذبوا بها ، وأما في الدنيا فلا ، وهذا تأْويل ابن عباس رضي الله عنهما ، ونَحَا إليه الزّجاج ، فقوله : ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ — على هذا التأْويل — ظرف ، وعلى التأْويل الأَول في معنى الباء ، والعلم قد يتعدى بحرف الجرّ ، تقول : علمي بزيد كذا ، ومنه قول الشاعر :

وَعِلْمِــي بأَسوامِ المياه . . . . البيت (٢)

ثم وصفهم عزّ وجلّ بأنهم في شكٍّ منها ، ثم أردفهم بصفة أبلغ من الشك وهي العمى بالجملة عن أمر الآخرة ، و [عَمُونَ] أصله (عَمِيُون) فَعِلون كحَذِرون وغيره .

---

(١) هي قراءة الخبر لا الاستفهام ، وهي قراءة ﴿بَلِ ادَّرَكَ﴾ ، وقد عمّمَ الكلام على ادَّارَكَ وتَدَارَكَ بعد ذلك .

(٢) الشاهد فيه أن (عِلْم) تعدت بحرف الجرّ وهو الباءُ ، كما تعدت في قولنا : علمي بزيد كذا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

استبعد الكفار أن تُبعث الأَجساد والرِّمَمُ من القبور ، فذكر ذلك عنهم على جهة الردِّ عليهم ، وقرأ أَبو عمرو ، وابن كثير : [أَيِذَا] و [أَيِنَّا] غير أَن أَبا عمرو يمُدُّ وابن كثير لَا يَمُدُّ[١]، وقرأ عاصم وحمزة : [أَئِذَا] و [أَئِنَّا] بهمزة فيهما ، وقرأ نافع : [إِذَا] مكسورة الأَلف [آيِنَّا] ممدودة الأَلف ، وقرأ الباقون : [آئِذَا] ممدودة [إِنَّنَا] بنونين وكسر الأَلف .

---

(١) جمَعَا بَيْنَ الاستفهامين وقلَبَا الثانية ياءً ، لكن أبا عمرو يفصل بينهما بألف .

ثم ذكر الكفارُ أن هذه المقالة مما وعدوا بها قبْلُ ، وقد ورد ذلك على لسان جميع الأنبياء ، وجزموا أن ذلك من أساطير الأولين ، ثم وعظهم تبارك وتعالى بحال من عُذِّب وبالحذَر أن يُصيبهم ما أصاب أولئك ، وهذا التحذير يقتضيه المعنى . ثم سلّى الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام عنهم ، وهذا بحسب ما كان عنده من الحرص عليهم والاهتمام بأمرهم . وقرأ ابن كثير : ﴿في ضِيقٍ﴾ بكسر الضاد ، ورويت عن نافع ، وقرأ الباقون بفتحها ، والضِّيقُ والضَّيْق مصدران بمعنى واحد ، وكره أبو عليٍّ أن يكون (ضَيْق) كهَيْن ولَيْن مسهلة من ضَيِّق[1] ، قال : لأن ذلك يقتضي أن تقام الصفة مقام الموصوف[2] .

ثم ذكر استعجال قريش لأمر الساعة والعذاب .

و [رَدِفَ] معناه : قَرُب وأزِفَ ، قاله ابن عباس وغيره ، ولكنها عبارة عما يجيءُ بعد الشيء قريباً منه ، ولكونه بمعنى هذه الأفعال تعدَّى بحرف وإلَّا فبابه أن يتجاوز بنفسه[3] . وقرأ الجمهور بكسر

(١) لأن (هَيْن) مسهَّلة من (هَيِّن) ، و (لَيْن) مُسَهَّلة من (لَيِّنْ) .

(٢) أي بعْد حذفه ، وهي ليست من الصفات التي تقوم مقام الموصوف باطراد ، ولكن الزمخشري أجاز ذلك ، قال : « ويجوز أن يُراد في أمْر ضيِّق » .

(٣) الأصل كما جاء في كتب اللغة أن يقال : رَدِفه إذا تَبعه أو اقترب منه وجاء في أثره ، ولكن لما ضُمِّن معنى أزِفَ أو اقترب عدِّي بالحرف فجاءت الآية : ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ ، وقيل : إن اللام متعلقة بالمصدر ، والمعنى : الرادفة لكم ، وقد عُدِّي بـ (من) على سبيل =

الدال ، وقرأ الأعرج : [رَدَفَ] بفتح الدال . وقرأ الجمهور من الناس : [يُكِنُّ] من أَكَنَّ ، وقرأ ابن محيصن وابن السميفع من كَنَّ : [تَكُنُّ] ، وهما بمعنى واحد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ * وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

الهاءُ في [غَائِبَةٍ] للمبالغة ، أي : ما من شيءٍ في غاية الغيب والخفاء إلَّا في كتاب عند الله في مكنون علمه ، ثم نَبَّه تعالى على أن هذا

= التضمين أيضاً ، ذكر ذلك الزمخشري ، وعليه قول الشاعر :

فلمَّا رَدَفْنَا مِن عُمَيْرٍ وصَحْبِهِ تَوَلَّوْا سِرَاعاً والمَنِيَّةُ تَعْنق

وقال الجوهري : وأرْدفه أمْرٌ لغةٌ في رَدِفَ ، قال خُزيمةُ بنُ مالك بن نَهْد :

إذَا الْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتُ بآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا

يعني : فاطمةَ بنت يَذْكُر بن عنزة أحَدِ الْقَارِظِين .

القرآن أخبر بني إسرائيل بأكثر الأشياء التي كان بينهم اختلاف في صفتها ، فجاءت في القرآن على وَجْهها ، ثم وصفه تعالى بأنه هدًى ورحمةٌ للمؤمنين ، كما أنه عمًى على الكافرين المحتوم عليهم ، ومعنى ذلك أن كفرهم استَتَبَّ مع قيام الحجة ووضوح الطريق ، فكثر عماهم بهذه الحجة ، ثم أخبر أن ذلك كله بقضاءٍ من الله تعالى وحكم قضاه فيهم وبينهم ، ثم أمرهم بالتوكل عليه ، وبالثقة بالله ، وبأنه على الحق ، أي : إنك الجدير بالنُّصرة والظهور ، ثم سلَّاه عنهم ، وشبههم بالموتى من حيث الفائدة بالقول لهؤلاء وهؤلاء معدومة ، فشبههم مرَّة بالموتي ومرَّة بالصُّمِّ ، قال العلماءُ : الميت من الأحياء هو الذي يلقى الله تعالى بكفره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واحتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي صلى الله عليه وسلم أسمع موتى بدر بهذه الآية ، ونظرت هي في الأمر بقياس عقلي ، ووقفت مع هذه الآية ، وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما أنتم بأسمع منهم)(١) ، فيشبه أن قصة بدر هي خرق عادة

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وأحمد ، ولفظه كما في البخاري عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فَقُذِفُوا في طَوِيٍّ من أطواء بدرٍ خبيث مُخْبِث ، وكان إذا ظَهَرَ على قوم أقام بالعَرْصة ثلاث ليالٍ ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشُدَّ =

للنبي صلى الله عليه وسلم في أَنْ ردَّ الله تعالى إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله ، ولولا إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماعهم لحملنا نداءَه إياهم على معنى التوبيخ على مَنْ بقي من الكفرة ، وعلى معنى شفاء صدور المسلمين منهم ، وقد عورضت هذه الآية بالسلام على القبور ، وبما روي في ذلك أن الأَرواح تكون في شفير القبور في أَوقات ، قالوا : فلو لم يَسْمع الميتُ لم يُسَلَّم عليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله غير معارض للآية ؛ لأَن السلام على القبور إنما هو عبادة ، وعند الله الثواب عليها ، وهو تذكير للنفس بحالة الموت وبحالة الموتى في حياتهم ، وإن جوَّزنا مع هذا أَن الأَرواح في وقت على القبور ، فإن سَمِـع فليس الروح بميت ، وإنما المراد بقوله : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِـعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الأَشخاص الموجودة مفارقة لأَرواحها ، وفيها نقول : خرقت العادة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أَهل القليب ، وذلك كنحو قوله

= عليها رحلُها ، ثم مشى وتبعه أصحابه ، قالوا: ما نُرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفير الرَّكِيِّ ، فجعل يناديهم بأسمائهم وَأَسماءِ آبائهم : يا فُلان بن فُلان ، ويافُلان بن فُلان ، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقّاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً ؟ قال : فقال عمر : يا رسول الله ! ما تُكَلِّم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نَفْسُ محمد بيده ما أَنتم بأَسمع لما أقول منهم » ، قال قتادة : أحياهم الله حتى أَسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحَسْرةً وندماً .

عليه الصلاة والسلام في الموتى إذا دخل عليهم المكان : (إنهم يسمعون خفق النِّعال) [١] .

وقرأ ابن كثير : ﴿وَلَا يُسْمِعُ﴾ بالياء من تحت [ٱلصُّمُّ] رفعاً ، ومثله في الرُّوم [٢]، وقرأ الباقون : [تُسْمِعُ] بالتَّاء [ٱلصُّمَّ] نصباً ، وقرأ جمهور القراء : ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي ٱلْعُمْيِ﴾ بالإضافة ، وقرأ يحيى بن الحارث ، وأبو حيوة : ﴿بِهَادٍ ٱلْعُمْيَ﴾ بتنوين الدال ونصب [ٱلْعُمْيَ] ، وقرأ حمزة وحده : ﴿وَمَا أَنْتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ﴾ بفعل مستقبل ، وهي قراءة طلحة بن وثَّاب ، وابن يَعْمر ، وفي مصحف عبد الله : ﴿وَمَا أَنْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ﴾ [٣] .

ومعنى قوله : ﴿وإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا انْتُجِزَ وعْدُ عذابهم الذي تضمنه القولُ الآن من الله تعالى في ذلك ـ أي حتمه الله عليهم ـ وقَضَاؤُه [٤]، وهذا بمنزلة قوله تعالى : ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [٥]،

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ، ومسلم في الجنة ، وأبو داود في الجنائز ، والنسائي في الجنائز كذلك ، وأحمد (٢ـ٣٤٧ ، ٤٤٥) ، ولفظه كما في المسند عن أبي هريرة ـ قال سفيان : يرفعه ـ قال : (إنَّ الميِّت ليسمع خَفْق نعالهم إذا ولَّوْا مدبرين) .

(٢) في قوله تعالى في الآية (٥٢) : ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ .

(٣) بزيادة (أن) بعد (مَا) .

(٤) (قضاؤُه) معطوفة على (وَعْدُ) .

(٥) من الآية (٧١) من سورة (الزُّمَر) .

فمعنى الآية : وإذا أراد الله تعالى أن ينفذ في الكافرين سابق علمه لهم من العذاب أخرج لهم دابة من الأرض ، ورُوي أن ذلك حين ينقطع الخير ، ولا يُؤمر بمعروف ، ولا يُنهى عن منكر ، ولا يبقى مُنيب ولا تائب ، كما أوحى الله تعالى إلى نوح : ﴿إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾(١) ، و[وَقَعَ] عبارة عن الثُّبوت واللزوم(٢) ، وفي الحديث : (إن الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول الأشراط ـ ولم يُعيِّن الأُولى ـ وكذلك الدَّجَّال)(٣) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر الأحاديث والروايات أن الشمس آخرها ؛ لأن التوبة تنقطع معها ، ويُعطي الحال أن الإيمان لا يبقى إلَّا في أفرادٍ ، وعليهم تهب الريح التي لا تُبقي إيماناً ، وحينئذ يَنْفَد ويُنفخ في الصُّور ، ونحن

---

(١) من الآية (٣٦) من سورة (هود) .

(٢) وقال قتادة : معناه : وجب الغضب عليهم ، وقال مجاهد : حقَّ القولُ عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقال ابن عمر ، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم . وكل هذا فيه معنى الثبوت واللزوم كما قال ابن عطية رحمه الله .

(٣) في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاث إذا خرجن لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض) .

نروي أن الدابة تَسِمُ قوماً بالإيمان[١] ، ونجد أن عيسى بن مريم عليه السلام يعدل بعد الدَّجَّال ، ويؤمنُ الناسُ به ، وهذه الدابة رُوي أنها تخرج من جبل الصفا بمكة ، قاله عبد الله بن عمر ، وقال عبد الله ابن عمرو - رضي الله عنهم أجمعين - نحوه ، وقال : لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها لفعلت ، ورُوي عن قتادة أنها تخرج من تِهامة ، ورُوي أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنُّور نوح عليه السلام ، ورَوى بعضهم عن حذيفة بن اليمان أنها تخرج ثلاث خرجات[٢] ، ورُوي أنها دابَّة مزغبة شعراءُ ، ورُوي

(١) يريد أنها تضع علامة على الناس ، فهذا تسِمُه بِسِمَة الإيمان ، وهذا تَسِمه بِسِمَة الكفر كما وضح ابن عطية بعد ذلك ، وهو مذكور في بعض الآثار ، ومنها الحديث الذي نرويه في الهامش التالي .

(٢) أخرج الطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : (لها ثلاث خرجات من الدهر : فتخرج خرْجة بأقصى اليمن ، فينتشر ذكرها بالبادية في أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية - يعني مكة - ثم تكمن زماناً طويلا ، ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك ، فيعلو ذكرها في أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية) - يعني مكة - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حُرْمة وأكرمها المسجد الحرام لم يَرُعْهُم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب ، فارْفَضَّ الناسُ عنها شتَّى ، وبقيت عصابة من المؤمنين ، ثم عرفوا أنهم لن يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجَلَت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدُّرِّي ، وولَّت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليتعوَّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول : الآن تصلي ؟ فيقبل عليها فتَسِمه في وجهه ثم تنْطلق ، ويشترك الناس في الأموال ، ويصطلحون في الأمصار ، يعرف المؤمن من الكافر ، حتى إن =

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنها على خِلْقة الآدميين ، وهي في السحاب وقوائمها في الأَرض ، ورُوي أنها جمعت من خَلْق كل حيوان ، ورَوى الثعلبي عن ابن الزبير نحوه ، ورُوي أنها دابة مبثوث نوعها في الأَرض ، فهي تخرج في كل بلد وفي كل قوم ، فقوْله — على هذا التأْويل — : [دَابَّة] إنما هو اسم جنس ، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناءَ الكعبة .

وقرأَ جمهور الناس : [تُكَلِّمُهُمْ] من الكلام ، وفي مصحف أُبَيٍّ : «تُنْبِيهم» ، وفسَّرها عكرمة بـ (تَسِمُهُم) ، قال قتادة : وفي بعض

المؤمن يقول : ياكافر اقضِني حقِّي ، وحتى إن الكافر ليقول : يامؤمن اقضني حقي ، (الدر المنثور) ، ولنا على هذا الحديث تعليقان :

(ا) — أن رواية الدر المنثور (عن حذيفة بن أُسيد الغفاري) ، أما ابن عطية فذكر حذيفة ابن اليمان ، ونقله القرطبي عن حذيفة فقط دون تعيين لاسم أبيه ، والثابت في تفسير ابن كثير وغيره أنه حذيفة بن أُسيد الغفاري ، ولعلَّ الخطأ هنا في ابن عطية من النساخ ، وهو ما نُرجِّحه ؛ لأن الذي رُوي عن حذيفة بن اليمان هو ما رواه ابن جرير عنه أنه قال : (بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون تضطرب الأرض من تحته ، وتخرج الدابة من الصفا ... الخ (وقال عنه ابن كثير «واسناده لا يصح» ، والله أعلم .

(ب) — أن الشواهد في الحديث أُمور كثيرة ، منها خروج الدابة ، والسِّمة التي تَسِم الناس بها ، وأنها الفصيل الذي تركته ناقة صالح ، حيث جاء فيه النصُّ بقوله : (وهي ترْغُو بين الركن والمقام) ، والرُّغاء هو للإبل ، وفي ذلك تحديد لنوع الدابة .

القراءة : «تُحَدِّثُهم» ، وقرأ أبو زُرْعة بن عمرو بن جرير[١] : «تَكْلِمُهُم»[٢] بكسر اللام من الكَلْمِ وهو الجرح ، قال أبو الفتح : هي قراءة ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، والجحدري ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : «كل ذلك والله تفعل تُكَلِّمُهُمْ وَتَكْلِمُهُمْ»[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

رُوِي في هذا أنها تمر على الناس فَتَسِم الكافر في جبهته وتُرَمِّده وتشتمه وربما خَطَمَته[٤]، وربما تمسح على وجه المؤمن فتبيضه ، ويُعرف بعد ذلك - الإيمان والكفر من قِبَلِهَا.

وقرأ الجمهور من القراء : ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بكسر [إنَّ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم بفتح الألف ، وفي قراءة عبد الله :

---

(١) أبو زُرْعة بن عمرو بن جرير بن عبد الله البَجَلَي الكوفي - بضم الزّاي وسكون الراء من زُرْعة - قيل : اسمه هرم ، وقيل : عمرو ، وقيل : عبد الله ، وقيل : عبد الرحمن ، وقيل جرير - وهو ثقة ، من الثالثة - تقريب التهذيب (٢-٤٢٤) .

(٢) قال ابن جِنّي في المحتسَب : وهذا شاهد لمن ذهب في قوله : [تُكَلِّمُهُمْ] إلى أنه بمعنى تجرحهم بأكلها إياهم ، ومعنى هذا أن [تُكَلِّمُهُم] من التّكليم الذي هو تكثير في الكَلْمِ بمعنى الجرح .

(٣) قال ذلك حين سُئِل عن القراءتين : [تُكَلِّمُهُم] من الكلام ، و [تَكْلِمُهُمْ] من الكَلْمِ وهو الجرح .

(٤) يُرَمِّدُ الشيء : يجعله في الرّماد ، أو يُهْلِكه ، وخَطَمَه يَخْطِمه : جعل على أنفه خطاماً .

«تُكَلِّمُهُمْ بِأَنَّ» ، وهذا تصديق بالفتح ، وعلى هذه القراءة يكون قوله : ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ إلى آخر الآية من كلام الدابة ، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله عزَّ وجلَّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾

المعنى : واذكُر يومَ ، وهذا تذكير بيوم القيامة ، و [نَحْشُرُ] : نَجْمع ، و ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ يريد : من كل قَرْن من الناس متقدم ؛ لأن كل عصر لم يَخْل من كَفَرَة بالله من لدُن تَفرُّق بني آدم ، و «الفَوْجُ»: الجماعة الكبيرة من الناس ، والمعنى : مِمَّن حاله أنه مكذب بآياتنا ، و [يُوزَعُونَ] معناه : يُكَفُّونَ في السَّوْق ، أي : يُحْبس أَوَّلهم على آخرهم ،

قاله قتادة وغيره ، ومنه وازع الحبْس ، ومنه يقول عبد الشارف بن عبد العزَّى:

فَجاءُوا عارضاً بَرِداً وحِيناً كمِثْلِ السَّيْلِ تركب وَازِعينَا(١)

ثم أخبر تعالى عن توقيفه الكفرة يوم القيامة وسؤالهم على جهة التوبيخ : ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ الآية ، ثم قال : ﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على معنى استيفاء الْحُجَج ، أي : إن كان لكم عمل أو حُجَّة فهاتوها . وقرأ أبو حيوة : ﴿أَمَا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بتخفيف الميم (٢) .

ثم أخبر عن وقوع القول عليهم ، أي نفوذ العذاب وحتم القضاء ، وأنهم لا ينطقون بحُجَّة لأنها ليست لهم ، وهذا في موطن من مواطن القيامة ، وفي فريق من الناس ؛ لأن القرآن يقتضي أنهم يتكلَّمون بِحُجَجَ في غير هذا الموطن .

ثم ذكر تعالى الآية في اللَّيل وكونه وقت سكون ووداعة لجميع الحيوان ، والمهم في ذلك بنو آدم ، وكون النهار مبصراً ، أي : ذا إبصار ، وهذا كما تقول : ليلٌ نائمٌ ونهارٌ صائمٌ ، ومعنى ذلك : يُنام فيه ، فكذلك هذا معناه : يُبصر فيه ، فهو لذلك : ذا إبصار ،

---

(١) العارضُ البَرِدُ : السحاب الذي تصحبه نسمات باردة خفيفة ، والبَرِدُ هو ذو البرودة ، كما قال : « وَصِلِّيَاناً بَرِداً » ، قال في اللسان : أي: ذو بُرُودة . والشاهد هنا في قوله : وازِعينَا ، ومعناها : يُكَفِّون، على معنى يُحْبَس أولهم على آخرهم تخفيفاً من حدة اندفاعهم التي شبهها بالسَّيْل الجارف .

(٢) أدخل أداة الاستفهام على أداة الاستفهام توكيداً ، قاله صاحب البحر المحيط .

ثم تجوز بأن قيل : [مُبْصِراً] ، فهو على النسب كعيشة راضية (١)، والآيات في ذلك هي للمؤمنين والكافرين ، هي آية لجميعهم في نفسها ، لكن من حيث الانتفاع بها والنظر النافع إنما هو للمؤمنين فلذلك خُصُّوا بالذكر .

ثم ذكر تبارك وتعالى يوم النَّفخ في الصُّور ، وهو القَرْنُ في قول جمهور الأُمة ، وهو مقتضى الأَحاديث ، وقال مجاهد : هو كهيئة البوق ، وقالت فرقة : الصُّور جمع صورة ، كتَمْرَةٍ وتَمْر وجَمْرَةٍ وجَمْر ، والأَول أَشهر ، وفي الأَحاديث المتداولة أَن إسرافيل عليه السلام هو صاحب الصُّور ، وأَنه قد جثا على ركبته الواحدة وأَقام الأُخرى وأَمال خده والْتَقم القرن ينتظر متى يُؤمر ويُؤذن له بالنَّفخ ، وهذه النَّفخة المذكورة في هذه الآية هي نفخة الفزع ، وروى أَبو هريرة رضي الله عنه أَن المَلَك له ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، وهو فزع حياة الدُّنيا وليس بالفزع الأَكبر ، ونفخة الصَّعق ، ونفخة القيام

---

(١) قال بعض العلماء : « الظاهر أن هذا من باب ما حُذف من أوّله ما أُثْبت في مُقَابِلِه ، وحُذِف من آخره ما أُثْبت في أوله ، فالتقدير : جعلنا الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتتصرفوا فيه ، فالإظلام ينشأ عن السكون ، والإبصار ينشأ عن التصرف في المصالح ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ، فالسكون عِلَّة بجعل الليل مظلماً ، والتَّصرف عِلَّة بجعل النهار مبصراً » ، وقد ذكروا هذا إجابة عن سؤال يرد هنا وهو : لماذا لم يقع التَّقابل في جعل النهار بالنَّص على علَّته فيكون التركيب : « والنَّهار لِتُبْصِروا فيه » بل جاء بقوله تعالى : [مُبْصِراً] قيداً في جعل النهار لا علَّة للجعل ؟

من القبور (١) . وقالت فرقة : إنما هما نفختان ، كأنهم جعلوا الفزع والصعق في نفخة واحدة ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُفِـخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٢) ، وقالوا : أُخرى لا تقال إلّا في الثانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقول الأول أصح ، وأُخرى تقال في الثالثة ، ومنه قول ربيعة بن مقروم:

* وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخَرَ ثَالِثٍ * (٣)

ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَى﴾ (٤) ، وأما قول الشاعر :

جَعَلْتُ لَهَـا عُودَيْنِ مِنْ نَشَمٍ وآخَرَ مِنْ ثُمَامَهْ (٥)

فهو يحتمل أن يريد ثانياً أو ثالثاً فَلَا حُجَّة فيه .

---

(١) رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على
فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخ) ، قلت : يا رسول الله ما الصُّور ؟
(قال: قَرْنٌ والله عظيم ، والذي بعثني بالحق إن عظم دارةٍ فيه كعرض السماء والأرض ،
فينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة البعث
والقيام لِربِّ العالمين) . ذكره عليُّ بن معبد ، والطبري ، والثعلبي وغيرهم ، وصححه
ابن العربي ، وقد روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما مثله .

(٢) من الآية (٦٨) من سورة (الزُّمَر) .

(٣) ربيعة بن مقروم أحد شعراء مُضر المعدودين في الجاهلية والإسلام ، أسلم فحسن
إسلامه وشهد القادسية وغيرها من الفتوح ، وله ترجمة في الإصابة وفي الخزانة . وشَفَع الشيء
شَفْعاً : ضمَّ مثله إليه ويقال : كان وتراً فَشَفَعْته بآخر ، والشاهد هنا أن أُخرى تقال في
المرة الثالثة ولا يلزم أن تكون هي الثانية كما يقول بعض اللغويِّين .

(٤) الآية (٢٠) من سورة (النجم) .

(٥) النَّشَمُ بالتحريك : شجر جبليٌّ تُتَّخذ منه القِسِيُّ ، وهو من عُتُق العيدان ،
واحدته نَشَمَة ، وهو مثل النَّبْع في الصلابة ، والثُّمَامُ : شجر ، واحدتُه ثمامة ، وبها سُمِّي
الرجل ثُمامة ، وهو نبت ضعيف له خوصٌ أو شبيه بالخوص ، وربما حشي به وسُدَّ به
خصاص البيوت ، وهو قصير لا يطول . والشاهد وضحه المؤلف .

وقوله تعالى : [فَفَزِعَ] ـ وهو أَمْرٌ لم يقع ـ يُعَدُّ إشعاراً بصحة وقوعه، وهذا معنى وضع الماضي موضع المستقبل ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ فيمن قضى الله تعالى من ملائكته وأنبيائه وشهداء عبيده أَلَّا ينالهم فزع النَّفخ في الصُّورِ ، وقال أبو هريرة : هي في الشهداء ، وذكر الرُّمَّاني أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الفزع مقاتل : هي في جبريل وميكائيل وإسرافيل وملَك الموت ، وإذا كان الأكبر لا ينالهم فهم حَرِيُّون أَلَّا ينالهم هذا(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

على أَن هذا في وقت ترقُّب وذلك في وقت أَمْن ؛ إذ هو إطباق جهنم على أهلها .

وقرأ جمهور القُرَّاء : ﴿وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخِرِينَ﴾ على وزن فاعلوه ، وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : [أَتَوْهُ] على صيغة الفعل الماضي ، وهي قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة ، وقرأ قتادة : [أَتَاهُ] على الإفراد إتباعاً للفظ [كُل] ، وإلى هذه القراءة أشار الزَّجَّاج ولم يذكرها .

---

(١) وقيل : هم المؤمنون ؛ لقوله تعالى : ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ ، وقال بعض العلماء : لم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، والكل محتمل ، وقال القرطبي تعليقاً على ذلك : «وخفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعول عليه لأنه نصٌّ في التعيين وغيره اجتهاد ، والله أعلم» .

و «الدَّاخِرُ» : المتذلِّل الخاضع ، قال ابن عباس ، وابن زيد : الدَّاخر : الصاغر ، وقرأ الحسن : [دَخِرِينَ] بغير ألف ، وتظاهرت الروايات بأَن الاستثناء في هذه الآية إنما أُريد به الشهداء ؛ لأنهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون ، وهم أهل للفزع لأنهم بشر لكنهم فُضِّلوا بالأمن في ذلك اليوم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

هذا وصف حال الأشياء يوم القيامة عقب النَّفخ في الصُّور ، والرؤْية هي بالعين[1] ، وهذه الحال للجبال في أَول الأَمر تسير وتموج ،

(١) ولو كانت من روْية القلب لتعدت إلى مفعولين .

وأمر الله تبارك وتعالى بنسفها ونفشها خلال ذلك فتصير كالعهن ، ثم حتى تصير في آخر الأمر هباءً منثوراً ، و «الجمود» : التَّصامُّ في الجوهر ، قال ابن عباس : [جَامِدَةً] : قائمة ، ونظيره قول الشاعر :

بِأَرْعَنَ مِثْلَ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ ... وُقُوفٌ لِحَاجٍ والرِّكابُ تُهَمْلِــجُ(١)

و ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر معرف ، والعامل فيه فعلٌ مضمر من لفظه ، وقيل : هو نصبٌ على الإغراء ، بمعنى : انظروا صُنْعَ ٱللَّهِ (٢) ، و «الإِتْقَانُ»: الإحسان في المعمولات ، وأن تكون حساناً وثيقة القوة ، وقرأ أبو جعفر ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [يَفْعَلُونَ] بالياء ، وقرأ الباقون : [تَفْعَلُونَ] بالتاء على الخطاب .

---

(١) البيت للنابغة الجعدي ، وهو في وصف جيش ، والأرْعن : المضطرب لكثرته مع حركته ، وقيل : شبهه بالجبل الضخم ذي الرِّعان ، وهي الفضول والنتوءات البارزة بعنف من الجبل ، والأنف العظيم المتقدم من الجبل يُسَمَّى رعن . والطَّوْدُ : الجبل العظيم ، وتَحْسَب : من القياس ، والحاجُ : جمع جاجةٍ ، وتُهَمْلِجُ : تمشي الهَمْلَجَةَ ، وهي سيرٌ سريع حسن ، والشاهد أنَّكَ ترى الشيء الضخم العظيم ساكناً وهو يتحرك ، يخيل إليك أن السفينة الكبيرة في البحر واقفة مع أنها تتحرك ، وكذلك الجيش الضخم بعدَدِه وسلاحه . والضمير في «أنَّهُم» للجنود في الجيش .

(٢) القول الأول هو قول الخليل وسيبويه ، وذلك لأن الله تعالى لما قال : ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ دلَّ على أنه سبحانه قد صنع ذلك صنعاً ، وعلى هذا الرأي لا يوقف على [السَّحَابِ] ، وعلى الرأي الثاني وهو النصب على الإغراء يجوز أن تقف على [السَّحَابِ] . ويجوز الرفع على تقدير : ذلك صُنْعُ الله ، ذكر ذلك القرطبي ، وأكد الزمخشري رأي سيبويه فقال : ﴿صُنْعَ اللهِ﴾ من المصادر المؤكدة ، كقوله : ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ و ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ إلا أنَّ المؤكَّد محذوف .

و [ٱلْحَسَنَة] : الإيمان ، وقال الحسن ، وابن عباس ، والنَّخَعي ، وقتادة : هي لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ ، ورُوِي عن علي بن الحسين أنه قال : كنت في بعض خلواتي ، فرفعت صوتي بـ (لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ) ، فسمعت قائلاً يقول : إنها الكلمة التي قال الله فيها : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ، وقوله : ﴿خَيْرٌ مِنْهَا﴾ يحتمل أن يكون للتفضيل ، ويكون في قوله : [مِنْهَا] حذف مضاف تقديره : خيرٌ من قدْرها أو استحقاقها ، بمعنى أن الله تعالى تفضَّل عليه بفوق ما تَسْتَحق حسنَتُه ، وقال ابن زيد : يعطى بالواحدة عشرة ، والداعيةُ إلى هذا التقدير أن الحسنة لا يُتصور بينها وبين الثواب تفضيل ، ويحتمل أن يكون [خَيْرٌ] ليس للتفضيل ، بل اسمٌ للثواب والنعمة ، ويكون قوله : [مِنْهَا] لابتداءِ الغاية ، أي : هذا الجزاءُ الذي يكون له هو من حَسَنَته وبِسَبَبِهَا ، هذا قول الحسن ، وابن جريج ، وقال عكرمة : ليس شيءٌ خيراً من لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ ، وإنما له الخير منها .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ﴾ بالإضافة ، ثم اختلفوا في فتح الميم وكسرها من [يَوْمَئِذٍ] ، فقرأ أكثرهم بفتح الميم على بناءِ الظرف لما أُضيف إلى غير ممكن ، وقرأ إسماعيل بن جعفر عن نافع بكسر الميم على إعمال الإضافة ؛

وذلك أَن الظروف إذا أُضيفت إلى غير ممكن جاز بناؤُها وإعمال الإضافة فيها ، ومن ذلك قول الشاعر :

عَلَى حينَ عاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا وقُلْتُ أَلَـمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ[1]

فإنه يُروى : «على حينَ» بفتح النون ، و «عَلَى حِينٍ» بكسرها ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿مِنْ فَزَعٍ﴾ بالتنوين وترك الإضافة ، ولا يجوز – مع هذه القراءة – إلَّا فتح الميم من [يَوْمَئِذٍ] .

و [ٱلسَّيِّئَةُ] التي في هذه الآية هي الكفر والمعاصي مِمَّن حتم الله تبارك وتعالى عليه من أَهل المشيئة بدخول النَّار ، و [كُبَّتْ] معناه : تُلَّتْ في النَّار ، وجاءَ هذا كبًّا من حيث خَلْقُها في الدنيا يعطي ارتفاعها ، وإذا كُبَّت الوجوه فسائر البدن أُدخل النار ؛ إذ الوجه موضع الشرف والحواسِّ ، وقوله : ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ بمعنى : فقال لهم ذلك ، وهذا على جهة التوبيخ .

وقوله : ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ بمعنى : قل يا محمد لقومك : إنَّمَا أُمِرْتُ ، و «الْبَلْدَةُ» المشار إليها مكَّةُ ، وقرأَ جمهور الناس : ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ ،

---

(١) الشاعر هو النابغة الذبياني ، والبيت من قصيدة له قالها يمدح النعمان ويعتذر إليه مما وشَىْ به بنو قُرَيْع ابن عوف من تميم ، وهو في الديوان ، وابن الشجري ، وابن يعيش ، والمنصف ، وشرح شواهد المغني ، والهمع ، والعيني ، و (عَلَى) في البيت بمعنى (في) ، والمعنى : كفكفت دمعي في وقت عتابي لنفسي في حالة مشيبها ، وكان عتابه لنفسه على ما فعلت في صباه من طرب ، والوازع : الناهي الزاجر ، وإسناد الوزع إلى الشيب مجاز ، أما الشاهد هنا فقد وضحه ابن عطية .

وقرأ ابن عباس ، وابن مسعود : ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَهَا﴾ ، وأضافَ – في هذه الآية – التحريم إلى الله تعالى من حيث ذلك بقضائه وسابق علمه ، وأضاف النبي صلى الله عليه وسلم ذلك إلى إبراهيم في قوله : (إن إبراهيم حَرَّم مكَّة وإنِّي حرَّمت المدِينة)(١) من حيث كان ظاهر ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأُمته ، فليس بين الآية والحديث تعارض ، وفي قوله : [حَرَّمَهَا] تعديد للنعمة على قريش في رفع الله تعالى عن بلدهم الغارات والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب .

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ معناه : بالملك والعبودية . وقرأ جمهور الناس : ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ﴾ عطفاً على قوله : ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ ،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والمدينة والبيوع والأنبياء والمغازي والأطعمة والدعوات والاعتصام ، ومسلم في الحج ، وأبو داود في المناسك ، والترمذي في المناقب ، والنسائي في الحج ، وابن ماجه في المناسك ، والموطأ في المدينة ، وأحمد في المسند في مواطن كثيرة ، ولفظه كما في المسند (١–١١٩) عن أبي حسان أن علياً رضي الله عنه كان يأمر بالأمر فيؤتى فيقال : قد فعلنا كذا وكذا ، فيقول : صدق الله ورسوله ، قال : فقال له الأشتر : إن هذا الذي تقوله قد تَفَشَّغ في الناس (انتشر) ، أفَشَيءٌ عهده إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال علي رضي الله عنه : ما عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً خاصة دون الناس ، إلا شيءٌ سمعته منه فهو في صحيفة في قراب سيفي ، قال : فلم يزالوا به حتى أخرج الصحيفة ، قال : فإذا فيها : (من أحدث حدثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقبل منه صرف ولا عدل) ، قال : وإذا فيها : (إن إبراهيم حرَّم مكَّةَ ، وإني أحرِّم المدينة ، حرام ما بين حَرَّتَيْها وحماها كله ، لا يختلى خلاها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تلتقط لقطتها إلا لِمَنْ أشار بها . ولا تُقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره ، ولا يُحمل فيها السلاح لقتال) ، قال : وإذا فيها : (المؤمنون تتكافأُ دماؤهم ، ويسعى بِذِمَّتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم ، ألا لا يُقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهدٍ في عهده) .

وقرأ ابن مسعود : ﴿وَأَنِ ٱتْلُ ٱلْقُرْآنَ﴾[١] بمعنى : وأن قيل لي : اتْلُ القرآن ، و «اتْلُ» معناه : تابع بقراءتك بين آياته واسْرُدْ ، وتلاوة القرآن سبب الاهتداء إلى كل خير .

وقوله تعالى : ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَى﴾ معناه : من تكسَّب الهُدي والإيمان ونظر نظراً ينجيه فلنفسه سعيُه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فنِسْبَة الهدى والضلال إلى البشر من هذه الأُمة إنما هي بالتَّكَسُّبِ والحرص والحال التي عليها يقع الثواب والعقاب ، والكلُّ أيضاً من الله تعالى بالاختراع .

وقوله تعالى : ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ توعُّد بعذاب الدنيا كبدر والفتح ونحوه ، وبعذاب الآخرة . وقرأ جمهور القراء : ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتَّاء من فوق على مخاطبتهم .

كَمُلَ تفسير سورة النَّمل والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) قال في البحر توضيحاً لها : وهي أمرٌ من (تَلا) ، وجاز أن تكون (أن) مصدرية وُصِلَتْ بالأمر ، وجاز أن تكون مفسِّرَة على إضمار : وأُمرت أنِ اتْلُ . وقال الفراءُ في معاني القرآن : «وفي إحدى القراءتين ﴿وَأَنِ اتْلُ﴾ بغير واوٍ مجزومةً على جهة الأمر ، وقد أُسقطت منها الواو للجزْم على جهة الأمر» ، ونقل القرطبي عن النحاس قوله : «ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة ، وهي مخالفةٌ لجميع المصاحف» .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



تفسير سورة القصص

هذه السُّورة مكِّيَّة إلَّا قوله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾(١) ، نزلت هذه بالجحفة في وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، قاله ابن سلام وغيره ، وقال مقاتل : فيها من المدنيِّ : ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾(٢) إلى قوله تعالى : ﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَاهِلِينَ﴾ (٣) .

---

(١) الآية (٨٥) من السورة .

(٢) الآية (٥٢) من السورة .

(٣) الآية (٥٥) من السورة . وقد قال الحسن ، وعطاء ، وعكرمة : السورة مكِّيَّة كلُّها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السُّور بما أغنى عن الإعادة ، فمن قال : « إن هذه الحروف من أسماءِ الله تبارك وتعالى » قال : إن الطَّاءَ من الطَّوْل الذي لله سبحانه ، والسِّين من السلام ، والميم من المنعم ، أو من الرحيم ، ونحو هذا . وقوله : [تِلْكَ] يتقدر موضعها بحسب كل قول من الأقوال في الحروف ، فمن جعل [طسٓمٓ] مثالاً لحروف المعجم جاءَت الإشارة بـ [تِلْكَ] إلى حروف المعجم ، ومن قطعها قال : [تِلْكَ] في مواضع هذه ، وساغ هذا من حيث لم تكن حاضرة عتيدة[1] ، بل هي أقوال تقتضي بعضها شيئاً فشيئاً ، فسائغٌ أن يقال في الإشارة إليها : [تِلْكَ] .

---

(١) العتيد : المُهيَّأ والحاضر ، وفي التنزيل الكريم : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي حاضر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأصل أن (تلك) إشارة إلى ما غاب ، و (هذه) إشارة إلى ما حضر ، وقد تتداخل متى كان في الغيبة حصولٌ وثقةٌ به يقوم مقام الحضور ، ومتى كان في الحضور بُعْدٌ مَّا يقوم مقام الغيبة ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[1] لما كان موسى لا يرى ربَّه تعالى ، فهو وعصاه في منزل غيب ، فساغ ذلك . ومن النقيض قول المؤلف لكتاب : «هذا كتاب» ، وما جرى هذا المجرى فنتبعه ، ويشبه في آيتنا هذه أن تكون [تِلْكَ] بمنزلة : هذه آيات الكتاب المبين ، ويشبه أن تكون متمكنة من حيث الآيات كلها وقت هذه المخاطبة لم تكن عتيدة . و [نَتْلُو] معناه : نَقُصُّ ونتابع القصص[2]، وخصّ المؤمنين في قوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ من حيث أنهم هم المنتفعون بذلك دون غيرهم[3] .

و ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن عُلُوِّ الطُّغيان والتغلب . وقوله تعالى : ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أرضَ مصر وموضع مُلْكه ، ومتى جاءت الأَرْض هكذا عامةً فإنَّما يُراد بها الأَرض التي تشبه قصة القول المسوق ؛

(١) الآية (١٧) من سورة (طه) .

(٢) ومفعول [نَتْلُو] هو ﴿مِنْ نَبَإِ﴾ ، أي : بعض نبإ ، فـ [مِنْ] للتَّبعيض ، و [بِالْحَقِّ] متعلق بـ[نَتْلُو] ، أي : نَتْلُو مُحِقِّين ، أو في موضع الحال من [نَبَإِ] ، أي : مُتَلَبِّساً بالحق .

(٣) ذلك لأنهم يصدقون بالقرآن ، ويعلمون أنه من عند الله تعالى فينتفعون بذلك ، أما من لم يؤمن فلا يصدق أنه حق ، وبالتَّالي لا ينتفع به .

لأن الأنباء التي تعم الأرض كلها قليلة ، والأكثر ما ذكرناه ، و «الشِّيَعُ» : الفِرَقُ ، وكان هذا القول من فرعون بأن جعل القبط ملوكاً ، وبني إسرائيل مستخدمين ، وهم كانوا الطائفة المُسْتَضْعَفَة . و [يُذَبِّحُ] مضعف للمبالغة والعبارةِ عن تكرار الفعل ، قال قتادة : كان هذا الفعل من فرعون لأنه قالت له كهنته وعلماؤه : إن غلاماً لبني إسرائيل يفسد مُلْكك ، وقال السدي : رأى في ذلك رؤيا فأخذ بني إسرائيل بِذَبْح الأطفال سنين ، فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً ، فوُلد هارون عليه السلام في عام الاستحياء ، وولد موسى عليه السلام في عام الذّبح ، وقرأ جمهور القراء : [يُذَبِّحُ] بضم الياء وكسر الباء على التكثير ، وقرأ أبو حيوة ، وابن محيصن بفتح الياء والباء وسكون الذال . قال وهب بن منبه : بلغني أن فرعون ذبح في هذه المحاولة سبعين ألفاً من الأطفال ، وقال النقاش : جميع ما قتل ستة عشر طفلاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

طمع بجهله أن يرُدَّ القدر (١)، وأين هذا المنزع من قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : (إن يَكُنْه فلن تقدر عليه) يعني ابن صياد ، وباقي الآية بَيِّن .

(١) قال الزّجاج : العجب أنه من حمقه لم يدْر أن الكاهن إنْ صَدَقَ فالقتلُ لا ينفع ، وإن كذب فلا معنى للقتل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

المعنى : يستضعف فرعونُ ونحن نريد أن نُنْعم ونُعظم المنَّة على المستضعفين ، و « الأئمة » : ولاة الأُمور ، قال قتادة : ﴿وَنَجْعَلَهُمْ ٱلْوَارِثِينَ﴾ يريد : أرض مصر والشام ، وقرأ الأعمش : [وَلِنُمَكِّنَ] بلام ، وقرأ الجمهور : ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾ بضم النون وكسر الراء وفتح الياء ونصب [فِرْعَوْنَ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن مسعود : [وَيَرَي] بالياء وفتح الرَّاء وسكون الياء على الفعل الماضي وإسناد الفعل إلى فرعون ومَنْ بعده ، والمعنى : ويقع فرعون وقومه وجنده فيما خافوه وحَذِروه من جهة بني إسرائيل وظهورهم . وهامانُ هو وزير فرعون وأكبر رجاله ، وذُكر لِمَحَلِّه من الكفر ولنباهته في قومه ، فله في هذا الموضع صغار ولعنة لا شرف .

وهذا الوحيُ إلى أُمِّ موسى ـ قالت فرقة : كان قولاً في منامها ، وقال قتادة : كان إلهاماً ، وقالت فرقة : كان بِمَلَك تَمَثَّل لها ، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبيَّة ، وإنما إرسال المَلَك لها على نحو تكليم المَلَك للأبرص والأقرع في الحديث المشهور[١] وغير ذلك مما رُوي من تكليم الملائكة للناس من غير نُبُوَّة .

وجملة أمْر أُمِّ موسى أنها علمت أن الذي وقع في نفسها هو من عند الله ووعْد منه ؛ يقتضي ذلك قوله تعالى : ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[٢]، وهذا معنى قوله : ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : بالوعْد . وقال السدي وغيره : أُمرت أن ترضعه عقب الولادة ، وأن تصنع به ما في الآية ؛ لأن الخوف كان عقب الولادة ، وقال ابن جريج ؛ أُمِرَت برضاعه أربعة أشهر في بستان ، فإذا خافت أن يصيح لأن لبنها لا يكفيه صنعت به هذا .

---

(١) الحديث في البخاري ومسلم ، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه أن أبا هريرة سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إن ثلاثة في بني إسرائيل ، أبْرص وأقرع وأعمى ، فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملَكاً ، فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحَبُّ إليك ؟ فقال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قذرني الناس ...) إلى آخر الحديث حيث حقق الله لكل واحد ما يريد امتحاناً وابتلاءً ، ولم يوفق إلى فعل الخير منهم إلا الأعمى فحفظ الله عليه نعمته ، وردّ كلا من الأبرص والأقرع إلى ما كان عليه .

(٢) الآية (١٣) من هذه السورة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأول أظهر ، إلّا أنّ الآخر يعضده أمران : أحدهما قوله : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ و [إذَا] ظرف لما يُستقبل من الزمان ، والآخر لأنه لم يقبل المراضع ، والطفلُ إثر ولادته لا يفعل ذلك ، اللّهم إلّا أن يكون هذا منه بأن الله تبارك وتعالى حرّمَها عليه وجعله يأباها بخلاف سائر الأطفال ، وقرأ عمرو بن عبد الواحد[1] : ﴿أَنِ ٱرْضِعِيهِ﴾ بكسر النون اعتباطاً لا تخفيفاً ، والتخفيف الفاشي فتح النون ، قاله ابن جِنّي[2] ، ونسب المهدوي هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، و [ٱلْيَمّ] : جمهور الماءِ ومعظمه ، والمراد نِيل مصر .

ورُوي في قصص هذه الآية أن أُمّ موسى عليه السلام ــ واسمها يوحانة[3] ــ أخذته ولفّته في ثيابه ، وجعلت له تابوتاً صغيراً ، وشدته عليه بقفل وعلّقت عليه مفتاحه وأسلمته ثقة بالله وانتظاراً لوعده ، فلما غاب عنها عاودها خوفها ، وانشغلت عليه ، وأقنطها

(١) نَسَبَهَا في القرطبي إلى عمر بن عبد العزيز ــ رضي الله عنه ــ فقط ، وذكر صاحب البحر أنها للاثنين : عمرو بن عبد الواحد ، وعمر بن عبد العزيز .

(٢) قال ابن جني : كما قرأ ابن محيصن : ﴿فَجَاءَتْهُ احْدَاهُمَا﴾ ، وكما قال الله تبارك وتعالى : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ ، ولو كان على التخفيف القياسي لقال : ﴿أَنَ ارْضِعِيهِ﴾ ، بفتح النون بحركة الهمزة من [أَرْضِعِيهِ] .

(٣) وقيل : اسمُها « لُوحا بنْت هاند بن لاوي بن يعقوب » ، وقيل : يوخاند ، وقيل : يوخابيل .

الشيطان ، فاهتمت به وكادت تفتضح ، وجعلت الأُخت تقُصُّه ، أي : تطلب أثره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

الالْتِقَاطُ : اللقاءُ عن غير قصد ، ومنه قول الشاعر :

وَمَنْهَلٍ وَرَدْتُهُ الْتِقَاطا
لَمْ أَلْقَ إِذْ وَرَدْتُهُ فُرَّاطا(١)

---

(١) البيتان من مشطور الرجز ، وقد ذكرهما في (اللسان – لقط) ، ونسبهما لنقادة الأسَدِيّ ، قال : « لقيتُه التقاطاً : إذا لقيتَه من غير أن ترجوه أو تحتسبه ، قال نقادة الأسديُّ : وذكر البيتين وبعدهما الثالث وهو :

إلا الحَمَامَ الوُرْقَ والغَطاطَا

وقال سيبويه : التقاطاً : أي فجأةً وهو من المصادر التي وقعت أحوالا ، نحو جاء رَكْضاً ... وحكى ابن الأعرابي : لقيتُه لقاطاً: مُوَاجَهَةً » ، والبيت الأول مذكور في الصحاح ، =

و ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾ : أَهْلُه ، ويروى أن آسية امرأة فرعون رأت التَّابوت يعوم في اليَمِّ فأمرت بِسَوْقه وفَتْحِهِ ، فرأت فيه صبيًّا صغيراً فرحمته وأحبته ، وقال السدي : إن جواريها كان لهن فُرْضة[1] في القصر على النيل ، يدخل الماءُ فيها إلى القصر حتَّى يَنَلْنَه في المرافق والمنافع ، فبينا هُنَّ يغسلن في تلك الفُرْضة إذ جاء التابوت فحملنه إلى مولاتهن ، وقال ابن إسحق : رآه فرعون يعوم فأمر بسوقه ، وآسيةُ جالسةٌ معه ، فكان ما تقدم .

وقوله : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ هي لام العاقبة ، لا أن القصد بالالتقاط كان لأن يكون عدوًّا ، وقرأ الجمهور : [وَحَزَناً] بفتح الحاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : [وحُزْناً] بضم الحاء وسكون الزَّاي ، و «الخَاطِــئُ» : مُتَعَمِّدُ الخطإ ، والمُخْطِــئُ : الذي لا يتَعَمَّدُه .

واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأةُ فرعون : ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ ـ فقالت فرقة : كان ذلك عند التقاط التابوت لمَّا

= والمقاييس ، والكتاب لسيبويه بدون نسبة . والمَنْهَلُ : الموردُ : وفُرَّاط القطا : متقدماتها إلى الوادي والماء ، والغَطاط بفتح الغين: القَطَا ، وقيل: ضربٌ منه ، والواحدة غَطَاطَة ، والشــاعر يتحدث عن مورد ماءٍ وَرَدَهُ فجأة دون أن يحتسب ذلك ، ولم يجد عنده فُرَّاط القَطَا اللَّهم الا الحمام الوُرْق وبعض الغَطاط .

(٢) الفُرْضة من النهر : مشرب الماء منه ، ومن البحر : محط السفن .

أشعرت فرعون به ؛ إذ سبق إلى وَهْمه أنه من بني إسرائيل ، وأن ذلك قُصِدَ بِهِ التَّخَلُّص من الذَّبْح ، فقال : عليَّ بالذَّبَّاحين ، فقالت امرأته ما ذُكر ، فقال فرعون : أَمَّا لي فَلَا ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لو قال : نعم لآمن بموسَى ولكان قُرَّةَ عين له) (١) ، وقال السدي : بل رَبَّتْهُ حتى درج ، فرأى فرعون فيه شهامة ، وظنَّه من بني إسرائيل ، وأخذه في يده ، فمدَّ موسى عليه الصلاة والسلام يده ونتف لحية فرعون ، فهَمَّ حينئذ بذبحه ، وحينئذ خاطبته بهذا ، واختبرته له في الجمرة والياقوتة فاحترق لسانه ، وقوله : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بأنه الذي يَفْسُد المُلْكُ على يديه ، قاله قتادة وغيره ، وقرأ ابن مسعود : «لا تقتلوه قُرَّة عَيْن لي وَلَكَ» ، قدَّم وأخَّر .

وقوله : [وَأَصْبَحَ] عبارة عن دوام الحال واستقرارها ، وهي كظَلَّ ، ومنه قول أبي سفيان للعباس يوم الفتح : «لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك عظيماً» ، يريد : استَقَرَّ به حاله عظيماً ، وقرأ جمهور الناس : [فَارِغاً] من الفراغ ، واخْتُلف في معنى ذلك ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : فارغاً من كل شيءٍ إلَّا من ذِكر موسى عليه السلام ، وقال مالك : هو ذهاب العقل .

---

(١) في خبر طويل أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن السدي ، وذكَرَهُ في الدُّرّ المنثور أن الذي قال ذلك هو ابن عباس رضي الله عنهما . (راجع تفسير الطبري ٢١ـ٣٤ ـ والدرّ المنثور ٥ـ١١٨) ، ولم يشر أحدهما إلى أنه رفعه للنبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كقوله تعالى : ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[1] . وقالت فرقة : فارغاً من الصبر ، وقال ابن زيد : فارغاً من وعْد الله تبارك وتعالى ووحْيه إليها ، أي : تناسَتْه بالهَمِّ وفَتَر أثَرُه في نفسها ، وقال لها إبليس : فررت به من قتْل لك فيه أجْر ، وقَتلْته بيدك ، وقال أبو عُبَيْدَة : فارغاً من الحزن ؛ إذْ لم يغرق ، وقرأ فَضَالة بن عُبَيْد ـ ويقال : ابن عُبَيْدَة[2] ـ ، والحسن : [فَزِعاً] من الفزع ـ بالفاء والزاي ـ ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «قَرِعاً» بالقاف والرَّاء ، من القارعة ، وهي الهَمُّ العظيم[3] ، وقرأ بعض الصحابة رضي الله عنهم : [فِرْغاً] بالفاء

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة (إبراهيم) : ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ .

(٢) هو في المحتسَب ٢ـ١٤٧ : فَضَالة بن عبد الله ، وقال محقق المحتسَب : «هو فضالة الليثي ، وقيل : هو ابن عبد الله ، وقيل : ابن وهب ... ويعرف بالزهراني» ، وقد اعتمد في ذلك على الإصابة ٣ـ٢٠٢ . وفي تقريب التهذيب ذكر ابن حَجَر العسقلاني فَضَالة الليثي الزهراني هذا ، وذَكَر قبله فَضَالةَ بنُ عُبَيْد ـ هكذا بدون التَّاء ـ قال : «هو فَضَالة بن عُبَيْد بن نافذ بن قيس الأنصاري ، أول ما شهد أُحُد ، ثم نزل دمشق وولي قضاءها ، ومات سنة ثمان وخمسين ، وقيل قبلها . (تقريب التهذيب ٢ـ١٠٩) .

هذا وقراءة فَضَالة هذه هي أيضاً قراءة أبي هذَيْل ، ويزيد بن قُطَيْب السَّكُوني الشامي . ذكر ذلك ابن جني .

(٣) قيل : إنها ترجع إلى نفس معنى قراءة الجماعة (فارغاً) : لأن الرأس الخالي من الشَّعر يقال له : أقرع لفراغه من الشَّعر .

المكسورة والراء الساكنة والغين المنقوطة ، ومعناها : ذاهباً هدراً تالفاً من الهمِّ والحزن ، ومنه قول طلحة الأسديِّ :

فَإِنْ يَكُ قَتْلَى قَدْ أُصِيبَتْ نُفُوسُهُمْ فَلَنْ يَذْهَبُوا فِرْغاً بِقَتْلِ حِبَالِ (١)

أي : هدراً تالفاً لا ينفع . وقرأ الخليل بن أحمد : [فُرُغاً] بضم الفاء والـرَّاء .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي أَمْر ابنها ، ورُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (كادت أُمُّ موسى أن تقول : وا ابناه ، وتخرج صائحة على وجهها) (٢) . «والرَّبْط على القلب» تأْنيسُه وتقويته ، ومنه قولهم للشجاع والصابر في المضائق : رابط الجأْش ،

---

(١) هو طلحة بن خويلد الأسدي ، وقد كثر الاختلاف في رواية البيت ، فرواية ابن عطية تتفق مع رواية أبي حيان في البحر إلا في كلمة (فِرْغاً) — وهي موضع الشاهد ، فقد رواها أبو حيان (فِزْغاً) بالفاء المكسورة والزاي المنقوطة والغين المنقوطة ، والمعنى واحد ، ورواية اللسان (فَرَغَ) تتفق مع ما في المحتسَب ، وهي :

فَإِنْ تَكُ أَذْوادٌ أُصِبْنَ ونِسْوَةٌ فَلَنْ تَذْهَبُوا فِرْغاً بِقَتْلِ حِبَالِ

إلا أن اللسان قال : (أُخِذْنَ) بدلا من (أُصِبْنَ) . والأذْواد : جمع ذَوْد ، وهي من الإبل من الثلاثة إلى العشرة ، مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها ، وحِبَالُ بكسر الحاء هو أخوه ، وقيل ابنه . والمعنى على جميع الروايات أن الشاعر يتوعَّد الأعداء ، ويقول : إنهم لن يفلتوا من العقاب لقتلهم حبال .

(٢) أخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه من طرق ، أخرجوا جميعاً هذا الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما غير مرفوع . (راجع الدر المنثور) ، وليس في هذا الخبر قوله : (وتخرج صائحة على وجهها) .

قال قتادة : ربط على قلبها بالإيمان . وقوله تعالى : ﴿وَلِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدقين بوعد الله تبارك وتعالى ، وبما أوحي إِلَيْها بِهِ .

ثم قالت لأُخت موسى طمعاً منها وطَلَباً له : [قُصِّيهِ] ، والقَصُّ : طلب الأَثر ، فيُروى أَن أُخته خَرجت في سِكَكِ المدينة تبحث متخفية ، فرأته عند قوم من حاشية آل فرعون يطلبون له امرأة تُرضعه حين لم يقبل المراضع ، و ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ أي : ناحية من غير قصْد ولا قُرْب يشعرها به ، ويقال : «عن جنابة» و «عن جَنَاب» : ومنها قول الشاعر :

لَقَدْ ذَكَّرَتْنِي عَنْ جَنَــابٍ حمَامَةٌ بِعُسْفَانَ أَهْلِي والفُــؤَادُ حزينُ (١)

ومن الجنابة قول الأَعشي :

أَتَيْتُ حُرَيْثاً زائِراً عَنْ جَنَابَةٍ وكان حُرَيْثٌ عَنْ عَطَائِـيَ جَامِدَا (٢)

---

(١) البيت لأعرابي لم يُذكر اسمُه ، وهو واحد من ثلاثة أبيات ذكرها شهاب الدين الحموي في «معجم البلدان» ، وعُسْفان بضم العين منهلة من مناهل الطريق بين مكة والجحفة ، وقيل : هي على مرحلتين من مكة ، وسُمِّيت عُسْفان من : عسفت المفازة وهو يعسفها ، وهو قطعها بلا هداية أو قصد ، وكذلك كل أمر يُركب بغير روية ، وقد غزا النبي صلى الله عليه وسلم بني لحيان بعُسفان ، والأبيات الثلاثة هي :

لَقَدْ ذكَّرَتْنِي عَنْ حُبَابٍ حَمَامَةٌ بِعُسْفَانَ أَهْلِي فالفُؤَادُ حَــزِينُ

فَوَيْحَكِ كَمْ ذَكَّرْتِنِي اليَوْمَ أَرْضَنَا لعَلَّ حِمَامِي بالحِجَازِ يَكُــونُ

فَوَاللهِ لا أنْسَاكِ مَا هَبَّتِ الصَّبَــا ومَا اخْضَرَّ مِن عُودِ الأَرَاكِ فُنُونُ

هكذا رُويت (حُبَاب) بدلا من (جَنَاب) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .

(٢) البيت من قصيدة له يمدح هوذة بن علي الحنفي ، ويذم الحارث بن وعلة الرقاشي ، وحُرَيْث تصغير الحارث ، صغَّره تحقيراً له ، وجَنَابة : بُعْد ومن غير قصد ، وهو الشاهد ، وجامِد : لا يلين ولا يعطي ، وتروى : جاحداً ، والشاهد قوله : عَنْ جَنَابةٍ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى هذه الألفاظ : عن مكان جُنُب ، أو عن بُعْد ، ومعنى الآية : عن بُعْد ، لم تَدْنُ منه فيشعر بها ، وأنشد أبو عبيدة لعلقمة :

فَــلَا تَحْرِمَنِّي نائِلاً عَنْ جَنَابَةٍ فَإِنِّي امرؤٌ وسْطَ الْقِبَابِ غَرِيبُ (١)

وقرأ قتادة : ﴿عَنْ جَنْبٍ﴾ بفتح الجيم وسكون النون ، وهي قراءة الحسن ، والأعرج ، وقرأ ﴿عَنْ جَانِبٍ﴾ النعمانُ بن سالم ، وقرأ الجمهور : ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ بضم الجيم والنون . وقوله : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه : لا يشعرون أنها أُخته ، وهذا من جملة لطائف الله تبارك وتعالى له ولأُمه حسب الوعد الذي أُوحى إليها . ويقال : بصرتُ بالشيء وأَبْصرتُ بمعنى واحد متقارب ، قال المهدوي : وقيل : ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ معناه : عن شوق ، وهي لغة لِجذام ، يقولون : جنبت

(١) البيت من قصيدة علقمة الفحل التي قالها في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام بعد الواقعة المعروفة باسم « يوم حليمة » ، وقد أُسر فيها عدد من بني تميم ، وفيهم شاس أخو الشاعر ، فذهب علقمة إلى الحارث مادحاً طالباً إطلاق سراح أخيه ، وفعلا نجح في مسعاه ، وأطلق الملك سراح أخيه ومن معه من الأسرى .

والنّائل : العطاء ، ويريد به هنا إطلاق سراح أخيه ، والجنابة : البُعْد والغُربة ، يقول : لا تحرمني وتمنع عني العفو عن الذنب الذي جئتك راجياً مستشفعاً فيه ، فإنّني امرؤٌ غريب في هذه الديار .

إلى لقائك ، أي اشتقت إليه ، وقال قتادة : معنى ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ أنها تنظر إليه كأنها تريده .

قوله عزّ وجلّ :

﴿* وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تبارك وتعالى : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ يقتضي أن الله تعالى خَصَّه من الامتناع من ثدي النساء بما يشذُّ به عن عرف الأطفال ، وهو تحريم تبغيض ، و «المراضع» جمع مُرْضع ، واستعمل دون هاء التأنيث لأنه لا يلتبس بالرجال . وقوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من أول أمره ، و [قَبْلُ] مبني ، والضمير في [فَقَالَتْ] لأخت موسى ،

قال النقاش : اسمها مريم ، و [يَكْفُلُونَهُ] معناه : يُحسنون تربيته وإرضاعه . وعلم القوم أن مُكَلِّمتهم من بني إسرائيل ، وكان ذلك عرف بني إسرائيل ، أن يكونوا مراضع وخدمة . وقوله : ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ يحتمل أن الضمير يعود على الطفل ، فقالوا لها : إنك قد عرفتِهِ فأخبرينا من هو ؟ فقالت : ما أردت إلَّا أنهم ناصحون للملِك ، فتخلصت منهم بهذا التأْويل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يعود الضمير على الطفل ولكن يكون النصح له بسبب الملك وحرصاً على التَّزلُّف إليه والقُرب منه ، وفي الكلام هنا حذف يقتضيه الظاهر ، وهو أنها حملتهم إلى أُمِّ موسى وكلموها في ذلك ، فَدَرَّت عليه وَقَبِلَها ، وحظيت بذلك ، وأُحسن إليها وإلى أهل بيتها ، وقرَّت عينها ، أي سُرَّت بذلك ، وروي أن فرعون لعنه الله تعالى قال لها : ما سبب قبول هذا الطفل ؟ قالت له : «إنِّي طيبة الرائحة طيبة اللبن ، ودمع الفرح بارد ، وعين المهموم حرى سخنة» ، فمن هذا المعنى قيل : قَرَّت العين وسخنت(١) ، وقرأ يعقوب : [نُقِرَّ]

---

(١) ومن ذلك قول أبي تمام :

فَأَمَّا عيُونُ الْعَاشِقِينَ فَأُسْخِنَتْ وَأَمَّا عيُونُ الشَّامِتِينَ فَقَــرَّت

بنون مضمومة وكسر القاف . و «وَعْدُ اللهِ» تعالى المشار إليه هو الذي أَوحاه إليها أَوَّلاً ، إمَّا بِمَلَك أَو تمثُّله ، وإمَّا بإلهام حسب اختلاف المفسرين في ذلك ، والقول بالإلهام يضعف أَن يقال فيه : «وعْد» . وقوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يريد القبط . و «الأَشُدّ» جمع شدة ، من السِّنين ، فقالت فرقة : بلوغ الحُلُم ، وهي مدة خمسة عشر عاماً ، وقالت فرقة : ثمانية عشر عاماً ، وقال السدي : عشرون ، وقالت فرقة : خمسة وعشرون ، وقالت فرقة : ثلاثون ، وقال مجاهد وابن عباس : ثلاثة وثلاثون ، وقالت فرقة عظيمة : ستة وثلاثون ، وقال مجاهد وقتادة : الاستواءُ : أَربعون سنة ، وقال مكي : وقيل هو ستون سنة ، وهذا ضعيف، والأَشُدّ : شِدَّة الْبَدَن واستحكام أَسْره وقوته ، [وَٱسْتَوَى] معناه : تكامل عقله وحزمه ، وذلك ـ عند الجمهور ـ مع الأَربعين ، و «الحُكْمُ» : الحِكْمَة ، و «العِلْمُ» : المعرفةُ بشرع إبراهيم عليه السلام ، وهي مقدمات لنبوته عليه السلام .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ ـ فقال السدي : كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلُّق بفرعون ، وكان يركب مواكبه حتى أَنه كان يدعى موسى بن فرعون ، قالوا : فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن

مصر يقال لها منف ، ثم علم موسى عليه السلام بركوب فرعون فركب بعده ولحق بتلك المدينة في وقت القائلة ، وهو حين الغفلة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال أيضاً : هو بين العشاءِ والعَتَمة ، وقال ابن إسحق : بل المدينةُ مصرُ نفسها ، وكان موسى في هذا الوقت قد بَدَت منه مجاهدة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فكان مختفياً بنفسه مخوفاً منهم ، فدخل متنكراً مغتفلا للناس ، وقال ابن زيد : بل كان فرعون قد نابذه وأخرجه من المدينة وغاب عنها سنين ففشا أمره ، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره وبُعْد عَهْدهم به ، وقيل : كان يوم عيد . وقوله تعالى : [يقْتَتِلَانِ] في موضع الحال ، أي : مُقْتَتَلين . و «شِيعَتُه» : بنو إسرائيل ، و «عَدُوّه» : القبط . وذكر الأخفش سعيد بن مسعدة (١) أنها «فاسْتَعَانَه» بالعين غير معجمة (٢) ،

(١) هو المعروف بالأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ، البلخي ثم البصري ، أبو الحسن ، نحويٌّ ، عالم باللغة والأدب ، من أهل بلخ ، وسكن البصرة ، وأخذ العربية عن سيبويه ، وصنَّف كُتُباً منها : « تفسير معاني القرآن » ، و « شرح أبيات المعاني » ، وهما مخطوطان ، وزاد في العروض بحر الخبَب ، وكان الخليل قد جعل البحور خمسة عشر بحراً فأصبحت بذلك ستة عشر بحراً . (وفيات الأعيان — الفهرست لابن النديم — معجم الأدباء) .

(٢) هي قراءة سيبويه ، وابن مقسم ، والزعفراني ، وهي بالعين المهملة بدلا من الغين ، وبالنون بدلا من الثاء ، ومعناها : طلب منه أن يُعينه على خصمه ، قال أبو القاسم يوسف ابن جبارة : الاختيار قراءة ابن مقسم ؛ لأن الإعانة أولى في هذا الباب . (راجع البحر المحيط) .

وهي تصحيف لا قراءة[١]. وذكر الثعلبي أن «الذي من شيعته» هو السَّامِرِي ، وأن الآخر طباخ فرعون .

وقوله تعالى : [هَذَا] ، [وهذا] حكاية حال قد كانت حاضرة ، ولذلك عبَّر بـ [هَذَا] عن غائب ماض ، و«الوَكْزُ» : الضرب باليد مجموعاً كعقد ثلاث وسبعين . وقرأ ابن مسعود : [فَلَكَزَه] ، والمعنى واحد إلَّا أن «اللَّكز» في اللِّحى ، و «الوَكْز» على القلب ، وحكى الثعلبي أن في مصحف ابن مسعود : «فَنَكَزَه» ، والمعنى واحد . و ﴿قَضَى عَلَيْهِ﴾ معناه : قَتَلَه ، وكان موسى عليه الصلاة والسلام لم يُرد قتل القبطي لكن وافقت وكزتُه الأَجل وكان عنها موته ، فندم موسى عليه السلام ، ورأى أن ذلك من نزغ الشيطان في يده ، وأن الغضب الذي اقترنت به تلك الوكزة كان من الشيطان ومن هَمْزه ، وهو نصٌّ على ذلك ، وبهذا الوجه جعله من عمله[٢]، وكان فضل قوته عليه السلام بما أفرط في وقت غضبه بأكثر مما يقصد .

---

(١) قال أبو حيان الأندلسي : «وليست تَصْحيفاً ، فقد نقلها ابن خالويه عن سيبويه ، وابن جبارة عن ابن مقسم والزّعفراني» .

(٢) كأن ابن عطية يرُدُّ بهذا التحليل على قول من قال : إن الضمير في قوله تبارك وتعالى : [فَقَضَى] يرجع إلى الله ، والمعنى : فقضى اللهُ عليه ، وعلى قول من قال : إنه يعود على المصدر المفهوم من الكلام ، والمعنى : فقضى الوكْزُ عليه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُۥ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

ثـم إن ندامة موسى عليه السلام حملته على الخضوع لربه تعالى ، والاستغفار عن ذنبه ، فغفر له خطأه ذلك ، قال قتادة : عرف ـ والله ـ المخرج فاستغفر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولم يزل عليه السلام يُعيد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غُفِر له ، حتى أنه في القيامة يقول : (وقتلتُ نفساً ولم أُؤْمر بقتله) حسب ما صحَّ في حديث الشفاعة .

ثم قال عليه السلام معاهداً لربه عزَّ وجلَّ : «رَبِّ بنعمتك عليَّ وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم أَلَّا أكون مُعيناً للمجرمين» ، هذا أحسن ما تُؤُوِّل ، وقال الطبري : «إنه قَسَم ، أَقْسَم بنعمة الله تبارك وتعالى» ، ويضعفه صورة جواب القسم ؛ فإنه غير متمكن في قوله : ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ ؛ لأن القسم لا يتلقى بـ (لَنْ) ، والفاء تمنع

أن تُنَزَّل (لَنْ) منزلة (لا) أو (ما) فتأمَّله ، واحتج الطبري بأن في قراءة عبد الله : «﴿فَلا تَجْعَلني ظَهِيراً﴾» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واحتجَّ أهل الفضل والعلم بهذه الآية في [مَنْع] (١) خدمة أهل الجوْر ومعونتهم في شيءٍ من أمرهم ، ورأوا أنها تتناول ذلك ، نصَّ عليه عطاءُ بن أبي رباح .

وقوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفاً﴾ عبارة عن كونه دائم الخوف في كل أوقاته ، كما تقول : أصبح زيد عالماً . و [يَتَرَقَّبُ] معناه : عليه رقيب من فعله في القتل فهو يتحسَّس ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فَمَرَّ وهو بحالة الترقُّب وإذا ذلك الإسرائيلي الذي قاتل القبطي بالأمس يقاتل آخر من القبط ، وكان قتلُ القبطي قد

---

(١) هذه الكلمة سقطت من الأصل ، والمعنى بدونها قد يفهم بما يمكن أن يكون ضداً للمقصود ، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط ، فقد نقل القرطبي نصَّ كلام عطاء بن أبي رباح وهو : «لا يَحِلُّ لأحد أن يعين ظالماً ، ولا يكتب له ، ولا يصحبه ، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين» ، وفي الحديث : (ينادي مناد يوم القيامة : أين الظَّلَمة وأشباه الظَّلَمة وأعْوَان الظَّلَمة ، حتى من لاق لهم دواة ، أو بَرَى لهم قلماً ، فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم) . ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من مَشَى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة ، يوم تزل فيه الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظُلْمِه أزَلَّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَضُ فيه الأقدام) ، وفي الحديث : (من مَشَى مع ظالم فقد أجرم) .

خفي عن الناس واكتُتم ، فلما رأى موسى الإسرائيليُّ استصرخه الإسرائيليُّ ، بمعنى صاح به مستغيثاً ، ومنه قول الشاعر :

كُنَّا إذا مَا أَتَانَا صارِخٌ فَزِعٌ كانَ الصّراخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَابيب (١)

فلما رأى موسى عليه السلام قتاله لذلك الآخر أعظم ذلك ، وقال له معاتباً ومُؤَنِّباً : ﴿إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ، وكانت إرادة موسى — مع ذلك — أن ينصر الإسرائيلي ، فلما دنا منهما وجس الإسرائيلي وفزع منه ، وظنَّ أنه ربما ضربه ، وفزع من قوته التي رأى بالأمس ، وشهد أمر القتيل.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

---

(١) البيت لسَلامة بن جَنْدل ، والصَّارخ : المستغيث ، وفي المَثَل : « عَبْدٌ صريخُه أَمَةٌ » ، أي : ناصره أذلُّ منه ، والصُّراخ : الإغاثة والنجدة ، وفي التنزيل العزيز : ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ ، والظَّنابيب جمع ظنبوب ، وهو حرف العظم اليابس من السَّاق ، والبيت في (اللسان — ظَنَبَ) ، قال بعد أن ذكر البيت : « عَنَى بذلك =

قرأ جمهور الناس : [يَبْطِشَ] بكسر الطاء ، وقرأ الحسن ، وأبو جعفر : [يَبْطُشَ] بضم التاء ، وهما لغتان ، فقال الإسرائيلي لموسى معنى الآية بلسانه وفر منه فشهر أمر القتيل . والجبابرة شأنهم قتل الناس بغير حق ؛ فلذلك جعله الإسرائيلي كذلك ونفى عنه الإصلاح. قال الشعبي : من قتل رجلين فهو جبار ، قال الشعبي : ولما اشتهر أنَّ موسى قتل القتيل ، وكان قول الإسرائيلي يغلب على النفوس تصديقه على موسى مع ما كان لموسى عليه السلام من المقدمات أنه المشار إليه بفساد المملكة ، فأنفذ فرعون إليه من يطلبه من جنده ويأتي به للقتل ، فخرج على الطريق الأعظم ، وأخذ رجل – يقال : إنه مؤمن آل فرعون ، ويقال : إنه غيره – في بُنَيَّات الطريق[1] قصداً إلى موضع موسى فبلغه وقال له : ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ الآية .

و [يَسْعَى] معناه : يُسرع في مشيه ، قاله الزجاج وغيره ، وهو دون الجري ، وقال الزجاج : معناه : يعجل وليس بالشَّدِّ .

= سُرْعَة الإجابة، وجعل قَرْعَ السَّوْط على ساق الخُفِّ في زجر الفرس قرعاً للظنبوب » ، ثم قال : « قَرْع الظُّنْبوب أن يقرع الرجل ظنبوب راحلته بعصاه إذا أناخها ليركبها ركوب المُسْرع إلى الشيء » . هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت (الجزء الثامن ص ٢٢٨ هامش ١) .

(١) بُنَيَّات الطريق : تصغير بنات ، والمراد بها السكك أو الطرق الصغيرة تتشعب من الطرق الكبيرة ، وقد سلكها هذا الرجل ليصل بسرعة إلى موسى عليه السلام ، وليخفي أمره حتى لا يعرف أحد أنه يريد إبلاغ موسى بالخبر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه نزعة مالك رحمه الله في سَعي الجمعة ، والأول عندي أظهر في هذه الآية .

و [يَأْتَمِرُونَ] وزنه يفتَعِلُونَ ، ويَفْتَعِلُونَ يأتي كثيراً بمعنى يَتَفَاعَلُون ، ومنه ازْدَوج بمعنى تَزَاوج ، وذهب ابن قتيبة إلى أنه بمعنى : يأمر بعضُهم بعضا ، قال : لو كان ذلك لكان «يتآمرون» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذهب عنه أنَّ يَفْتَعل بمعنى يَتَفَاعَل ، وفي القرآن : ﴿وأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾(١) ، وقد قال النَّمِر بن تَوْلَب :

أَرَى النَّاسَ قَدْ أَحْدَثُوا شِيمَةً   وفي كُلِّ حَادِثَةٍ يُؤْتَمَرْ (٢)

---

(١) من الآية (٦) من سورة (الطلاق) .

(٢) استشهد أبو عبيدة بهذا البيت في «مجاز القرآن» ، والنَّمر بن تولب شاعر مخضرم ، شاهد تغيُّراً في القيم الاجتماعية ، ورأى أن الناس قد أحدثوا أموراً جديدة لم يرها من قبل ، فقد نزعوا إلى الجدل في أُمور العقائد كالقضاء والقدر ، وشئون السياسة والحكم كالخلافة ؛ وإلى ذلك كله يشير بقوله : (أحْدثوا شيمَةً) ، وهي الأخلاق التي لم تعرف من قبل في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي حياة الخلفاء الراشدين ، والائتمار هو التشاور والجدل وعرض الآراء المختلفة ، وكل هذه كانت شواهد على الفرقة والتشيع .

وأنشد الطبري :

ما تَأْتَمِرْ فِينَا فَأَمْـ ـرُكَ في يَمِينِكَ أَوْ شَمالِكْ [١]

ومنه قول ربيعة بن جشم :

أَحَارِ بْنَ كَعْبٍ كَأَنِّي خَمِرْ ويَعْدُو على ٱلْمَرْءِ ما يَأْتَمِرْ [٢]

فخرج موسى عليه السلام وأفلت من القوم فلم يجدوه ، وخرج بحكم فزعه إلى الطريق إلى مدين ، وهي مدينة قوم شعيب عليه السلام ، وكان موسى عليه السلام لا يعرف ذلك الطريق ، ولم يصحب أحداً ،

---

(١) البيت في الطبريّ غير منسوب ، يقول : « يا موسى إن أشراف قوم فرعون ورؤساءهم يتآمرون بقتلك ، ويتشاورون ويرتئون فيك ، ومنه قول الشاعر : (ما تأتمر فينا ... البيت) » ، فهو يراه من التآمر وهو التشاور وتبادل الرأي ، والمعنى على ما رآه وسار عليه ابن عطية : إن ما يتشاور فيه أهل الرأي فهو أمر نافذ لا يعترض عليه . وإن كان الطبريّ قد قال بعد أن ذكر البيت : « يعني : ما ترتئي وتهُمُّ به » ، وعلى هذا فهو من الرأي القائم على الاستبداد ، ولا تشاور فيه ، ويمكن أن يفهم المعنى على أن ما تتشاور معنا فيه نحترمه ، وأنت إنسان لك قدرك ووزنك ورأيك ينبع من نفسك فلا يفرضه عليك أحد .

(٢) البيت في (اللسان — أَمَرَ) ، وقد نقل عن أبي عبيدة أنه من قول النَّمر بن تولب — وأن لفظه : (أَحَارِ بن عَمْرو فُؤَادي خَمِرْ) — ثم ذكر أن غير أبي عبيدة ينسبه لامرئْ القيس ، وأن روايته : (أَحار بن عَمْرٍو كَأَنّي خَمِرْ) ، والبيت في ديوان امرئْ القيس ، وهو مطلع قصيدة له يصف فرسه وخروجه للصيد ، ومنها بيته المشهور :

وأَرْكَبُ في الرَّوْعِ خَيْفَانَةً كَسَا وجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِرْ

والخَمِرُ: الذي خالطه الداءُ أو السُّكر أو الحُبُّ ، ويَعْدو : يَعُود ويرجع متعدياً ، وما =

فركب مجهلتها واثقاً بالله تعالى ومتوكلاً عليه . قال السدي ومقاتل : فَرُوي أن الله تعالى بعث إليه جبريل عليه السلام ـ وقيل : مَلَكاً غيره ـ فسَدَّده إلى الطريق وأعطاه عصاً يقال هي كانت عصاه ، ورُوي أن عصاه إنما أخذها لرعية الغنم في مدين ، وهو أصحُّ وأكثر ، وبين مدين ومصر ثمانية أيام ، قاله ابن جُبَيْر والناس ، وكان مُلْك مدين لغير فرعون ، وحكى الطبري عن ابن جُرَيْج ، أو ابن أبي نُجَيْح ـ شَكَّ الطبريُّ(١) ـ أنه قال : إن الذي أراد أن يبطش هو الإسرائيليُّ ، فَنَهَاهُ موسى عن ذلك بعد أن قال له : ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ، ففزع الإسرائيليُّ عند ذلك من موسى عليه السلام وخاطبه بالفصيح ، وكان موسى من الندامة والتَّوبة في حين لا يُتَصور معه أن يريد البطش بهذا الفرعوني الآخر ، وروى ابن جريج أن اسم الرجل الساعي من أقصى المدينة شمعون ، وقال ابن إسحق : سمعان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتَّثَبُّت في هذا ونحوه بعيد .

= يَأْتَمِرْ : ما يُدَبِّر من سوءٍ ويتآمر به على غيره ليوقعه فيه ، قال أبو عبيدة : معناه : الرجل يعمل الشَّرَّ بغير رويَّة ولا تثبُّت ولا نظر في العاقبة فيندم عليه ، وقال الجوهري : ما تأمره به نفسُهُ فيرى أنه رَشَدٌ وربما كان هلاكه في ذلك ، والشاهد أن الائتمار بمعنى التآمر .

(١) قال الطبريُّ بعد ذلك : «وهو في الكتاب ابن أبي نُجَيْح» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا خرج عليه السلام فارًّا بنفسه منفرداً حافياً لا شيء معه رأى حاله وعدم معرفته بالطريق وخُلُوَّه من زادٍ وغيره فاستند إلى الله تبارك وتعالى وقال : ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ، وهذه الأقوال منه تقتضي أنه كان عارفاً بالله تعالى ، عالماً بالحكمة والعلم الذي آتاه الله تعالى ، و [تَوَجَّهَ] : ردَّ وجهه إليها ، و [تِلْقَاءَ] معناه : إلى ناحية ، أي إلى الجهة التي يلقى فيها الشيء المذكور ، و ﴿سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ معناه : وسطه ، وفي هذا الوقت بعث الله الملَك المُسَدِّد حسب ما ذكرناه قَبْلُ ، وقال مجاهد : أراد بـ ﴿سَوَاءَ ٱلسَّبِيل﴾ طريقَ مدين ، وقال الحسن : أراد سبيل الهدى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أبرع ، ونظيره قول الصِّديق رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : «هذا الذي يهدي السبيل» الحديث [١] ، فمشى عليه السلام حتى ورد مدين ، أيْ : بَلَغَهَا ، وَوُرُودُه الماءَ معناه : بلوغه ؛ لأنه دخل فيه ، ولفظة الوُرود قد تكون بمعنى الدخول في الشيء ، وقد تكون بمعنى الإطلال عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل فيه ، فوُرود موسى هذا الماءَ كان بالوصول إليه ، وهذه الوجوه في اللفظة تتناول قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [٢] . و [مَدْيَن] لا تُصْرف؛ إذ هي بلدة معروفة . و «الأُمَّةُ» : الجمع الكثير ، و [يَسْقُونَ] معناه : ماشِيَتَهُمْ ، و ﴿مِنْ دُونِهِمُ﴾ معناه : من ناحية إلى الجهة التي جاءَ منها ، فوصل إلى الامْرأتين قبل وصوله إلى الأُمة ، وهكذا هما من

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار ، وأحمد في مسنده (٣–١٢٢ ، ٢١١ ، ٢٨٧) ، ولفظه كما في المسند عن أنس قال : لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب وأبو بكر رديفه ، وكان أبو بكر يعرف الطريق لاختلافه إلى الشام ، وكان يمرُّ بالقوم فيقولون : من هذا بين يديك يا أبا بكر ؟ فيقول : هادٍ يهديني ، فلما دنَوا من المدينة بعث إلى القوم الذين أسلموا من الأنصار ، إلى أبي أمامة وأصحابه ، فخرجوا إليهما فقالوا : ادْخُلا آمنَيْن مُطاعَيْن ، فدخلا ، قال أنس : فما رأيت يوماً قَطُّ أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر المدينة : وشهدتُ وفاته فما رأيت يوماً قطُّ أظلم ولا أقبح من اليوم الذي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه .

(٢) من الآية (٧١) من سورة (مريم) .

دونهم بالإضافة إليه ، و [تَذُودَانِ] معناه : تَمْنَعان وتَحْبِسان ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (أَلَا لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي) الحديث (١) ، وشاهد الشعر في ذلك كثير ، وفي بعض المصاحف «امْرَأَتَيْنِ حابِسَتَيْنِ تَذُودان» ، واختُلف في الذَّوْد - فقال ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - وغيره : تذودان غنمهما عن الماء خوفاً من السُّقَاةِ الأَقوياء ، وقال قتادة : تذودان الناس عن غنمهما ، فلما رأى موسى عليه السلام المرأتين قال : ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ؟ أَي : ما أَمركما وشأْنكما ؟ وكأَن استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب أَو مضطهد أَو من يشفق عليه أَو يأْتي بمنكر من الأَمر ، فكأَنه بالجملة في شرٍّ ، فأَخبرتاه بخبرهما ، وأَن أَباهما شيخ كبير ، فالمعنى أَنه لا يستطيع لضعفه أَن يباشر أَمْر غنمهما ، وأَنهما لضعفهما وقلَّة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأَولياء ، وأَن عادتهما التأَنِّي حتى يُصدر الرعاءُ - أَي الناسُ - عن الماء ويخلو ، وحينئذ تَرِدان ، وقالت فرقة : كانت الآبار مكشوفة ،

---

(١) أخرجه مسلم ومالك في الطهارة ، وابن ماجه في الزهد ، ولفظه كما في مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتَى المقبرة ، فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، ودِدْتُ أنا قد رأينا إخواننا ، قالوا : أوَلسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال : أنتم أصحابي ، وإخْوانُنا الذين لم يأتوا بعد ، فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعْدُ من أمتك يا رسول الله ؟ فقال : أرَأَيْتَ لو أن رجلا له خيل غُرٌّ مُحَجَّلَة بين ظهري خيل دُهْمٍ بُهْمٍ ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فإنهم يأتون غُرّاً مُحَجَّلين من الوضوء ، وأنا فَرَطُهُم على الحوض ، ألا لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يُذادُ البعير الضال ، أناديهم ألا هلمّ ، فيقال : إنهم قد بدّلوا بعدك ، فأقول : سُحْقاً سُحْقاً .

وكان زَحْمُ(١) الناس يمنعهما ، فلما أن أراد موسى أن يسقي لهما زَحَم الناسَ وغلبهم على الماءِ حتّى سقى ، فعن هذا الغلب الذي كان منه وصَفَتْهُ إحداهما بالقوة . وقالت فرقة : بل كانت آبارهم على أفواهها حجارة كبار ، وكان ورد المرأتين يتبع ما في صهاريج الشرب من الفضلات التي تبقى للسقاة ، وأن موسى عليه السلام عمد إلى بئر كانت مُغطّاة والناس يسقون من غيرها ، وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة ، قاله ابن زيد . وقال ابن جريج : عشرة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ثلاثون ، وقال الزَّجّاج : أربعون ، فرفعه موسى عليه السلام وسقى للمرأتين ، فعن رفع الصخرة وصَفَته بالقوة ، وقيل : إن بئرهم كانت واحدة ، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة ، إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات .

وقرأ الجمهور : [نَسْقِـي] بفتح النون ، وقرأ طلحة : [نُسقي] بضمها ، وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر : ﴿حَتَّى يَصْدُرَ﴾ بفتح الياء وضم الدال ، وهي قراءة الحسن ، وأبي جعفر ، وقتادة ، وقرأ الباقون : [يُصْدِرَ] بضم الياءِ وكسر الدال على حذف المفعول ، تقديره : مواشيهم ، وحذف المفعول كثير في القرآن والكلام ، وهي قراءة الأعرج ، وطلحة ، والأعمش ، وابن أبي إسحق ، وعيسى . و [ٱلرِّعَاءُ] جمع راعٍ .

---

(١) زَحْمُ الناسِ : دَفْعُهُم ، يقال : زَحَمَه زحْماً وزحمةً : دفعه في مضيق .

وتولّى موسى عليه السلام إلى ظِلِّ سَمُرة ، قاله ابن مسعود ، وتعرض لسؤال ما يَطْعَمُه بقوله : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ، ولم يصرح بسؤال ، هكذا رَوَى سائر المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأْكله ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وكان قد بلغ به الجوع ، واخْضَرَّ لونه من أكل البقل ، وضعف حتّى لصق بطنه بظهره ورؤيت خضرة البقل في بطنه ، وإنه لأَكرم الخلق يومئذ على الله عزَّ وجلَّ ، ويُروى أنه لم يصل إلى مدين حتّى سقط باطن قدمه ، وفي هذا معتبر وحاكم بِهَوَان الدُّنيا على الله تبارك وتعالى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

في هذا الموضع اختصارٌ يدل عليه الظاهر ، قدَّره ابن إسحق : فذهبَتا إلى أبيهما سريعتين ، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي ،

فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما ، فأمر الكبرى من بنتيه — وقيل الصغرى — أن تدعوه له ، فجاءت على ما في هذه الآية ، وروي أن اسم إحداهما (ليا) والأُخرى (شرفا) ، وروي أن اسم زوجة نبي الله موسى عليه السلام (صفورة) ، وقيل : اسمها (صوريا) ، وقال وهب بن منبه : زوَّجه الكبرى ، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه زوَّجه الصغرى ، ذكره الثعلبي ومكي من طريق أبي ذر رضي الله عنه [1]، وقال النقاش : كانتا توأمين وَوُلدت الأُولى قبل الأُخرى بنصف نهار .

وقوله : [تَمْشِـي] حال من [إِحدَاهُمَا] ، وقوله : ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَاءٍ﴾ أَيْ خَفِرة قد سترت وجهها بكم درعها ، قاله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وقال عمرو بن ميمون : لم تكن سَلْفَعاً [2] من النساء خرَّاجَةً ولَّاجَةً .

واختلف الناسُ في الرجل الداعي لموسى ، من هو ؟ — فقال الجمهور : هو شعيب عليهما السلام ، وهما ابنتاه ، وقال الحسن : هو ابن أخي

---

(١) نصُّ الحديث كما ذكره في القرطبي : عن أبي ذرٍّ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن سُئِلْت أي الأجلين قضى موسى فقل : خيرهما وأوفاهما ، وإن سُئِلْت أي المرأتين تزوج فقل : الصغرى ، وهي التي جاءت خلفه ، وهي التي قالت : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ .

(٢) أي : لم تكن جريئة على الرجال .

شعيب واسمه ثروان ، وقال ابن أبي عبيدة : يثرون ، وقيل : هو رجل صالح ليس من شعيب بنسب ، وقيل : إن المرأتين إنما كان مرسلهما عمهما ، وهو كان صاحب الغنم ، وهو المزَوِّج ، لكن عبّر عن العم بالأب في جميع الأمر إذ هو بمثابته ، وروي أن موسى عليه السلام لمّا جاءته بالرسالة أجاب ، فقام يتبعها إلى أبيها ، فهبت ريح ضمّت قميصها إلى بدنها فوصفت عجيزتها ، فتحرّج موسى عليه السلام من النظر إليها ، فقال لها : ارجعي خلفي وأرشديني الطريق ، ففهمت عنه ذلك فوصفته بالأمانة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما .

فوصل موسى عليه السلام إلى داعيه ، فقصّ عليه أمْره من أوله إلى آخره ، فآنسه بقوله : ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ ، وكانت مَدْيَن خارجة عن مملكة فرعون ، فلما فرغ كلامهما قالت الابنة التي ذهبت عنه : ﴿يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ﴾ الآية ، فلما وصفته بالقوة والأمانة قال لها أبوها : ومن أين عرفت هذا منه ؟ فقالت : أما قُوّته ففي رفع الصخرة ، وأما أمانته ففي تحرُّجه عَنِ النَّظر إِلَيَّ وقت هبوب الرياح ، قاله ابن عباس ، وقاله ابن زيد وغيرهم .

قال له الأب عند ذلك : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ﴾ الآية ، قال ابن عباس : فزوَّجه التي دعته ، و «تَأْجُر» معناه : تثيب ، وقال

مكي : في هذه الآية خصائص في النكاح ، منها أنه لم يُعَيِّن الزوجة ، ولا حدَّ أول الأمد ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم يَنْقُدْ شيئاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أمَّا التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المراوضة ، وإنما عرض الأمر مجملا ، وعيَّن بعد ذلك ، وأمَّا ذِكْرُ أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه ، بل هو مسكوت عنه ؛ فإما رسماه وإلَّا فهو من وقت العقد ، وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمر قد قرَّره شرعنا ، وجرى به في حديث الذي لم يكن عنده إلَّا شيءٌ من القرآن[1]، وذهب بعض العلماء إلى أن ذلك خاصٌّ ، وبعضهم إلى أنه منسوخ ، ولم يجوِّز مالك رحمه الله النكاح بالإجارة ، وجوَّزها ابن حبيب وغيره ، إذا كانت الأُجرة تصل إلى الزوجة .[2]

---

(١) في هذا الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي رغب في تزوج هذه المرأة : (ما تحفظ من القرآن) ؟ فقال : سورة البقرة والتي تليها ، قال : (فَعَلِّمْها عشرين آية وهي امرأتُك) ، والعلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : المنع ، وهو قول ابن القاسم ، والكراهة ، وهو قول مالك ، والجواز ، وهو قول ابن حبيب والشافعي وأصحابه ، وأما أبو حنيفة فقال : لا يصح ؛ ولكنه جوَّز أن يتزوجها بأن يُخدمَها عَبْدَه سنة ، أو يُسْكنها داره سنة ؛ لأن العبد والدار مالٌ ، أما خدمتها بنفسه فليست مالا ، والله أعلم بالصواب .

(٢) نقل الطبري كلام ابن عطية هنا في الردَّ الذي أجاب به عن تساؤلات مكي دون أن ينسبه إليه ، واكتفى بأن قال : قال علماؤنا — ولكن ابن عطية لم يوضح الحديث عن النقطة الرابعة ، وهي أن موسى دخل ولم يَنْقُد شيئاً من المهر ، وخلاصة ما ذكره القرطبي أن بعض العلماء يقولون : إنه دخل بزوجته حين سافر ، ولم يدخل بها حين عَقَد العَقْد ، وعلى القول بأنه دخل بها حين تم العقد فقد نقد الشروع في الخدمة وهي رعي الغنم .

قيل : ومن لفظ شعيب عليه السلام حَسُن في لفظ العقود في النكاح : «أنْكَحَه إيَّاها» أكثر من «أنْكَحَها إيَّاهُ» ، وهذا مُعْترض . وجعل شعيب عليه السلام الثمانية الأعوام شرطاً ووكل العامين إلى المروءة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ * فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

لمَّا فرغ كلام شعيب كرَّره موسى عليهما السلام ، وكرَّره على جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثماني حجج . و [أيَّمَا] استفهام

نصب بـ [قَضَيْتُ] ، و [مَا] صلة للتأْكيد . وقرأ الجمهور : ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ بضم العين ، وقرأ أبو حيوة : ﴿فَلَا عِدْوَانَ﴾ بكسر العين ، والمعنى : لا تَبِعة عليَّ من قولٍ ولا فعلٍ ، و «الوَكيلُ» : الشاهد القائم بالأُمور . قال ابن زيد : ولمَّا كمل هذا النكاح بينهما أمر شعيب موسى عليهما السلام أن يسير إلى بيت له فيه عِصِيٌّ ، وفيه هذه العَصَا ، فرُوي أن العَصَا وثبت إلى موسى فأَخذها ، وكانت عَصَا آدم عليه السلام ، وكانت من غير ورقة الريحان ، فروي أن شعيباً أمره بردِّها ففعل وذهب يأْخذ غيرها فوثبت إليه ، وفعل ذلك ثالثة ، فلما رأى شعيب ذلك علم أنه مرشح للنبوة فتركها له ، وقيل : إنما تركها لأَنه أمر موسى بتركها فأَبَى موسى عليه السلام ذلك ، فقال له شعيب : نمدُّ إليها جميعاً فمن طاوعت له فهي له ، فمدَّ إليها شعيب فثقلت ، ومدَّ موسى فخفَّت ووثبت إليه ، فعلما أن هذا من الترشيح ، وقال عكرمة : إن عصا موسى إنما رفعها إليه جبريل عليه السلام ليلاً عند توجُّهه إلى مدين .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾، قال سعيد ابن جبير : سأَلني رجل من النصارى : أي الأَجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أَقدم على خير العرب ، أَعني ابن عباس ـــ رضي

الله عنهما ـ ، فقدمتُ عليه فسألته ، فقال : قضى أكملهما وأوفاهما ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال وفَّى ، فعدت فأعلمتُ النصراني ، فقال : صدق والله هذا العالِمُ ، وروي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل في ذلك جبريل عليه السلام ، فأخبره أنه قضى عشر سنين ، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشراً وعشراً بعدها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وفي قصص هذه الآية أن موسى عليه السلام لما قضى الأَجل أراد أن يسير بأهله إلى مصر وقومه ، وقد كان لا محالة أَحَسَّ بالترشيح للنبوة ، وكان رجلاً غيوراً لا يصحب الرِّفاق ، فكان في بعض طريقه ليلة مظلمة ، قال النقاش : كانت ليلة جمعة ، ففقدوا النار ، وأَصْلَدَ الزِّناد[١] ، وضلُّوا الطريق ، واشتد عليهم الخَصَر[٢] ، فبينما هو كذلك إذ رأى ناراً ، وكان ذلك نوراً من نور الله تعالى قد التبس بشجرة ، قال وهب : كانت علّيقاً ، وقال قتادة : كانت عَوْسَجاً ،

---

(١) أصْلد الزِّنادُ : صوَّتَ ولَمْ يُورِ .
(٢) الخَصَر : شدة البَرْد ، أو ألم البَرْد في الأطراف .

وقيل : زعروراً ، وقيل : سمُرة ، قاله ابن مسعود . و [آنَسَ] معناه : أحسَّ ، والإحساس ها هنا بالبصر ، ومن هذه اللفظة قوله تعالى : ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً﴾[1]، ومنها قول حسَّان :

انْظُرْ خَلِيلِي ببابِ جِلَّق هَـــلْ تُؤْنِسُ دونَ البَلْقَاءِ مِنْ أَحَدِ[2]

وكان هذا الأَمر كله في جانب الطور ، وهو جبل معروف بالشام ، والطُّور : كلُّ جبل ، وخصَّصه قوم بـأَنه الذي لا ينبت ، فلما رأى موسى النار سُرَّ ، فقال لأَهله : أَقيموا فقد رأَيت ناراً ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق ، أَين هو ، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أَيْ : قطعة من النار في قطعة عُودٍ كبيرة لا لهب لَهَا ، إنما هي جمرة ، ومن ذلك قول الشاعر :

باتَتْ حواطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا جَزْلَ الجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ وَلَا دَعِرِ[3]

---

(١) من الآية (٦) من سورة (النساء) .

(٢) جلَّق : دمشق ، وهي بفتح اللام المشددة أو بكسرها ، والبلقاء : من أعمال دمشق ، والبيت في اللسان ، وفي الديوان ، وفي تاريخ ابن عساكر ، ويروى : ببَطْن جِلَّق ، ويروى : انْظُر نهاراً ، وهي رواية ابن عساكر ، وفي تاريخ ابن عساكر من رواية ابن دريد : انظر حبيبي ، والشاهد فيه أن (تؤنس) بمعنى : تَرَى ، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في تفسير سورة النمل عند قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ (ص ١٦٩ هامش ٢) .

(٣) البيت لتميم بن مقبل ، وهو في « اللسان ــ جذا » ، وفي « مجاز القرآن » لأبي عبيدة ، وفي « الطبري » و « التاج » ، و « مجمع البيان » ، و « القرطبي » ، والحواطب : جمع حاطبة ،=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأحسب أن أصل الجذوة أصول الشجر ، وأهل البوادي يوقدونها أبداً ، فهي الجذوة في الحقيقة ، ومنه قول السُّلَمي يصف الصَّلَى :(١)

حما حُبُّ هذا النَّار حُب خَليلي وحُبُّ الْغَوَاني فَهو دُونَ الحَبائِبِ

وبُدِّلْتُ بعد المِسْكِ والْبَان شِقْوَةً دُخانَ الْجِذَا في رأسِ أَشْمَطَ شاحِبِ(٢)

وقرأ الجمهور : [جِذْوَةٍ] بكسر الجيم ، وقرأ حمزة ، والأعمش : [جُذْوَةٍ] بضمها ، وقرأ عاصم : [جَذْوَةٍ] بفتحها ، وهي لغات ، والصَّلَى : حرُّ النار ، و [تَصْطَلُونَ] تَفْتَعِلُونَ ، أُبدلت التَّاءُ طاءً .

= وهي الأمَة تجمع الحطب، والجَزْلُ : ما عَظُم من الحطب ويبس ، وفي الحديث : (اجمعوا له حطباً جزلا) ، والجذا : أصول الشجرة ، قال الأصمعي : جِذْمُ كلِّ شيءٍ وجِذْيُه : أصلُه ، والجِذاءُ : أُصول الشجرة العظام التي بلي أعلاها وبقي أسفلها ، والخَوَّارُ : الضعيف الذي يسهل كسره ، والدَّعِرُ : العود الذي يكثر دخانُه ولا تتَّقد ناره ، وقيل : الدَّعِرُ من الحطب : البالي .

(١) الصَّلَى : النَّار ، والوقود .

(٢) السُّلَمِي هو أشجع بن عمرو السُّلَمي ، أبو الوليد ، له ترجمة في الأغاني ، والشعر والشعراء ، والخزانة ، والتبريزي على الحماسة ، وتهذيب ابن عساكر ، والشاهد في البيت الثاني حيث استعمل الجذا في الجمرة التي تكون في طرف أُصول الشجرة ، والمِسْكُ : ضربٌ من الطيب يتخذ من دم الغزلان ، والبَانُ : شجر يسمو ويطول في استواءٍ مثل نبات الأَثْل ، وله ثمرة تشبه قرون اللُّوبياء إلا أن خضرتها شديدة ، ولها حَبٌّ يُسْتَخْرج منه دهن البان ، والأشْمَط : الذي اختلط فيه البياض بالسواد ، ولعله يريد الجبل الذي اختلط فيه لون الصخور البيضاء بالصخور السوداء ، والشاعر يندب سوءَ حظه ، فقد أصبح يستخدم جذوة النار التي ينبعث دخانها في هذا المكان القفر بعد أن كان يمزج خشب البان بأنواع الطيب .

فلما أتى موسى ذلك الضوء الذي رآه وهو في تلك الليلة ابن أربعين سنة نُبِّئَ صلى الله عليه وسلم ، فرُوي أنه كان يمشي إلى ذلك النور فكان يبعد منه ، تمشي به الشجرة وهي غَضَّةٌ خضراءُ حتّى نودي ، والشَّاطئُ والشَّطُّ : ضفة الوادي ، وقوله : [ٱلْأَيْمَن] يحتمل أن يكون من اليُمْن صفةً للوادي أو الشاطئ ، ويحتمل أن يكون معادلاً[1] لليسار ، فذلك لا يوصف به الشاطئ إلَّا بالإضافة إلى موسى في استقباله مهبط الوادي ، أو بعكس ذلك ، وكل ذلك قد قيل ، وبَرَكَةُ البُقْعة هي ما خُصَّتْ به من آيات الله تعالى وأنواره وتكليمه لموسى عليه السلام ، والناسُ على ضمِّ الباء من «بُقْعَة» ، وقرأ بفتحها الأشهب العقيلي[2] ، قال أبو زيد : سمعت من العرب : «هذه بَقعة طيبة» بفتح الباء ، وقوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يقتضي أن موسى عليه السلام سمع ما سمع من جهة الشجرة ، وسمع وأدرك غير مكيف ولا محدود[3] . وقوله تعالى : ﴿أَنْ يا مُوسَى﴾ يحتمل أن تكون [أَنْ] مفسِّرة ، ويحتمل أن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجرِّ . وقرأت فرقة : ﴿أَنِّي أَنَا ٱللَّهُ﴾ بفتح الهمزة من [إنِّي] .

---

(١) في الأصول : «ويحتمل أن يكون معادلٌ لليسار» .
(٢) في الأصول : «أبو الأشهب» ، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط وكتب القراءات .
(٣) قال الأستاذ أبو إسحق : «اتَّفق أهلُ الحق على أن الله تعالى خلق في موسى عليه السلام معنًى من المعاني أدرك به كلامه كان اختصاصُه في سماعه ، وأنه قادر على مثله في جميع خلقه» .

ثم أمره تعالى بإلقاءِ العصا فألقاها فانقلبت حيَّةً عظيمة ، ولها اضطراب الجانِّ ، وهي صغير الحيَّات ، فجمعت هول الثعبان ونشاط الجانِّ . وقالت فرقة : بل الجانُّ يعُمُّ الصغير والكبير ، وإنما شبه بالجان جملة العصا لاضطرابها فقط ، وولَّى موسى عليه السلام مدبراً فزِعاً منها ، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ معناه : لم يرجع على عقبه من تولِّيه ، فقال الله تبارك وتعالى له : ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ ، وهذا من تأْمين الله تعالى إيَّاه ، ثمَّ أَمره بأَن يدخل يده في جيبه ، وهو فتح الجبَّة من حيث يخرج رأس الإنسان ، ورُوي أن كُم الجبة من حيث يخرج رأسُ الإنسان ، ورُوي أن كمَّ الجبَّة كان في غاية الضِّيق فلم يكن له جيب يدخل يده فيه إلَّا في جيبه . و [ٱسْلُكْ] معناه : أَدْخِل ، ومنه قول الشاعر :

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوى منْهُنَّ في مَسَك مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الْآفاقِ مِهْدَاجِ[1]

---

(١) البيت لأبي وجْزَةَ السَّعْدِيِّ ، وهو في (اللسان — مَسَك ، وهَدَج) ، مع بيت قبله ، قالهما أبو وجزة في وصف حُمُر الوحش :

مَا زِلْنَ يَنْسُبْنَ وهْناً كُلَّ صَادِقَةٍ بَاتَتْ تُبَاشِرُ عُرْماً غَيْرَ أَزْوَاجِ
حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوى منْهُنَّ في مَسَك مِن نَسْل جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْدَاجِ

يصف الحُمُر حين أتت الماء لَيْلا فأثارَتْ القَطَا ، فصاحت : قَطَا قَطَا ، جعلها صادقةً لأنها خبرت باسمها ، كما يقال : أصدق من القَطَا ، وقوله : تباشِرُ عُرْماً ، عَنَى بِهِ بَيْضَهَا ، والأعْرَم : الذي فيه نُقَط بياض ونُقَط سواد ، وكذلك بيض القَطا ، وقوله : غير أزواج : يريد أنَّ بيض القَطَا يكون أفراداً ولا يكون أزواجاً ، والشَّوَى : قوائم الحُمُر الوحشية ، والمَسَك هنا: الماءُ الذي سارت فيه الأُتُنُ ووضعت قوائمها فيه فصار حولها كالمَسَك =

وقوله تعالى : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أيْ : مِن غير مرض ولا مثله ، ورُوي أن يده كانت تُضِيءُ كأنها قطعة شمس .

وقوله تعالى : ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ ، ذهب مجاهد ، وابن زيد إلى أن ذلك على المجاز والاستعارة ، وأنه أمره بالعزم على ما أُمِرَ به ، وأنه كما تقول العرب : «اشدد حيازيمك ، واربط جأْشك» ، أي : شمِّر في أمرك ، ودع الرهب ، وذلك لمَّا كثُر تخوفه وفزعه في غير ما موطن ، قاله أبو علي . وقوله تعالى : ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ﴾ قال مجاهد ، والسدي : هي إشارة إلى العصا واليد .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والناس : [ٱلرَّهَب] بفتح الراء والهاء ، وقرأ عاصم ، وقتادة : [ٱلرَّهْب] بسكون الهاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، وعاصم أيضاً: [ٱلرُّهُب] بضم الراء والهاء . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [فَذَانِّكَ] بشد النون ، وقرأ الباقون : [فَذَانِكَ] بالتخفيف بالنون ، وقرأ شبل عن ابن كثير : : [فَذَانِيكَ] بياءٍ بعد النون المخففة ، أبدل إحدى النونين ياءً كراهة التضعيف ، وقرأ ابن مسعود : [فَذَانِّيكَ] بالياء أيضاً مع شد النون ،

= وهو السِّوار ، قال صاحب اللسان: استعاره أبو وجزة فجعل ما تُدخل فيه الأتُنُ قوائمها من الماء مَسَكاً ، وقوله : جوابة الآفاق : يريد الرِّيح ، ويقول : إن الماء من نَسْلها؛ لأن الرِّيح تستدرُّ السحابَ وتُلْقِحه فيمطر ، فالماء من نَسْلها ، والمهداج : التي لها صوت وحنين ، فهي ريح سريعة الحركة في الآفاق ، وهي ريح لها صوت وحنين ، والشاهد هنا أن (سَلَكْنَ) في البيت بمعنى : أَدْخَلْنَ ، يعني أن الأتُن أدْخَلْن قوائمهن في الماء الذي صار حولها كالسِّوار .

وهي لغة هذيل ، وحكي المهدوي أن لغتهم تخفيف النون ، و [بُرْهَانَانِ] : حُجَّتان ومُعْجِزَتَانِ. وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

كان موسى عليه السلام قد امتُحن بمخاوف فطلب شدَّ العضد بأخيه هارون ؛ لأنه كان فصيح اللسان سمح الخُلُق ، وقرأ الجمهور : [رِدْءًا] بالهمز ، وقرأ نافع وحده : [رِدًا] بتنوين النون دون همز ،

وهي قراءة أبي جعفر ، وذلك على التخفيف من «رِدْءٍ» ، والرِّدْءُ : الوزير المعين والذي يستند إليه في الأمر ، وذهبت فرقة إلى أنها من معنى الزِّيادة ، كما قال الشاعر :

وأَسْمَـــرَ خَطِّيًّا كَأَنَّ كُعُوبَهُ نَوَى القَسْبِ قَدْ أَرْدَى ذِرَاعاً عَلَى العَشْرِ (١)

وهذا على ترك الهمز ، وأن يكون وزنه فِعْلًا .

وقرأ جمهور القراء : [يُصَدِّقْنِي] بالجزم ، وذلك على جواب [أَرْسِلْهُ] ، وقرأ عاصمٌ وحده : [يُصَدِّقُنِي] ، أي : مصدقاً ، فهو صفة للرِّدْءِ ، أو حالٌ .

و «شَدُّ العَضُد» استعارةٌ في المعونة والإنهاض ، وقرأ الحسن بضم العين من [عَضُدَكَ] ، وقرأ عيسى بن عمر بفتح العين والضاد . و «السُّلْطَانُ» : الحُجَّةُ . وقوله : [بِآيَاتِنَا] يحتمل أن تتعلق الباءُ بقوله :

---

(١) البيت في اللسان (قَسَب) ، وفي القرطبي ، وذكر صاحب اللسان أنَّ ابن بِرِّي قال : هذا البيت يذكر أنه لحاتم الطائي ، ثم قال تعقيباً على ذلك : ولم أجده في شعره . ورواية اللسان : «أَرْمَى» بدلا من «أَرْدَى» ، وعلى هذا فلا شاهد فيه ، وفي القرطبي : «ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم : أَرْدَى على المائة ، أي : زاد عليها ، وكأن المعنى : أَرْسِلْهُ معي زيادةً في تصديقي ، قاله مسلم بن جندب ، وأنشد قول الشاعر : وأَسْمَرَ خطِّيّاً ... البيت ، كذا أنشده الماوردي ، وأنشده الغزنوي والجوهري في الصحاح : أرمى» . والبيت في وصف الرمح ، والخَطِّيُّ : الرُّمح المنسوب إلى الخَطِّ ، وهو موضع باليمامة ، وهو خَطٌّ هجر تُنْسَب إليه الرِّماح الخطية ، لأنها تُحمل من بلاد الهند فتُقَوَّمُ به . ونَوَى القَسْبْ : أصْلب النَّوى ، والقسب : الصُّلْب الشديد ، والقَسْب : تمر يابسٌ يتَفَتَّتُ في الفم صلب النواة ، وعلى رواية «أرمى» فإنها لغة في «أَرْبَى» أي : زاد أيضاً .

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا﴾ ، أو بـ [يَصِلُونَ] وتكون باء السَّبَب ، ويحتمل أن تتعلَّق بقوله : [ٱلْغَالِبُونَ] ، أي : تَغْلبون بـآياتنا (١)، و «الآياتُ» ها هنا معجزاته عليه السلام .

ولمَّا كذبوه ورموه بالسِّحر قارب موسى عليه السلام في احتجاجه ، وراعه تكذيبهم ، فردَّ الأَمر إلى الله ، وعوَّل على ما يظهره الله تعالى في شأْنهم ، وتوعدهم بنقمة من الله تعالى منهم . وقرأَ ابن كثير : ﴿قَالَ مُوسَى﴾ بغير واو ، وقرأَ غيرُه وجميع السبعة : ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ بواو ، وقرأَ الجمهور : ﴿تَكُونُ لَهُ﴾ بالتَّاء ، وقرأَ حمزة والكسائي : [يَكُونُ] بالياءِ على التذكير ، إذ هي بمنزلة العاقب .

واستمر فرعون على طريق مَخْرَقَته على قومه ، وأَمر هامان أَن يطبخ له الآجُرَّ ، وأَن يبني له صرحاً ، أَي سَطْحاً في أَعلى الهواءِ ، وليس الصَّرْح إلَّا ما له سطْحٌ ، ويحتمل أَن يكون الإيقاد على الطِّين كَالْبَراني (٢)، وتَرَجَّي بزعمه أَنه يطلع في السماءِ ، فروي عن السدي أَنه بناه أَعلى ما يمكن ، ثم صعد فيه ، ورمى بالنبل فردَّها الله تعالى

---

(١) قال ذلك الأخفش والطبري ، وقال المهدوي : «وفي هذا تقديم الصلة على الموصول» إلا أن يقدر : أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

(٢) البَرَانِيُّ : جمع بَرْنِيَّة ، وهي إناءٌ واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين . (المعجم الوسيط) .

إليه مخضوبة بالدَّم ليزيدهم عمًى وفتنة ، فقال فرعون حينئذ : إنِّي قتلت إلٰه موسى ، ثم قال : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ يريد في أن موسى راسله ، فالظن على بابه ، وهو في معنى إيجاب الكفر له بمنزلة المصمم على التكذيب .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، ونافع : ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ ، وقرأ الباقون والحسن : ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياءِ وفتح الجيم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

[نَبَذْنَاهُمْ] معناه : طرحناهم ، ومنه نبذ النواة ، ومنه قول الشاعر :

نَظَرْتُ إِلَى عُنْوانِهِ فَنَبَذْتُهُ كَنَبْذِكَ نَعْلًا مِنْ نِعَالِكَ بَالِياً (١)

(١) هذا البيت لأبي الأسود الدؤلي ، وهو في الطبري ، والبحر المحيط ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة . والنَّبْذُ : طرحك الشيء من يدك أمامك أو خلفك ، ويقال : نبذتُ الشيء إذا رميتَه وأبعدته ، والنَّعل: الحذاء ، والبالي : القديم المتقطع الذي فقد صلاحيته للاستعمال . =

وقوم فرعون وإن كانوا ساروا إلى البحر ودخلوه باختيارهم فإنَّ ما ضمَّهم من القدر السابق [وإغراقهم في البحر][(١)] هو نبذ الله تعالى إيَّاهم فيه . و «اليَمّ» هو بحر القُلْزم في قول أكثر الناس ، وقالت فرقة : كان غرقهم في نيل مصر . والأول أشهر .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وهم أئمة من حيث اشتهـروا وبقوا قدوة لكل كافر وعاتٍ إلى يوم القيـامة . و [ٱلْمَقْبُوحِينَ] : الذين يَقْبُح كلُّ أمرهم ، قولًا لهم وفِعْلًا ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الذين قبحوا بسواد الوجوه وزرقة العيون . و [يَوْمَ] ظرفٌ مقدم . وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَى﴾ إخبارٌ عن أنه أنزل التوراة على موسى بعد إهلاك فرعون وقومه ، وبعد هذه الأُمم التي تقدم ذكرها من عاد وثمود وقرية قوم لوط وغيرها ، والقصد بهذا الإخبار التمثيل لقريش بما تقدم في غيرها من الأُمم ، وقالت فرقة : الآية متضمنة أن إنزال التوراة على موسى هو بعد أن رفع الله تعالى عذاب الأُمم ؛ فلم يعذب أُمة

= ومن الواضح أن النَّبْذ تعبير يدل على الاستهانة بالشيء المنبوذ، أو احتقاره ، ويؤيد هذا في الآية قوله تعالى بعد ذلك : ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ، وفي البيت التشبيه بنبذ النعل البالي .

(١) ما بين العلامتين [...] زيادة عن البحر الذي نقل عبارة ابن عطية كاملة دون أن يشير إليه .

بعد نزول التوراة إلَّا القرية التي مسخت قردة فيما رُوي ، وقوله : [بَصَائِرَ] نصب على الحال ، أي : طرائق هادية ، وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي : على ترج ، وما تعطيه من تأميل ، ورُوي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : «ما أهلَك الله تعالى أُمة بعذاب بعد أن أنزل التوراة إلى الأرض غير القرية التي مُسخت قردة»(١) أي : الذين تعدوا في السبت ، وهذا التعذيب من سبب شرع موسى ؛ فكأنه لا يُنقص فضيلة التوراة برفع العذاب عن الأرض.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)﴾

(١) أخرجه البزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن أبي سعيد موقوفاً ، وأخرج البزار ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه — عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه — من وجه آخر — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أُمَّةً ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مُسخت قردة ، ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ . (الدر المنثور) .

المعنى : لم تحضر يا محمد هذه الغيوب التي نخبر بها ، ولكنها صارت إليك بوحينا ، أي : فكان الواجب أَنْ يُسارع إلى الإيمان بك ، ولكن تطاول الأَمر على القرون التي أَنشأْناها زمناً زمناً ، فعزبت حلومهم ، واستحكمت جهالتهم وضلالتهم .

و [قَضَيْنَا] معناه : أَنفذنا وصرفنا ، و [ٱلْأَمْر] يعني التوراة . وقالت فرقة : يعني به ما أَعلمه الله تبارك وتعالى من أَمر محمد صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا تأْويل حسن يلْتئم معه ما بعده من قوله : ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً﴾ .

و «الثَّاوِي» : المقيم . وقوله : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ يريد : وقْتَ إنزال التوراة إلى موسى ، وقوله تعالى : ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ ، رُوي عن أَبي هريرة رضي الله عنه أَنه نودي يومئذ من السماء : يا أُمَّة محمد ، استجبت لكم قبل أَن تدعوني ، وغفرت لكم قبل أَن تسأَلوني»[1] ،

---

(١) أخرجه الفريابي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل — عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى :

فحينئذ يسأل موسى عليه السلام أن يكون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى : إذْ نادينا بـأمرك ، وأخبرناك بنبوتك . وقوله : [رَحْمَةً] نصب على المصدر ، أو على المفعول من أجله ، وقوله : [وَلَكِنْ] جعلناك وأنفذنا أمرك قديماً رحمةً من ربك ، أي : ويكون المعنى : ولكن أعلمناك رحمةً منَّا لك وإفضالًا ، وقرأ الناس : [رَحْمَةً] بالنصب ، وقرأ عيسى : [رَحْمَةٌ] بالرفع . ويريد بالقوم «الذين لم يـأْتهم نذيرٌ» معاصريه من العرب ، وباقي الآية بيِّن ، وقال الطبريُّ : «معنى قوله : ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ بـأَنْ ﴿سَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ، ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِـيَّ ٱلأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً﴾[1] الآية .

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ ، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً . (الدر المنثور) .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل ، وأبو نصر السجزي في الإبانة ، والديلمي — عن عمرو بن عبسة — قال: سألتُ النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ما كان النداءُ ؟ وما كانت الرحلة ؟ قال : (كتاب كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام ، ثم وضعه على عرشه ، ثم نادى : يا أمَّة محمد ، سبقت رحمتي غضبي ، أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، فمن لقيَني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة ، (الدر المنثور) .

(١) من الآيتين (١٥٦ ، ١٥٧) من سورة الأعراف .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

«المُصِيبَةُ» : عذاب في الدنيا على كفرهم ، وجواب [لَوْلَا] محذوف ، تقديره : لما أرْسلنا الرسل . وقوله : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يريد : القرآن ومحمداً صلى الله عليه وسلم ، والمقالة التي قالتها قريش : ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ كانت من تعليم اليهود لهم ، قالوا لهم : لِمَ لا يأْتي بآية باهرة كالعصا واليد وشق الجبل وغير ذلك ، فعكس قولُ الله تعالى عليهم قولهم ، ووقفهم على أنهم قد وقع منهم في تلك الآيات ما وقع من هؤلاء في هذه ، فالضمير في قوله : [يَكْفُرُوا] لليهود .

وقرأ الجمهور : [سَاحِرَانِ] ، والمراد بهما موسى وهارون ، قاله مجاهد ، وقال الحسن : موسى وعيسى ، وقال ابن عباس : موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الحسن أيضاً : عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، والأول أظهر . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [سِحْرَانِ] ، والمراد بهما التوراة والإنجيل ، قاله عكرمة ، وقال ابن عباس : التوراة والفرقان ، وقرأ ابن مسعود : ﴿سِحْرَانَ ٱظَّاهَرَا﴾[1]، وهي قراءة طلحة والضحاك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يريد بـ ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ أَمْرَ محمد – عليهما الصلاة والسلام – الذي هو في التوراة ، كأنه يقول : وما يطلبون من أن يأتي بمثل ما أُوتي موسى وهم قد كفروا – في التكذيب بك – بما أُوتيه موسى عليه السلام من الإخبار بك ، وقالوا : إنَّا بكلٍّ كافرون . وقوله تعالى : ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ يؤيد هذا التأويل . و [تَظَاهَرَا] معناه : تعاونا .

---

(١) أي : بهمزة الوصل وشدّ الظاء ، وأصلها : (تَظَاهرا) فأدغم التاء في الظاء فاجتُلبت همزة الوصل لأجل سكون التاء المدغمة . وقد قرأ الأعمش أيضاً بهذه القراءة ، قاله في « البحر » ولم ينسبها للضحاك .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ﴾ الآية ، هذه حجةٌ أمره الله تعالى أن يصدع بها ، أي : أنتم أيها المكذبون بهذه الكتب التي قد تضمنت الأمر بالعبادات ومكارم الأخلاق ، ونهت عن الكفر والنقائص ، ووعد الله تعالى عليها الثواب الجزيل ، إن كان تكذيبكم لمعنى فأْتوا بكتابٍ من عند الله عزَّ وجلَّ يهدي أكثر من هدى هذه أتَّبعه معكم . ثم قال تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ — وقد علم أنهم لا يستجيبون — على معنى الإيضاح لفساد حالهم ، وسياق القياس : «لأنهم متبعون لأهوائهم» . ثم عجب تعالى من اتِّباع الْهَوَى بغير هداية ولغير مقصد بيِّن ، وقرر ذلك على جهة البيان ، أي : لا أحد أضل منه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

الذين وصّل إليهم القول قريشٌ ، قاله مجاهد وغيره ، وقال أبو رفاعة القرظي : «نزلت في اليهود في عشرة أنا أحدهم» ، ذكره الطبري.

وقال الجمهور : معناه واصلنا لهم في القرآن وتابعناه موصولًا بعضه ببعض في المواعظ والزجر والدعاء إلى الإسلام ، قال الحسن : وفي ذكر الأُمم المُهلَكة ، وصلت لهم قصة بقصة حسب مرور الأَيام ، وذهب مجاهد إلى أن معنى [وَصَّلْنَا] : فَصَّلْنا ، أي : جعلناه أوصالًا من حيث كان أنواعاً من القول في معانٍ مختلفة ، ومعنى اتصال بعضه ببعض حاصل من جهة أخرى ، لكن إنما عدد عليهم ها هنا تقسيمه في أنواع من القول . وذهب الجمهور إلى أن هذا التوصل الذي وصّل لهم القول معناه : وصل المعاني من الوعظ والزجر ، وفي الأَجر وغير ذلك ، وذهبت فرقة إلى أن الإشارة بتوصيل القول إنما هي إلى الأَلفاظ ، أي الإعجاز ، فالمعنى : ولقد وصّلنا لهم قولاً معجزاً دالًا على نُبُوّتك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى الأَول تقديره : ولقد وصّلنا لهم قولًا تضمن معاني من اهتدى ، وقرأ الحسن : ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنا﴾ بتخفيف الصاد . وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي : يتعظون بالقرآن عن عبادة الأَصنام ، أو يتذكرون محمداً فيؤمنوا به .

ثم ذكر تعالى القوم الذين آمنوا من أهل الكتاب مباهياً بهم قريشاً ، واختُلف ، إلى من الإشارة ؟ فقيل : إلى جماعة من اليهود

أسلمت وكانت تَلْقى من الكفار أذى ، وقيل : إلى بحيرى الرّاهب ، وقال الزهري : إلى النجاشي ، وقيل : إلى سلمان ، وابن سلام ، وأسند الطبري عن علي بن أبي رفاعة قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب ، فيهم أبو رفاعة – يعني أباه – فأسلموا ، فأُوذوا ، فنزلت فيهم هذه الآية . والضمير في [قَبْلِهِ] يحتمل أن يعود على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يعود على القرآن ، وما بعْدُ يؤيد هذا ، وهو قوله : ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ . وقوله : ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ يريدون الإسلام المتحصل لهم من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام[١]. وإيتاءُ أجرهم مرتين معناه : على ملّتين ، ولإيمانهم بشريعتين ، وهذا المعنى هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبِيِّه وآمن بي ، والعبد الناصح في عبادة ربِّه وخدمة سيِّده ، ورجل كانت له أَمَةٌ فأدبها وعلمها ثم أعتقها وتَزَوَّجها)[٢] .

---

(١) قيل في ذلك : إن الإسلام صفة كل موحِّد مصدِّق بالوحي .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، وأحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ، وقال الشعبي للخراساني : خذ هذا الحديث بغير شيء ، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة .

قال العلماء : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين ، فالكتابي كان مخاطباً من جهة نبيِّه ، ثم إنه خوطب من جهة نبيِّنا فأجابه واتبعه =

وقوله تعالى : ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عام في صبرهم على ملّتهم ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار في ذلك. وقوله تعالى : ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ معناه : يدفعون ، وهذا وصف لمكارم الأخلاق ، أي : يتعاونون ، ومن قال لهم سوءًا لَا يَنُوهُ وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه ، وهذه آية مهادنة ، وهي في صدر الإسلام ، وهي مما نسخته آية السيف ، وبقي حُكْمها فيما دون الكفر تتعاطاه أُمّة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ مدحٌ لهم بالنفقة في الطاعات ، وعلى رسم الشرع ، وفي ذلك حضٌّ على الصدقات ونحـــوها .

و «اللَّغْو» لَغْوُ القول ، واليمين لَغْوٌ : حسب الخلاف فيهما ، وكلام مستمع الخطبة لَغْوٌ ، والمراد من هذا ـ في هذه الآية ـ ما كان سَبًّا وأَذًى ونحوه ، فأدب أهل الإسلام الإعراض عنه ، والقول ـ على جهة التَّبَرِّي ـ ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ . وقال ابن زيد :

= فله أجر المِلَّتين ، والعبد مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيِّده ، وربُّ الأمَة لما قام بما خوطب به من تربية أمَتِه وأدَّبها فقد أحياها إحياء التربية ، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أحياها إحياء الحرية التي ألحقها فيه بمنصبه ، فقد قام بما أُمر فيها ، فأُجِر كلٌّ واحد منهما أجرين، ولذلك قيل : إن العبد الذي يؤدي حق ربِّه وحق سيِّده أفضل من الحُرِّ ، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (للعبد المملوك المصلح أجران) .

اللَّغْو ها هنا ما كان بنو إسرائيل كتبوه في التوراة مما ليس من عند الله تبارك وتعالى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه المهادنة هي لبني إسرائيل الكفار منهم ، و ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ في هذا الموضع ليس المقصود بها التحية ، لكنه لفظ التحية قُصد به المُتَارَكَة ، وهو لفظ مؤنس مستنزِل لسامعه ؛ إذْ هو في عرف استعماله تحية ، قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال ، و ﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَاهِلِينَ﴾ معناه : لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمسابّة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

أجمع جُلُّ المفسرين على أن قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إنما نزلت في شأن أبي طالب عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قال أبو هريرة ، وابن المسيّب ، وغيرهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه وهو يجود بنفسه ، فقال له : أيْ عَمِّ ، قل : لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله كلمةً أشهد لك بها عند الله ، وكان بحضرته عبد الله بن أمية ، وأبو جهل لعنهما الله تعالى ، فقالا له : أترغب عن ملّة عبد المطلب يا أبا طالب ؟ فقال له : يا محمد ، لولا أني أخاف أنْ يُعَيَّر بها ولدي من بعدي لأقررتُ بها عينك ، ثم قال أبو طالب : أنا على مِلَّةِ عبد المطلب والأشياخ ، فتفجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج عنه ، فمات أبو طالب على كفره ، فنزلت هذه الآية : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إشارة إلى أبي طالب (١) .

والضمير في قوله : [وَقَالُوا] لقريش ، قال ابن مسعود : والمتكلم بذلك منهم الحرث بن نوفل ، وقصد الإخبار بأن العرب تنكر

---

(١) هذا الحديث مروي عن أبي هريرة ، وعن ابن المسيب كما قال ابن عطية ، أما عن أبي هريرة فقد أخرجه عبد بن حميد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل . وأما عن ابن المسيب فقد أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي . وقد تقدم ذلك في تفسير سورة براءة عند تفسير قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ...﴾ وهي من الآية رقم (١١٣) .

عليهم رفض الأَوثان وفراق حكم الجاهلية بتخطفهم من أرضهم ، وقوله : [ٱلْهُدَىٰ] معناه : على زعمك ، وحكى الثعلبي عنه أنه قال : إنا لنعلم أن الذي تقول حق ، ولكن إن اتبعناك يتخطفنا العرب ، فقطعهم الله تعالى بالحجة ، أي : أليس كون الحرم لكم مما يَسَّرناه وكففنا عنكم الأَيدي فيه ؟ فكيف بكم لو أسلمتم واتبعتم شرعي وديني ؟ وروي عن أبي عمرو : [نُتَخَطَّفُ] بضم الفاء ، وأَمْن الحرم هو أَلَّا يُغْزى ولا يودى فيه أحد . وقوله تعالى : ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي : يُجمع ويُجْلَب . وقرأ نافع وحده : [تُجْبَىٰ] بالتاء من فوق ، وقرأ الباقون : [يُجْبَىٰ] أي : يجمع بالياء من تحت ، ورويت التاءُ عن أبي عمرو ، وأبي جعفر ، وشيبة بن نصاح . وقوله تعالى : ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ يريد مما به صلاح حالهم وقوام أمرهم ، وليس العموم فيه على الإطلاق ، وقرأ أبان بن تغلب : [ثُمُرَاتِ] بضم الثاء والميم .

ثم توعَّد تعالى قريشاً بضرب المثل بالقُرى المُهْلَكة ، أي : فلا تغتروا بالحرم الآمن والثمرات التي تُجبى ؛ فإن الله تعالى مهلك الكفرة على ما سلف في الأُمم . و [بَطِرَتْ] معناه : سفهت وأشرت وطغت ، قاله ابن زيد وغيره ، و [مَعِيشَتَهَا] نصبت على التفسير [١] ، مثل قوله :

---

(١) وقيل : هي مفعول به على تضمين [بَطِرَتْ] معنى فعل متعد ، أي : خسرت معيشتها ، وهذا على مذهب أكثر البصريين ، وقيل: هي مشبه بالمفعول على مذهب بعض =

﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾(١) ، وقال الأَخفش : هو على إسقاط حرف الجر ، أَي : بَطِرت في معيشتها ، ثم أَحالهم على الاعتبار في خراب ديار الأُمم المُهْلَكة كحجر ثمود وغيره ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

إن كانت الإبادة للقرى بالإطلاق في كل زمن فأُمُّهَا في هذا الموضع عظيمها وأفضلها التي هي بمثابة مكة في عصر محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت مكّة أُم القرى كلها أيضاً من حيث هي أول ما خلق الله من الأَرض ، ومن حيث فيها البيت ، ومعنى الآية أن الله تبارك وتعالى يقيم الحجة على عباده بالرسل ، فلا يعذب إلّا بعد

= الكوفيين؛ ويجوز أن تكون منصوبة على الظرفية ، على تقدير : أيَّام معيشتها ، كقولك : جئت خُفُوقَ النجم ، وهذا على مذهب الزجاج .

(١) من الآية (١٣٠) من سورة (البقرة) .

إنذاره ، وبعد أَن يتمادى أَهل القُرى في ظلم وطغيان . والظُّلْم – هنا – يجمع الكفر والمعاصي والتَّقصير في الجهاد ، وبالجملة وضع الباطل موضع الحق .

ثم خاطب تعالى قريشاً محقِّراً لما كانوا يفخرون به من مال وبنين وغير ذلك من قوة لم تكن عند محمد صلى الله عليه وسلم ولا عند من آمن به ، فأَخبر الله تعالى قريشاً أَن ذلك متاع الدنيا الفاني ، وأَن الآخرة وما فيها من النعيم الذي أَعد الله لهؤلاء المؤمنين خيرٌ وأَبقى ، ثمَّ وبَّخهم بقوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ، وقرأَ الجمهور : [يَعْقِلُونَ] بالياء ، وقرأَ أَبو عمرو وحده : [تَعْقِلُونَ] بالتاء من فوق ، وهي قراءة الأَعرج ، والحسن ، وعيسى (١) .

---

(١) أجمعت كتب القراءات ، وكتب التفسير على أن قراءة الجمهور : [تَعْقِلُونَ] بالتاء على خلاف ما ذكر ابن عطية هنا ، ولعلَّ الخطأ من النساخ ، أما القراءة بالياء فهي قراءة أبي عمرو ، ذكر ذلك القرطبي صراحة ، أما البحر المحيط فقد ذكر أن قراءة الجمهور بالتاء من فوق ، ثم قال : « ونسب هذه القراءة أبو علي في الحجة إلى أبي عمرو وحده » ، وبهذا نعرف المصدر الذي أخذ عنه ابن عطية نسبة القراءة بالتاء إلى أبي عمرو وحده ، ثم رأيت في كتاب (النشر في القراءات العشر) لابن الجذري ما يوضح الحقيقة ، قال : « روى الدوري عن أبي عمرو بالغيب – أي بالياء – واختلف عن السوسي عنه ، فالذي قطع له به كثير من الأئمة أصحاب الكتب الغيبُ كذلك ، وهو اختيار الداني وشيخه أبي الحسن بن غلبون ، وابن شريح ، ومكي ، وغيرهم . وقطع له آخرون بالخطاب ، كالأستاذ أبي طاهر بن سوار ، والحافظ =

ثم زادهم توبيخاً بقوله : ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ﴾ الآية ، وقوله : ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ﴾ آية يعم معناها جميع العالم ، لكن اختلف الناسُ فيمن نزلت ـ فقال مجاهد : الذي وُعد الوعد الحسن هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وضده أبو جهل لعنه الله ، وقال مجاهد : نزلت في حمزة رضي الله تعالى عنه وأبي جهل ، وقال قتادة : نزلت في المؤمن والكافر ، كما أنَّ معناها عام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونزولها عامٌّ بيِّن الاتساق بما قبله من توبيخ قريش .

و ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معناه : في عذاب الله تعالى ، قاله مجاهد وقتادة ، ولفظة [مُحْضَرِينَ] مشيرةٌ إلى سَوْق وجَرٍّ ، وقرأ طلحة : [أَمَنْ وَعَدْنَاهُ] بغير فاءٍ ، وقرأ مسروق : «أفمن وعدناه نعمة منا فهو لاقيه» .

= أبي العلاء، وقطع جماعة له وللدوري وغيرهما عن أبي عمرو بالتخيير بين الغيب والخطاب على السواء ، كأبي العباس المهدوي ، وأبي القاسم الهزلي ـ قلت : والوجهان صحيحان عن أبي عمرو من هذه الطرق ومن غيرها ، إلا أن الأشهر عنه بالغيب ، وبهما آخُذُ في رواية السوسي لثبوت ذلك عندي عنه نصاً وأداءً ، وبالخطاب قرأ الباقون » ، ويتضح من هذا كله أمران : الأول : أن قراءة الجمهور بالتاء من فوق ـ والثاني أن المنقول عن أبي عمرو موضع خلاف ، فمن القراء من نقل القراءة بالتاء كابن عطية ، ومنهم من نقل القراءة بالياء ، ومنهم من نقل التخيير بين التاء والياء . والله أعلم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التقدير : واذكر يومَ ، وهذا النداءُ يحتمل أن يكون بواسطة ، ويحتمل أن يكون بغير ذلك ، والضمير المتصل بِ [يُنَادِي] لِعُبَّاد الأصنام ، والإشارة إلى قريش ، وقوله : [أَيْنَ] على جهة التوبيخ والتقريع ، وقوله : [شُرَكَائِي] أي : عَلَى قولكم وزعمكم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولما كان هذا السؤال مُسْكِتاً لهم مهيناً فكأنه لا يتعلق بجمهور الكفرة ، بل بالمُغْوين لهم ، وبالأعيان والرءوس منهم ، وبالشياطين المُغْوين ، فكأن هذه الفئة المُغْوية إنما أتت الكفرة على علم بأن القول عليها متحقق ، وبأن كلمة العذاب ماضية ، لكنهم طمعوا في التبرِّي من أولئك الكفرة الأتباع فقالوا : ربنا هؤلاء أضللناهم كما ضللنا

نحن باجتهاد لنا ولهم ، وأرادوا هم اتباعنا ، وأحبُّوا الكفر كما أحببناه ، فنحن نتبرَّأُ إليك منهم ، وهم لم يعبدونا إنما عبدوا غيرنا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا التوقيف يعم جميع الكفرة ، والمجيبون هم جميع المُغْوِين ، كل داع إلى كفر ، من الشياطين الجن ، ومن الإنس العرفاءُ والرُّؤساءُ والسادة .

وقرأ الجمهور : [غَوَيْنَا] بفتح الواو ، ويقال : غَوَى الرجل يَغْوِي بكسر الواو ، وروي عن ابن عامر ، وعاصم [غَوِينَا] بكسر الواو .

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه يقال للكفرة العابدين للأصنام الذين اعتقدوهم آلهةً : ﴿ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي الأصنام التي كنتم تزعمون أنهم شركاءُ لله ، وأضاف الشركاءَ إليهم لمَّا كان ذلك الاسم بزعمهم ودعواهم ، فهذا القول أصل من الاختصاص ، أضاف الشركاءَ إليهم ثم أخبر أنهم دَعْوهم ، فلم يكن في الجمادات ما يجيب ، ورأى الكفار العذاب . وقوله تعالى : ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ ، ذهب الزجاج وغيره من المفسرين إلى أن جواب [لَوْ] محذوف تقديره : لما نالهم العذاب ، أو : لما كانوا في الدنيا عابدين للأصنام ، ففي

الكلام ـ على هذا التأْويل ـ تأَسُّف عليهم ، وذلك محتمل مع تقديرنا الجواب : «لما كانوا عابدين للأَصنام» ، وفي تقديرنا الجواب : «لما نالهم العذاب» نعمة منا ، وقالت فرقة : [لَوْ] متعلقة بما قبلها ، تقديره : فودُّوا لو أنهم كانوا يهتدون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وهذا النداءُ أيضاً كالأَول في احتماله الواسطة من الملائكة ، وهذا النداءُ أيضاً للكفار يوقفهم على ما أَجابوا به المرسلين الذين دعوهم إلى الله تعالى . ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أي : أظلمت الأُمور ، فلم يجدوا خبراً يخبرون به مما لهم فيه نجاة ، وساق الفعل في صيغة الماضي لِتَحَقُّق وقوعه ، وأنه تعيَّن ، والماضي من الأَفعال مُتَيَقَّن ؛ فلذلك توضع صيغته بدل المستقبل المُتَيَقَّن فيقوى وقوعه وصحته ، ومعناهُ : أظلمت جهاتُها ، وقرأَ الأَعمش : [فَعُمِّيَت] بضم العين

وشدِّ الميم ، وروي في بعض الحديث : (كان الله في عماءٍ)(١) وذلك قبل أن يخلق الأنوار وسائر المخلوقات . و [ٱلْأَنبَاءُ] جمع نَبَإٍ .

وقوله تعالى : ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ معناه فيما قال مجاهد وغيره : بالأرحام والمتاب الذي عُرْفه في الدنيا أن يُتَسَاءَل به ؛ لأنهم قد أيقنوا أنهم كلُّهم لا حيلة لهم ولا مكانة ، ويحتمل أن يريد أنهم لا يتساءلون عن الأنباء لتيقُّن جميعهم أنه لا حُجة لهم .

ثم انتزع تعالى من الكفرة من تاب من كفره ، وآمن بالله ورسله ، وعمل بالتقوى ، ورَجَّى عزَّ وجلَّ أنهم يفوزون ببغيتهم ويبقون في النعيم الدائم ، وقال كثير من العلماء : «عَسَى» من الله واجبة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ظن حسن بالله تعالى يشبه فضله وكرمه ، واللازم من «عَسَى» أنها ترجية لا واجبة ، وفي كتاب الله عزَّ وجلَّ : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾(٢) .

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة هود ، وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد في المسند (٤-١١ ، ١٢) ، ولفظه كما في المسند : عن أبي رُزَيْن قال : قلتُ : يا رسول الله ، أين كان رَبُّنَا عزَّ وجلَّ قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : (كان في عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق عرشه على الماء) .

(٢) من الآية (٥) من سورة (التحريم) .

وقوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ الآية ، قيل : سببها ما تكلمت به قريش من استغراب أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقول بعضهم : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١) فنزلت هذه الآية بسبب تلك المنازع ، ورد الله تعالى عليهم ، وأخبر أنه يخلق من عباده وسائر مخلوقاته ما يشاءُ ، وأنه يختار لرسالته من يريد ويجعل فيه المصلحة ، ثم نفى أن يكون الاختيار للناس في هذا ونحوه ، هذا قول جماعة من المفسرين(٢)، قالوا : والظاهر أن [مَا] نافية ، أي : ليس لهم الخيرة عن الله تبارك وتعالى ، فتجيءُ الآية كقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾(٣).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يريد : ويختار الله تعالى الأديَانَ والشرائع ، وليس لهم الخِيَرَةُ في أن يميلوا إلى الأصنام ونحوها في العبادة ، ويؤيد هذا التأويل قوله : ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

---

(١) من الآية (٣١) من سورة (الزُّخرف) ، رُوي أن الذي قال ذلك هو الوليد بن المغيرة ، وكان يعني نفسه ، أو عُروة بن مسعود الثقفي من الطائف ، فآيتنا هنا ردٌّ عليه ، أو جواب لقوله .

(٢) منهمَ الزجاج ، وعلي بن سليمان ، والنحاس ، وهم يرون أن الوقف على قوله : (وَيَخْتَارُ) .

(٣) من الآية (٣٦) من سورة (الأحزاب) .

وذهب الطبريُّ إلى أن [مَا] في قوله : ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ﴾ مفعولة ، قال : والمعنى أن الكفار كانوا يختارون من أموالهم لأصنامهم خيارها ، فأخبر الله تعالى أن الاختيار إنما هو له وحده ، يخلق ويختار من الرُّسل والشرائع ما كان خيراً للناس ، لا كما يختارون هم ما ليس لهم ، ويفعلون ما لم يُؤْمروا به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واعتذر الطبريُّ عن الرفع الذي أجمع عليه القراءُ في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بأقوالٍ لا تتحصل(١)، وقد ردَّ الناسُ عليه في ذلك ، وذَكَر عن الفراءِ أن القاسم بن معن أنشده بيت عنترة :

أَمِنْ سُمَيَّةَ دَمْعُ الْعَيْنِ تَـذْرِيفُ   لَوْ كَانَ ذَا مِنْكِ قَبْلَ الْيوْمِ مَعْرُوفُ(٢)

---

(١) قال الطبريُّ : « فإن قال قائل : فإن كان الأمرُ كما وصفتَ من أن [ما] اسم منصوب بوقوع قوله : [يَخْتَارُ] عليها ، فأين خبر [كَانَ] ؟ فقد علمتَ أن ذلك إذا كان كما قلت إن في [كان] ذكراً من [ما] ، ولابدَّ لـ[كان] إذا كان كذلك من تمام ، وأين التمام ؟ قيل : إن العرب تجعل لحروف الصفات إذا جاءت الأخبارُ بعدها أحياناً أخباراً كفعلها بالأسماء إذا جاءت بعدها أخبارها ، وذلك كما في بيت عنترة حيث رفع (معروفاً) بحرف الصفة ، وهو لاشك خبرٌ لـ (ذا) » . وبيت عنترة هو الذي ذكره ابن عطية هنا بعد قليل .

(٢) البيت في الديوان مطلع قصيدة قالها لحادثة وقعت له مع امرأة أبيه ، وكان اسمها سُهَيَّة ، وقيل : سُمَيَّة، إذ كانت قد حرشت عليه أباه قبل أن ينسبه إلى نفسه ، وقالت لأبيه: =

وقرن الآية بهذا البيت ، والرواية في البيت : (لَوْ أَنَّ ذَا) ، ولكن على ما رواه القاسم يَتَّجه في بيت عنترة أن يكون في كان ضمير الأمر والشأن ، فأما في الآية فلا يكون بجملة فيها محذوف ، وفي هذا كله نظر . والوقف على ما ذهب إليه جمهور الناس في قوله تعالى : [وَيَخْتَارُ] ، وعلى ما ذهب إليه الطبريُّ لا يوقف على ذلك .

ويتَّجه عندي أن تكون [مَا] مفعولة إذا قدرنا [كَانَ] تامة ، أي أن الله تعالى يختار كل كائن ، ولا يكون شيءٌ إلَّا بإذنه ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ جملة مستأنفة معناها تعديد النِّعمة عليهم في اختيار الله تعالى لهم لو قبلوا وفهموا .

= إنه يراودني عن نفسه، فغضب أبوه من ذلك غضباً شديداً ، وضربه ضرباً عنيفاً ، ثم ضربه بالسيف ، فلما رأت امرأة أبيه ذلك وقعت عليه وكفت أباه عنه ، ولما رأت جراحه بكت ، فقال عنترة هذه الأبيات ، والقصة في الأغاني عن الأخفش الصغير ، وتذريف : من ذرفت عليه عينه تذرف ذريفاً ، وهو الدمع الذي يكاد يتصل في نزوله ، وقوله : (لو كان ذا منك قبل اليوم معروف) يريد أنه ينكره منها اليوم ، ولو كان معروفاً منها قبل ذلك لما أنكره . والشاهد أنه جعل قوله (معروفٌ) خبرًا بعد الصفة التي في الجار والمجرور (مِنْكِ) ، وهي خبر عن (ذا) . كأنه يقول : إن حرف الصفة موضوع موضع ضمير مبتدإٍ ، و (معروف) خبره ، وفي هذا كثير من التعسف والتكلف ، على أن رواية البيت في الديوان هي : (لَوْ أَنَّ ذَا مِنْكِ قبل اليوم معروف) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه كما قال ابن عطية ، والشاهد يأتي على رواية القاسم بن معن القاضي التي ذكرها الفراءُ ، والبيت غير مذكور في (معاني القرآن) للفراء ، ولعله ذكره في كتاب آخر له .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

ذكر تعالى في هذه الآيات أُموراً يشهد عقل كل مفطور بأَن الأَصنام لا شركة لها فيها ، فمنها علم ما في النفس وما يهجس بالخواطر . و [تُكِنُّ] معناه : تستر ، وقرأ ابن محيصن : [تَكُنُّ] بفتح التاء وضم الكاف ، وعبّر عن القلب بالصدر حيث كان محتوياً عليه ، ومعنى الآية أن الله تعالى يعلم السِّرَّ والإعلان .

ثم أَفرد نفسه بالأُلوهية ونفاها عمّا سواه ، وأَخبر أَن الحمد له في الدُّنيا والآخرة ؛ إذ له الصِّفات التي تقتضي ذلك ، والحُكْم له . وهو – في هذا الموضع – الفصل والقضاءُ في الأَمر ، ثم أَخبر تعالى بالرَّجعة إليه والحشر .

ثم أَخبر تعالى نبيَّه أَن يوقفهم على أَمر الليل والنهار ، وما منح الله تعالى فيهما من المصالح والمرافق ، وأَن يوقفهم على إنعامه تعالى

بتوفيق الليل والنهار ، وأنه لو مدَّ أحدهما سرمداً لما وجد من يأتي بالآخر . و «السَّرْمَد» من الأشياء : الدائم الذي لا ينقطع . وقرأت فرقة هي الجمهور : [بِضِياءٍ] بالياء ، وقرأ ابن كثير في رواية قنبل : [بِضِئَاءٍ] بهمزتين ، وضعَّفه أبو عليٍّ. ثم ذكر عزَّ وجلَّ انقسام الليل والنهار على السكون وابتغاء الفضل بالمشي والتصرف ، وهذا هو الغالب في أمر الليل والنهار ، فعدَّد النعمة بالأغلب ، وإن وُجد من يسكن بالنهار ويبتغي فضل الله بالليل فشاذٌّ نادرٌ لا يُعْتَدُّ به . وقال بعض الناس : قوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ إنما عبَّر به عن الزمان ، فكأنه لم يقصد لتقسيم ، أي : في هذا الوقت الذي هو ليلٌ ونهارٌ يقع السكون وابتغاءُ الفضل .

وقوله : [وَلَعَلَّكُمْ] أي على نظر البشر ، من يرى هذا التلطُّف والرفق يرى أن ذلك يستدعي الشكر ولابُدَّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

التقدير : واذكر يوم يناديهم ، وكرر هذا المعنى إبلاغاً وتحذيراً ، وهذا النداءُ عند ظهور كل ما وعد الرحمنُ على ألْسنة المرسلين من وجوب الرحمة لقوم والعذاب لآخرين ، ومن خضوع كل جبار وذُلِّه

لعزَّة ربِّ الْعالمين ، فيتوجه حينئذ توبيخ الكفار ، فيقول الله تعالى لهم : ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ على معنى التقريع .

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه يُخرج في ذلك اليوم من كل أُمَّة شهيداً يُمَيِّز بينه وبين الناس ، وهذا هو النَّزْعُ ، أي : يُمَيِّز بين شيئين فينزع أحدهما من الآخر ، وقال مجاهد : أراد بـ «الشَّهيد» الذي يشهد على أُمَّته ، وقال الرماني : وقيل : أراد عُدولاً من الأُمم وأخياراً (١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهم حملة الحجة الذين لا يخلو منهم زمن ، و «الشَّهِيدُ» ـ على هذا التأويل ـ اسم الجنس ، وفي هذا الموضع حذف يدل عليه الظاهر ، تقديره : يشهد الشهيد على الأُمة بخيرها وشرها ، فيحق العذاب على من كفر ، ويقال لهم ـ عَلَى جهة استبراء الحُجَّة والإعذار في المحاولة ـ : ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ ، أي حجتكم على ما كنتم عليه في الدنيا إن كان لكم ، فيسقط حينئذ في أيديهم ، ويعلمون أن الحق متوجه له سبحانه عليهم في تعذيبهم ، وينكشف لهم ما كانوا بسببه في الدنيا من كذب مختلق وزور في قولهم للأَصنام : هذه آلهة ، وفي تكذيبهم الرُّسل ،

---

(١) أظهر الأقوال في المراد بالشهيد أنه نبيُّ كل أُمَّة ، لأنه هو الذي يشهد على قومه ؛ لقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ ، قال العلماء : والشهيد : الحاضر ، فيكون المعنى : أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم .

وغير ذلك . ومن هذه الآية انتزع قول القاضي عند إرادة الحكم : أبقيت لك حجة ؟

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧ ﴾

قارون : اسم أَعْجَمي ، فلذلك لم ينصرف ، واختلف الناس في قرابة قارون لموسى عليه السلام ــ فقال ابن إسحق : هو عمُّه ، وقال ابن جريج ، وإبراهيم النَّخَعي : هو ابن عمِّه ، وهذا أَشهر ، وقيل : ابن خالته ، فهو بإجماع رجلٌ من بني إسرائيل ، كان ممن آمن بموسى ، وحفظ التوراة ، وكان من أَقْرإ الناس لها ، وكان عند موسى عليه السلام من عُبَّاد المؤمنين ، ثم لحقه الزهو والإعجاب ، فبغى على قومه بأَنواع من البغي ، فمن ذلك كُفْره بموسى واستخفافه به ، ومطالبته له بأَن يجعل له شيئاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

إنه عمد إلى إمرأة مُومِسَة (٢) ذات جمال ، وقال لها : أنا أُحْسِنُ إليك ، وأحفظك في أهلي على أن تجيئي في مَلَإٍ من بني إسرائيل عندي فتقولي: يا قارون اكفني أمر موسى فإنه يتعرض لي في نفسي ، فجاءت المرأة ، فلما وقفت على الملَإِ أحدث الله تعالى لها توبة ، فقالت : يا بني إسرائيل ، إن قارون قال لي كذا وكذا ، ففضحته في جميع القصة ، وبرّأ الله بقدرته نبيّه موسى عليه السلام من مطالبته ، وقيل : بل قالت المرأة ذلك عن موسى ، فلما بلغه الخبر وقف بالمرأة بمحضر من بني إسرائيل ، فقالت : يا نبي الله ، كذبتُ أنا عليك ، وإنما دفعني قارون إلى هذه المقالة . وكان من بغيه أنه زاد في ثيابه شبراً على ثياب الناس ، قاله شهر بن حوشب ، إلى غير ذلك مما يصدر عمن فسد اعتقاده ، وكان من أعظم الناس مالًا ، وسميت أمواله كنوزاً إذ كان ممتنعاً من أداء الزكاة ، وبسبب ذلك عادى موسى عليه السلام أول عداوته .

والمفاتيح : ظاهرها أنها التي يفتح بها ، ويحتمل أن يريد بها الخزائن والأوعية الكبار ، قاله الضحاك : لأن المفتاح في كلام العرب الخزانة (٢).

(١) يقال : امرأة مُومِسٌ ومُومِسَة : فاجرة جهاراً ، (عن اللسان) .

(٢) المفاتح : جمع مِفْتَح بالكسر ، وهو ما يُفْتح به ، وأما من قال : إن المفاتح هي الخزائن فواحدها مَفْتح بالفتح ، (راجع اللسان) قال : « المِفْتَح والمِفْتَاحُ: مفتاح الباب ، وكل ما فتح به — والمَفْتَح : الخِزانة ، وعن الجوهري : المَفْتح : الكنز . » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأكثَرَ المفسرون في شأن قارون ، فروي عن خيثمة أنه قال : نجد في الإنجيل مكتوباً : «إن مفاتيح قارون كانت من جلود الإبل ، وكان المفتاح نصف شبر ، وكانت وِقْر ستِّين بغلاً أو بعيراً ، لكل مفتاح كنز» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وروي غير هذا مما يقرب منه ، وذلك كله ضعيف ، والنظر يشهد بفساد هذا ، ومن الذي كان يميز بعضها من بعض ؟ وما الداعي لهذا ؛ وفي الممكن أن ترجع كلها إلى ما يحصى ويقدر على حمله بسهولة ؟ وكان يلزم ـ على هذا ـ أن تكون «مفاتيح» بياء ، وهي قراءة الأعمش ، والذي يشبه هو : إما أن تكون المفاتيح من الحديد ونحوه ، وعلى هذا تنوءُ بالعصبة ؛ إذ كانت كثيرة لكثرة مخازنه ، أو تكون «المفاتحُ» الخزائن ، قال أبو صالح : كانت خزائنه تحمل على أربعين بغلاً .

وأما قوله : [تَنُوءُ] فمعناه : تنهض بتحامل ، ومن ذلك قول الشاعر يصف رامياً :

حَتَّى إِذَا مَا الْتَأَمَتْ مَفَاصِلُـهْ وَنَاءَ في شِقِّ الشِّمَالِ كاهِلُهْ (١)

---

(١) استشهد الفراء بهذين البيتين على رأيه في معنى قوله تعالى : ﴿لتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ ، قال : نوؤُها بالعصبة أن تُثْقلهم ، أي : تُميلهم من ثِقلها ، فإذا أدخلت الباء قلت : تنُوءُ بهم وتُنيءُ بهم ، كما قال : ﴿آتُوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ ، والمعنى : ائْتُوني =

والوجه أن يقال : إن العُصْبَةَ تنوءُ بالمفاتيح المثقِلة لها ، وكذلك قال كثير من المتأوِّلين : إن المراد هذا ، لكنه قلَب كما تفعل العرب كثيراً ، فمن ذلك قول الشاعر :

فَدَيْتُ بِنَفْسِــهِ نَفْسِي وَمَــالِي وَمَا آلُـــوكَ إِلَّا مَا أُطِيقُ (١)

= [illegible]
[illegible]
[illegible] وقد قال رجل من أهل العربية : إن المعنى :
ما إنَّ العصبة لتَنُوءُ بمفاتحه ، فحول الفعل إلى المفاتح ، كما قال الشاعر :

إنَّ سِراجاً لكَرِيمٌ مَفْخَرُهْ تَحْلَى بِهِ العَيْنُ إذا ما تَجْهَرُهْ

وهو الذي يَحْلَى بالعين ، فإن كان الرجل قد سمع أثراً بهذا فهو الوجه ، وإلا فإن الرجل جهل المعنى ، وأنشدني بعض العرب :

حتَّى إذا ما التَأَمَتْ مَوَاصِلُهْ ونَاءَ في شِقِّ الشِّمَالِ كَاهِلُهْ

يعني الرامي لَمَّا أخذ القوسَ ونزع مالَ على شِقِّه ، فذلك نَوْؤُه عليها ، ونرى أن قول العرب : « ما ساءكَ وناءكَ » من ذلك ، ومعناه : ما ساءك وأناءكَ ، إلا أنه ألقى الألف ؛ لأنه مُتْبَع لـ « ساءكَ » ، كما قالت العرب : أكلْتُ طعاماً فهَنَأَنِي ومَرَأَنِي ، ومعناه — إذا أفردت — : وأمْرَأَنِي ، فحذفت منه الألف لمَّا أن أُتْبِع مالا ألف فيه » . وقد استشهد بهما أيضاً الطبريُّ ، ونقل كلام الفراء بنصه ، وكذلك نقل صاحب اللسان كلام الفراء كاملا مع ما استشهد به ، هذا والرواية كما في أصول ابن عطية : « التأمتْ مَفَاصله » ، وفي بعض النسخ : « اعتدلت مفاصله » ، وفي معاني القرآن واللسان : « التَأَمَتْ مَوَاصِلُهْ » .

(١) هذا البيت من شواهد أبي عُبَيْدَة في « مجاز القرآن » ، قال : « ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ ﴾ ، أي : مفاتح خزائنه ، ومجازه : ما إن العُصْبَة ذوي القوة لتنوءُ بمفاتح نعمه ، يقال في الكلام : (إنها لتنوءُ بها عَجِيزَتُهَا) ، وإنما هي تنوءُ بعجيزتها ، كما ينوءُ البعير بحمله ، والعرب قد تفعل هذا ، قال : فَدَيْتُ بنفسه ... البيت » ، ومعنى البيت : فديت نَفْسَهُ بنفسي ومالي ، لكن الشاعر قلَب ، أما قوله : (ما آلُوكَ) فمعناه : ما أستطيع ، يقال : جاءني فلانٌ في حاجة فما استطعتُ ردَّه ، وأتاني في حاجة فألَوْتُ فيها ، أي : اجتهدت . وفي الشطر الثاني التفاتٌ من الغيبة إلى التكلم ، فقد تحدث أولا عن حبيبه بضمير الغيبة ، ثم التفت فتحدث بضمير الخطاب في قوله : آلُوكَ .

وقول الآخر :

وَتَرْكَبُ خَيْلًا لَا هَوَادَةَ بَيْنَهَا وَتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضَّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ (١)

وهذا البيت لا حُجَّة فيه ؛ إذْ يتَّجه على وجهه فتأمله ، ومن ذلك قول الآخر :

ما كُنْتَ في الْحَرْبِ الْعَوَانِ مُغَمَّراً إِذْ شَبَّ حَرُّ وَقُودِهَا أَجْذَالَهَا (٢)

---

(١) قال هذا البيت خِدَاشُ بنُ زهير بن صعصعة ، من شعراء قيس المجيدين في الجاهلية ، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يره ، والبيت في (اللسان — ضَطَر) ، والضياطرة : جمع ضَيْطر ، وهم العظماء من الرجال ، ومن كلام الإمام علي رضي الله عنه : « من يَعْذرني مع هؤلاء الضياطرة » ، والمعنى في البيت أنَّ الضياطرة الحُمْر يشقون بالرماح ، يعني : يُقْتَلون بها ، لكن الشاعر قلب وجعل الرِّماح هي التي تشقى بالضياطرة ، وهذا هو الشاهد ؛ على أن ابن عطية يقول : « هذا البيت لا حُجَّة فيه ؛ إذ يتَّجه على وجهه » ، يعني يصح أن يقال : إن الرماح تشقى بهم فعلا ؛ لأنهم لا يحسنون حملها ولا القتال بها ، وعلى هذا المعنى لا حُجَّة في البيت ولا شاهد ، وقول الشاعر : لا هوادة بينها ، يعني لا موادعة ولا مصالحة . وقد وضَّح ابن سيدة الاحتمالين في البيت ، ونقل ذلك صاحب اللسان .

(٢) البيت للأعشى ، قيس بن ميمون بن ثعلبة ، قاله من قصيدة يمدح بها قيس بن معديكرب ، وقبله يقول :

فَلَعَمْرُ مَنْ جَعَلَ الشُّهُورَ عَلامَةً قَدَراً ، فَبَيَّنَ نِصْفَهَا وَهِلالَهَا

والحربُ العوان : التي قوتل فيها مرة بعد مرة ، كأنهم جعلوا المرة الأولى بكراً ، والمُغَمَّر : الجاهل الذي لم يُجَرِّب الأمور ، وشَبَّ النار : أَوْقَدَهَا ، والأجْذَال : جمع جِذْل ، وهو ما عظم من أصول الشجر المقطوع يُجْعَل حطباً ووقوداً للنار ، يقول الشاعر : أُقسم بمن جعل الشهور علامةً للناس أنك ما كنت في الحرب الشديدة التي تتكرر مرة بعد مرة جاهلا بأمورها وإدارتها حتى تنتصر على الأعداء حين أوقد حرُّها الأجذالَ ، وهنا يكون الشاهد ، إذْ أن الحطب الجذل ، أو أجذال الشجر هي التي تشب حرَّ النَّار ، ولكن الشاعر قلب المعنى ، وجعل حرَّ النار هو الذي يوقد الأجذال والحطب .

وقال سيبويه والخليل : التقدير : لَتُنِيءُ العُصْبَةَ ، فجعل بدل ذلك تعدية الفعل بحرف الجرّ ، كما تقول : ناءَ الحِمْلُ وأَناْتُه ونوْتُ به بمعنى : جعلته يَنُوءُ ، والعرب تقول : ناءَ الحِمْلُ بالبعير إذا أثقَلَه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يُسنَد [تَنُوءُ] إلى المفاتيح مجازاً ، لأنها تنهض بتحامل إذا فعل ذلك الذي ينهض بها ، وهذا مطّرد في قولهم : ناءَ الحملُ بالبعير ، ونحوه ، فتأمله .

واختلف الناسُ في «العُصْبَة» ، كم هي ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ثلاثة ، وقال قتادة : العُصْبة : من العشرة إلى الأربعين ، وقال مجاهد : خمسة عشر ، وقيل : أحد عشر حَمْلًا على إخوة يوسف ، وقيل : أربعون .

وقرأ بُدَيْلُ بنُ مَيْسَرة : [لَيَنُوءُ] بالياء ، ووجّهها أبو الفتح على على أنه يقرأ : [مَفَاتِحَهُ] جمعاً[1]، وذكر أبو عمرو الداني أن بُدَيْلَ

---

(١) قال أبو الفتح : كأنه ذهب إلى «ذلك القَدْر والمَبْلغ» ، فلاحظ معنى الواحد فحمل عليه ، ومثله قول الراجز :

* مِثْلُ الفِرَاخِ نُتِفَتْ حَوَاصِلُهْ *

أي حواصل ذلك ، أو حواصل ما ذكرنا ، وأخبرنا شيخنا أبو علي قال : قال أبو عبيدة لرؤبة في قوله :
=

ابنَ مَيْسَرَة قرأ : ﴿مَا إِنَّ مِفْتَاحَهُ﴾ على الإفراد ، فيستغنى على هذا عن توجيه أبي الفتح .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ متعلق بقوله : [فَبَغَى](١)، ونَهَوْهُ عن الفرح المطغي الذي هو انْهماكٌ وانحلالُ نفسٍ وأَشَرٌ وإعجابٌ ، و [لَا يُحِبُّ] ـ في هذا الموضع ـ صفة فعل(٢)؛ لأنه أَمْرٌ قد وقع فمحالٌ أَنْ يرجع إلى الإرادة ، وإنما هو لا يُظهر عليهم بركته ، ولا يهبهم رحمته . ثم وصّوه بأَن يطلب بماله رضى الله وآخرته . وقولهم : ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ اختلف المتأولون فيه ـ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والجمهور : معناه : لا تضيع عمرك في أَلَّا تعمل عملًا صالحاً في دنياكَ ؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها في الدنيا ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فينبغي أَلَّا تهمله .

= فيها خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ كَأَنَّهُ في الجِلْدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ

إن كنت أردت الخطوط فقل : كأنها ، وإن كنت أردت السواد والبَلَق فقل : كأنهما ، فقال رؤبة : أردت : كأن ذاك ، ويْلَك ، هذا مجموع الحكاية .

(١) قال أبو حيَّان في البحر : «وهذا ضعيف لأن بغيه لم يكن مُقَيَّداً بذلك الوقت»، وقال الزمخشري : «ومَحَل [إِذْ] منصوب بـ[تَنُوءُ]» . وعلَّق عليه أبوحيَّان أيضاً فقال : «وهذا ضعيف جداً لأن إثقال المفاتح العصبة ليس مُقَيَّداً بوقت قوْل قومه : ﴿لا تَفْرَحْ﴾ ، وفي رأي الحوفي أن [إِذْ] منصوب بمحذوف تقديره : اذكر .

(٢) أي : ليست صفة ذات بمعنى الإرادة ؛ لأن الفرح أمر قد وقع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالكلام كله ـ على هذا التأويل ـ شدة في الموعظة . وقال الحسن وقتادة : معناه : ولا تُضيع حظَّك أيضاً من دنياك في تمتعك بالحلال بطلبك إياه ، ونظرك إلى عاقبة دنياك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالكلام ـ على هذا التأويل ـ هو في الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه ، وهذا مما يجب استعماله مع الموعظة خشية النَّبْوة من الشدة . وقال الحسن : معناه : قدم الفضل وأمسك ما تبلغ به ، وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف ، وحكى الثعلبي أنه قيل : أرادو بنصيبه الكفن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا وعظ متصل كأنهم قالوا : لا تَنْس أنك تترك جميع مَالِكَ إلَّا نصيبك الذي هو الكفن ، ونحو هذا قول الشاعر :

نَصيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ ... رِدَاءَانِ تُلْوَى فيهما وَحَنُوط (١)

---

(١) تُلْوَى : تُلَفُّ ، وقد يكون في اللَّيِّ معنى السَّتْر ، والحَنُوط والحِناطُ : كلُّ ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة من مسك وصندل وكافور وعنبر . ومثل هذا البيت قول الشاعر :

وهِيَ القَنَاعَةُ لا تَبْغِي بِهَا بَدَلا ... فيهَا النَّعِيمُ وَفيهَا رَاحَةُ البَدَنِ
انْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ القُطْنِ وَالكَفَنِ ؟

وقوله : ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَمْر بصلة المساكين وذوي الحاجة . وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

القائل قارون لمَّا وعظه قومه وندبوه إلى اتقاء الله تعالى في المال الذي أعطاه تفضُّلًا منه عليه ، أخذته العزة بالإثم فأُعجب بنفسه ، وقال لهم على جهة الرَّدِّ عليهم والروغان مما أَلزموه فيه : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ، ولكلامه هذا وجهان يحملهما ، وبكل واحد منهما قالت فرقة من المفسرين :

فقال الجمهور منهم : إنه ادعى أن عنده علماً استوجب به أن يكون ذلك النعيم له ولذلك المال ، ثم اختلفوا في العلم الذي أشار إليه ، ما هو ؟ فقال بعضهم : علم التوراة وحفظها ، قالوا : وكانت

هذه مغالطة منه ورياءٌ ، وقال أبو سليمان الداراني (١) : أراد العلم بالتجارات ووجوه تمييز المال ، فكأنه قال : أُوتيته بإدراكي وبِسَعْيي ، وقال ابن المسيّب : أراد علم الكيمياء. وقال ابن زيد (٢) وغيره : إنما أراد : أُوتيته على علم من الله تعالى وتخصيص منٌ لدنه قصدني به ، فلا يلزمني فيه شيءٌ مما قلتم ، ثم جعل قوله : [عِنْدِي] كما تقول : «في معتقدي وعَلَى ما أراه» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى كلا الاحتمالين معاً فقد نبَّه القرآن على خطئه في اغتراره ، وعارض منزعه بأن من معلومات الناس المتحققة عندهم أن الله تعالى قد أهلك من الأُمم والقرون والملوك مَنْ هو أشد من قارون قوة وأكثر جمعاً ، إمَّا للمال أو للحاشية . وقوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ﴾ يرجِّح أن قارون تشبَّع بعلم نفسه على زعمه .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ . قال محمد ابن كعب : هو كلام متَّصل بمعنى ما قبله ، والضمير في [ذُنُوبِهِمُ] عائدٌ عَلَى مَنْ أهلك من القرون ، أي : أُهلكوا ولم يُسأَل غيرُهُم

---

(١) في البحر المحيط : أبو سليمان الداني .

(٢) هذا هو الاحتمال الثاني ، والاحتمال الأول هو الذي قال به الجمهور .

بعدهم عن ذنوبهم ، أي : كلٌّ أحد إنما يُسأل ويعاقب بحسب ما يخصه .
وقالت فرقة : هو إخبارٌ مستأْنف عن حالهم يوم القيامة ، معناه أن المجرمين لا يُسْأَلون عن ذنوبهم ، أي أن الملائكة لا تَسْأَل عن ذنوبهم ؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم من السَّواد والتشويه ونحو ذلك ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي آيات الله ما يقتضي أن الناسَ يوم القيامة يُسْأَلون ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾(٢) ، وغير ذلك ، وفيه آيات تقتضي أنه لا يُسْأَل أحدٌ ، كقوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾(٣)، وغير ذلك ، ويمكن أن تكون الآيات التي توجب السؤال إنما يريد بها أَسئلة التوبيخ والتقرير ، والذي ينفيه يراد بها أَسئلة الاستفهام على جهة الحاجة إلى علم ذلك من المسؤولين ، أي أن ذلك لا يقع ؛ لأَن العلم بهم محيط ، وسؤال التوبيخ غير مُعْتَدٍّ به .

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (الرحمن) .
(٢) الآية (٢٤) من سورة (الصَّافَّات) .
(٣) الآية (٣٩) من سورة (الرَّحمن) .

ثم أخبر تعالى أن قارون خرج على قومه وقد أظهر قدرته من الملابس والمراكب وزينة الدنيا ، قال جابر ومجاهد : خرج في ثياب حمر ، وقال ابن زيد : خرج هو وحَشَمه في ثياب مُعَصْفرة [١]، وقيل : في ثياب الأُرجُوان [٢]، وقيل غير هذا ، وأكْثَر المفسرون في تحديد زينة قارون وتعيينها – مما لا صحة له – فاختصرته ، وباقي الآية في اغترار الجهلة والأَغْمارِ [٣] من الناس بَيِّنٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

---

(١) الثيابُ المعصفرة هي التي صُبغت بالعُصْفُر ، وهو نباتٌ صيفي من الفصيلة المركبة أنبوبية الزهر ، ويستعمل زهره تابلا ، ومنه يستخرج صبغ أحمر يُصبغ به الحرير ونحوه ، (المجمع الوسيط عن المجمع اللغوي) .

(٢) الأرْجُوَان: الصبغ الأحمر ، أو الثوب المصبوغ به ،يقال : أحمر أرْجواني : قانٍ (مع) .

(٣) الأغمار : جمع غَمْر ، والرجل الغَمْر هو الذي لم يجرب الأمور ، أو الذي أصابته الغَمرْةُ ، وهي الضلالة التي تغمر صاحبها .

أَخبر تعالى عن الذين أُوتوا العلم والمعرفة بالله تعالى وبحق طاعته والإيمان به أَنَّهم زجروا الأَغمار الذين تَمَنَّوْا حالَ قارون ، وحملوهم على الطريقة المُثْلَى من أَن النظر والتَّمَنِّي إنما يكون في أُمور الآخرة ، وأَن حالة المؤمن العامل الذي ينتظر ثَّواب الله خيْرٌ من حال كلِّ ذي دنيا .

ثم أَخبر تعالى عن هذه النزعة وهذه القوة في الخير في الدِّين أَنَّه لَا يُلَقَّاهَا ، أَي : لا يُمَكَّن منها ويُخَوَّلُها إِلَّا الصَّابر على طاعة الله عزَّ وجلَّ ، وعن شهوات نفسه ، وهذا هو جماعُ الخير كله ، والضمير في [يُلَقَّاهَا] عائد على ما لم يتقدم له ذكر من حيْثُ الكلامُ دالٌّ عليه ، فلذلك يجري مجرى : ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(١) ، و ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢) . وقال الطبري : الضمير عائد على الكلمة ، وهي قوله : ﴿ثَوَابُ ٱللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ ، أَيْ : لا يُلَقَّى هذه الكلمة إِلَّا الصابرون ، وعنهم تصدر .

ورُوي في الخسف بقارون وداره أَن موسى عليه السلام لمَّا أَمَضَّه فعلُ قارون به ، وتعدِّيه عليه ، ورميه بأَمر المرأَة ، وغير ذلك من فعله ، استجار بالله تعالى وبكى وطلب النُّصرة ، فأَوحى الله تعالى إِليه : لا تهتم فإِنِّي أَمرتُ الأَرض أَن تطيعك في قارون وأَهله وخاصته وأَتباعه ،

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص) ، فمن الواضح المعروف أن الضمير يعود على الشمس.
(٢) الآية (٢٦) من سورة (الرَّحمن) ، ومن المعروف أن الضمير يعود على الأرض .

فقال موسى عليه السلام للأَرض : خُذيهم ، فأَخذت منهم إلى الرُّكب ، فاستغاثوا بموسى ، يا موسى ، فقال : خُذيهم ، فأَخذتهم شيئاً فشيئاً ، وهم يستغيثونَ به كلَّ مرَّة ، وهو يُلجُّ إلى أَن تَمَّ الخسف بهم ، فأَوحى الله تعالى إليه : يا موسى ، استغاثوا بك فلم ترحمهم ، لَوْ بِيَ استغاثوا وإليَّ تابوا لرحمتهم وكشفت مابهم ، وقال قتادة ، ومالك بن دينار : رُوي لنا أَنه يخسف به كل يوم قامة فهو يتجلجل إلى يوم القيامة .

و «الْفِئَةُ» : الجماعة الناصرة التي يفيءُ إليها الإنسان الطالب للنُّصْـرة .

وقصة قارون هي بَعْدَ جوازهم الْيَمَّ ؛ لأَن الرُّواة ذكروا أَنه كان ممن حفظ التوراة ، وكان يقرؤُها .

ثم أَخبر تعالى عن حال الذين تمنَّوْا مكانه بالأَمس ، وندمهم واستشعارهم أَن الحول والقوة لله تعالى ، وقوله : [وَيْكَأَنَّ] ، مذهب سيبويه والخليل أَن (وَيْ) حرف تنبيه ، وهي منفصلة عن (كَأَنَّ) ، لكن أُضيفت في الكتابة لكثرة الاستعمال ، [والمعنى أَن القوم انتبهوا فتكلموا على قدر علمهم ، أَو نُبِّهُوا فقيل لهم : أَما يُشبه أَن يكون هذا عندكم هكذا][١] ، فقالوا على جهة التَّعَجُّب والتَّندم : فإِنَّ الله يبسط الرزق.

---

(١) الكلام ما بين العلامتين [....] غير واضح في الأصل ، وفيه تخليط ، وقد نقلناه مصوباً عن الكتاب لسيبويه (٢–١٥٥) .

وقال أبو حاتم وجماعة من النحويين : (وَيْكَ) هي وَيْلَك ، حذفت لامه [١] وجرت في الكلام كذلك ، ومنه قول عنترة :

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا قِيلُ الْفَوَارِسِ : وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ [٢]

فكأن المعنى : ويْلَكَ ، اعلم أنَّ الله ، ونحو هذا من الإضمار للفعل [٣] .

وقالت فرقة من النحويِّين : [وَيْكَأَنَّ] بِجُملتها دون تقدير انفصالٍ ـ كلمةٌ بمنزلة قولك : ألم تَرَ أنَّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويَقْوَى الانفصالُ فيها على ما قاله سيبويه ؛ لأنها تجيءُ مع (أنَّ) ومع (أنْ) ، وأنشد سيبويه :

---

(١) سقطت كلمة (لامُه) من الأصل ، والمعنى يقتضيها .

(٢) البيت من معلقته المعروفة ، وشَفَى نفسي : اشْتفيت حيث قالوا لي أقْدم فأقدمْتُ ، ويقال : سُقْم وسَقَم ، مثل : عُدْمٌ وعَدَم ، ونُجْل ونَجَل ، و (وَيْكَ) معناه : ويْلَك ، فأسقط اللام ، وهو الشاهد هنا ، و (قِيلُ) فاعل بالفعل شَفَى ، و (عَنْتَرُ) فيه فتحُ الراءِ على الترخيم ، وضمُّها على أنه منادى مفرد ، وموضع (أقْدِم) مجزوم على الأمر ، والياءُ فيه عند من أثبتها صلةٌ لكسر الميم ، كقول امرئ القيس : (ألا أيُّها الليلُ الطويل ألا انْجَلِي) ، قاله الأنباري في شرح القصائد السبع . والذي قال له أقْدِم أبوه ، قال له : ويْكَ عنتر أقدم ، فقال : العَبْد لا يُحسن الكرّ ، إلا الحَلَبَ والصَّرّ » ، فلما اشتدت المعركة وخاف أن يضيع كل شيء قال له : أيْ بُنَيَّ : أما تَرَى ؟ قال عنترة : الآنَ نَعَم ، وعندها قال : وأبْرَأ سُقْمَهَا .

(٣) أنكر النحاسُ وجماعة ذلك ، وقالوا : إن المعنى لا يصح عليه ؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحداً فيقولوا له : ويلك ، ولو كان كذلك لكان : إنَّه بكسرالهمزة ، وأيضاً فإن حذف اللام من (وَيْلَكَ) لا يجوز . وقد نقل القرطبي ذلك .

وَيْ كَأَنْ منْ يكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْ بَبْ ومَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ (١)

وهذا البيت لزيد بن عمرو بن نُفَيْل .

وقرأ الأعمش : ﴿لَوْلَا مَنَّ ٱللَّهُ﴾ بحذف (أَنْ) ، ورُوي عنه : ﴿لَوْلَا مَنُّ﴾ برفع النون ، وبالإضافة إلى [ٱللَّهِ] . وقرأ الجمهور : [لَخُسِفَ] بضم الخاءِ وكسر السين ، وقرأ عاصم بفتح الخاءِ والسين ،

---

(١) البيت في اللسان ، والكتاب ، وابن يعيش ، والهَمْع ، والأشْموني ، والخزانة ، والخصائص، وشرح شواهد الشافية ، وعيون الأخبار ، والبُخَلاء ، وشرح القصائد السبع الطوال للأنباري ، وفيها أن الشاعر هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل ، وقيل : إنه لنبيه ابن الحجاج ، وقبل البيت يقول الشاعر :

تِلْكَ عِرْسايَ تَنْطِقَانِ عَلَى العَهْـ ـدِ إلى الْيَوْم قَوْلَ زُورٍ وَهِتْرِ

سَالَتَانِي الطَّــلاقَ أَنْ رَأَتَانِـي قَلَّ مالي ، قَدْ جِئْتُمَاني بِنُكْرِ

الهِتْرُ : الباطل ، والسقط من الكلام ، والكذب ، والأمر العجب . وكل هذا واردٌ هنا . وعلى هذا فالضمير في (سَالَتَانِي) يعود على زوجتيه في البيت الأول ، وسالَ مخفف من سأل بإبدال الهمزة ألفاً ، والنُّكْرُ بضم النون هو المنكر . والنَّشَب : المالُ ، والشاهد فيه أن [وَيْكَأَنَّ] عند الخليل وسيبويه مركبة من (وَيْ) للتنبيه ، و (كأَنْ) للتشبيه ، وابن عطية يختار هذا الرأي لأن (كَأَنْ) هنا جاءت بالنون الساكنة الخفيفة ، وقد استشهد بالبيت كل من الطبري والقرطبي والبحر ، وهو في معاني القرآن للفراء ، لكنه يرى أن قوله تعالى : [وَيْكَأَنَّ] هو كقول الرجل : أما ترى إلى صنع الله ؟ — قال : وأخبرني شيخ من أهل البصرة ، قال سمعتُ أعرابية تقول لزوجها : أين ابنُك ويْلَك ؟ فقال : ويْكَأَنَّه وراءَ البيت ، معناه : أما تَرَيْنَه وراءَ البيت ؟ وقد يذهبُ بعض النحويين إلى أنهما كلمتان ، يريد : وَيْكَ أنه ، أراد : وَيْلَكَ ، فحذف اللام وجعل (أنَّ) مفتوحةً بفعل مضمر ، كأنه قال : ويلك ، اعْلَم أنَّه وراء البيت ، فأضمر (اعْلَم) ، ولم نجد العرب تُعمل الظنَّ والعلم بإضمار مضمر في أنَّ .

وقرأ الأعمش ، وطلحة بن مصرف : «لانْخُسِفَ» كأنه فعل مطاوع أراد به أن الأرض كانت منفعلة ، ورُوي عن الكسائي أنه كان يقف على [وَيْ] ، ويبتدئ [كَأَنَّ] ، وروي عنه الوصل كالجماعة ، وروي عن أبي عمرو أنه كان يقف على [وَيْكَ] ، ويبتدئ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ، وعلى هذا المعنى قال الحسن : إن شئت : «وَيْكَ أَنَّ» أَوْ «وَيْكَ إِنَّ» بفتح الهمزة وبكسرها ، فكذلك في [وَيْكَأَنَّه] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

هذا إخبارٌ مستأنف من الله تعالى لنبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم ، يُراد به إخبار جميع العالم وحَضِّهم على السَّيْر بحسب ما تضمَّنته الآية ، وهذا الحضُّ يتضمَّن الإنحاء على قارون ونظرائه ، والمعنى

أن الآخرة ليست في شيءٍ من أمر قارون ، إنما هي لمن صفتُه كذا وكذا.
و «العُلُوُّ» مذموم ، وهو الظُّلْم والتَّجبُّر ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :
(وذلك أن تُرِيد أن يكون شراك نعلك أفضل من شراك نعل أخيك)(١) ،
و «الفَسَادُ» يعم جميع الوجوه من الشَّرِّ ، ومما قال العلماءُ : هو أَخْذ
المال بغير حق ، وقوله : ﴿وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبر منفصل .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ معناه : إمَّا في
الدُّنيا وإمَّا في الآخرة ولابُدَّ ، ففي وصف أمر جزاءِ الآخرة أنَّه من
عمِلَ صالحاً فَلَهُ خَيْرٌ من القَدْر الذي يقتضي النظرُ أنه مُوَازٍ لذلك
الفعل ، هذا على أن تُجعل الحسنة في التَّفضيل ، وفي القول حذفٌ

(١) أثبت الإمام السيوطي في الدر المنثور هذا القول للإمام عليٍّ رضي الله عنه ، قال :
أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن علي بن أبي طالب رضي
الله عنه قال : «إن الرجل ليحبُّ أن يكون شِسْعُ نعله أفضل من شِسْع نعل صاحبه فيدخل في
هذه الآية : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ
ولا فَسَاداً﴾ .» ، ولم نجده بهذا اللفظ مرفوعاً . أما الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم
فهو ما رواه الإمام أحمد في مسنده (١-٣٩٩) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : (لا يدخل النار من كان في قلبه مثقالُ حبَّة من إيمان ، ولا يدخل الجنة من كان
في قلبه مثقال حبَّة من كبر) ، فقال رجل : يا رسول الله ، إنِّي ليُعجبني أن يكون ثوبي غسيلا ،
ورأسي دهيناً ، وشراك نعلي جديداً ، وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه — أفَمِنَ الكبر
ذاك يا رسول الله ؟ قال : (لا ، ذاك الجَمَال ، إن الله يحب الجَمَال . ولكن الكِبْر من سفه
الحق وازْدَرى الناس) .

مضافٍ ، أي : مِنْ ثوابها الموازي لها ، ويحتمل أن تكون [مِنْ] لابتداءِ الغاية ؛ أي : له خير بحسب حسنته ومِن أجلها ، وأخبر تبـارك وتعـالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤُها فَضْلاً منه ورحمة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ﴾ معناه : أَنْزَلَهُ عليك وأثبته ، والفَرْضُ أصله عَمَلٌ فَرَضَه في عَوْدٍ أو نحوه ، فكأن الأشياء التي تثبت وتمكن وتبقى تشبه ذلك الفرض . وقال مجاهد : معناه : أعطاك القرآن ، وقالت فرقة : في هذا القول حذف مضاف ، والمعنى : فَرَضَ عليك أحكام القرآن .

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ـ فقال جمهور المتأولين : أراد : إلى الآخرة ، أي : باعثُك بعد الموت ، فالآية ـ على هذا ـ مقصدها إثباتُ الحشر ، والإعلامُ بوقوعه . وقال ابن عباس ، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم : وغيرهما : الْمَعَاد : الجنة ، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة : المعادُ : الموتُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فكأن الآية ـ على هذا ـ واعظةٌ ومذكرة .

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد : المعادُ مكة ، وهذه الآية نزلت بالجحفة ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته إلى المدينة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالآية ـ على هذا ـ مُعْلِمة بغيب قد ظهر للأُمَّة ، ومؤْنسة بفتح ، و «المعاد» : الموضع الذي يعاد إليه ، وقد اشتهر به يوم القيامة لأنه مَعادٌ للكل .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ﴾ الآية ، آية متاركة للكفار وتوبيخ ، وأسند الطبريُّ في تفسير قوله تعالى : ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : الجنة ، وسمَّاها معاداً إمَّا من حيث قد دخلها النبي صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج وغيره ، وإمَّا من حيث قد كان فيها آدم عليه السلام ؛ فهي معادٌ لذريته .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما قال هذا من حيث تعطي لفظة «المعاد» أن المخاطب قد كان في حال يعود إليها ، وهذا وإن كان مما يظهر في اللفظة فيتوجه أن يُسمى معاداً ما لم يكن المرءُ فيه مجوزاً ؛ ولأنها أحوالٌ تابعة للمعاد الذي هو النشور من القبر .

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو﴾ الآية . قال بعض المفسرين : هذا ابتداءُ كلام مضمنه تقدير النعمة على محمد صلى الله عليه وسلم ،

وأن الله تبارك وتعالى رحِمَهُ رحْمَةً لم يحتسبها ولا بلغها أَمَلُه ، وقال بعضهم : بل قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو﴾ الآية كلام معلق بقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ﴾ أي : وأنت بحال من لا يرجو ذلك . وقوله تعالى : ﴿يُلْقَى إِلَيْكَ﴾ عبارة عن إعلان النُّبُوَّة وتبليغ القرآن ، كما تقول : أُلْقِيَ فُلانٌ إلى فلانٍ بالرياسة ، ونحو هذا ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ نصب على استثناءٍ منقطع ، و «الظَّهيرُ» : المُعين ، أي : اشتـد يا محمـد في تبليغك ، ولا تَلِنْ ، وَلَا تفشل ، فتكون معونَتُه للكافرين بهذا الوجـه ، أي : بالفتور عنهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي : بأقوالهم وكذبهم وأذاهم ، فلا تلتفت نحوه وٱمْضِ لشأنك ، وقرأ يعقوب : ﴿وَلَا يَصُدُّنْكَ﴾

بجزم النون[١] ، وقوله : ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وجميع الآية - يتضمن المهادنة والموادعة ، وهذا كله منسوخ بآية السيف .

وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه من تعظيم أوثانهم ، وعند ذلك ألقى الشيطانُ في أُمنيته أمْر الغرانيق .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾ نَهْي عما هم بسبيله ، فهم المراد وإن عري اللفظ من ذكرهم ، وقوله سبحانه : ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قالت فرقة : هي عبارة عن الذات ، والمعنى : هالك إلَّا هُو ، قاله الطبري وجماعة منهم أبو المعالي رحمه الله ، وقال الزَّجَّاج : إلَّا إيَّاه ، وقال سفيان الثوري : المراد : إلَّا ما أُدِّي لوجهه ، أي : ما عُمل لذاته من طاعة ، وتُوُجِّه به نحوه ، ومن هذا قول الشاعر :

. . . . رَبُّ الْعِبَادِ إلَيْهِ الْوَجْهُ والْعَمَلُ[٢]

---

(١) قراءة الجمهور بشدِّ النون ، وقراءة يعقوب بتسكين النون ، والقراءتان على أن الفعل مضارع (صَدَّ) ، وقرئ [يُصِدُّنَّكَ] من (أَصَدَّ) بمعنى (صَدَّ) ، وهي لغة في كلب ، قال ذو الرمة :

أناسٌ أَصَدُّوا الناسَ بالسَّيْفِ عَنْهُمُ صُدودَ السَّوَاقي عنْ أنُوفِ الحَوَائِمِ

(٢) هذا عجز بيت ، وهو من الأبيات الخمسين التي استشهد بها سيبويه ولم يُعرف قائلها ، وهو شاهد عند النحويين على أن أصله: (أستغفر الله مِنْ ذنب) ، ثم أسقط الجار ، فاتصل =

ومنه قول القائل : «أردتُ بفعلي وجْهَ اللهِ تعالى» . ومنه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(١).

وقوله تعالى : ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي فصْل القضاءِ وإنفاذه في الدنيا والآخرة ، وقوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إخبارٌ بالحَشْرِ والعودة من القبور . وقرأ الجمهور : [تُرْجَعُونَ] بالتاءِ وفتح الجيم ، وقرأ عيسى : [يَرْجِعُونَ] بفتح الياءِ وكسر الجيم ، وقرأ أبو عمرو بالوجهين .

كمل تفسير سورة القصص والحمد لله ربِّ العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

= المجرور بالفعل ، فنصب مفعولا به ، ولكن الشاهد هنا أن الوجه بمعنى : ما عُمِل لذات الله ، والبيت بتمامه :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ والْعَمَلُ

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الأنعام) ، ومثلها قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة (الكهف) : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة العنكبوت

هذه السُّورة مكيَّة إلَّا الصدر منها ، العشر آيات ، فإنها مدنية ، نزلت في شأن من كان من المسلمين بمكة ، وفي هذا اختلاف (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾

---

(١) خلاصة هذا الاختلاف أن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد يقولون : كلُّها مكية . وابن عباس في واحد من قولين له ومعه قتادة يقولان : كلها مدنية ، وفي قول آخر لابن عباس أنها مكية إلا عشر آيات في أولها ؛ فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان بمكة من المسلمين ، وهو قول يحيى بن سلاّم . وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: نزلت بين مكة والمدينة ، وآياتها تسع وستون آية .

تقدم القول في الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور ، وقرأ ورش : ﴿الٓمَ ٱحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ بفتح الميم من غير همز بعدها ، وذلك على تخفيف الهمزة وإلقاء حركتها على الميم [1] .

وهذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يُؤذونهم ويُعذبونهم على الإسلام ، فكانت صدورهم تضيق لذلك [2] ، وربما استُنْكِر أن يُمَكِّن الله الكفرة من المؤمنين ، قال مجاهد وغيره : نزلت هذه الآية مُسَلِّية ومعلِّمة أن هذه السيرة هي سيرة الله تبارك وتعالى في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة ؛ ليعلم الصادق ويرى ثواب الله تعالى له ، ويعلم الكاذب ويرى عقابه إياه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الآية ـ وإن كانت نزلت بهذا السبب ، وفي هذه الجماعة ـ فهي بمعناها باقية في أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم ، موجودٌ حُكْمها

---

(١) الأوضح في رسم الكلمات على قراءة ورش هذه أن تكتب هكذا : (ألفْ لامْ ميمَ حَسِبَ) ، وقد ضعَّف ابن جني هذه القراءة ؛ لأن حروف التَّهَجِّي مبنية على الوقف في حال الوصل ؛ فإذا كانت في الإدراج ساكنة لم يَلِيقْ بها إلقاءُ الحركة عليها ؛ لأن إلقاء الحركة إنما يكون لما من عادته أن يُحَرَّك في الوصل لالتقاء الساكنين ، وأنت تقول ﴿ميمْ أَحَسِبَ﴾ فتجمع بين الساكنين ، الياء والميم ، فإذا كان الساكنان يجتمعان في الوصل ضعف إلقاءُ حركة الهمزة عليها (راجع المحتسب ٢ــ١٥٨) .

(٢) قال العلماءُ : من هؤلاء المؤمنين الذين كانوا بمكة سَلَمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار بن ياسر ، وأبوه ياسر ، وأمه سُمَيَّة ، وغيرهم .

بقية الدهر ، وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونِكاية العدوّ وغير ذلك ، وإذا اعتبر أيضاً كلُّ موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ، ولكن التي تُشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه مع أمر العدوّ في كل ثغر(١) .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في عمّار ابن ياسر – ؛ إذ كان يُعذب في الله – ونُظَرائه . وقال الشعبي : سبب الآية ما كُلِّفه المؤمنون ، أمّا الفتنة فهي الهجرة التي لم يتركوا دونها ؛ لا سيّما وقد لحقهم بسببها أن اتبعهم الكفّار وردُّوهم وقاتلوهم ، فقُتل من قُتل ونجا من نجا . وقال السدي : نزلت في مسلمين كانوا بمكة وكرهوا الجهاد والقتال حين فرض على النبي صلى الله عليه وسلم .

و [حَسِبَ] معناه : ظَنَّ ، و [أَنْ] نصب بـ [حَسِبَ] ، وهي والجملة التي بعدها تَسُدُّ مسدَّ مفعولَيْ [حَسِبَ] ، و [أَنْ] الثانية في موضع نصب على تقدير إسقاط حرف الخفض ، وتقديره : «بأَنْ يقولوا» ، ويحتمل أن يقدر : «لأَنْ يقولوا» ، والمعنى في الباء واللام مختلف ، وذلك أنه في الباء كما تقول : «تركت زيداً بحاله» ، وهو

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا ، وعلّق عليه بقوله : «ما أحسن ما قاله ، ولقد صدق فيما قال رضي الله عنه» .

في اللام بمعنى : «مِنْ أَجْل» ، أي : حسبوا أن إيمانهم علّةٌ للترك .

و ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يريد بهم المؤمنين مع الأنبياء في سالف الدهر .

وقرأ الجمهور : [فَلَيَعْلَمَنَّ] بفتح الياء واللام الثانية ، ومعنى ذلك : ليُظْهِرنَّ علمه ويُوجد ما علمه أزلاً ، وذلك أن علمه بهذا أزلاً قديم ، وإنما هو عبارة عن الإيجاد بالحالة التي تضمنها العلم القديم ، والصدق والكذب على بابهما ، أي : مَنْ صَدَق فعلُه وقولُه ومَن كذَب . وقالت فرقة : إنما هي استعارة ، وإنما أراد بهما الصَّلابة في الدِّين ، والاضطراب فيه وفي جهاد العدوِّ ، ونحو هذا ، ونظير هذا قول زهير :

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يصْطَادُ الرِّجالَ إذا ما كذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أقْرَانِهِ صَدَقَا [1]

قال النقاش : وقيل : إن الإشارة بـ [صَدَقُوا] إلى مِهْجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ؛ لأنه أوّل قتيل قُتل من المؤمنين يوم بدر [2] .

---

(١) البيت من قصيدة لزهير يمدح بها هَرِم بن سنان . والليث هو الأسد ، وأراد بكلمة (ليث) الأولى هرماً ، وعَثَّر : موضع ، والأقران : جمع قِرْن وهو الصاحب ، أو المِثْل في الشجاعة والقتال . يقول : إن هرماً في الشجاعة والقتال مثل الأسد الذي يصطاد الرجال في عثَّر ، ولكن إذا حمي القتال ، وكذب الأسد وخانته شجاعته فإن هرماً يبقى على شجاعته لا يَجْبُن ولا يفر من المعركة .

(٢) رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (سيِّد الشهداء مِهْجع ، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة) .

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه [1] : [فَلَيُعْلِمَنَّ] بضم الياء وكسر اللام الثانية ، وهذه القراءة تحتمل ثلاثة معانٍ : أحدها أن يُعْلِم في الآخرة هؤلاء الصَّادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه ، وبأعمالهم في الدنيا ، بمعنى يوقفهم على ما كان منهم [2] . والثاني أن يُعْلِمَ الناسَ والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين ، أي : يفضحهم ويُشَهِّرهم ، هؤلاء في الخير ، وهؤلاء في الشَّر ، وذلك في الدنيا والآخرة [3] ، والثالث أن يكون ذلك من العلامة ، أيْ : يضع لكل طائفة عَلَماً تُشهر به [4] ، فالآية ـ على هذا ينظر إليها قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من أسرَّ سريرة ألْبسه الله رداءها) . وعلى كلٍّ معنًى مِنْها ففيها وعْدٌ للمؤمنين الصادقين ، ووعيدٌ للكافرين .

وقرأ الزهري الأُولى كقراءة الجماعة ، والثانية كقراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

---

(١) وقرأ بها أيضاً جعفر بن محمد .

(٢) فالفِعْل (يُعْلم) مضارع (عَلِمَ) المتعدية إلى مفعول واحد ، والثاني محذوف ، وتقديره كما قال ابن عطية : يعلمهم منازِلهم وأعمالهم .

(٣) المحذوف هنا هو المفعول الأول ، ويظهر في تقدير ابن عطية : يُعْلِمُ الناسَ والعالَم .

(٤) الفعل هنا متَعَدٍّ إلى مفعول واحد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧ ﴾

[أَمْ] معادلة للألف في قوله : [أَحَسِب] ، وكأنه عزَّ وجلَّ قرَّر الفريقين ، قرَّر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يفتنون ، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات بتعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون عقاب الله تعالى ويُعجزونه .

وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ـ وإن كان الكفَّارُ المرادَ الأول بحسب النازلة التي الكلام فيها ـ فإن لفظ الآية يعم كل عاصٍ وعاملِ سيئةٍ من المسلمين وغيرهم . وقوله : ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يجوز أن تكون [مَا] بمعنى الذي ، فهي في موضع رفع ، ويجوز أن تكون في موضع نصب على تقدير : ساءَ حُكْماً يحكمونه [1] . وفي هذه

(١) إذا كانت [ما] موصولة في موضع رفع فإن صلتها هو قوله : [يَحْكُمُونَ] ، وإذا كانت في موضع نصب فهي تمييز ، و [يَحْكُمُونَ] صفة ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : حُكْمُهُم . وقال ابن كيسان : [مَا] مصدرية ، والتقدير : بئس حكمهم ، وعلى هذا يكون التمييز محذوفاً ، أي : ساءَ حُكْماً حُكْمُهُم .

الآية وعيدٌ للكفرة ، وتـأْنيس للمؤمنين يظهر في وعده بالنصر في القيامة ، وبـأَنه آتٍ ؛ إذ قد أَجَّله الله تعالى وأَخبر به .

وفي قوله : ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللَّهِ﴾ تثبيتٌ ، أي : من كان على هذا الحق فليوقن بـأَنه آتٍ وليزدد بصيرة ، وقال أَبو عبيدة : [يَرْجُو] هنا بمعنى : يخاف[1] ، والصحيح أَن الرجاءَ هنا على بابه ، وقال الزَّجَّاج : المعنى : يرجو لقاءَ ثواب الله ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ معناه : السميع لأَقوال كلِّ فِرْقَة ، العليم بالمعتقدات التي لهم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ إعلامٌ بـأَن كل أَحد مجازى بفعله الحسن ، فهو حظُّه الذي ينبغي أَلَّا يفرط فيه ، فإن الله غني عن جهاده وعن العالمين بـأَسرهم .

وهاتان الآيتان كـأَنهما [.....] [2] على سواءٍ إلى الطائفة المرتابة المترددة في فتنة الكفار ، التي كانت تنكر أَن ينال الكفارُ المؤمنين بمكروه ، وترتاب من أَجل ذلك ، فكـأَنهم قيل لهم : من كان يؤمن

---

(١) ورد ذلك في كلام العرب ، وقد استشهد العلماء لهذا من كلام الشعراء بقول الهذلي في وصف عسَّال :

إذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا في بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ

(٢) بين العلامتين [......] كلمة لم نستطع قراءتها .

بالبعث فإن الأَمر حق في نفسه ، والله تعالى بالمرصاد ، أي : هذه بصيرة لا ينبغي أَن يعتقدها لوجه أَحد . وكذلك من جاهد فثمرة جهاده له ، فلا يَمُنُّ ذلك على أَحد ، وهذا كما يقول المناظر عند سوق حجته : من أَراد أَن ينظر إلى الحق فإن الأَمر كذا وكذا ، ونحو هذا فتأَمله .

وقيل : معنى الآية : ومن جاهد عدوَّه لنفسه لا يريد وجه الله ، فإنما جهاده لنفسه لا لِله تعالى ، وليس لله حاجة بجهاده .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ذكره المفسرون ، وهو قول ضعيف .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية ، إخبارٌ عن المؤمنين المجاهدين الذين هم في أَعلى رتبة من البدار إلى الله تبارك وتعالى ، أَشاد بهم عزَّ وجلَّ وبحالهم ليُقِيم بهم نفوس المتخلفين عن الهجرة ، وهم الذين فتنتهم الكفار – إلى الحصول في هذه المرتبة ، و «السَّيِّئَةُ» : الكفر وما اشتمل عليه ، ويدخل في ذلك المعاصي من المؤمنين مع الأَعمال الصالحة واجتناب الكبائر ، وفي قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ حذف مضاف تقديره : ثوابَ أَحْسن الذي كانوا يعملون[1] .

---

(١) قال أبو حيان تعقيباً على ذلك : «وهذا التقدير لا يسوغ ؛ لأنه يقتضي أن أُولئك يجزون ثواب أحسن أعمالهم ، وأما ثواب حَسَنِها فمسكوت عنه ، وهم يجزون ثواب الأحسن والحَسَن؛ إلا إذا أُخرجت [أحْسَن] عن بابها من التفضيل فإنه يسوغ ذلك» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : [وَوَصَّيْنَا] الآية . رُوي عن قتادة أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وذلك أنَّه هاجر ، فحلفت أُمُّه ألَّا تَسْتَظِل بِظِلٍّ حتى يرجع إليها ويكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فَلَجَّ [١] هو في هجرته ، ونزلت الآية [٢] . وقيل : بل نزلت في عياش بن

(١) لَجَّ في الأمر لجاجةً : لازمه وأبَى أن ينصرف عنه .

(٢) رُوي عن سعد رضي الله عنه أنه قال : «كُنتُ باراً بأُمِّي ، فأسْلمتُ ، فقالت : لتدعنَّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى تموت فتُعَيَّر بي ، ويقال : يا قاتل أُمِّه ، وبقيتُ يوماً ويوماً ، فقلتُ : يا أُمَّاه ، لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفْساً ما تركت ديني هذا ، فإن شئْتِ فكُلي ، وإن شئْتِ فلا تأكُلي ، فلمَّا رأت ذلك أكَلَتْ ، ونزلت : ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ الآية . (أسباب النزول) للواحدي .

أبي ربيعة ، وذلك أنه اعتراه في دينه نحو من هذا ؛ إذ خدعه أبو جهل لعنة الله عليه وردَّه إلى أُمِّه ... الحديث في كتاب السيرة (١) .

ولا مرية أنها نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة يشقى بجهاد أبويه في شأن الإسلام والهجرة ، فكأن القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأبوين في مثل هذا الأمر العظيم ، ولما كان برُّ الوالدين وطاعتهما من الأُمور التي قررتها الشريعة وأكَّدتها ، وكان من الأمر القوي الملزم عندهم ، قدم تعالى على النهي عن طاعتهما في الشِّرك بالله قوله : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ ، على معنى : إنا لا نحل عقوق الوالدين ، لكنا لا نسلط ذلك على طاعة الله تعالى ، لاسيما في معنى الإيمان والكفر .

وقوله : [حُسْناً] يحتمل أن ينتصب على المفعول ، وفي ذلك تجوُّز ، ويسهله كونه عامًّا لمعان ، كما تقول : وصيتك خيراً ، وأوصيتك

---

(١) عيَّاش بن أبي ربيعة هو أخو أبي جهل لأمِّه ، وقد أسلم وهاجر مع عمر رضي الله عنه ، وكانت أمُّه شديدة الحُبِّ له ، وحلفت على مثل ما حلفت عليه أم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، فتحيَّل عليه أبو جهل وأخوه الحارث ، فشدَّا وثاقه حين خرج معهما من المدينة إلى أمِّه قاصداً أن يراها ، وجلده كل منهما مائة جلدة وردَّاه إلى أمِّه ... وذلك في خبر طويل في السيرة ، ذكره الطبري ، والواحدي .

شرًّا ، عبَّرتَ بذلك عن جملة ما قلتَ له ، وَيُحَسِّن ذلك دون حرف الجرِّ كونُ حرف الجرِّ في قوله : [بِوَالِدَيْهِ] ؛ لأَن المعنى : ووصينا الإنسان بالحسن في فعله مع والديه ، ونظير هذا قول الشاعر :

عَجِبْتُ مِن دَهْمَاءَ إذْ تَشْكُونَـا وَمِنْ أَبي دَهْمَـاءَ إذْ يُوصِينَـا

خَيْراً بِهَا كَأَنَّنَا جَافُونَـا [1]

ويحتمل أَن يكون المفعول الثاني في قوله : [بِوَالِدَيْهِ] ، وينتصب [حُسْناً] بفعل مضمر تقديره : يحسن حسنا ، وينتصب انتصاب المصدر ، وقرأَ عيسى والجحدري : [حَسَناً] بفتحتين ، وقال الجحدري : في الإمام مكتوب : «بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً» ، قال أَبو حاتم : يعني كالأَحقاف ، وقال التغلبي : في مصحف أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه : [إِحْسَاناً] .

وقوله تعالى : ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر .

---

(١) استشهد الفراء بهذه الأبيات الثلاثة في معاني القرآن ، قال : «والعرب تقول : أُوصيك به خيراً ، وآمرك به خيراً ، وكأن معناه : آمرك أن تفعل به ... ثم تحذف (أنْ) فتوصل الخير بالوصية وبالأمر ، ثم ذكر الأبيات» . ومثله قولُ الحطيئة يُوَصِّي ابنته بَرَّة :

وصَّيْتُ مِنْ بَرَّةَ قَلْباً حُـرّاً بالكَلْبِ خَيْراً وَبالْحَمَاةِ شَـرّاً

وعلى هذا تكون الباء في قوله تبارك وتعالى : [بِوَالِدَيْهِ] ، وفي قول الشاعر الذي يعجب من دهماء ومن والدها : (بها) ، وفي قول الحطيئة : (بالحماة وبالكلب) ظرفية بمعنى (في) ، والتقدير في الآية الكريمة: «ووصينا الإنسان في أمر والديه بخير» ، وقد وضح ابن عطية ذلك . وتأمل المفارقة في بيت الحطيئة حين يفضل الكلب على الحماة .

ثم كرَّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين ليحرِّك النفوسَ إلى نيل مراتبهم ، وقوله تعالى : ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّالِحِينَ﴾ مبالغة ، على معنى : الذين هم في نهاية الصلاح وأبْعَدِ غاياتِه ، وإذا تحصَّل للمؤْمنين هذا الحكم تحصل ثَمَرُه ، وجزاؤُه هو الجنة .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية إلى قوله : ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ ، نزلت في قوم من المسلمين كانوا بمكة مختفين بإسلامهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فلما خرج كفار قريش إلى بدر أخرجوا مع أنفسهم طائفة من هؤلاء ، فأُصيب بعضهم ، فقال المسلمون : كانوا أصحابنا وأُكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾[1] الآية ، قال : فكتب المسلمون لمن بقي بمكة هذه الآية ، وألَّا عُذْر لهم ، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة وردُّوهم إلى مكة ، فنزلت فيهم الآية : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ الآية [2] ، فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا ويئسوا من كل خير ، ثم نزلت فيهم : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا

---

(١) من الآية (٩٧) من سورة (النساء) .
(٢) هي آيتنا التي نحن بصدد تفسيرها .

مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1] ، فكتب المسلمون إليهم بذلك ، وأن الله تعالى قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا ، فلحقهم المشركون فقاتلوهم ، فنجا من نجا ، وقُتل من قُتل [2] .

وقال ابن زيد : نزل قوله تعالى : ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ في منافقين كفروا لمَّا أُوذوا .

وقوله تعالى : ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي : صعب عليه أذى الناس حين صدُّوه ، وكان حقُّه ألَّا يلتفت إليه ، وأن يصبر عليه في جنب نجاته من عذاب الله تعالى . ثم أزال تعالى موضع تعلُّقهم ومغالطتهم إنْ جاءَ نَصْر ، ثم قرَّرهم على علم الله تعالى بما في صدورهم ، أيْ : لو كان يقيناً تامًّا وإسلاماً خالصاً لما توقفوا ساعة ، ولركبوا كل هول إلى هجرتهم وراءَ نبيِّهم .

وقوله تعالى : ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ تفسيره على حدِّ ما تَقَدَّم في نظيره .

وهنا انتهى المدني من هذه السورة .

---

(١) الآية (١١٠) من سورة (النَّحل) .

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سُننِه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، (الدر المنثور) . هذا وقد سبق الاستشهاد به في سورة (النساء) عند تفسير الآية (٩٧) ، راجع الجزء الرابع صفحة ١٩٠ وما بعدها .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

رُوي أن قائل هذه المقالة الوليدُ بن المغيرة ، وقيل : بل كانت شائعة من كفار قريش ، قالوا لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم : ادخلوا في أمرنا ، وأقروا بآلهتنا واعبدوها ، ونحن ليقيننا أنه لا بعث بعد الموت ولا رجوع نضمن لكم خطاياكم ، ونحملها عنكم فيما دعوناكم إليه إن كان في ذلك درك كما تزعمون أنتم ، وقولهم : [وَلْنَحْمِلْ] إخبارٌ أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالنقل ، ولكنهم أخرجوه في صيغة الأمر لأنها أوجب وأشدُّ تأكداً في نفس السامع من المجازات ، وهذا نحو قول الشاعر :

فقُلْتُ ادْعِي وأَدْعُ فَإِنَّ أَنْدَى   لِصَوْتٍ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ [(١)]

(١) البيت في (اللسان — ندى) — وهو لِدثار بن شَيْبان النَّمَري ، قال صاحب اللسان : والنَّدَى : بُعْد الصوت ، ونَدَى الصوت : بُعْد مذهبه ، وفُلانٌ أَنْدى صوتاً من فُلان ،=

ولكونه خبراً حسُن تكذيبهم فيه ، فأَخبر الله عزَّ وجلَّ أن جميع ذلك باطلٌ ، وأنهم لو فعلوه لم يُتَحَمَّل عن أحد من هؤلاء المغترِّين بهم شيءٌ من خطاياه التي تختص به .

وقرأ الجمهور : [وَلْنَحْمِلْ] بجزم اللام ، وقرأ عيسى ونوح القارئ : [وَلِنَحْمِلْ] بكسر اللام . وقرأ داود بن أبي هند : ﴿مِنْ خَطَيِهِمْ﴾ بكسر الياء وفتح الطَّاء[1] ، وحكى عنه أبو عمرو أنه قرأ : ﴿مِنْ خَطِيئَاتِهِمْ﴾ بكسر الطَّاء وهمزة وتاءٍ بعد الأَلف . وقال مجاهد : الحملُ هنا من الْحَمَالة لا من الْحَمْل على الظهر[2] .

= أي : أبْعَد مذهباً وأرفع صوتاً ، وأنشد الأصمعي لِدِثار بن شَيْبَان النَّمَرِيّ :

تَقُولُ خَلِيلَتِي لَمَّا اشْتَكَيْنَا ... سَيُدْرِكُنَا بَنِي القَوْمِ الْهِجَانِ

فَقُلْتُ ادْعِي وأَدْعُ فإنَّ أَنْدَى ... لِصَوْتٍ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ »

وفي شرح الشواهد للعيني قال : تعليقاً على البيت : « قاله الأعشى أوالحطيئة فيما زَعَمَ ابن يعيش ، أو ربيعة بن جُشَم فيما زعم الزمخشري ، أو دِثار بن شيبان النَّمَرِيُّ فيما زعم ابن بِرِّي ، وهو من الوافر ، والشاهد في (وَأَدْعُوَ) حيث نصب الواوَ فيه بتقدير : وأَنْ أَدْعُوَ ، ويروى : (وادْعُ) على الأمر بحذف اللام ، إذ أصله : ولْأَدْعُ » . اهـ .

وفي (معاني القرآن) للفراء : « [وَلْنَحْمِلْ] هو أمْرٌ فيه تأويل جزاء ، وهو كثير في كلام العرب ، قال الشاعر ... فقلت ادْعِي وأَدْعُ ... البيت — أراد : ولْأَدْعُ ، كأنه قال : إنْ دعَوْتِ دعَوْتُ » اهـ .

(١) معنى كسر الياءِ في هذه القراءة هو تسهيل الهمزة ، أي أن الأصل همزة سهلت فصارت شبيهة بالياء ، وروي عن داود بن هند هذا فيما ذكر أبو الفضل الرازي أنه قرأ : ﴿مِنْ خَطِيئَتِهِمْ﴾ بالإفراد .

(٢) يريد بالحَمَالة : تحمل المسئولية والاضطلاع بها خيراً كانت أو شرّاً .

ثم أخبر تعالى عن أُولئك الكفرة أنهم يحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ، أي : أثْقَالاً من كفرهم الذي يخترعونه ويتلبّسون به ، ﴿وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يريد : ما يلحقهم من أعوانهم وأتباعهم ؛ فإنه يَلْحق بكلِّ داعٍ إلى ضلالة كِفْلٌ منها حسب الحديث المشهور ، (أيما داعٍ دعا إلى هُدًى فاتُّبع عليه فله مثل أُجور من اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً ، وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة ...) الحديث [1] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما كانت مع أثقالهم لكونها بسبب غيرهم وعن غير كفر تلبسوه ، فرَّق بينها وبين أثقالهم ، ولم ينسبها إلى غيرهم ، بل جعلها في رُتْبة أُخرى فقط ، فهم فيها إنما يَزِرُون وِزْر أنفسهم ، وقد يترتب حمل أثقال الغير بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم : (فَإن لم يبق

---

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه ، ولفظه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أَيُّمَا داعٍ دعا إلى هُدىً ، فاتبع عليه وعمل به ، فله مثل أُجور الذين اتبعوه ، ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، وأَيُّمَا داعٍ دعا إلى ضلالة فاتّبع عليها وعمل بها ، فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ، ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً) ، قال عون : وكان الحسن رضي الله عنه مما يقرأ عليها : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إلى آخر الآية ، (الدر المنثور) .

للظالم أُخذ من سيئات المظلوم فاطرح فطُرح عليه)[١] . وقوله تعالى : [وَلَيُسْأَلُنَّ] على جهة التوبيخ والتَّقريع ، لا على جهة الاستفهام والاستعلام ، و [يَفْتَرُونَ] معناه : يختلقون من الكفر ودعْوى الصاحبة والولد وغير ذلك لله عزَّ وجلَّ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً﴾ الآية . قصة فيها تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم عمَّا تضمنته الآيات فيها من تعنُّت قومه ، وفتنتهم للمؤمنين وغير ذلك ، وفيها وعيدٌ لهم بتمثيل أمرهم بأمر قوم نوح ، والواو في قوله : [وَلَقَدْ] عاطفةٌ جملةَ كلام على جملة كلام ، والقَسَم فيها بعيد[٢] . وقوله تعالى : [أَرْسَلْنَا] ، [فَلَبِثَ] ، هذا العطف بالفاء يقتضي ظاهِرُه أنه لبث هذه المدة رسولاً يدعو ،

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إيَّاكم والظلم فإن الله يقول يوم القيامة : وعزَّتي لا يجيزني اليوم ظلم ، ثم ينادي مناد فيقول : أين فلان بن فلان ؟ فيؤتى ، فيتبعه من الحسنات مثل الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم ، ثم يقوم بين يدي الرحمن ، ثم يأمر المنادي ينادي : من كانت له تباعة أو ظُلامة عند فلان ابن فلان فهلم ، فيقومون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن ، فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدي ، فيقولون : كيف نقضي عنه ؟ فيقول : خذوا لهم من حسناته ، فلا يزالون يأخذون منها حتى لا تبقى منها حسنة ، وقد بقي من أصحاب الظلامات ، فيقول : اقضوا عن عبدي ، فيقولون : لم يبق له حسنة ، فيقول : خذوا من سيِّئاتهم فاحملوها عليه) ، ثم نزع النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ .

(٢) يعني أن يكون المُقْسَم به قد حذف ، وبقي حرف القسم والجواب ، وسبب البعد أن في ذلك حذفاً للمجرور وإبقاءً للجارِّ ، وحرف الجرِّ لا يُعَلَّق عن عمله ، بل لابد من ذكره .

وقد يحتمل أن تكون المدة المذكورة مدة إقامته ، من لدن مولده إلى غرق قومه (١) ، وأما على التأويل الأول فاختُلف في سنِّه التي بُعث عندها — فقيل : أربعون ، وقيل : ثمانون ، وقال عون بن أبي شدّاد (٢) : ثلاثمائة وخمسون ، ولذلك يحتمل أن تكون وفاته عليه السلام عند غرق قومه بعد ذلك بِيَسير ، وقد رُوي أنه عمّر بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين عاماً ، وأنه عاش ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة (٣) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ يقتضي أنه أخذ قومه فقط ، وقد اختُلف في ذلك — فقالت فرقة : إنما غرق في الطوفان طائفة من الأرض وهي المختصة بقوم نوح ، وقالت طائفة — هي الجمهور — : إنما غرقت المعمورة كلها .

---

(١) قال أبو حيان : « ليس عندي محتملا ؛ لأن اللُّبْث متعقب بالفاء الدالة على التعقيب » .

(٢) هو عون بن أبي شداد العَقيلي — بفتح أوله — وقيل : العبدي : أبو مَعْمَر البصري ، قال عنه في (تقريب التهذيب) : « مقبول ، من الخامسة » .

(٣) تساءل بعض العلماء : ما فائدة الاستثناء في قوله : ﴿إلا خَمْسِين عَاماً﴾ ، ولماذا لم يقل : « تسعمائة وخمسين » ؟ وأجابوا عن ذلك بأمرين : الأول أن المراد تكثير العدد ، وذكر الألف أفخم في اللفظ ؛ لأنه رأس الأعداد . والثاني — وهو عن الزجاج — أن الاستثناء في كلام العرب يفيد التأكيد ، فلو قلت : « جاء إخوتك إلا زيداً » فقد أكدت مجيء الجميع باستثنائك زيداً ، ولم يأت الاستثناء في كلام العرب إلا قليل من كثير ، ومن القبيح استثناء نصف الشيء ، لا يجوز أن تقول : عندي دينارٌ إلا نصفه ، ولكن تقول : عندي دينارٌ إلا دراهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو ظاهر الأَمر ؛ لاتخاذه السفينة ، ولبعثه الطير ترتاد زوال الماء ، ولغير ذلك من الدلائل ، وبقي أَن يعترض هذا بأَن يقال : كيف غرق الجميع والرسالة إلى البعض ؟ فالوجه في ذلك أَن يقال : إن اختصاص نَبيٍّ بأُمَّة ليس هو بأَلَّا يهدي غيرها ، ولا يدعوها إلى توحيد الله تعالى ، وإنما هو بأَلَّا يأْخذ بقتال غيرها ، ولا يبث العبادة فيهم ، ولم يكن الناس يومئذ كثيرين بحكم القرب من آدم عليه السلام ، فلا محالة أَنَّ دعاءَه إلى توحيد الله تعالى قد كان بلغ الكل ، فنالهم الغرق لإعراضهم وتماديهم .

و [ٱلطُّوفَانُ] : العظيم الطَّامي ، ويقال ذلك لكل طامٍ خرج عن العادة من ماءٍ أَو نارٍ أَو موت ، ومنه قول الشاعر :

* أَفْنَاهُمُ طُوفَانُ مَوْتٍ جارف * (١)

---

(١) هذا البيت من مشطور الرجز استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ؛ ويتفق مع هذا ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ ، قال : (الموت) ، وفي اللسان « الطوفان : مصدر مثل الرُّجْحان والنُّقْصان ، ولا حاجة به إلى أن يطلب له واحداً » ، ونقل ابن سيدة عن الأخفش أن الطوفان جمع طوفانة ، قال ابن سيدة : « والأخفش ثقة ، وإذا حكى الثقة شيئاً لزم قبوله » . و (جارف) من قولهم : جرف السيلُ الشيءَ : ذهب به كلَّه أو جُلَّه .

وطوفان وزنه فُعلان بناءُ مبالغة من : طاف يطوف إذا عمَّ من كل جهة ، ولكنه كثر استعماله في الماءِ خاصة ، وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ يريد : بالشِّرك .

و ﴿وَأَصْحَابَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ تقدم في غير هذه السورة الخلاف في عددهم ، وهم بَنُوه وقوم آمنوا ، والضمير في قوله : [وَجَعَلْنَاهَا] يحتمل أَن يعود على السفينة ، و «الآيةُ» هنا العِبْرَةُ والعلامة على قدرة الله تبارك وتعالى في شدَّة بطشه ، قال قتادة : أَبقاها آيةً على الجودي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

يجوز أَن يكون [إِبْرَاهِيمَ] معطوفاً على [نُوحٍ] ، ويجوز أَن يكون معطوفاً على الضمير في [أَنْجَيْنَاهُ] ، ويجوز أَن ينصبه فعل تقديره : واذكر إبراهيم . وهذه القصة أَيضاً تمثيل لقريش ، وكان نمروذ وأَهل مدينته عَبَدَةَ أَصنام ، فدعاهم إبراهيم عليه السلام إلى توحيد الله تعالى وعبادته ، ثم قرر لهم ما هم عليه من الضلال .

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَخْلُقُونَ إفْكاً﴾ ، وقرأ ابن الزُّبَيْر ، وفُضَيْل [(١)]: [أَفِكاً] على وزن (فَعِل) ، وهو مصدر كالكَذِب والضَّحِك ونحوه [(٢)]، واختلف في معنى [تَخْلُقُونَ] ـ فقيل : هو نحْت الأصنام وخلقها، سمَّاها إفْكاً توسُّعاً من حيث يُفترى بها الإفك في أنها آلهة ، وقال مجاهد : هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان ، وغير ذلك . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، وعَوْن الْعَقِيلي ، وقتادة [(٣)] ، وابن أبي ليلى : ﴿وَتَخَلَّقون إفْكاً﴾ بفتح الخاء وشدِّ اللام وفتحها ، و «الإفْكُ» ـ على هذه القراءة ـ الكذبُ .

ثم وقفهم على جهة الاحتجاج عليهم بأمر يفهمه عامَّتهم وخاصَّتهم ، وهو أمر الرِّزق ، فقرَّر أن الأصنام لا ترزق ، وأمْر الخير عند الله تبارك وتعالى ، وخصَّص الرزق لمكانته من الخلق ، فهو خير يدل على جنسه كلِّه . ويقال : شكرْتُ لك ، وشكرتُك ، بمعنى واحد . ثم أخبرهم بالمعاد والحشْر إليه .

---

(١) هو فُضيل بن زرقان .

(٢) قال الزمخشري : «ويحتمل أن يكون صفة على فَعِل ، أي : خلْقا أفِكاً ، أي : ذا إفْك وباطل» .

(٣) في البحر المحيط : (عُبادة) بدلا من قتادة ، وهو أقرب إلى الصواب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾ الآية ... وعيدٌ ، أي : قد كذب غيركم وعُذِّب ، وإنما على الرسول البلاغ ، وكلٌّ أحد ـ مع ذلك ـ مأْخوذ بعمله .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ـ بخلاف عنه ـ : ﴿أَوَ لَمْ تَرَوْا﴾ بالتاء ، وقرأ الباقون : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ بالياء ، الأُولى على المخاطبة ، والثانية على الحكاية عن الغائب ، وقرأ الجمهور : [يُبْدِئُ] ، وقرأ الزُّبَير ، وعيسى ، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ : [يَبْدَأُ] (١) .

وهذه الإحالات على ما يظهر على الإخبار من إحياء الأَرض والنبات وإعادته ونحو ذلك مما هو دليل على البعث من القبور والحشر ، ويحتمل أن يريد : أَو لم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد

(١) قراءة الجمهور [يُبْدِئُ] من (أَبْدَأ) ، والقراءة الثانية مضارع (بَدَأ) . وقرأ الزُّهري : (يَبْدَا) بغير همزة مُحَقَّقة ، بل هي مُخَفَّفَة كما قال ابن جني .

الله تبارك وتعالى الأجسام بعد الموت ، وهذا تأويل قتادة . وقال الربيع ابن أنس : المعنى : كيف يبدأ خلقَ الإنسان ثم يعيده إلى أحوالٍ أُخر حتَّى إلى التراب . وقال مقاتل : الخلق في هذه الآية الليلُ والنَّهار .

ثم أمر الله تعالى نبيَّه - ويحتمل أن يكون محمداً إن كان في قصة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام اعتراض بين كلامين - بأن يأمرهم - على جهة الاحتجاج - بالسير في الأرض ، والنظر في كل قطر ، وفي كل أُمَّة قديماً وحديثاً ، فإن ذلك يُوجد أَلَّا خالق إلَّا الله تبارك وتعالى ، ولا مبتدئاً بالخلق سواه ، ثم ساق - على جهة الخبر - أن الله تعالى هو المبتدئُ لنشأة القيام من القبور (١) .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [ٱلنَّشَاءَةَ] على وزن (ٱلْفَعَالَة) ، وهي قراءة الأعرج ، وهذا كما تقول : رأْفَةٌ ورَآفَةٌ ، وقرأ الباقون : [ٱلنَّشْأَةَ] على وزن (الفَعْلَة) ، وقرأ الزهري : «النَّشَّةَ» بشين مشددة

---

(١) في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا ...﴾ الآية صرَّح الله تعالى باسمه في قوله ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ﴾ ، ثم أضمر في قوله : ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ، وفي الآية التي بعدها عكس ، فأضمر في قوله : ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ ، ثم أبرزه في قوله : ﴿ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ﴾ حتى لا تخلو الجملتان من صريح اسمه تبارك وتعالى ، ودلَّ إبرازه في الآية الثانية على تفخيم النشأة الآخرة ، وتعظيم أمرها ، وتقرير وجودها ؛ إذ كان نزاع الكفار فيها ، فكأنه قيل : ثُمَّ ذلك الذي بَدَأَ الخَلْق هو الذي يُنْشِئُ النشأة الآخرة : فكأن التصريح باسمه أفخم في إسناد النشأة إليه . ذكر ذلك أبو حيان في البحر .

في جميع القرآن . والبعث من القبور يقوم دليل العقل على جوازه ، وأخبرت الشرائع بوقوعه ووجوده .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

المعنى : يُيَسِّر من يشاءُ لأعمالِ مَنْ حقَّ عليه العذابُ ، ويُيَسِّر من يشاءُ لأَعمالِ مَنْ سبقت له السعادة ، فيتعلق الثوابُ والعقاب بالاكتساب المقترن بالاختراع الذي لله تبارك وتعالى في أعمال العبيد . ثم أخبر تعالى بأنه إليه المنقلب ، وأن البَشَر ليس بمعجز ولا مُفْلت في الأَرض ولا في السماءِ . ويحتمل أن يريد بالسماءِ الهواءَ عُلُوًّا ، أي : ليس للإنسان حيلة صَعَدَ أَوْ نَزَلَ ، حكى نحوه الزهراوي . ويحتمل أن يريد السماءَ المعروفة ، أي : لستم بمعجزين في الأَرض ولو كنتم في السماءِ ، وقال ابن زيد : معناه : ولا مَنْ في السماءِ مُعْجِزٌ إن عَصَى ، ونظَّروه – على هذا – بقول حسَّان بن ثابت :

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ ؟ (١)

(١) البيت من قصيدته التي قالها يهجو بها أبا سفيان قبل فتح مكة ، وقد رُوي : (فَمَنْ يَهْجُو) في الديوان ، ورُوي في ابن هشام ، وأمالي المرتضى كما هنا: (أَمَنْ يَهْجُو) . =

والتأْويل الأَوسط أَحسنها ، ونحوه قول الأَعشى :

وَلَوْ كُنْتَ فِي جُبٍّ ثَمَـانِينَ قَامَةً وَرُقِّيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّـمِ
لَيَسْتَدْرِجَنْكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهِـرَّهُ وتَعْلَمَ أَنِّي عَنْكَ لَسْتُ بِمُلْجَمِ (١)

والوَلِيُّ أَخَصُّ من النصير . وقرأَ يحيى بن القعقاع ، وابن الحرث (٢) : [يَبِسُوا] بغير همز .

= والبيت من شواهد الفراء في معاني القرآن ، قال : « وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول القائل : وكيف وصفهم أنهم لا يعجزون في الأرض ولا في السماء وليسوا من أهل السماء ؟ فالمعنى والله أعلم : ما أنتم بمعجزين في الأرض ، ولا من في السماء بمعجز ، وهو من غامض العربية ، للضمير الذي لم يظهر في الثاني ، ومثله قول حسَّان : فمن يهجو ... البيت ، أراد : ومن ينصره ويمدحه ، فأضمر (مَنْ) ، وقد يقع في وهم السَّامع أن المدح والنصر لِـ (مَنْ) هذه الظَّاهرة ، ومثله في الكلام : أكرم من أتاك وأتَى أباك » ، « وأكرم من أتاك ولم يأت زيداً » ، تريد : ومن لم يأت زيداً » اه .

(١) البيتان من قصيدة له قالها يهجو عُمَيْر بن عبد الله بن المنذر بن عبدان حين جمع بينه وبين جهنام ليهاجيه ، والرواية في الديوان : (لئِن كنْتَ في جُبٍّ) ، وهو جواب قسم في أبيات سابقة يحلف فيه بالراقصات من النِّياق في الطريق إلى منى ، بأنه لو نزل في باطن الأرض إلى أشد الأعماق ، ولو صعد في الفضاء ، إلى أقصى ما يمكن فلن يفلت من هجائه . (واستدرجه القول) معناه : صيَّره إلى أن يدرج ، يقال : استَدْرَجَه بمعنى : أدناه منه على التدريج فتدرَّج هو ، ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ ، والشاعر يريد هنا أنه سيأخذه قليلا قليلا من حيث لا يحتسب . وفي رواية : (لَيَعْتَوِرَنْكَ القول) بمعنى : ليأخذنك من كل جانب ويتداولك ، و (حَتَّى تَهِرَّه) أي : حتَّى تكْرَهُه ، ويمكن أن يكون (تَهُرَّه) بالضم من الهُرَارِ ، يقال : هَرَّ يَهُرُّ هُرَاراً : أطلقه من بطنه حتَّى مات . و (لَسْتُ بِمُلْجَم) أي : ليس في فَمِي لِجَامٌ يمنعني من هجائك ، بل أنا قادر على ذلك متمكن منه ، والشاهد أن الشاعر استعمل السماء هنا بمعنى الهواء أو الفضاء العالي حين قال له : لئن اختفيت في الأرض أو صعدت في السماء فلن تفلت من هجائي .

(٢) في « البحر المحيط » أنها قراءة الذماري وأبي جعفر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ذمَّ الله تعالى قوماً هانوا عليه فقال : ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما تقدم من قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ إلى هذه الآية يحتمل أن يكون خطاباً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون اعتراضاً في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويحتمل أن يكون خطاباً لإبراهيم ومحاورة لقومه ، وعند آخر ذلك ذكر جواب قومه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قرأ الجمهور : [جَوَابَ] بالنصب ، وقرأ الحسن : [جَوَابُ] بالرفع ، وكذلك سالم الأفطس[١] . وأخبر الله تعالى عنهم أنهم لمَّا

---

(١) هو سالم بن عجلان الأفطس ، الأموي ، مولاهم ، أبو محمد الحرَّاني ، ثقة ، رمي بالإرجاء ، من السادسة ، قتل صبراً سنة اثنتين وثلاثين للهجرة . (تقريب التهذيب) .

بيَّن إبراهيم عليه السلام الحُجَجَ ، وأوضح أمر الدين ، رجعوا إلى الغلبة ، وعدلوا عن طريق الاحتجاج حين لم يكن لهم به قِبَل ، فتآمروا في قتله وتحريقه بالنَّار ، وأنفذوا أمر تحريقه حسبما قد أُفيض في غير هذا الموضع ، وأنجاه الله تعالى من نارهم ، وجعلها عليه بردًا وسلاماً ، قال كعب الأَحبار : لم يحرق بالنار إلَّا الحَبْل الذي أوثقوه به ، وجعل ذلك آية وعِبْرة ، ودليلا على وحدانيته لمن شرح صدره ويَسَّره للإيمان ، أي : هذا الصنف ينتفع بالآية ، والكفار هي عليهم عمًّى وإن كانت في نفسها آيةً للكل .

ثم ذكر تعالى أن إبراهيم قَرَّرهم على أن اتخاذهم الأوثان والأنصاب إنما كان اتِّباعاً من بعضهم لبعض ، وحِفْظاً لموداتهم ومحباتهم الدنياوية ، وأنهم يوم القيامة يجحد بعضهم بعضاً ويتلاعنون ؛ لأَن توادّهم كان على غير تقوى ، و ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

وقرأ عاصم – في رواية الأَعمش عن أبي بكر عنه – : [مَوَدَّةُ] بالرفع [بَيْنِكُمْ] بالخفض ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم – في رواية أَبي بكر – وأَبو عمرو – في رواية أَبي زيد – : ﴿مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ﴾ بالتنوين والنَّصْبِ ، ونصب (بَيْنَ) (٢) ، أَما قراءة رفع [مَوَدّة] فوجهُهَا

---

(١) الآية (٦٧) من سورة (الزُّخرف) .

(٢) هناك قراءات أُخرى كثيرة لا تخرج عن رفع (مَوَدَّة) أو نصبها منونة وغير منونة ، مع النصب في (بَيْنَ) أو الخفض .

أن تكون [مَا] بمعنى (الذي) ، وفي قوله : [ٱتَّخَذْتُمْ] ضمير عائد على (الَّذي) ، وهذا الضمير هو مفعول أول لِ [ٱتَّخَذْتُمْ] ، و [أَوْثاناً] مفعولٌ ثانٍ ، و [مَوَدَّةٌ] خبر [إِنَّ] في قراءة من نَوَّنَهَا ، وفي قراءة من لم ينونها . ويجوز أن تكون [مَا] كافَّة ، ولا يكون في قوله : [ٱتَّخَذْتُمْ] ضمير ، ويكون قوله : [أَوْثَاناً] مفعولاً بقوله : [ٱتَّخَذْتُمْ] ، ثُمَّ يقْتصر عليه ، ويُقَدَّر الثاني : «آلِهَةً» أو نحوه ، كما يقدر في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ﴾ أي : «إِلٰهاً» ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾(١)، ويكون قوله : [مَوَدَّةٌ] خبر ابتداءٍ تقديره : «هِيَ مَوَدَّةٌ» ، وفي هذه التأْويلات مجازٌ واتساعٌ في تسمية الأَوثان مودة ، أو يكون ذلك على حذف مضاف .

وأَمَّا من نصب [مَوَدَّةَ] فعلى أَن [مَا] كافة ، وعلى خُلُوِّ [ٱتَّخَذْتُمْ] من الضمير ، والاقتصار على المفعول الواحد كما تقدم ، ويكون نصب «المودَّة» على المفعول من أَجله .

ومن أَضاف «المودَّة» إلى «الْبَيْنِ» في القراءتَيْن بالنصب والرفع فقد تجوَّز في ذلك وأَجرى الظرف مجرى الأَسماءِ ، ومن نصب [بَيْنَكُمْ] في القراءتَيْن ـ النصب والرَّفع ـ في [مَوَدَّة] فكذلك يحتمل

---

(١) من الآية (١٥٢) من سورة (الأعراف) .

أن ينتصب انتصاب الظروف ، ويكون معلقاً بـ [مَوَدَّة] ، وكذلك ﴿فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ظرفٌ أيضاً متعلق بـ [مَوَدَّة] ، وهو مصدرٌ عمل في ظرفين من حيث افترق الزمان والمكان ، ولو كان لواحد منهما لم يجز ذلك ، تقول : «رأيت زيداً أمس في السوق» ، ولا تقول : «رأيت زيداً أمس البارحة» ؛ إلَّا أن يكون أحد الظرفين جزءًا للآخر ، تقول : «رأيت زيداً أمْس عشية» . ويجوز أن ينتصب [بَيْنَكُمْ] على أنه صفة «المودَّة»(١) ، وهنا محذوف مقدَّر ، تقديره : «مودَّة ثابتة بينكم» ، وفي الظرف ضمير عائد على [مَوَدَّة] ، لما حذفت «ثابتة» استقر الضمير في الظرف نفسه . وقوله : ﴿فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ظرف في موضع الحال من الضمير الكائن في [بَيْنِكُمْ] بعد حذف «ثابتة» ، وهذه الحال متعلقة بـ [مَوَدَّة] ، وجاز تعلقها بها وهي قد وصفت لأن معنى الفعل فيها ، وإن وصفت فلا يمتنع أن يعمل معنى الفعل إلَّا في المفعول ، فأمَّا في الظرف وفي الحال فيعمل ، قال مكيٌّ : ويجوز أن يكون ﴿فِي ٱلْحَيَاةِ﴾ صفة ثانية لـ [مَوَدَّة] ، ويكون فيها مقدر «مستقرة» ، وفيها ضمير ثانٍ عائد إلى [مَوَدَّة] ، فالتقدير ـ على هذا ـ مودة بينكم مستقرة في الحياة الدنيا .

---

(١) قال أبو حيان في البحر : «وهو لا يجوز ؛ لأن المصدر إذا وُصف قبل أخذ متعلقاته لا يعمل» ، وحجة ابن عطية ومن وافقه أنه يتوسع في الظرف مالا يتوسع في غيره كالمفعول مثلا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصح أن يكون قوله : [مَوَدَّةَ] في قراءة من نصب مفعولاً ثانياً بقوله : [اتَّخَذْتُمْ] ، ويكون في ذلك اتساعٌ ، فتأمله . وفي مصحف أُبيٍّ : «مَوَدَّة بَيْنَهُمْ» بالهاء ، وفي مصحف ابن مسعود : «إنَّما مَوَدَّة بَيْنِكُمْ» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * فَآمَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

[آمَنَ] معناه : صدَّق ، وهو فعل يتعدى بالباء وباللام ، والقائل ﴿إنِّي مُهَاجِرٌ﴾ هو إبراهيم عليه السلام ، قاله قتادة ، والنَّخَعي . وقالت فرقة : هو لوط عليه السلام .

ومما صحَّ من القصص أن إبراهيم ولوطاً هاجرا من قريتهما «كوثى» وهي في سواد الكوفة من أرض بابل إلى بلاد الشام ، وفلسطين وغيرها ، قال ابن جريج : هاجرا إلى حرَّان ، ثم أُمرا بعْدُ إلى الشام ، وفي هذه

الهجرة كانت سارة في صحبة إبراهيم ، واعتراها أمر المِلك . و « المُهَاجر » : النازع عن الأمر ، وهي في عرف الشرع من ترك وطنه رغبة في رضى الله تعالى ، وقد ذهب بهذا الاسم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قبل الفتح . وقوله : ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مع الهجرة إليه صفتان بليغتان تقتضي[1] استحقاق التوكُّل عليه . وفي قوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ حذف مضاف ، تقديره : إلى رضى رَبِّي ، أو نحو هذا .

وإسحق ابن إبراهيم هو الذي بُشِّر به ، وبُشِّر بيعقوب من ورائه ، وهو ولد إسحق ، و [ٱلْكِتَاب] هو اسم جنس ، أي : جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم عليه السلام جميع الكتب المنزَّلة : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وعيسى عليه السلام من ذريَّته ، وقوله : ﴿أَجْرَهُ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ يريد : في حياته بحيث أدرك ذلك وسُرَّ به ، والأجر الذي آتاه الله تعالى العافية من النار ، ومن الملِك الجائر ، والعمل الصالح ، والثناءُ الحسن . قاله مجاهد . وأنَّ كل أُمَّة تتولَّاه ، قاله ابن جريج . والولد الذي قرَّت به العين بحسب طاعة الله تعالى ، قاله الحسن . ثمَّ أخبر عنه أنه في الآخرة في عداد الصالحين الذين نالوا رضى الله تبارك وتعالى ، وفازوا برحمته وكرامته العليا .

---

(١) لعله أراد : تقتضي كل منهما ...

وقوله تعالى : [وَلُوطاً] نصب بفعل مضمر ، تقديره : واذكر لوطاً [١] ،
و [ٱلْفَاحِشَةَ] : إتيان الرجال في الأدبار ، وهي معصية ابتدعها قوم لوط .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

تقدم ذكر القراءات في [أَئِنَّكُمْ] ، واختلف الناسُ في « قَطْع السبيل» المشار إليه هنا ـ فقالت فرقة : كان قطْع الطريق بالسلب فاشياً فيهم ، وقال ابن زيد : كانوا يقطعون الطرق على الناس لطلب الفاحشة ، فكانوا يحيفون . وقالت فرقة : بل أَرَادَ قَطْعَ سبيل النسل في ترك النساء وإتيان الرجال . وقالت فرقة : أَراد أَنهم بفَتْح الأُحدوثة عنهم يقطعون سبيل الناس عن قصدهم في التجارات وغيرها . و « النَّادي »:

---

(١) قال الكسائي : « ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ : أنجينا لوطاً ، أو أرسلنا لوطاً » . قال القرطبي : وهذا الوجه أحبُّ إليَّ .

المجلس الذي يجتمع الناسُ فيه ، وهو اسم جنس ؛ لأَن الأَندية في المدن كثيرة ، كأَنه قال : وتـأْتون في اجتماعكم حيث اجتمعتم ، واختلف الناسُ في [الْمُنْكَرَ] ـ فقالت فرقة : كانوا يخذفون(١) الناس بالحصى ، ويستخفُّون بالغريب والخاطر عليهم ، وروته أُم هانئْ عن النبي صلى الله عليه وسلم(٢)، وكانوا لا يربطهم دين ولا مروءة ، وقال مجاهد ، ومنصور : كانوا يـأْتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً ، وقال القاسم بن محمد : منكرهم أَنهم كانوا يتفاعلون في مجالسهم ، ذكره الزهراوي ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان يتظارطون في مجالسهم ، وقال مجاهد أَيضاً : كان من أَمرهم

---

(١) (خَذَف) : بالخاء والذال المعجمتين ــ هو الرَّمْيُ بالحصى أو النواة تأخذها بين إصبعيك وتَرْمي بها ، أو تَتَّخذ مِخْذَفَةً من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة . وأما (حَذَف) بالحاء المهملة فهو يستعمل في الرمي والضرب بالعصا .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، والطبريُّ وحسَّنه ، والسيوطي في الدرّ المنثور ، وقال : أخرجه ــ غير السابقين ــ الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت ، وابن المنذر ، والشاشي ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي وغيرهم ، ولفظه كما أثبته القرطبي : قالت أُم هانئْ : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ ، قال : (كانوا يخذفون من يمُرُّ بهم ويسخرون منه ، فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه) . وقد زاد من رواته : النحاس ، والثعلبي ، والمهدوي ، والماوردي ، والطيالسي .

لعب الحمام ، وتطريف الأَصابع بالحناء ، والصفير ، والحذف ، ونبذ الحياء في جميع أُمورهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقد توجد هذه الأَشياءُ في بعض عُصاة أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالتناهي واجب .

فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللَّجاج ، أَي : ائتنا بالعذاب ، فإن ذلك لا يكون ، ولا تقدر عليه ، وهم لم يقولوا هذا إلَّا وهم مصممون على اعتقاد كذبه (١) ، وليس يصح في الفطرة أَن يكون معاند يقول هذا ، [ثم استنصر لوط عليه السلام ربَّه ، فبعث عليهم ملائكة لعذابهم](٢) ، فجاءُوا إبراهيم عليه السلام أَولاً مبشرين بإسحق ، ومبشرين بنصرة لوط على قومه ، وكان لقاؤُهم لإبراهيم على الصورة التي بينت في غير هذا الموضع ، فلفظة «الْبُشْرَى» - في هذا الموضع - تتضمن أَمر إسحق ونصرة لوط عليهما السلام ، فلما أَخبروه بإهلاك القرية على ظلمهم أَشفق إبراهيم عليه السلام على لوط عليه السلام ، فعارضهم بحسب ما يأْتي .

(١) في الأصل «اعتقاد كذبهم» ، والمعنى لا يستقيم إلا بما أثبتناه .

(٢) ما بين العلامتين زيادة غير موجودة بالأصل ويقتضيها التعبير ، وقد نقلناها عن القرطبي الذي نقل بدوره عن ابن عطية كل كلامه في هذا المقام .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

روى ابن عباس رضي الله عنهما أن إبراهيم عليه السلام لمَّا علِم مِنْ قِبَل الملائكة أن قوم لوط يُعذَّبون أشفق على المؤمنين فجادل الملائكة ، وقال : أرأيتم إن كان فيهم مائة بيت من المؤمنين أتتركونهم ؟ قالوا : ليس فيهم ذلك ، فجعل ينحدر حتى انتهى إلى عشرة أبيات ، فقالت له الملائكة : ليس فيها عشرة ، ولا خمسة ، ولا ثلاثة ، ولا اثنان ، فحينئذ قال إبراهيم عليه السلام : إن فيها لوطاً ، فراجعوه حينئذ بأنا نحن أعلم بمن فيها ، أي : لا تخف أن يقع حيف على مؤمن .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [لَنُنَجِّيَنَّه] بفتح النون الوسطى وشد الجيم ، و [مُنَجُّوكَ] بفتح النون وشدِّ الجيم(١) ، وقرأ

(١) وهي قراءة عاصم في رواية حفص عنه .

حمزة ، والكسائي : [لَنُنْجِيَنَّه] بسكون النون وتخفيف الجيم ، وقرأ ابن كثير ، وعاصم في رواية أبي بكر : [لَنُنَجِّيَنَّهُ] بالتشديد ، و [مُنْجُوكَ] بالتخفيف ، وقرأت فرقة : [لَنُنَجِّيَنْهُ] بسكون النون الأخيرة من الكلمة ، وهذا إنما يجيءُ على أنه خفف النون المشددة وهو يريدها .

وامرأة لوط هذه كانت كافرة ، تنبه على أضيافه ، و «الْغَابِر» : الباقي ، ومعناه : من الغابرين في العذاب ، وقالت فرقة : ﴿مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ أي : ممَّن غَبَر وبَقِيَ من الناس وعَسَى في كفره (١) ، والضمير في [بِهِمْ] في الموضعين عائد على الأضياف الرُّسل ، وذلك بخوفه من قومه عليهم ، فلما أخبروه بما هم فيه فُرِّج عنه . وقرأ عامة القراءِ : [سِيءَ] بكسر السين ، وقرأ عيسى وطلحة بضمها ، و «الرِّجْزُ» : العذاب ، وقوله تعالى : ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي : عذابهم بسبب فسقهم ، وكذلك كل أُمَّةٍ عذَّبها الله فإنما عذَّبها على الفسق والمعصية ، ولكن بأن يقترن ذلك بالكفر الذي يوجب عذاب الآخرة . وقرأ أبو حيوة ، والأعمش : [يَفْسِقُونَ] بكسر السِّين .

(١) يقال : عَسَى في كفره : كبر فيه وأسَنَّ . والمصدر : عَسْواً وعُسُوّاً وعَسَاءً وعُسِيّاً ، (المعجم الوسيط) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ ، أي : من خبرها وما بقي من آثارها ، فـ [مِنْ] لابتداء الغاية ، ويصح أن تكون للتبعيض ، على أن تريد ما ترك من بقايا تلك القرية ومنظرها ، والآية موقع العبرة ، وعلامة القدرة ، ومزدجر النفوس عن الوقوع في سخط الله تعالى .

وقرأ جمهور القراء : [مُنْزِلُونَ] بتخفيف الزاي ، وقرأ ابن عامر : [مُنَزِّلُونَ] بشد الزَّاي ، وهي قراءة الحسن وعاصم ـ بخلاف عنهما ـ ، وقرأ الأَعمش : «إِنَّا مُرْسِلُونَ» بدل [مُنْزِلُونَ] ، وقرأ ابن محيصن : [رُجْزاً] بضم الراء .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

نصب [شُعَيْباً] بفعل مضمر يحسن مع التقدير : وبعثنا أو أرسلنا ، فأَمرَ شُعيبٌ عليه السلام بعبادة الله تعالى ، والإِيمان بالبعث واليوم الآخر ، ومع الإِيمان به يصح رجاؤُه ، وذهب أَبو عبيدة إِلى أَن المعنى :

وخافوا . و [تَعْثَوا] معناه : تفسدون ، يقال : عَثَا يَعْثُو ، وعاثَ يَعيثُ ، وعَثِـيَ يَعْثَى إذا أفسد . وأَهْلُ مَدْيَن : قومُ شعيب ، وهذا على أنها اسم البلدة ، وقيل : مَدْيَنُ : اسم القبيلة . و «أَصحاب الأَيْكةِ» غيرُهم ، وقيل : هم بعضهم ومنهم ، وذلك لأَن معصيتهم في أَمر الموازين والمكاييل كانت واحدة . و [ٱلرَّجْفَةُ] : ميد الأَرض بهم ، وزلزلتها عليهم ، وتداعيها بهم ، وهذا نحو من الخسف ، ومنه الإِرجاف بالأَخبار ، و «الجُثُومُ» ـ في هذا الموضع ـ تشبيه ، أَي : كان همودُهُم على الأَرض كالجثوم الذي هو للطائر والحيوان ، ومنه قول لبيد :

فَغَدَوْتُ في غَلَسِ الظَّلَام وطَيْرُهُ عُصَبٌ علَى خَضِلِ الْعِضَاهِ جُثُومُ(١)

وقوله : [وَعَاداً] منصوب بفعل مضمر ، تقديره : واذكر عاداً ، وقيل : هو معطوف على قوله : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾(٢).

---

(١) البيت من قصيدة قالها لبيد بن ربيعة في أوائل حياته الشعرية ، ولما سمعها النابغة قال له : أنت أشعر قيس ، أو قال : هوازن كلها ، وهي من الكامل ، والرواية في الديوان :

قَدْ قُدْتُ في غَلَسِ الظَّلامِ وَطَيْرُهُ عُصَبٌ على فَنَنِ العِضَاهِ جُثُومُ

ويروى : على خُضَلٍ ، وغَلَسُ الظَّلام : أَوَّلُ الصبح ، والفَنَنُ : الغُصْنُ ، والخَضِلُ : المُبْتَلُّ بالنَّدى ، والعِضَاهُ : كلُّ شجر له شوك صَغُر أو كَبُر ، والواحدة : عِضَاهَةٌ ، وجُثُومٌ : واقعةٌ على الشجر في سكُون ، وهو موضع الشاهد هنا .

(٢) من الآية رقم (٣) من هذه السورة .

وقرأ : [وَثَمُوداً] عاصم (١)، وأبو عمرو ، وابن وثاب . وقرأ : [وَثَمُودَ] بغير تنوين أبو جعفر ، وشيبة ، والحسن ، وقرأ يحيى بن وثاب : ﴿وَعَادٍ وثَمُودٍ﴾ بالخفض فيهما والتنوين (٢) .

ثـم دلَّ عزَّ وجلَّ على ما تعطيه العبرة في بقايا مساكنهم ورسوم منازلهم ودُنُوِّ آثارهم . وقرأ الأعمش : «وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مَسَاكِنُهُمْ» دون [مِنْ] . وقوله تعالى : ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ﴾ عطف جملة من الكلام على جملة ، و [ٱلسَّبِيل] هي طريق الإيمان بالله تعالى ورسله ، ومنهج النجاة من النَّار ، وقوله : [مُسْتَبْصِرِينَ] ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : معناه : لهم بصيرة في كفرهم ، وإعجابٌ به ، وإصرارٌ عليه ، فذمَّهُم بذلك . وقيل : لهم بصيرة في أن الرسالة والآيات حق ، ولكن كانوا ــ مع ذلك ــ يكفرون عناداً ، ويردُّهم الضلال إلى مجاهله ومتالفه ، فيجري هذا مجرى قوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾(٣) . وتزيينُ الشيطان هو بالوسواس ومناجاة ضمائر الناس ، وتَزْيينُ الله تعالى الشيء هو بالاختراع ، وخَلْقِ محبته والتَّلَبُّس به في نفس العبد .

---

(١) الذي في البحر أن قراءة عاصم [ثَمُودَ] بغير تنوين ، ولعل سبب الاختلاف أن قراءة عاصم رويت من طريقين : طريق حفص ، وطريق أبي بكر .

(٢) هذه القراءة تراعي العطف على (مَدْيَنَ) في قوله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ ، والتقدير : وأرسلنا إلى عادٍ وثمودٍ .

(٣) من الآية (١٤) من سورة (النَّمْل) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

نصب [قَارُونَ] إمَّا بفعل مضمر تقديره : اذكر ، وإمَّا بالعطف على ما تقدم ، وقارون من بني إسرائيل ، وهو الذي تقدمت قصته في الكنوز وفي البغي على موسى بن عمران عليه السلام ، وفرعون مشهور ، وهامان وزيره ، وهو من القبط . و «البَيِّنَات» : المعجزات والآيات الواضحة ، و [سَابِقِينَ] معناه : مفلتين من أخْذنا وعقابنا ، وقيل : معناه : سابقين من أوليائنا ، وقيل : معناه : سابقين الأُمم إلى الكفر ، أي : قد كانت تلك عادة الأُمم مع الرُّسل .

و «الَّذين أُرْسل عليهم الحاصِبُ» ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم قوم لوط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويشبه أن يدخل قوم عادٍ في الحاصب ؛ لأَن تلك الريح لابد أنَّها كانت تحصبهم بأُمور مؤذية . و «الْحَاصِبُ» : هو العارض من

ريح أو سحاب أو رمي بشيء ، ومنه قول الفرزدق :

مُسْتَقْبِلِينَ شمالَ الشَّام تَضْرِبُنَا بِحاصِبٍ كنديف القُطْنِ مَنْثُورِ (١)

ومنه قول الأخطل :

تَرْمِي الْعِضَاهَ بِحَاصِبٍ مِنْ ثَلْجِهَا حَتَّى يَبِيتَ عَلَى العِضَاهِ جُفَالَا (٢)

و «الَّذين أخذتهم الصَّيْحة» قومُ ثمود ، قاله ابن عباس ، وقال قتادة : هم قوم شعيب ، و «الْخَسْفُ» كان بقارون ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما .

---

(١) البيت من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن عبد الملك ، ويهجو يزيد بن المهلّب ، وقبله يقـول :

إليكَ مِنْ نَفَقِ الدَّهْنا ومَعْقُلَـةٍ خاضَتْ بِنا اللَّيْلَ أمْثالُ القَرَاقيرِ

والقراقير : جمع قرقور وهي السفينة الطويلة ، يشبه بها النياق التي خاضت بهم الليل مستقبلين شمال الشام إلى الممدوح ، والحاصب : الريح الشديدة تحمل الحصباء ، ونديف القطن هو القطن المندوف أي الذي ضرب بالمندف وهو خشبة معينة بخيط متين يستعملها النداف في ضرب القطن ليَرِقّ . والبيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن على أن الحاصب هو العارض من ريح .

(٢) قال الأخطل هذا البيت من قصيدة يهجو بها جريراً ، ويفتخر على قيس ، وقبله يقول :

ولَقَدْ عَلِمْتُ إذا العِشَارُ تَرَوَّحَتْ هَدَجَ الرِّئالِ تَكُبُّهُـنَّ شَمَـالا

والعِشار : جمع عشراء من الإبل ، وهي التي أتى عليها عشرة أشهر وهي حامل ، وتروَّحت : عادت إلى حظائرها في الرواح وهو العودة من المرعى ، والهَدَج : مَشْيٌ في ارتعاش ، أو عَدْو متقارب ، والرِّئال : جمع رأل وهو ولد النعامة ، وتكبُّهن : تدفَعُهُنَّ ، والعضاه : كل شجر له شوك صغيراً كان أو كبيراً ، أو الشجرة واسعة الظلّ ، والمفرد : عضاهة . والجُفَالُ : ما تراكم من الثلج وتراكب ، والشاهد في البيت مثله في البيت الذي قبله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويشبه أن يكون أصحاب الرجفة في هذا النوع من العذاب ، و «الْغَرَقُ» كان في قوم نوح ، وبه فسَّر ابن عباس ، وفي فرعون وحزبه ، وبه فسَّر قتادة .

وظُلْمهم أنفُسَهم كان بالكفر ووضع العبادة في غير موضعها ، وقدم المفعول على [يَظْلِمُونَ] للاهتمام ، وهذا نحو : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(١) وغيره ، وحكى الطبري أن رجفة قوم شعيب كانت صيحة أرجفتهم في هذا مع ثمود .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

شبه تبارك وتعالى الكفار في عبادتهم الأصنام وبنائهم جميع أُمورهم على ذلك بالعنكبوت التي تبني وتجتهد ، وأمرها كله ضعيف

(١) من الآية (٥) من سورة (الفاتحة) . والواضح أن التقديم في آية الفاتحة للتخصيص ، فيكون المعنى : نخصك وحدك بالعبادة .

متى مسَّته أدنى هامة أودهمته ، وكذلك أمر أُولئك وسعيهم مضمحلٌّ لا قوة له ولا معتمد ، ومن حديث ذكره النقاش : (العنكبوت شيطان مسخه الله تعالى فاقتلوه)(١)، ورُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال : «طهِّروا بيوتكم من نسج العنكبوت ، فإن تركه يورث الفقر» ، وقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي : يعلمون أن هذا مثلهم ، وأن حالهم ونسبتهم من الحقِّ هذه الحالة (٢) .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ . قرأ أبو عمرو ، وسلام : ﴿يَعْلَمْ مَّا﴾ بالإدغام ، وقرأ

---

(١) أخرجه أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد بلفظ (العنكبوت شيطان مسخها الله فمن وجدها فليقتلها) ، (فتح القدير ، والدرّ المنثور) .

(٢) يرى الزمخشري أن الغرض من التشبيه هو تشبيه المتَّخَذ بالبيت ، لا تشبيه المتَّخِذ بالعنكبوت ، وعلّق عليه أبو حيان بقوله : والذي يظهر هو تشبيه المتَّخِذ من دون الله وليّاً بالعنكبوت المُتَّخِذَة بيتاً ، أي : فلا اعتماد للمتَّخِذ على وليِّه من دون الله ، كما أن العنكبوت لا اعتماد لها على بيتها في استظلال وسُكنى ، بل لو دخلت فيه خرقته ، وقال الفراءُ : هو مثل ضربه الله لمن اتَّخَذَ من دونه آلهةً لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرّاً ولا بردًا ، وقال : ولا يحسن الوقف على [العنكبوت] ؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيءٍ شُبِّهَت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به ، وجوَّز الأخفش الوقوف على [العنكبوت] ، وغلّطه ابن الأنباري ، قال : «لأن [اتَّخَذَتْ] صلة لـ [العَنْكَبُوتِ] ، كأنه قال : كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً ، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول» . والعنكبوت تقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وتُجمع على عناكب وعنكبوتات ، وهي الدويبة الصغيرة التي تنسج نسيجاً رقيقاً ، وقد يقال لها عَكَنْبَات ، ومنه قول الشاعر :

كَأَنَّمَا يَسْقُطُ من لُغَامِهَا بَيْتُ عَكَنْبَاتٍ عَلَى زِمَامِهَا

عامة القراء بالفكّ ، وقرأ الجمهور : [تَدْعُونَ] بالتاء من فوق ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ـ بخلاف ـ [يَدْعُونَ] بالياء من تحت على الغيبة .

فأمَّا موضع [ما] من الإعراب ، فقيل : معناه أن الله يعلم الذين يدعون من دونه من جميع الأشياء أن حالهم هذه ، وأنَّهم أمْرٌ لا قَدْر له ، وقيل : قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ إخبارٌ تامٌّ ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ متصل به ، واعترض بين الكلامين ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، وذلك على هذا النحو من النظر ، ويحتمل معنيين : أحدهما أن تكون [ما] نافية ، أي : لستم تدعون شيئاً له بال ولا قَدْر ، فيصلح أن يُسَمَّى شيئاً ، وفي هذا تعليق [يَعْلَمُ] ، وفيه نظر ، والثاني أن تكون [ما] استفهاماً ، كأنه قرَّر ـ على جهة التوبيخ ـ على هذا المعبود من جميع الأشياء ما هو إذْ لم يكن الله تعالى ، أي : ليس لهم ـ على هذا التقدير ـ مقنع إليه ، ف [مِنْ] على القول الأول والثالث للتبعيض المجرد ، وعلى القول الوسط هي زائدة في الجحد ، ومعناها التأكيد ، وقال أبو علي : [ما] استفهام نصب ب [يَدْعُونَ] ، ولا يجوز نصبها ب [يَعْلَمُ] ، والجملة التي هي منها في موضع نصب ب [يَعْلَمُ] ، والتقدير : إن الله تعالى يعلم أوثاناً تدعون من دونه أو غيرها لا يخفى ذلك عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ﴾ إشارة إلى هذا المثل ونحوه ، و [نَضْرِبُهَا] مأْخوذ من الضَّرْب ، أَي النوع ، كما تقول : «هذان من ضَرْبٍ واحد» ، «وهذا ضرْبُ هذا» أَي قرينه وشبيهه ، فكأَن «ضَرْب الْمَثَل» هو أَن تجعل الأَمر المُمَثَّل ضريب . وباقي الآية بيِّن .

وقال جابر : قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ﴾ : (العاقِلُ من عَقَل عن الله تعالى ، وعمل بطاعته ، وانتهى عن معصيته) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

نَبَّه في ذِكْر خلْق السموات والأَرض على أَمر يُوقع الذِّهن على صِغَر قدر الأَوثانِ وكُلِّ معبود من دون الله تعالى ، وقوله سبحانه : [بِالْحَقِّ] أَي : بالواجب النَّيِّر ، لا للعبث واللعب ، بل ليدلَّ على سلطانه ، ويثبت شرائعه ، ويضع الدلائل لأَهلها ، ويعم المنافع ، إلى غير ذلك مما لا يُحصى عدًّا .

ثم أَمر الله تبارك وتعالى نبِيَّه صلى الله عليه وسلم بالخضوع لأَمره ، وتلاوة القرآن الذي أُوحي إليه ، وإقامة الصلاة ، أَيْ إدامتها والقيام بحدودها . ثم أَخبر - حُكْماً مِنه - أن الصلاة تنهى عن الفحشاءِ والمنكــر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك عندي بأَن المصلِّي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وذكْر الله تعالى وتوهُّم الوقوف بين يديه ، وأَن قلبه وإخلاصه مطَّلَع عليه مرقوب ، صلحت لذلك نفسه وتذلَّلت ، وخامرها ارتقاب الله تبارك وتعالى ، فاطَّردت لذلك في أَقواله وأَفعاله وانتهى عن الفحشاءِ والمنكر ، ولا يكد يَفْتُر من ذلك حتى تُظَلِّلَهُ صلاة أُخرى يَرْجع بها إلى أَفضل حالة ، وهذا معنى هذا الإخبار ؛ لأَن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أَن تكون . ورُوي عن بعض السَّلف أَنه كان إذا قام إلى الصلاة ارْتَعد واصْفَرَّ لونه ، فكُلِّم في ذلك فقال : إنِّي واقف بين يدي الله تبارك وتعالى ، وحق لي هذا مع ملوك الدُّنيا ؛ فكيف مع ملِك الملوك ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهذه صلاةٌ تَنْهى - ولابُدَّ - عن الفحشاءِ والمنكر ، ومن كانت صلاته دائرة حول الإِجْزَاءِ ، لا خشوع فيها ولا تذكُّر ولا فضائل ،

فذلك يتركُ صاحبَها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقة معاصٍ تبعده عن الله تعالى تمادى على بُعده ، وعلى هذا يُخَرَّج الحديث عن ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن ، والأعمش ، وهو قولهم : (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزْدَدْ من الله إلَّا بُعْداً) (١) ، وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك غير صحيح السَّند ، سمعتُ أبي رضي الله عنه يقول : فإذا قدرناه ، ونظرنا معناه فغير جائز أن يقول : إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله تعالى حتَّى كأنها معصية ، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله تعالى ، بل تتركه في حاله ومعاصيه من الفحشاء ، والمنكرُ البُعْد ، فلم تزدهُ الصلاةُ إلَّا تقرير ذلك البُعْد الذي كان سبيله ، فكأنها بَعَّدَتْهُ حين لم تَكُفَّ بُعْدَهُ عن الله تعالى . وقيل لابن مسعود رضي الله عنه :

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما — من طريق ليث بن أبي سُلَيْم — وقد أخرجه الطبري من رواية ابن عباس — رضي الله عنهما — موقوفاً عليه ، ومن رواية ابن مسعود — رضي الله عنه — موقوفاً عليه ، قال ابن كثير ، « والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن وقتادة ، والأعمش ، وغيرهم » ، ولكن الحديث ضعيف السند في المرفوع من أجل ليث بن أبي سُلَيْم ، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى تضعيف متن الحديث في فتاويه ، وهو ما ذكره ابن عطية هنا عن والده ، وهو تحليل دقيق فاهم ، وقد نقله عنه القرطبي . وانتهى العلماءُ إلى أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتزيد الإنسان قرباً من الله إذا كانت على وجهها ، والدليل على ذلك الحديث الذي رواه أنس بن مالك وذكره ابن عطية بعد ذلك .

إن فلاناً كثير الصلاة ، فقال : إنها لا تنفع إلّا من أطاعها . وقرأ الربيع بن أنس : «إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر» . وقال ابن عُمر رضي الله عنهما : الصلاة ــ هنا ــ القرآن ، وقال حمّاد ابن أبي سليمان ، وابن جريج ، والكلبي : إن الصلاة تنهى مادمتَ فيها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عجمة ، وأين هذا مما رواه أنس بن مالك ؟ قال : كان فَتًى من الأنصار يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلّا ركبه ، فقيل ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : (إنَّ صلاته ستنهاهُ) ، فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألم أقُلْ لكُمْ) ؟

وقوله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، قال ابن عباس ، وأبو الدرداء ، وسلمان ، وابن مسعود ، وأبو قرة رضي الله عن الصحابة أجمعين : معناه : ولذِكْرُ الله إياكم أكبر من ذكركم إيّاه[1] ، وقيل :

---

(١) اختار الطبري هذا القول ، وروى مرفوعاً من حديث موسى بن عُقبة عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ : (ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه) ، وبهـذا القول قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد . وذكر السيوطي الحديث في الدر المنثور من رواية ابن السُّنّي ، وابن مردويه ، والديلمي ، وقال ابن كثير : «رُوي هذا من غير وجه عن ابن عباس ، وروي أيضاً عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وسلمان الفارسي ، وغيرهم» .

معناه : ولذكْرُ الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر ، وقال ابن زيد ، وقتادة : لذِكْرُ الله أكبر من كل شيء ، وقيل لسلمان : أيُّ الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأُ القرآن : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللهِ أَكْبَرُ﴾ ، كأنه يحضُّ عليه في هذين التأْويلين الأخيرين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعندي أن المعنى : ولذِكْرُ الله أكبر على الإطلاق ، أي : هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ، فالجزءُ الذي منه في الصلاة يفعل ذلك ، وكذلك يفعل في غير الصلاة ؛ لأَن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرٍ اللهَ مراقبٍ له ، وثواب ذلك الذِّكر أن يذكره الله تعالى ، كما في الحديث : (مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، ومن ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خير منهم)[1] . والحركات التي في الصلاة لا تأْثير لها في نَهْي ، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرُّغه إلَّا من الله تعالى ، وأمَّا مالا يتجاوز اللِّسان ففي رتبة أُخرى ، وذكْرُ الله تعالى للعبد هو

(١) أخرجه مسلم في الذكْر ، والبخاري في التوحيد ، والترمذي في الدعوات ، وابن ماجه في الأدب ، وأحمد في مسنده في أماكن كثيرة ، ولفظه كما في مسلم : (عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عزَّ وجلَّ : أنا عِنْد ظَنِّ عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ هم خيرٌ منهم ، وإن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيتهُ هرولة) .

إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربَّه . قال الله تبارك وتعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[١] ، وباقي الآية ضربٌ من التَّوعُّد والحث على المراقبة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قرأ الجمهور : [إلَّا] على الاستثناء ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : [أَلَا] بفتح الهمزة وتخفيف اللام ، واختلف المفسرون في المراد بهذه الآية .

فقال ابن زيد : معناها : لا تجادلوا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب[٢] ، فكأنه قال : «أهلَ الكتاب المؤمنين» ، ﴿إلَّا بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالموافقة فيما حدَّثوكم به من أخبار أوائلكم ، وغير ذلك ، وقوله تعالى ــ على هذا التأويل ــ : ﴿إلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يريد به من بقي على كفره منهم ، كمن كفر وغدر من بني قريظة والنضير وغيرهم ، فالآية ــ على هذا ــ مُحْكمة غير منسوخة .

---

(١) من الآية (١٥٢) من سورة (البقرة) .
(٢) كعبد الله بن سلام ومن آمن معه .

وقال مجاهد : المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى والباقون على دينهم . أمر الله تعالى المؤمنين ألَّا يجادلوهم إلَّا بالأحسن : من الدعاء إلى الله تعالى ، والتنبيه على آياته ؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ، وقوله ــ على هذا التأويل ــ : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه : ظَلَموكم ، وإلَّا فكُلُّهم ظَلَمة على الإطلاق ، فَيُرَادُ به مَنْ لم يُؤَدِّ جِزْيَة ، ونَصَب الحرب ، ومَن قال وصرَّح بأَنَّ للهِ ولداً ، أو لَهُ شريك ، أَوْ يَدَهُ مغلولة ، فالآية ــ على هذا ــ منسوخة في مهادنة من لم يحارب ، قال قتادة : هي منسوخة بقول الله تعالى : ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (١) الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يتوجَّه في معنى الآية إنما يتَّضح في معرفة الحال في وقت نزول الآية ، وذلك أن السُّورة مكِّيَّة من بعد الآيات العشر الأُول ، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ، ولا طلب جزْية ولا غير ذلك ، وكانت اليهود بمكَّة وفيما جاورها ، فربما وقع بينهم وبين المؤمنين جدالٌ واحتجاجٌ في أمر الدين وتكذيب ، فأمر الله تعالى المؤمنين ألَّا يجادلوهم بالمحاجَّة إلَّا بالحسنى دعاءً إلى الله تعالى ومُلاينة ، ثم استثنى

---

(١) من الآية (٢٩) من سورة (التَّوبة) .

مَن ظلم منهم المؤمنين ، إمَّا بفعل وإمَّا بقول ، وإمَّا بإذاية محمد صلى الله عليه وسلم ، وإمَّا بإعلان كفر فاحش ، كقول بعضهم : عُزَيْر ابن الله ، ونحو هذا ، فإن هذه الصِّفة استُثْنِيَ لأَهل الإسلام معارضتها بالخروج معها عن التي هي أحسن ، ثم نُسخ هذا بعْدُ بآية القتال والجزية . وهذا قول قتادة .

قوله تعالى : ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ الآية . قال أبو هريرة : كان أهل الكتاب يقرءُون التوراة بالعبرانية ، فيفسرونها بالعربية للمسلمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم ، وقولوا : ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١) . وروى عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لَا تَسأَلوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضَلُّوا ، إمَّا أَن تُكَذِّبوا بحق وإمَّا أَن تُصَدِّقوا بباطل) (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، (الدر المنثور) ، وفي تفسير ابن كثير بعد أن نقل رواية البخاري للحديث : «وهذا الحديث تفرد به البخاري» .

(٢) أخرجه ابن‌جرير عن عبدالله ، قال ابن كثير : «وهو ابن مسعود» — وفي آخره زيادة على ما هنا : (فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال) . وفي الدر المنثور : أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن ابن مسعود ، وزاد في آخره على ما هنا: =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

تقدم القول في الآية التي قبل هذه ما يتضمَّن نزول شرع وكتاب من الله تعالى على أنبيائه قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فحسُن لذلك عطف ﴿كَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ على ما في الضمن ، أي : وكإنزالنا على من تقدَّمك كذلك أنزلنا إليك الكتاب ، و [ٱلْكِتَاب] : القرآن .

وقوله : ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ يريد التوراة والإنجيل ، أيْ : فالذين كانوا في عصر نزول الكتاب وأُوتوه حينئذ يؤمنون به ، أي : كانوا مصدقين بهذا الْكتاب الذي أنزلناه إليك ، فالضمير في [بِهِ] عائد على القرآن . ثمَّ أخبر عن معاصري محمد صلى الله عليه

= (فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه) .
وأخرج البيهقي في سننه وفي الشعب ، والديلمي ، وأبو نصر السجزي في الإبانة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه حديثاً بنفس اللفظ الذي أخرجه ابن عطية هنا ، وزاد في آخره : (والله لو كان موسى حيّاً بين أَظْهُرِكُم ما حَلّ له إلا أن يتبعني) ، قال ذلك الإمام السيوطي في الدُرّ المنثور .

وسلم أن منهم من يؤمن به . ولم يكونوا آمنوا بعد ، ففي هذا الإخبارُ بِغَيْب بيَّنه الوجود بعد ذلك ، ثمَّ أَنْحَى على الجاحدين مِن أُمَّة قد آمن سلفُها في القديم وبعضها في الحديث ، وحصل الجاحدون منهم في أحسن رُتبة من الضلال ، ويُشبه أن يُراد أيضاً في هذا الإنحاء كفَّار قريش مع كفَّار بني إسرائيل .

ثمَّ بيَّن تعالى الحُجَّة على المُبْطلين المرتابين ، وأوضح أنَّ مِمَّا يُقوِّي نزول هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالى أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم جاء به في غاية الإعجاز والطول والتضمُّن للغيوب وغير ذلك ، وهو أُمِّيٌّ لا يقرأُ ولا يكتب ، ولا يتلو كتاباً ، ولا يخُط حرفاً ، ولا سبيل له إلى التَّعلُّم ، فإنه لو كان ممَّن يقرأُ لارتاب المُبطلون ، ولكان لهم في ارتيابهم تعلُّق ، وأما ارتيابهم مع وضوح هذه الحُجَّة فظاهرٌ فساده . قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم لا يخط ولا يقرأُ كتاباً فنزلت هذه الآية ، وذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال : «ما مات النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتَّى كتَب» ، وأسند أيضاً حديثاً لأبي كَبْشَة السَّلُولي ، مُضَمَّنه أنه عليه الصلاة والسلام قرأ صحيفة لِعُيَيْنَة بن حصن ، وأخبر بمعناها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف . وقول الباجيٍّ رحمه الله منه (١) .

وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ إضرابٌ عن مُقَدَّر من الكلام يقتضي ما تقدَّم ، كأَنه قال : «ليس الأَمر كما حسبوا ، بل هو...» ، وهذا الضمير يحتمل أَن يعود على القرآن ، ويؤيده أَن في قراءة ابن مسعود : «بَلْ هِيَ آيَاتٌ» ، ويحتمل أَن يعود على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده قراءة من قرأَ : «بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ» على الإفراد (٢) ، وقال : المراد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أَن يعود على أَمر محمد صلى الله عليه وسلم أَنه لم يَتْلُ ولا خَطَّ ، وبكلٍّ

---

(١) قال القاضي أبو الوليد الباجي ما خلاصته أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كتب يوم الحديبية ، واستند في ذلك إلى ما وقع في صحيح مسلم من حديث البراء في صلح الحديبية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه : (اكتب الشرط بيننا ، بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) ، فقال له المشركون : لو نعلم أنَّكَ رسولُ الله بايعناك — وفي رواية تابعناك — ولكن اكتب : محمد بن عبد الله ، فأمر علياً أن يمحوها ، فقال عليٌّ : والله لا أَمْحَاهُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أرني مكانها) ، فأراه فمحاها وكتب : ابن عبد الله . وقد رواه البخاري بأظهر من هذا ، فقال : (فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتب) . فقال جماعة منهم الباجي ، وأبو ذرٍّ (عبد الله بن أحمد الهروي) ، والسمناني (أبو عمرو الفلسطيني) ، قالوا بجواز هذا الظاهر ، وأنه صلى الله عليه وسلم كتب بيده ، واشتد نكير الفقهاء في المشرق والمغرب على قول الباجي هذا ، وإليه يشير ابن عطية .

(٢) قال العلماء : ويؤيده أيضاً قراءة ابن مسعود وابن السميفع : «بَلْ هَـٰذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» ، وكان صلى الله عليه وسلم آيات لا آية واحدة .

احتمال قالت فرقة ، وكون هذا كله آيات ـ أي علامات في صدور العلماء من المؤمنين في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ـ يراد به مع النظر والاعتبار .

و [ٱلظَّالِمُونَ] و [ٱلْمُبْطِلُونَ] قيل : يعم لفظهما كلَّ مكذِّب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن معظم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم ، قاله مجاهد . وقال قتادة : [ٱلْمُبْطِلُونَ] : اليهود .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

الضمير في [قَالُوا] لقريش ولبعض اليهود ؛ لأنهم كانوا يُعَلِّمون قريشاً هذه الحُجَّة : لم يَأْتِكُم بمثل ما جاءَ به موسى من العصا وغيرها . وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وعلي بن نصر عن أبي عمرو : ﴿ آيَةٌ مِن رَبِّه ﴾ ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : [آيَاتٌ] ، فأمر الله تعالى نَبِيَّه

عليه الصلاة والسلام أن يعلِّمهم أن هذا الأمر بيد الله تبارك وتعالى لا يستنزله الاقتراح والتمنِّي ، وأنه بُعث نذيراً ، ولم يؤمر بغير ذلك .
وفي مصحف أُبَي : « لو ما يأتينا بآيات من ربه قل إنما الآيات ».

ثم احتج عليهم في طلبهم آية بأمر القرآن الذي هو أعظم الآيات ، ومعجزٌ للجن والإنس ، فقال : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ ، ثم قرَّر ما فيه من الرحمة والذكرى للمؤمنين ، فقوله : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ﴾ جواب لمن قال : ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ﴾ .

وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المؤمنين أتَوْا النبي صلى الله عليه وسلم بكُتُب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود الذين أخبروهم بشيء من التوراة ، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال : (كفى بهذا ضلالة ، قوم رغبوا عمَّا أتاهم به نبيُّهم إلى ما أتى به غيره) ، ونزلت الآية بسببه[1] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
والتأويل الأول أجرى مع نسق الآيات .

(١) رواه الطبري ، من طريق يحيى بن جعدة ، قال الحافظ بن حجر في التقريب عن جَعْدة : « ثقة » ، وزاد الإمام السيوطي في (الدُّرّ المنثور) الدارميَّ ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .وأورده السيوطي أيضاً في (الدر المنثور) من رواية الإسماعيلي في معجمه ، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ثمَّ أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالاستناد إلى أمر الله تبارك وتعالى ، وأن يجعله حسبه شهيداً وحاكماً بينه وبينهم بعلمه وتحصيله جميع أُمورهم ، وقوله : [بِالْبَاطِلِ] يريد : بالأَصنام والأَوثان وما يتبع أَمرها من المعتقدات[١] ، والباطل هو أَن يُفعل فعل يُراد به أَمر مَّا ، وذلك الأَمر لا يكون عن ذلك الفعل ، والأَصنام أُريد بأَمرها الأَكملُ والأَنجحُ في زعم عُبَّادها ، وليس الأَكمل والأَرجح إلَّا رفْضُها ، فهي إذاً باطلٌ ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يريد كُفَّار قريش في قولهم : ﴿فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾[٢] وغير ذلك من استعجالهم – على جهة

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما : الباطل : غيرُ الله ، وقال مقاتل : ﴿آمَنُوا بالبَاطِلِ﴾ أي : بعبادة الشيطان ، وقال يحيى بن سلام : بإبليس . والمعروف في اللغة أن الباطل هو نقيض الحق ، وأنه يجمع – على غير قياس – على أباطيل ، وقال أبو حاتم : يُجْمع بَوَاطل .

(٢) تكررت في الآيات : (٧٠ ، ٧٧) من سورة (الأعراف) ، (٣٢) من سورة (هود) ، (٢٢) من سورة (الأحقاف) ، ولكنها كانت من أقوام عاد وثمود .

التعجيز والتكذيب – بعذاب الله تعالى الذي توعدهم محمد صلى الله عليه وسلم . ثمّ أخبر تعالى أنه يأْتيهم بغتة ، أي : فجأَة ، وهذا هو عذاب الدنيا ، وهو الذي ظهر يوم بدر ، وفي السنين السبع . ثمّ ذكر تعالى أن تأَخُّره إنما هو بحسب الأَجل المقدور السابق . وذكر المفسرون عن الضحاك أن الأَجل المسمَّى بهذه الآيات الآجالُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف يردُّه النظر ، والآجال لا محالة أجلٌ مُسَمَّى ، ولكن ليس هذا موضعها .

ثمّ توعدهم تبارك وتعالى بَعْدُ بعذاب الآخرة في قوله : ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ ، كرَّر فِعْلَهم وقَبَّحه ، وأخبر أن وراءهم إحاطة جهنم بهم . وقال عكرمة – فيما حكى الطبري – أن جهنم ها هنا أراد بها الْبَحْر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ﴾ ظرفٌ يعمل فيه قوله : [مُحِيطٌ] . و [يَغْشَاهُمُ] معناه : يغطِّيهم من كل جهة من جهاتهم . وقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [وَيَقُولُ] ، أي : ويقول الله . وقرأ

ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [وَنَقُولُ] بالنون ، فإمَّا أن تكون نون العظمة ، أو نون الجماعة ، جماعة الملائكة . وقرأ ابن مسعود : [وَيُقَالُ] بياءٍ وألِف ، وهي قراءةُ ابن أبي عبلة .

وقوله تعالى : [ذُوقُوا] توبيخٌ ، ويُشَبَّه مسُّ العذاب بالذَّوق ومنه قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ (١) ، ومنه قول أبي سفيان : «ذُقْ عَقَق» ، ونحو هذا كثير ، وقوله : ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ، أي : بما في أعمالكم من اكتسابكم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

هذه الآياتُ نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ، فأخبرهم تعالى بِسَعَةِ أرضه ، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب ، بل الصواب أن تُلْتمس عبادة الله تعالى في

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الدخان) .

أَرضه . وقال ابن جبير ، وعطاء ، ومجاهد : إن الأَرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية ، وتلزم الهجرة عنها إلى بلدٍ حقٍّ ، وقاله مالك ، وقال مُطَرِّف بن الشِّخِّير[1] : قوله : ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ عدةٌ بِسَعة الرزق في جميع الأَرض .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : [يَا عِبَادِيَ] بفتح الياء ، وقرأَ أَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي بسكونها ، وكذلك قرأَ نافع وعاصم : [أَرْضِي] ساكنةً . وقوله تعالى : [فَإِيَّايَ] منصوب بفعل مقدَّر يدلُّ عليه الظاهر ، تقديره : «فَإِيايَ اعبدوا فاعبدون»[2] ، على الاهتمام أَيضاً في التقدير .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية ، تحقير لأَمر الدنيا ومخاوفها ، كأَن بعض المؤمنين نظر في عاقبة ما يلحقه في خروجه من وطنه أَنه يموت أَو يجوع ونحو هذا ، فحقَّر الله تعالى شأْن الدنيا ، أَي : أَنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلى الله تبارك وتعالى ، فالبدار إلى طاعة الله تعالى والهجرة إليه أَوْلى ما يمتثل .

---

(١) مُطَرِّفُ بن عبد الله بن الشِّخِّير ، العامري ، الحَرَشِيُّ ، أبو عبد الله البصري ، قال عنه الحافظ بن حجر في التقريب : ثقةٌ عابدٌ فاضلٌ من الثانية ، مات سنة خمس وسبعين .

(٢) هو من باب الاشتغال ، وعلى ذلك فالتقدير : فاعبدوا إِيَّايَ فاعبدون .

وقرأ الجمهور : [تُرْجَعُونَ] بالتاء من فوق ، ورويت عن عاصم بالياء من تحت ، وذكرها أبو حاتم عن أبي عمرو ، وقرأ أبو حيوة : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةٌ﴾ بالتنوين [ٱلْمَوْتَ] بالنصب .

ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنَّة تحريضاً منه تعالى ، وذكر الجزاء الذي ينالونه ، وقرأ جمهور القراء : [لَنُبَوِّئَنَّهُمْ] بالباء ، أي : لَنُنْزِلَنَّهُم ولَنُمَكِّنَنَّهُم ليدوموا فيها ، و [غُرَفاً] مفعول ثان ؛ لأنه فعل يتعدى إلى مفعولين . وقرأ حمزة : [لَنُثْوِيَنَّهُمْ] ، من أَثوى يُثوي ، وهو مُعَدَّى ثَوَى بمعنى أَقامَ ، وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وابن مسعود ، والربيع بن خُثَيْم[1] ، وابن وثاب ، وطلحة ، وقرأها بعضهم بفتح الثاء وتشديد الواو مُعَدّى بالتضعيف لا بالهمزة . وقوله : [غُرَفاً] نصب بإسقاط حرف الجرِّ ، والتقدير : في غُرف . وقرأ يعقوب : [لَنُبَوِّيَنَّهُم] بالياء من تحت ، وروي عن ابن عامر : [غُرُفاً] بضم الغين والراء .

ثم وصفهم تعالى بالصبر والتوكُّل ، وهاتان جماعُ الخير كلِّه ، أي : الصبر على الطاعات ، وعن الشهوات .

---

(١) الرَّبيع بن خُثَيْم ، قال في التقريب : « بضم المعجمة وفتح المثلثة ، ابن عائذ بن عبد الله الثوري ، أبو يزيد الكوفي ، ثقة عابد مخضرم ، من الثانية ، قال له ابن مسعود : لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبَّك ، مات سنة إحدى وستين ، وقيل : ثلاث وستين » ، وفي الخلاصة ضبطه (خَيْثَم) بفتح الخاء والثاء ، وسكون الياء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

[كَأَيِّنْ] بمعنى (كَمْ) ، وهذه الآية تحريض على الهجرة ؛ لأن بعض المؤمنين فكَّر في الفقر والجوع الذي يلحقه في الهجرة ، وقالوا : غربة في بلد لا دار لنا فيه ولا عقار ولا من يطعم ، فمثَّل لهم بأكثر الدواب التي تتقوت ولا تَدَّخر ولا تَرَوَّى في رزقها ، والمعنى : فهو يرزقكم أنتم ، ففضِّلوا طاعة الله تعالى على كل شيء . وقوله تعالى : [لَا تَحْمِلُ] يجوز أن يريد : من الحَمْل ، أي : لا تنقل ولا تنظر في ادخاره ، قاله أبو مجلز ، ومجاهد ، وعلي بن الأقمر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والادخار ليس من خلق الموقنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضي الله عنهما : (كيف بك إذا بقيتَ في

حُثالة من الناس يخبئون رزق سنة بضعف اليقين)[١]، ويجوز أن يريد من الحمالة ، أي : لا تتكفّل برزقها ولا تَرَوَّى فيه[٢] .

ثمّ خاطب تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم في أمر الكفّار وإقامة الحُجّة عليهم بأنهم إن سألوا عن الأمور العظام التي هي دلائل القدرة لم يكن لهم إلّا التسليم بأنها لله تعالى ، و [يُؤْفَكُونَ] معناه : يصرفون ، ونبّه تبارك وتعالى على خلْق السموات والأرض وتسخير الكواكب ، وذكر عظمها ، ونبّه تعالى على بسط الرِّزق وقَدْره لقوم ، وإنزال المطر من السماء ، وهذه عِبَرٌ كثيرة لمن تأمّل بالنجاة والمعتقد الأقوم ، ثمّ أمر تعالى نبيّه محمداً صلى الله عليه وسلم بحمده على جهة التوبيخ لعقولهم ، وحكَم عليهم بأن أكثرهم لا يعقلون ولا يبدو منهم نظر .

---

(١) أسند الواحدي عن عطاء ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من الثمار ويأكل ، فقال : (يابْن عمر ، مالك لا تأكل) ؟ فقلت : لا أشتهيه يا رسول الله ، فقال : (لكني أشتهيه ، وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاماً ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك يابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين) ؟ قال : والله ما برحنا حتّى نزلت : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ، وقد علّق عليه الشوكاني بقوله : وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت في كتب الحديث المعتبرة وفي إسناده أبو العطوف الجوزي ، وهو ضعيف » .

(٢) لا تفكر في الأمر ولا تنظر فيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾

وصف الله تعالى الدُّنيا في هذه الآية بأَنها لهوٌ ولعب ، أي : ما كان منها لغير وجه الله تعالى ؛ فإن ما كان لله تعالى فهو من الآخرة ، وأمَّا أُمور الدُّنيا التي هي زائدة على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات فإنما هو لهوٌ ولعب ، وتأَمل ذلك في الملابس والمطاعم والمشارب والأَقوال وغير ذلك .

وانظر إلى حاجة الغني والفقير في الأُمور الضرورية فإنها واحدة ، كالتَّنَفُّس في الهواء ، وسدِّ الجوع ، وستر العورة ، وتوقِّي الحر والبرد ، وهذه كلها عظم أمر العيش.

و [ٱلْحَيَوَان] والحياةُ بمعنى ، وهو عند سيبويه والخليل مصدر كالهيمان ونحوه [1] ، والمعنى : لا موت فيها ، قاله مجاهد ، وهو

(١) هو مصدر يدل على الحركة والاضطراب كالغليان والنزوان والجولان ، وكل حَيٍّ كثير الحركة .

حسن . وأصله : حَيَيَان ، فأُبدلت إحداهما واواً لاجتماع المثلين .

ثم وقفهم تعالى على حالهم في البحر عند الخوف العظيم ، فإن كل بشرٍ يَنْسَى كل صنم وغيره ، ويتمسَّك بالدعاء والرغبة إلى الله تبارك وتعالى ، وقوله تعالى : ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي : يرجعون إلى ذكر أصنامهم وتعظيمها ، وقوله : [لِيَكْفُرُوا] نصب بلام كيْ . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : [وَلِيَتَمَتَّعُوا] بكسر اللام ، وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : [وَلْتَتَمَتَّعُوا] بسكون اللام على صيغة الأمر التي هي للوعيد والتهديد ، والواو ـ على هذا ـ عاطفةٌ جملةَ كلام لا عاطفةٌ فعلاً على فعل ، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب : «فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ، وفي قراءة ابن مسعـــود : «فَلَسَوْفَ» بالَّلام .

ثمَّ عدَّد تعالى على كفرة قريش نعمته عليهم في الحرم في أنه جعله لهم آمناً لا خوف فيه من أحوال العرب وعاداتهم وسوء أفعالهم ، من القتل وأخذ الأموال ونحوه ، وذلك هو «التَّخَطُّف» الذي كان الناس بسبيله ، ثم قررهم ـ على جهة التوبيخ ـ على إيمانهم بالباطل وكفرهم بالله ونعمته . وقرأ جمهور القراء : [يُؤْمِنُونَ] بالياء من تحت ، وكذلك [يَكْفُرُونَ] ، وقرأهما بالتاء من فوق الحسنُ ، وأبو عبد الرحمن.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قررهم عزَّ وجلَّ على حال من افترى على الله كذباً أو كذَّب بآياته ، وهذه كانت حالهم ، وأعلمهم أنه لا أحد أظلم منه ، وهذا في ضمنه وعيدٌ شديد ، ثم بيَّن الوعيد أيضاً بالتقرير على أمر جهنم ، والمَثْوَى : موضع الإقامة . وألفاظ هذه الآيات في غاية الاقتضاب والإيجاز وجَمْع المعاني .

ثم ذكر تعالى حال أوليائه والمجاهدين فيه ، وقرن ذلك بذكر الكفرة الظلمة لِيُبَيِّن تباين الحالين ، وقوله تعالى : [فِينَا] معناه : في مرضاتنا وبغية ثوابنا . قال السدي وغيره : نزلت هذه الآية قبل فرض القتال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهي قبل الجهاد العُرفي ، وإنما هو جهاد عام في دين الله تعالى وطلبِ رضائه . وقال الحسن : الآية في العُبَّاد ، وقال ابن عباس والحسن وإبراهيم بن أدهم : هي في الذين يعملون بما يعلمون ، وقد

قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من عَمِلَ بما عَلِمَ عَلَّمه الله ما لم يَعْلَم) ، ونزع بعض العلماء إلى قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(١) ، وقال بعض العلماءِ لعُمَرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه : «إنما قصَّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرُنا في العمل بما علمنا» ، وقال أبو سليمان الداراني : «ليس الجهاد في هذه الآية قتالَ العدو فقط ، بل هو نصرُ الدين ، والرَّدُّ على المبطلين ، وقَمْع الظالمين ، وعُظْمُه الأَمْر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر» ، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله تعالى ، وهو الجهاد الأَكبر ، قاله الحسن وغيره ، وفيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : (رجعتم من الجهاد الأَصغر إلى الجهاد الأَكبر) ، وقال سفيان بن عُيَيْنَة لابن المبارك : «إذا رأَيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأَهل الثغور ، فإن الله تعالى يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ . وقال الضحاك : معنى الآية : والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينَّهم سبيل الثبوت على الايمان»(٢) و «السَّبيلُ» هنا يحتمل أَن يكون طرق الجنَّة ومسالكها ، ويحتمل أَن يكون سبيل الأَعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد النَّيِّرة . وقال يوسف

---

(١) من الآية (٢٨٢) من سورة (البقرة) .

(٢) ولكلامه بقية أوردها القرطبي ، وهي : «مَثَلُ السُّنَّة في الدنيا كمثل الجنة في العُقْبى ، من دخل الجنة في العقبى سلم ، ومن لزم السُّنَّة في الدنيا سلم» .

ابن أَسباط : «هي إِصلاح النِّيَّة في الأَعمال ، وحبُّ التزَيُّد والتَّفهم ، وهذا هو أَن يُجازى العبد على حُسْنه بازدياد حُسنه ، ويُعَلَّم بجديد من عِلْم مقدم ، وهي حالٌ من رضي الله عنه» . وباقي الآية وعْدٌ .

و [مَعَ] يحتمـــل أَن تكون هنا اسمـــاً ؛ ولذلك دخلت عليهـــا اللام للتأْكيد ، ويحتمل أَن تكون حرفاً ، ودخلت اللام لما فيها من معنى الاستقرار ، كما دخلت في : إِنَّ زيداً لفي الدار [١] .

كمل تفسير سورة العنكبوت والحمد لله ربِّ العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أَجمعين

---

(١) (مَعْ) إذا سكنت فهي حرف لا غير ، وإذا فتحت جاز أن تكون اسماً وأن تكون حرفاً ، والأكثر أن تكون حرفاً جاء لمعنى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السُّورة مَكِّيَّة ، لا خلاف أحفظه في ذلك (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

---

(١) أخرج عبد الرزاق وأحمد ــ قال السيوطي : « بِسَنَدٍ حسن » ــ عن رجل من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلَّى بهم الصُّبح ، فقرأ فيها سورة الروم . وأخرج البزَّار عن الأغرِّ المُزَنيِّ مثله ، وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم ، وأخرج ابن الضريس ، والنحاس ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، مِنْ طُرُقٍ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « نزلت سورة الروم بمكة » . (فتح القدير ، والدر المنثور) .

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السُّور بما فيه كفاية .

وقرأ الجمهور : [غُلِبَت] بضم الغين . وقالوا : معْنى الآية أنه طرأ بمكة أن الملك كسرى هزم جيش ملك الرُّوم ، قال مجاهد : في الجزيرة ، وهو موضع بين العراق والشَّام ، وقال عكرمة : بأذرعات ، وهي بين بلاد العرب والشام ، وقال مقاتل : بفلسطين والأُردن ، فلما طرأ ذلك سُرَّ الكفَّار ، فبشَّر الله تبارك وتعالى عباده بأَن الرُّوم سيغلِبون في بضع سنين ، وتكون الدولة لهم في الحرب .

وقرأ أبو سعيد الخدري ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومعاوية بن قرة ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : [غَلَبَت] بفتح الغين واللام ، وتأْويل ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كان أن الرُّوم غَلَبَت ، فعزَّ ذلك على الكفَّار من قريش ، وسُرَّ المسلمون ، فبشَّر الله تبارك وتعالى عباده بأَنهم سيغلِبون أيضاً في بضع سنين ، ذَكَر هذا التأْويل أبو حاتم . والروايةُ الأُولى ، والقراءةُ بضم الغين أصحُّ .

وأَجمع الناسُ على [سَيَغْلِبُونَ] أنه بفتح الياء [١] ، يراد به الروم ، ورُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ أيضاً : [سَيُغْلَبُونَ]

---

(١) عقَّب أبو حيان على هذا بعد أن نَقَله بقوله : «وقوله : (أجمعوا) ليس كذلك ، ألا ترى أن الذين قرءُوا : [غَلَبَت] بفتح الغين هم الذين قرءُوا : [سَيُغْلَبُونَ] بضم الياء وفتح اللام ؟ وليست هذه مخصوصة بابن عمر رضي الله عنهما .

بضم الياء ، وفي هذه القراءة قلب المعنى الذي تظاهرت به الروايات .

و ﴿ أَدْنَى ٱلْأَرْض ﴾ معناه : أقرب الأرض ، فإن كانت الوقعة في أَذْرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهي التي ذكرها امرؤُ القيس في قوله :

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرِعات وأَهْلُهَا ... بِيَثْرِبَ أَدْنَى دارِها نَظَرٌ عَالِ [١]

وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وإن كانت بالأُردن فهي أدنى إلى أرض الروم ، قال أبو حاتم : وقُرِئ ﴿ أَدْنى ٱلْأَرْض ﴾[٢]، وقرأ جمهور الناس : [غَلَبِهِمْ] بفتح اللام ، كما يقال : «احْلُبْ حَلَباً لَكَ شَطْرُه»[٣]، وقرأ ابن عُمر رضي الله عنهما بسكونها ، وهو مصدر أُضيف إلى المفعول[٤] .

---

(١) هو من قصيدته المشهورة التي قالها يتغزل ويصف مغامراته وصيده وسعيه إلى المجد ، والتي قال في مطلعها :

ألا عِمْ صباحاً أيُّهَا الطَّلَلُ البَالي ... وهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الخَالي ؟

(٢) هكذا في الأصول بدون ضبط ، ولم نجد ضبطاً لها في كتب القراءات والتفسير ، وإن كان أبو حيان قد ذكر في البحر أنها قراءة الكلبي .

(٣) هذا مثلٌ يضرب في الحثّ على الطلب ، والمساواة في المطلوب ، قال ذلك ابن الأثير في «مجمع الأمثال» ، وقال الزمخشري في «المستقصى في أمثال العرب» : معناه : اعمل عملا لك بعضه . والشاهد فيه هنا هو فتح اللام في «حَلَباً» .

(٤) قراءة السكون هي أيضاً قراءة ابن السميْقَع وأبو حيوة ، والفتح والسكون لغتان في المصدر ، مثل : الظَّعْن والظَّعَن ، وقد حكى الأصمعي : طَرَدَ طَرَداً ، وجَلَبَ جَلَباً ،=

ورُوي في قصص هذه الآية عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وغيره أَن الكفار لما فرحوا بمكَّة بِغَلَب الروم ، بشَّر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأَن الرُّوم سيَغْلِبون في بضع سنين ، أَي : من الثلاثة إلى التسعة ، على مشهور قول اللغويين ، كأَنه تبضيع العشرة ، أَي : تقطيعها . وقال أَبو عبيدة : من الثلاث إلى الخَمْس ، وقوله مردود ، فلما بشَّرهم بذلك خرج أَبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المسجد ، فقال لهم : «أَسَرَّكُم أَن غُلِبت الرُّوم ؟ فإن نبينا أَخبرنا عن الله تعالى أَنهم سَيَغْلِبون في بضع سنين» ، فقال له أُبَيُّ ابن خلف وأُمَيَّةُ أَخوه – وقيل : أَبو سفيان بن حرب – : تعالَ يا أَبا فَصِيلٍ – يعرِّضون بكنيته بالبكر(١) – فَلْنتناخَبْ – أَي نتراهن – في ذلك ، فراهنهم أَبو بكر ، – قال قتادة : وذلك قبل أَن يحرَّم القمار – وجعل الرهان خمس قلائص ، والأَجل ثلاث سنين ، فأَخبر

= وحَلَبَ حلَباً ، وغَلَبَ غَلَباً ، وفي ذلك ردٌّ على ما قاله الفرّاء ؛ إذ زعم أن الأصل: (مِنْ بَعْدِ غَلَبَتهم) ، فحذفت التاء كما حذفت في قوله تعالى : ﴿ وَإِقَامِ الصَّلاةِ ﴾ ، لأن أصله : إقامَةِ الصلاة . قال النحاس : وهذا غَلَط لا يَخيلُ على أحد من النَّحويِّين ؛ لأن ﴿ إقَامَ الصَّلاةِ ﴾ مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله ، وجعلت التاء عوضاً من المحذوف،أما (غَلَب) ومثيلاتُها فليس بمعتل ، ولم يحذف منه شيءٌ .

(١) الفَصِيلُ : ولد الناقة إذا فُصِل عن أُمِّه ، والبَكْرُ : الفَتِيُّ القويُّ من الإبل ، فهم بهذا يسخرون من أبي بكر رضي الله عنه .

النبيَّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال له : إن البِضْع إلى التِّسع ، ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأَجل ، ففعل أَبو بكر رضي الله عنه ، فجعلوا القلائص مائة والأَجل تسعة أعوام ، فَغَلَبَت الروم في أَثناء الأَجل ، فروي عن أَبي سعيد الخدري أَن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر ، وروي أَن ذلك كان يوم الحُدَيْبِيَة ، وأَن الخبر بذلك وصل يومَ بيعة الرضوان ، رُوي نحوه عن قتادة ، وفي كلا اليومين كان نصر من الله تعالى للمؤمنين .

وذكر الناسُ أَن سبب سرور المسلمين بغَلَبَة الروم وهمِّهم أَن تَغْلِب ، وكون المشركين من قريش على ضدِّ ذلك ، إنما هو أَن الروم أَهل كتاب كالمسلمين ، والفرس أَهل الأَوثان ونحوه من عبادة النار ككفار قريش والعرب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويُشبه أَن يقال ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أَن يغلب العدوُّ الأَصغر : لأَنه أَيْسر مؤونة ، ومتى غَلَب الأَكبر كثر الخوف منه ، فتأَمل هذا مع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجَّاه من ظهور دينه وشرْعِ الله تعالى عزَّ وجلَّ الذي بعثه به ، وغلبته على الأُمم ،

وإرادة كفار مكة أن يرميه الله تعالى بملِك يستأْصله ويُريحهم منه [١].

و «سنين» يجمع كجمع من يعقل عوضاً عن النقص الذي في واحده ؛ لأَن أَصل سنة : سنهة ، أَو سنوة ، وكُسرت السِّين منه دلالة على أَن جمعه خارج عن قياسه ونمطه .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ ، أَخبر تبارك وتعالى بانفراده بالقدرة ، وأَن ما في العالم من غَلَبة وغيرها إنما هو منه وبإرادته وقدرته ، فقال : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ ﴾ ، أَي : إنفاذ الأَحكام ، ﴿ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أَي : من قبل هذه الغلبة ومن بعدها ، و «قَبْلُ» و «بَعْدُ» ظرفان بُنِيا على الضَّمِّ ؛ لأَنهما تعرَّفا بحذف ما أُضيف إليهما وصارا مُتَضَمِّنَيْن ما حُذف ، فخالفا تعريف الأَسماءِ وأَشبها الحروف في التضمين فَبُنِيا ، وخُصَّا بالضَّم لشبههما بالمنادى المفرد ، وأَنه إذا نُكِّر أَو أُضيف زال بناؤُه ، فكذلك هما ، فضُمَّا كما أَنَّ المنادى مبني على الضم ، وكذلك قيل في ذلك أَيضاً : إن الفتح تعذَّر فيهما لأَنه حالهما عند إضافتهما إلى المتكلم ، وتعذَّر السكون لأَن ما قبل

(١) قال النحاس : وقول آخر في سبب سرور المؤمنين ــ وهو أولى ــ كان فرحهم لإنجاز وعد الله تعالى ؛ إذ كان فيه دليل على النُّبوَّة ؛ لأنه تبارك وتعالى أخبر بما يكون في بضع سنين فكان فيه .

آخرهما ساكن ، فلم يبق إلَّا الضم فَبُنيا عليه . ومن العرب من يقول : مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ بالخفض والتنوين ، قال الفراءُ : «ويجوز تركُ التنوين فيبقى كما هو في الإضافة وإن حُذِف المضافُ»[1] .

وقوله تعالى : [وَيَوْمَئِذٍ] يحتمل أن يكون عطفاً على «القَبْل والبَعْد» ، كأنه حصر الأزمنة الثلاثة : الماضي والمستقبل والحال ، ثم ابتدأ الإخبار بفرح المؤمنين بالنصر[2] ، ويحتمل أن يكون الكلام قد تمَّ في قوله : [بَعْدُ] ثم استأنف عطف جملة أخبر فيها أنَّ يومَ غَلَبَة الرُّوم للفرس يُفْرِح المؤمنين بنصر الله ، وعلى هذا الاحتمال مشى المفسرون . والنصر الذي يفرح به المؤمنون يحتمل أن يُشار فيه إلى

---

(١) أطال الفراءُ القول عن «قبل وبعد» في كتابه (معاني القرآن) ، وهو من أول الأمر يرى أنَّهما في هذه الآية مرفوعان بغير تنوين ؛ لأنهما في المعنى يراد بهما الإضافة إلى شيء لا محالة ، فلما أدَّتا معنى ما أضيفتا إليه وَسَمُوهُمَا بالرفع وهما مخفوضتان؛ ليكون الرفع دليلا على ماسقط مما أضفتهما إليه ، واستشهد على ذلك بأبيات من الشِّعر ، وقال : فإن نويت أن تُظْهِر المضاف إليه أوْ أظهرتهِ قلت : لله الأمر من قبْلِ ومن بعْدِ ، ولو أطلقتهما بالعربية فنونت وفيهما معنى الإضافة فخفضتَ في الخفض ونوَّنْت في النصب والرفع لكان صواباً ، وقد سُمع ذلك من العرب ، وجاء في أشعارها ، فقال بعضُهم :

وساغَ لِيَ الشَّرابُ وكُنْتُ قبْلاً ... أكادُ أغصُّ بالماء الحَميم

فنَوَّنَ ، وكذلك تقول : جئتُك من قبْلٍ فرأيتُكَ ، وكذلك قوله :

مِكَرٌّ مِفَرٌّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

فهذا مخفوض ، وإن شئت نوَّنْت ، وإن شئت لم تنوِّن على نيَّتك .

(٢) يعني يتم الكلام بقوله: [يَوْمَئِذٍ] ، ويبدأ الإخبار بقوله : ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

نصر الرُّوم على فارس ، وهي نُصرة للإسلام بحكم السنين التي قد ذكرناها ، ويُحتمل أن يُشار فيه إلى نصر يخصُّ المسلمين على عدوهم ، وهذا أيضاً غيبٌ أخبر به وأخرجه إمَّا بيوم بدر ، وإمَّا ببيعة الرضوان ، ويحتمل أن يُشار فيه إلى فرح المسلمين بنصر الله تعالى إيَّاهم في أن صدق ما قال نَبِيُّهم عليه الصلاة والسلام في أن الروم ستغلب فارس ، فإن هذا ضربٌ من النصر عظيم .

وقوله تعالى : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ نصب على المصدر المؤكد ، وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يريد الكفار من قريش والعرب ، أي : لا يعلمون أن الأُمور من عِند الله تبارك وتعالى ، وأن وعده لا يَتَخلَّف ، وأن ما يورده نبيُّه ــ عليه الصلاة والسلام ــ حقٌّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا الذي ذكرناه هو عُمْدة ما قيل . وقد حكى الطبري وغيره روايات يردُّها النظر أوَّل قول ، من ذلك أنَّ بعضهم قال : إنما نزلت ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ بعد غلبة الروم لفارس ووصول الخبر بذلك ، فهذا يقتضي أنَّ الآية مدنية ، والسورةُ كلُّها مكيَّة بإجماع ، ونحو هذا من الأقوال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾

وصف تبارك وتعالى الكفرة الذين لا يعلمون أمر الله تعالى وصِدْقَ وعده بأنهم إنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، واختلف الناس في معنى [ظاهراً] ـ فقالت فرقة : معناه : بَيِّناً ، أي ما أدَّته إليهم حواسهم ، فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم(١). وقال ابن عباس ، والحسن ، والجمهور : معناه : ما فيه العُلُوُّ أو الظهور في الدُّنيا ، من إتقان الصناعات والمباني ومظانِّ كسْب المال والفلاحات ونحوها ، وقالت فرقة : معناه : ذاهباً زائلاً ، أي : يعلمون من أُمور الدنيا التي لا بقاءَ لها ولا عاقبة ، ومثل هذه اللفظة قول الهُذَليِّ :

وَعَيَّرَها الْوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا ... وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكِ عارُها (٢)

---

(١) يعني أنها العلوم التي لا تهتم إلا بما تهتم به البهائم من الأكل والشرب والتناسل .
(٢) قال أبو ذُؤَيْب الهُذَلِيُّ هذا البيت من قصيدة رثى بها نُشَيْبَةَ بن مُحَرِّث أحد بني حُطَيْط ، ومَطْلَعُها :

هَلِ الدَّهْرُ إلا لَيْلَةٌ أوْ نَهَارُهَا ... وإلا طُلُوعُ الشَّمْسِ ثُمَّ غِيارُهَا ؟ =

وقال سعيد بن جبير : إن قوله تعالى : ﴿ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ إنما هو إشارة إلى ما يُعلم مِنْ قِبَل الكهنة مما تسترقه الشياطين ، وقال الرماني : كل ما يُعلم بأوائل الرُّؤْية فهو الظاهر ، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفيه تقع الغفلة وتقصير الجهال .

ثم وصفهم تبارك وتعالى بالغفلة والإعراض عن أمر الآخرة ، وكرَّر الضمير تأْكيداً ، وغفلة الكافر هي على الكمالِ ، والمؤمنُ المنهمك في أمور الدُّنيا التي هي أكبر همِّه يأْخذُ من هذه الآية بحظٍّ. نوَّر الله قلوبنا وهَدى .

ثمَّ وقفهم ـ على جهة التوبيخ ـ على أنهم قد فكروا فلم ينفعهم الفِكْر والنَّظر ؛ إذ لم يكن على سداد . وقوله تعالى : ﴿ في أَنْفُسِهِمْ ﴾ يحتمل معنييْن : أحدهما أن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقهم ليستدلُّوا بذلك على الخالق المخترع ، والثاني أن يكون قوله : ﴿ في

= والواشون: جمع واشٍ ، وهو الذي يَنِمُّ بالإنسان ويسعى ، وأصله من الوشْي وهو التنميق والتحسين والكذب في الكلام ونشره بين الناس . وقوله : « وتلك وشاة » أي : ذلك التَّعْيير ، « ظاهر عنك عارها » : أي : زائل عنك وذاهب لا يَعْلَق بك ، وهو الشاهد هنا ، أي : أن تعييرهم لك لا يَلْزَق بك ، بل يَبْتعد عنك ويَنْبُو .

أَنْفُسِهِمْ ﴾ ظرفاً للفكرة في خلق السموات والأَرض ، ثم أَخبر عقب هذا المعنى بأَن الحق هو السبب في خلق السموات والأَرض ، فيكون قوله : ﴿ في أَنْفُسِهِمْ ﴾ تأْكيداً لقوله : [يَتَفَكَّرُوا] ، كما تقول : أَبْصِر بعينك واسْمَع بأُذنك ، فقولك : « بعينك » و « بأُذنك » تأْكيد. وقوله : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي بسبب المنافع التي هي حقٌّ وواجبٌ ، يريد : من الدلالة عليه ، والعبادة له دون فتوز ، والانتصار للعبرة ومنافع الأَرزاق وغير ذلك (١). [وَأَجَلٍ] عطف على [ٱلْحَقِّ] ، أَي : وبأَجل مُسَمًّى وهو يوم القيامة ، ففي الآية إشارة إلى البعث والنُّشور وفساد بِنْيَة من في هذا العالم ، ثم أَخبر عن كثير من الناس أَنهم كفرة بهذا المعنى ، فعبَّر عنه بلقاءِ الله تبارك وتعالى ؛ لأَن لقاءَ الله تعالى هو أَعظم الأُمور ، وفيه النَّجَاةُ أَو الْهَلَكَةُ .

---

(١) قال الإمام أبو عبد الله الرازي : « قدَّم هنا دلائل الأنْفُس على دلائل الآفاق ، وفي قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا في الآفَاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ ﴾ قدَّم دلائل الآفاق على دلائل الأنْفُس . وحكمة ذلك أن المُفِيد يذكر الفائدة على وجه يختارها ، فإن فُهِمَتْ وإلا انتقل إلى الأبْيَن ، والمُسْتَفيد يفهم أَوَّلا الأبْيَن ثم يرتقي إلى الأخْفَى ، وفي قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ الفعل مسند إلى السامع أي المستفيد ، فبدأ تعالى بما يُفْهَم أولا ، ثم ارتقى إلى الأخفى الذي يُفهم ثانياً ، وفي قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ﴾ الفعل مُسند إلى المُفيد ، فذكر أولا الآفاق ، فإن لم يفهموا فالأنْفُس ؛ إذْ لا ذهول للإنسان عن دلائلها لأنها في ذاته ، بخلاف دلائل الآفاق لأنه قد يذهل عنها ، وهذا مراعى في الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ، إذ بدأ تعالى بأحوال الأنْفُس ثم بدلائل الآفاق » . اهـ بتصرف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

هذا أَيضاً توقيف وتوبيخ على أَنهم ساروا ونظروا ، أَي أَن ذلك لم ينفعهم حتى لم يعملوا بحسب العبرة وخوف العاقبة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يتوجَّه للكفرة أن يُعارض منهم من لم يَسِرْ فيقول : لم أَسِرْ ؛ لِأَنَّ كافَّة من سار من الناس قد نقلت معارفهم إلى من لم يَسِرْ ، فاستوت المعرفة وحصل اليقين للكُلِّ وقامت الحُجَّة ، وهذا بيِّن .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ ﴾ يريد : بالمباني والحرث والحروب ، وسائر المباني التي أَحدثوها هي كلها إثارة ، بعضها حقيقة وبعضها بتجوُّز ؛ لأَن إثارة أَهل الأَرض والحيوان والمتاع إثارةٌ للأَرض . وقرأَ أَبو جعفر : [وَآثَارُوا] بمدِّ الهمزة ، قال ابن مجاهد : ليس هذا بشيءٍ ، وقال أَبو الفتح : وجْهُهَا أَنه أَشْبع فتحة الهمزة فنشأَت أَلف ، ونحوه

قول ابن هَرْمَة :

فَأَنْتَ مِن الْغَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى ومِنْ ذَمِّ الرِّجالِ بِمُنْتَــزَاحِ [1]

وقال : وهذا من ضرورة الشِّعر لا يجيءُ في القرآن . وقرأ أبو حيْوة : [وآثَرُوا] بالمدِّ بغير ألف بعد الثَّاء ، من الأَثَرة . والضمير في [عَمَرُوهَا] الأَول للماضين ، وفي الثاني للحاضرين المعاصرين ، وباقي الآية بيِّن يتضمَّن الوعظ والتخويف من الله تعالى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾

---

(١) البيت في (اللسان — نَزَحَ) ، وقد قاله ابن هَرْمَة في رثاء ابنه ، والغَوَائِل : جمع غائلَة ، وهي الفَسَادُ والشَّرُّ والداهية ، يُعَزِّي نفسه فيقول مخاطباً ابنه : إنَّك أصبحت بعيداً عن المصائب والشَّر الذي يغتال الناس ، كذلك أصبحت بعيداً عن ذمِّ الناس لك ، لقد نجوت من مصائب الدنيا وما فيها من شرور . والشاهد أنه مدَّ الفتحة في الزاي من كلمة (مُنْتَزَح) فصارت ألفاً ، فقد تولدت الألف عن إشباع الفتحة ، ومثل هذا ما حدث في [آثَاروا] من إشباع للفتحة نتجت عنها الألف في قراءة أبي جعفر . وهذه القراءة رواها الواقديُّ ، محمد ابن عمر بن واقد ، عن سليمان ، عن أبي جعفر ، ومن كلام أبي الفتح عليها قوله : «ظاهره لعمري منكر ، إلا أن له وجْهاً مَّا ، ولَيْس لحْناً مقطوعاً به ، وذلك أنه أراد : وأثَاروا الأرْضَ ، أي : شَقَّقُوها للغَرْس والزراعة ، وهو أفْعَلوا ، من قوله سبحانه : ﴿ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرْضَ ﴾ إلا أنه أشبع فتحة الهمزة فأنشأ عنها ألفاً» . (راجع المحتسب ، ٢–١٦٣) .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : [عَاقِبَةُ] بالرفع على أنها اسم [كَانَ] ، والخبر يجوز أن يكون [ٱلسُّوءَى] ، ويجوز أن يكون : ﴿ أَنْ كَذَّبُوا ﴾ ، وتكون [ٱلسُّوءَى] – على هذا – مفعولاً بـ [أَسَاءُوا] ، وإذا كان [ٱلسُّوءَى] خَبراً فإنَّ ﴿ أَنْ كَذَّبُوا ﴾ مفعولٌ من أَجْله ، ولا يصح تعلُّقه بـ [أَسَاءُوا] ؛ لأن في ذلك فصلاً بين الصلة وموصولها بخبر [كَانَ] . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [عَاقِبَةَ] بالنصب على أنها خبرٌ مقدم ، واسم كان أَحَدُ ما تقدم ، و [السُّوءَى] مصدرٌ كالرُّجْعَى والفُتْيَا والشُّورَى ، ويجوز أن تكون صفة لمحذوف تقديره : «الخلَّة السُّوءَى» . قال أبو حاتم : هذه قراءة العامة بالمدِّ على الواو وفتح الهمزة وياء التأنيث ، فبعض القراء فخَّم ، وبعضهم أمال . وقرأ الحسن : [السُّوءِ] بالتذكير ، وروي عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه أنه قال : السُّوءِ والسُّوءَى ، اقرأ بما شئت ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : [أَسَاءُوا] هنا بمعنى : كفروا ، و [ٱلسُّوءَى] هي النار ، والتكذيب بآيات الله تبارك وتعالى غير الاستهزاء بها ، فلذلك عدَّد عليهم الفعلين .

ثم أخبر تعالى إخباراً مطلقاً لجميع العالم بالحشر والبعث من القبور . وقرأ طلحة ، وابن مسعود : [يُبْدِئُ] بضم الياء وكسر الدال ، وقرأ

جمهور القراء : [تُرْجَعُونَ] بالتاء من فوق . وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم بالياء .

وقوله : [يَوْمَ] منصوب بـ [يُبْلِسُ] ، و «الإبْلاسُ» : الكونُ في شرٍّ مع اليأس من الخير في ذلك الشيءِ بِعَيْنه ، فإبلاسُهم هو في عذاب الله تعالى . وقرأ عامة القراء بكسر اللام ، وقرأ أبو عبد الرحمن[1] ، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بفتحها ، وأبْلس الرَّبْع إذا بلي ، وكأنه يئس من العمارة ، ومنه قول العجاج :

يا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَبْعاً مُكْرَسَا ؟ قَالَ نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسَا[2]

وقرأ عامة القراء : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ﴾ بالياء من تحت ، ورُوي عن نافع [تكُنْ] بالتاء من فوق ، و «الشركاءُ» : المشار إليهم هُم الأصنام ، أي الذين كانوا يجعلونهم شركاءَ الله بزعمهم . وقوله :

---

(١) هو أبو عبد الرحمن السُّلَمي.

(٢) البيتان من مشطور الرجز للعجاج ، وهما في الديوان ، ولسان العرب ، و (معاني القرآن) للفراء ، و (مجاز القرآن) لأبي عبيدة ، والقرطبي ، والطبري ، قال في (اللسان — بَلَس) : «المُبْلِس : اليائس ، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب : قد أبلس ، ثم ذكر البيت الثاني» . وقال الفراءُ : «﴿ يُبْلِسُ المُجْرِمُونَ ﴾ ييأسون من كلِّ خير ، وينقطع كلامهم وحُجَجُهم . قال الشاعر ..» . ومُكْرَس : اسم مفعول ، وهو الذي قد بعرت فيه الإبل وبولت ، فركب بعضه بعضاً ، ويكون اسم فاعل أيضاً (كما قال أبو عبيدة) بنفس المعنى .

[وَكَانُوا] معناه أَيُكَذِّبون عند معاينتهم أمر الله تعالى وفساد حال الأَصنام، فعبَّر عنه بالماضي لتَيَقُّن الأَمْر وصحة وقوعه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

[يَتَفَرَّقُونَ] معناه : في المنازل والأَحكام والجزاء ، قال قتادة : فُرْقةٌ والله لا اجتماع بعدها . و [يُحْبَرُونَ] معناه : يُنَعَّمون ، قاله مجاهد ، والحَبْرةُ والحبور : السُّرور والنعيم ، وقال يحيى بن أَبي كثير [١] : [يُحْبَرُونَ] معناه : يسمعون الأَغاني [٢] ، وهذا نوعٌ من الحَبْرة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [يُحْبَرُونَ] : يكرمون ، وفي المثل :

---

(١) هو يحيى بن أبي كثير الطائي ، مولاهم ، أبو نصر اليمامي ، ثقة ثبت ، لكنه يدلِّس ويرسل ، من الخامسة ، مات سنة اثنين وثلاثين ، وقيل قبل ذلك . (تقريب التهذيب) .

(٢) قال الأوزاعي : « إذا أخذ أهل الجنة في السَّمـاع (يعني الغناء) لم تبق شجـرة في الجنة إلا ردَّدت الغناء بالتسبيح والتقديس » ، وقال : « ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل ، فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم » .

«امتلأت بيوتهم حَبْرة فهم ينتظرون العِبْرة» ، ومنه بيت أبي ذُؤيب :

فِرَاقٌ كَقَيْصِ السِّنِّ فَالصَّبْرَ إِنَّهُ   لِكُلِّ أُنَاسٍ عِزَّةٌ وحُبُورُ(١)

هذا على هذه الرواية ، ويُرْوى : «عَثْرَةٌ وجُبُورُ» ، وهي أكثر .

وذكر تعالى الروضة لأنها أحسن ما يعلم من بقاع الأرض ، وهي حيث يكثر النبت الأخضر ، وما كان منها في المرتفع من الأرض كان أحسن ، ومنه قول الأعشى :

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الْحَزْنِ مُعْشِبَةٌ   خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ(٢)

---

(١) البيت من قصيدة لأبي ذؤيب مطلعها :

أَمِنْ آلِ لَيْلَى بالضَّجوع وأهلُنَا   بِنَعْفِ اللِّوَى أوْ بالصُّفَيَّةِ عيرُ

و «قَيْصُ السِّنِّ» : انشقاقُها بالطُّول ، ويقال : «انْقَاصَتِ البِئْرُ» إذا تَشَقَّق طَيُّها وتَهَدَّم ، وقوله : «فالصَّبْرَ» بالنصب ، أي : اصْبِرْ صبْراً ، وعن الأصمعي : «فالصَّبْرُ» بالرفع ، والمعنى : هذا فراق أبَديٌّ كانشقاق السِّن فاصبر عليه ، وقال الأخفش : إذا انشقت السِّن عَرْضاً قيل : انقصمت ، ورواها أبو عمرو : «كَنَغْض السِّنِّ» وهو تحرُّكُها ، وقال : «قَاصَتِ السِّنُّ تَقيصُ» إذا تحركت ، وأما قوله : «عِزَّةٌ وحُبُور» فرواية نادرة ، والرواية المشهورة وبها الديوان : «عَثْرَةٌ وجُبُورٌ» ، أي : يَعْثُرُون ثم يجبرون ، وعلى هذه الرواية المشهورة لا شاهد في البيت ، ولهذا لم يذكره الطبري ولا القرطبي ولا البحر المحيط .

(٢) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ   وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أيُّها الرَّجُلُ ؟

وهو واحد من ثلاثة أبيات استشهد بها المفسرون كالقرطبي والطبري وغيرهما ، وهي قوله :=

ومنه قول كُثَيِّر :

فَمَا رَوْضَةٌ بالْحزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا (١)

قال الأَصمعي : ولا يُقَال روضة حتَّى يكون فيها ما يشرب فيه .

=ما رَوْضَةٌ مِنْ رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْرَاءُ جادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
يَوْماً بأطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رائِحَةٍ وَلا بِأحْسَنَ مِنْهَا إذْ دَنَا الأُصُلُ

وقد أورد أبو عبيدة في مجاز القرآن البيتين الأول والثالث ، ورواية الطبري : (من رياض الحُسْن) ، ورياض الحَزْنِ أطيب من رياض الأرض المنخفضة ، لأن رياض الحَزْنِ أكثر تعرضاً للرياح التي تنشر منها الرائحة ، وأبعد من أن تطأها الأقدام ، والمُسْبِل : المَطَر ، الهَطِلُ : الغزير ، والكوكب : قيل هو النور ، وقيل : النبات المستطيل . ومعنى الشَّرِق — على هذا — : الرَّيان . والمُؤَزَّر : الذي حوله نبات آخر صار له كالإزار ، والمُكْتَهل : الذي قد بَلَغَ وتَمَّ ، والنَّشْر : تضَوُّع الرائحة ، والأُصُل : جمع أصيل ، وهوقبيل الغروب حين تصفر الشمس ويطيب الهواء ، يقول : إن رائحة حبيبته أطيب من رائحة الأزهار في هذه الروضة التي بلغت حدَّ الكمال في الحسن والإزْهار .

(١) هذا واحد من بيتين قالهما كُثَيِّر في محبوبته عزَّة ، وقد ذكرهما في اللسان، (جَثَثَ)، وهو يتحدث عن رائحة فمها التي تفوق رائحة الأزهار في أحسن الرياض ، والبيتان هما :

فَمَا رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا
بِأطْيَبَ مِنْ فِيهَا إذا جِئْتَ طَارِقاً وَقَدْ أوْقَدَتْ بالمِجْمَرِ اللَّدْنِ نَارُهَا

والثَّرَى : التَرابُ النَّدِيُّ ، والجثجاثُ : نباتٌ سَهْلِيٌّ ربيعيٌّ يجف في الصيف ، وهو أخضر ، له زهرة صفراءُ كأنها زهرة عرفجة طيِّبةُ الريح تأكله الإبل إذا لم تجد غيره ، واحدته جَثْجاثة . والعَرَارُ : بهارُ البَرِّ ، واحدته عَرَارَة ، وهو نبت طيب الريح ، قيل : هو النرجس البَرِّي ، وفيه قال الصِّمَّةُ بن عبد الله القُشَيْرِيُّ بيته المشهور :

تَمَتَّعْ مِن شَمِيم عَرَارِ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِن عَرَار

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ ﴾ خطابٌ للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحضِّ على الصلاة في هذه الأوقات ، كأنه يقول : أدَّى هذا التفرق إلى أنواع من النِّعَمِ والعذاب فجرى بها المؤمن في طريق الفوز برحمة الله. وقال ابن عباس ، وقتادة ، وبعض الفقهاء : في هذه الآية تنبيه على أربع صلوات : المغرب والصبح والعصر والظهر ، قالوا : والعشاءُ الآخرة في آية أُخرى ، في ﴿ وَزُلَفاً مِنَ ٱللَّيْلِ ﴾[1]، وفي ذكر أوقات العورة[2] . وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – أيضاً وفرقة من الفقهاء : في هذه الآية تنبيه على الصلوات الخمس ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ يتضمن الصلاتين . وقوله تعالى : : ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ اعتراض من الكلام بين وقوع تعظيم الله تعالى والحضِّ على على عبادته ، وقرأ عكرمة :﴿ حِيناً تُمْسُونَ وَحِيناً تُصْبِحُونَ ﴾ ، والمعنى : حيناً تمسون فيه [وحيناً تصبحون فيه][3] .

---

(١) من الآية (١١٤) من سورة (هود) .

(٢) وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ... ﴾ الآية ، وهي رقم (٥٨) من سورة (النور) .

(٣) ما بين العلامتين [...] زيادة يقتضيها المقام ، وقد سقطت من الأصل ، قال العلماءُ : وقد حذفت (فيه) تخفيفاً ، والقول في ذلك كالقول في ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ﴾ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

«الحَيُّ والميِّتُ» في هذه الآية يستعمل حقيقة ويستعمل مجازاً ، فالحقيقة : المنيُّ يخرج منه الإنسان ، والبيضة يخرج منها الطائر ، وهذه بعينها ميتة تخرج من حي ، وما جرى هذا المجرى ، وبهذا المعنى فسَّر ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم . وقال الحسن : المعنى : المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وروي هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قرأ هذه الآية عندما كلَّمَتْه بالإسلام أُم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط . والمجاز(١) إخراج النبات الأَخضر من الأَرض ، وإخراج الطعم من النبات ،

(١) هذا هو المقابل لقول ابن عطية : « فالحقيقة : المنيُّ يخرج من الإنسان » .

وما جرى هذا المجرى . ومثَّل بَعْدُ بإحياء الأَرض بعد موتها بالمطر .

ثم بعد هذه الأَمثلة القاضية بتجويز بعث الأَجساد عقلاً ساق الخبر بأَن كذلك خروجنا من القبور ، وقرأَت فرقة : [يُخْرَجُونَ] بالياء من تحت ، وقرأَ عامة القراء : [تُخْرَجُونَ] بالتاء المضمومة ، وقرأَ الحسن ، وابن وثاب ، والأَعمش ، وطلحة بفتح التاء وضم الراء .

و [مِنْ] في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ ﴾ للتبعيض ، وقال : [خَلَقَكُمْ] من حيث خلق أَباهم آدم ، قاله قتادة . و [تَنْتَشِرُونَ] معناه : تتصرفون وتتفرقون في الأَعراض والأَسفار .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ يحتمل أَن يريد خلْقَه حواءَ من ضلع آدم ، فحمل ذلك على جميع الناس من حيث أُمُّهم مخلوقة من نفس آدم ، أَي : من ذاتِ شخصه ، ويحتمل أَن يُريد : من نوعكم وجنسكم . و « المودة والرَّحمة » على بابهما المشهور من التودد والتراحم ، هذا هو البليغ ، وقال مجاهد والحسن وعكرمة : عنى بالمودة الجماع وبالرحمة الولد .

ثم نبَّه تعالى على خلق السموات والأَرض ، واختلاف اللغات والأَلوان ، وهذه : البياض والسواد وغيرهما ، ويحتمل أَن يريد ضروب بني آدم وأَنواعهم ، فتَعُم شخوص البشر الذين يختلفون

بالألوان ، وتعم الألسنة . وقرأ جمهور القراء : [لِلْعَالَمِينَ] بفتح اللام ، وقرأ حفص عن عاصم : [لِلْعالِمينَ] بكسر اللام (١) ، فالأولى على أن هذه الآية هي في نفسها منصوبة لجميع العالم ، والثانية على معنى أن أهل الانتفاع بالنظر فيها إنما هم أهل العلم (٢) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ذكر تعالى النوم بالليل والنَّهار وعُرْف النوم إنما هو بالليل وحده ، ثم ذكر الابتغاء من فضله كأنه فيهما ، وإنما معنى ذلك أنه عمَّ الليل والنهار فسمَّى الزمان ، وقصد من ذلك تعديد آية النوم وتعديد آية ابتغاء الفضل ، فإنَّهما آيتان ونعمتان يكونان في ليل ونهار ، والفرق

---

(١) وهي أيضاً قراءة حماد بن شعيب عن أبي بكر ، وعلقمة عن عاصم ، ويونس عن أبي عمرو .

(٢) فهي في هذا كقوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ﴾ .

(تحيُّزُ)[١] كل واحدة من النعمتين إلى محلها في الأَغلب ، وقال بعض المفسرين : في الكلام تقديم وتأْخير [٢] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وإنما أراد أن يُرتِّب النوم للَّيل ، والابتغاء للنهار ، ولفظ الآية لا يُعطي ما أراد .

وقوله تعالى : [يُريكُمُ] فعلٌ مرتفع لما حذفت (أَنْ) التي لو كانت لنصبته ، فلمَّا حلَّ الفعل محلَّ الاسم أُعرب بالرَّفع ، ومثله قول طرفة :

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الْوَغَى ... وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي؟[٣]

---

(١) هكذا بالأصل ، والمعنى قد يقبلها على قلق في التعبير .

(٢) ويكون التقدير : ومن آياته منامكم باللَّيل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ، فحذف حرْف الجر في (بالنَّهَار) لاتصاله باللَّيْل وعطفه عليه ، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصة . هكذا قدره القرطبي . وقال في البحر المحيط : « وهذا ضعيف ، ولفظ الآية لا يعطي ذلك » فاتفق مع ابن عطية في الرأي .

(٣) البيت من معلقة طرفة ، والبيت موضع خلاف بين البصريين والكوفيين في ضبط كلمة (أَحْضُر) ، فالبصريون يرفعونها ، ويرون أن (أَنْ) أُضمرت قبل الفعل فذهب عملها ؛ لأنها لا تعمل مضمرة إلا في عشرة مواضع نصُّوا عليها ، أما الكوفيون فيرون أن (أَنْ) تعمل وهي مضمرة كأنها موجودة لقوة الدلالة عليها ، ولهذا فالرواية عندهم (أَحْضُرَ) بالنصب ، كأنه قال : أنْ أَحْضُرَ . والوَغَى : أصوات المحاربين في المعركة ، ثم توسع فيه فأُطلق على الحرب نفسها ، يقول طرفة : أيها الذي تلومني على شجاعتي وعلى تمتعي باللذات هل تستطيع أن تخلدني في الدنيا إذا امتنعت عن اللذات وتخلفت عن الحروب ؟ والاستفهام يحمل معنى النفي وما يترتب على ذلك من إصرار على مبادئه .

قال الرماني : وتحتمل الآية أن يكون التقدير : «ومِنْ آياته آيَةٌ يريكم البرق» ، وحذفت (آيَةٌ) لدلالة [مِنْ] عليها ، ومنه قول الشاعر :

وما الدَّهْرُ إلَّا تارتانِ فمِنْهُما أَموتُ وَأُخْرى أبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ (١)

والتقدير : فمنهما تارة أموت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا على أن [مِنْ] للتبعيض كسائر هذه الآيات ، ويحتمل في هذه وحدها أن تكون [مِنْ] لابتداء الغاية فلا يحتاج إلى تقدير (آية) ، وإنما يكون الفعل مخلصاً للاستقبال .

وقوله : ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ ، قال قتادة : خوفاً للمسافر وطمَعاً للمقيم .

---

(١) البيت لتميم بن مُقبل، وهو في الديوان، والكتاب ، ومعاني القرآن ، والحيوان ، والكامل ، وحماسة البحتري ، وخزانة الأدب ، والهمع ، والطبري ، والقرطبي . والتَّارَةُ : المَرَّة ، يقول : لا راحةَ في الدنيا ، فوَقْتُها قسمان : موتٌ مكروه عند الناس ، وحياةٌ كلها مشقّة ومعاناة ، والشاهد فيه أن جملة (أموت) صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : «تارة أموت فيها ، وتارة أُخرى أبتغي العيش فيها» ، وهذا تقدير سيبويه ، وقدره الفراء في المعاني فقال : «كأنه أراد : فمنها ساعةٌ أموتها ، وساعةٌ أعيشُها» ، وقد أورد الزجاج البيت عن تفسير قوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ قال : «أي قومٌ يُحَرِّفون ، كهذا البيت ، والمعنى : (تارةً أموتُ فيها) فحذف (تارة) ، وأقام الجملة التي هي صفة نائبة عنها» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا وجه لهذا التخصيص ونحوه ، بل الخوف والطمع لكل بشر ، وقال الضحاك : الخوف من صواعقه ، والطمع في مطره . وقوله : ﴿ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ معناه : تَثْبُت ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾[1] ، وهذا كثير ، وقيل : هو فعل مُسْتَقْبل ، أَحَلَّه محلَّ الماضي ليعطي فيه معنى الدوام الذي هو في المستقبل ، و «الدَّعْوَةُ من الأَرْضِ» هي البعث يوم القيامة ، و ﴿ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ حالٌ من المخاطبين ، كأنه قال : خارجين من الأرض ، ويجوز أن يكون ﴿ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ صفة الدعوة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و [مِنْ] عندي ها هنا هي لانتهاء الغاية ، كما تقول : «دعوتُك من الجبل» ، إذا كان المدعُوُّ في الجبل[2] ، والوقف في هذه الآية عند نافع ويعقوب الحضرمي على [دَعْوَة] ، والمعنى : إذا أنتم تخرجون

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (البقرة) .

(٢) اعترض أبو حيان في البحر على ذلك وقال : «وكَوْن (مِنْ) لانتهاء الغاية قولٌ مردود عند أصحابنا» .

من الأَرض [١] ، وهذا على أن [مِنْ] لابتداءِ الغاية ، قال مكي : والأَحسن عند أَهل النظر أن الوقف في آخر الآية ؛ لأَن مذهب سيبويه والخليل في [إِذَا] الثانية أنها جواب الأُولى ، كأَنه قال : إذا دعاكم خرجتم ، وهذا أَسدُّ الأَقوال ، وقرأَ حمزة ، والكسائي : [تَخْرُجُونَ] بفتح التاءِ ، وقرأَ الباقون : [تُخْرَجُونَ] بضم التاءِ [٢] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

اللام في الأُولى لام الملك ، وفي الثانية لام تعدية لـ (قَنَتَ) ، وقَنَتَ بمعنى خضع في طاعته وانقياده . وهذه الآية ظاهرُ أَمْرِها العمومُ

---

(١) أيضاً قال أبو حيان تعليقاً على ذلك : « وهذا لا يجوز لأن فيه الفصل بين الشرط وجوابه ، والوقف على [دَعْوة] فيه إعمالُ ما بعد (إذا) الفجائية فيما قبلها ، وهذا لا يجوز » .

(٢) من الثابت في المصحف أن قراءة حفص عن عاصم جاءت بفتح التاء وضم الراء مثل حمزة والكسائي .

في القُنُّت ، والعموم في كلٍّ من يعقل ، وتعميم ذلك في المعنى لا يصح ؛ لأنه خبر ونحن نجد كثيراً من الجن والإنس لا يَقْنُت في كثير من المُعْتَقَد والأعمال ، فلابُدَّ أَنَّ عموم ظاهر هذه الآية يراد به الخصوص ، واختلف المتأولون في الخصوص أين هو ؟

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو في القنوت والطاعة ، وذلك أن جميع من يعقل هو قانت لله في معظم الأمور من الحياة والموت والرزق والقدرة ونحو ذلك ، وبعضهم يخل بالعبادة والمعتقدات فلا يقنت فيها ، فكأنه قال : كلٌّ له قانتون في معظم الأمور وفي غالب الشأن .

وقال ابن زيد ما معناه : إن الخصوص هو في الأعيان المذكورين ، كأنه قال : وله من السموات والأرض من ملَك ومؤمن(١) .

وقوله : ﴿ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ﴾ معناه : يُنْشِئُه ويخرجه من العدم ، وجاء الفعل بصيغة الحال لمَّا كان في هذا ما قد مضى كآدم وسائر القرون ، وفيه ما يأتي في المستقبل ، فكأن صيغة الحال تعطي هذا كله . و [يُعِيدُه] يبعثه من القبور ويُنْشِئُه تارةً أُخرى .

(١) أوضح الآراء وأقربها إلى الصحة هنا أنَّ من في السموات والأرض مخلوقون كإرادة الله تعالى ، لا يقدر أحد على تغيير الخلقة ، فآثار الصنعة والخلقة تدل على الطاعة ، فهي طاعة إرادة ومشيئة ، وليست طاعة عبادة ، لأن في طاعة العبادة مطيعاً وغير مطيع .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ـ فقال ابن عباس ، والربيع بن خُثَيْم : المعنى : وهو هَيِّنٌ ، ونظيره قول الشاعر :

لَعَمْرُكَ ما أَدْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ . . . . (١)

بمعنى : لَوَجِلٌ . وقول الآخر :

. . . . بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ (٢)

وقولهم في الأذان : «الله أكبر»(٣) ، وقول الشافعي رحمة الله عليه :

(١) البيت لِمَعْنِ بن أوس المُزَنِيّ ، وهو في خزانة الأدب ، والمقتضب ، والكامل ، والمنصف ، والأشموني ، وابن يعيش ، والعيني ، وشذور الذهب ، وشرح الحماسة للمرزوقي ، والتبريزي ، فضلا عن الديوان ، وهو بتمامه :

لَعَمْرُكَ ما أدْرِي وَإِنِّي لأوْجَلُ عَلَى أيِّنَا تَعْدُو المَنِيَّةُ أوّلُ

وهو من قصيدة قالها مَعْن يستعطف بها صديقاً له هو شقيق زوجة معن ، وكان معن قد طلّق أخت صديقه وتزوج غيرها ، فحلف صديقه ألا يكلمه أبداً ، فقال معن قصيدته لاسترضاء صديقه ، والشاهد هنا أنَّ (أَوْجَل) بمعنى (وَجِل) ، والنحويون يستشهدون بهذا البيت على أن (أوّلُ) بُنِي على الضم لحذف المضاف إليه ونيّةِ معناه ، والأصل : أوّل أوقات عَدْوِها.

(٢) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة يفتخر بها بقومه على جرير فيما كان بينهما من نقائض ، وهو بتمامه :

إنَّ الّذي سَمَكَ السماءَ بَنَى لَنَا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وأَطْوَلُ

وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، وكذلك الطبري ، والقرطبي . وسَمَكَ السماء : رفعها عالية ، والشاهد هنا أن (أعزّ وَأَطْوَل) جاءا بمعنى : عزيزة طويلة ، فليس هنا تفضيل ، وإنما هو مجرد وصف . والبيت في خزانة الأدب ، وابن يعيش ، والأشموني ، والعيني ، وهو أيضاً في الديوان . وقد عارضه جرير بقصيدة مثلها عدَّتها اثنان وستون بيتاً منها :

أخْزَى الذي سَمَكَ السَّماءَ مُجَاشِعاً وَبَنَى بناءَكَ في الحَضِيضِ الأسْفَلِ

(٣) لأن معناها : اللهُ كبير . قال المبرِّد في الكامل : «لأنّه إنما يُفاضَل بين شيئين إذا كانا من جنس واحد» ، وليس هناك من يشارك الله تعالى في هذه الصفة حتى يكون هناك تفضيل .

. . . . فَتِلْكَ سَبِيلي لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ(١)

يريد : بواحد ، واستشهد بهذا البيت أبو عبيدة ، وهذا شاهد كثير ، وفي بعض المصاحف «وكُلٌّ هَيِّنٌ عَلَيْهِ» .

وقال ابن عباس أيضاً ، ومجاهد ، وعكرمة : المعنى : وهو أيسر عليه ، وإن كان الكلُّ من اليُسْر عليه في حيِّز واحد وحالٍ متماثلة ،

---

(٢) هذا عجز بيت ، وهو واحد من ثلاثة أبيات في أمالي القالي (الذَّيْل) ، وفي شرح المرزوقي للحماسة ، وهي منسوبة في كتاب الاختيارين للأخفش، إلى مالك بن الْقَيْن الخزرجي، وقال ذلك الأستاذ عبد العزيز الميْمَني في شرح ذيل الأمالي ، وقال محقق خزانة الأدب : وهي في النسخة المطبوعة من كتاب الاختيارين بتحقيق فخر الدين قباوة ، وقد كتب بها يزيد ابن عبد الملك إلى أخيه هشام حين بلغه أنه يتمنى موته ، كما كتب بها الوليد إلى أخيه سليمان كما جاء في مروج الذهب ، والأبيات الثلاثة هي :

تَمَنَّى رجالٌ أنْ أَمُوتَ وإنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ

فَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجُو رَدَايَ بِضَائِرِي ... وَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجُو رَدَايَ بِمُخْلَدِ

فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلافَ الَّذِي مَضَى ... تَجَهَّزْ لأخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ

ومعنى (خلاف الَّذي قد مَضَى) : أن يخلفه عَلَى ميراثه أو ملكه ، قال القالي في ذيل الأمالي : فَرَدَّ هشام على يزيد ببيتين هما :

ومَنْ لا يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ ... وعَنْ بَعْضِ ما فيهِ يَمُتْ وَهُوَ عَاتِبُ

وَمَنْ يَتَتَبَّعْ جَاهِداً كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْهَا وَلا يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرَ صَاحِبُ

وردَّ يزيد بقصيدة مَعْن بن أوْس التي يقول فيها :

لَعَمْرُكَ مَا أدْرِي وَإنِّي لأوْجَلُ ... عَلَى أيِّنَا تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أوَّلُ

والشاهد هنا أن قوله : بأوْحد معناه : بواحد ، لكن البغدادي قال في خزانة الأدب نقلا عن أبي حيان : لا يخلو أفْعَل من التفضيل .

قال : ولكن هذا التفضيل بحسب معتقدات البشر ، وما يعطيهم النظر في المُشاهَد من أن الإعادة في كثير من الأَشياء أهون علينا من البداءة ؛ للتَّمَرُّن والاستغناء عن الرَّوِيَّة التي كانت في البداءة . وهذان القولان الضميران فيهما عائدان على الله تبارك وتعالى .

وقالت فرقة أُخرى : الضمير في [عَلَيْهِ] عائد على [ٱلْخَلْقِ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهو بمعنى «المخلوق» فقط ، وعلى التأْويلين الأَوَّلين يصح أن يكون «المخلوق» ، أو يكون مصدراً من «خَلَقَ» . فقال الحسن : إن الإعادة أهون على المخلوق من إنشائه ؛ لأَنه في إنشائه يصير من حالة إلى حالة ، من نطفة إلى عَلَقَة إلى مضغة ونحو هذا ، وفي الإعادة إنما يقوم في مرة واحدة ، فكأَنه قال : وهو أَيْسَر عليه ، أَي : أَقصر مدة وأَقلُّ انتقالًا .

وقال بعضهم : وهو أَهون على المخلوق أن يعيد شيئاً بعد إنشائه ، فهذا عُرْف المخلوقين ، فكيف تنكرون أَنتم الإعادة في جانب الخالق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَظهر عندي عود الضمير على الله تعالى ، ويؤيده قوله : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، لما جاء بلفظ فيه استعارة واستشهادٌ بالمخلوق على

الخالق ، وتشبيهٌ بما يعهده الناس من أنفسهم ، خلص جانب العظمة بأن جَعَلَ له المثل الأعلى الذي لا يصل إليه تكْيِيفٌ ولا تَمَاثُلٌ مع شيء . والعزّةُ والحكمةُ صفتان موافقتان لمعنى الآية ، فبهما يُعيد ويُنَفِّذ أمره في عباده كيف شاء .

ثم بيّن تعالى أمْر الأصنام وفسادَ مُعْتَقَد من يشركها بالله تعالى بضرب هذا المثل ، ومعناه : إنكم أيُّهَا الناس إذا كان لكم عبيدٌ تملكونهم فإنكم لا تشركونهم في أموالكم ولا في أموركم ولا في شيء على جهة استواء المنزلة ، وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها في حياتكم ، كما يفعل بعضكم ببعض ، فإذا كان هذا فيكم فكيف تقولون : إن من عبيده ومُلكه شركاء في سلطانه وألوهيته ، وتثبتون في جانبه مالا يليق عندكم بجوانبكم ؟ هذا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة ، وجاء هذا المعنى في معرض السؤال والتقرير .

وقرأ الناس : ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ بنصب السِّين ، وقرأ ابن أبي عبلة بضمها . وقرأ الجمهور : [نُفَصِّلُ] بالنون حمْلًا على [رَزَقْنَاكُمْ] ، وقرأ عباسٌ عن أبي عَمْرٍو : [يُفَصِّلُ] بالياء حمْلًا على ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

الإضراب بـ [بَلْ] هو عمَّا يتضمَّنه معنى الآية الأُولى ، كأنه يقول : ليس لهم حجة ولا معذرة فيما فعلوا من تَشْريكهم مع الله تعالى ، بل اتبعوا أهواءهم جهالةً وشهوةً وقصداً لأُمور دنياهم . ثم قرَّر ـ على جهة التوبيخ لهم ـ على من يهدي إذا أضل الله ؟ أيْ : لا هادي لأَهل هذه الحال ، ثم أخبر أنه لا ناصر لهم .

ثم أمر تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بإقامة وجهه للدين المستقيم ، وهو دين الإسلام ، وإقامةُ الوجه هو تقويم المُعْتَقَد والقوَّةُ على الجدِّ في أعمال الدين ، وذِكْر الوجه لأَنه جامعُ حواسِّ الإنسان وأَشْرَفُه (١) ، و [حَنِيفاً] معناه : معتدلاً مقوماً مائلاً عن جميع الأَديان المحرَّفة المنسوخة ،

(١) بالرفع عطفاً على (جامعٌ) ، والمعنى : ذُكر الوجه لأنه جامعٌ ، ولأنه أشْرَفُ الإنسان .

وقوله : ﴿ فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ نصب على المصدر ، كقوله : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾(١) ، وقيل : هو نصب بفعل مضمر تقديره : اتَّبِع والْزَم فطرةَ الله تعالى ، واختلف الناس في الفطرة ها هنا ـ فذكر مكي وغيره في ذلك جميع ما يمكن أن تصرف هذه اللَّفظة عليه ، وفي بعض ذلك قلق ، والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلْقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدودة مُهَيَّأَةٌ لأَن يُمَيِّزَ بها مصنوعات الله تعالى ، ويَسْتَدلَّ بها على ربِّه جلَّ وعَلَا ، ويعرفَ شرائعه ، ويُؤْمنَ به ، فكأَنه تعالى قال : أَقم وجهك للدين الذي هو الحنيف وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فَطَر البشر ، لكن تَعْرِضُهم العوارض ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (كُلُّ مولود يولد على الفطرة ، فأَبواه يُهوِّدانه أَو يُنَصِّرانه ...) الحديث (٢) ، وَذِكْرُ الأَبَوَيْن إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة .

---

(١) من الآية (١٣٨) من سورة (البقرة) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ، وأبو داود في السُّنَّة ، والترمذي في القدر ، والموطأ في الجنائز ، وأحمد في ٢-٢٣٣ ، ٢٧٥ ، ٣٩٣ ، وروي بلفظ : (مَا مِنْ مولود يولد إلا يولد على هذه الفطرة) ، رواه البخاري في تفسير سورة (الروم) ، ورواه هو ومسلم في القدر ، ورواه أحمد في المسند ٢-٣١٥ ، ٣٤٦ ، ولفظه بتمامه في الرواية الأولى (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه ، أو يُمَجِّسانه ، كَمَثَلِ البهيمة، تُنْتَجُ البهيمة هل تَرَى فيها جدعاء) ؟ ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير ، وعزاه لأبي يعْلَى في مسنده ، وأورده أيضاً في الدر المنثور بالرواية الثانية ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ـ عن أبي هريرة ، وفي هذه الرواية : (ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ .)

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ يحتمل تأْويلين : أحدهما أَن يريد بها مدة الفطرة المذكورة ، أَي : اعْلَم أَن هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق ، ولا يجيءُ الأَمر على خلافها بوجه ، والآخر أَن يكون قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ إنحاءً على الكفرة ، واعترض به أَثناءَ الكلام ، كأَنه يقول : أَقِمْ وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا ، فإِنَّ هؤلاءِ الكفار الذين خلق الله لهم الكفر ، ولا تبديل لخلق الله ، أي أَنهم لا يفلحون . وقال مجاهد : المعنى : لا تبديل لدين الله ، وهو قول ابن جُبَيْر ، والضحاك ، وابن زيد ، والنَّخَعي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا معناه : لا تبديل للمعتقدات التي هي في الدين الحنيف ، فإِن كل شريعة فهي عقائدها .

وذهب بعض المفسرين في هذه الآية إلى تأْويلات : منها قول عِكْرمة – وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما – : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ معناه : النهي عن خصاءِ الفحول من الحيوان . ومنها قول بعضهم في الفطرة : إنها المِلَّة . على أَنه قد قيل في الفطرة : الدين . وتُؤُوِّل قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَطَرَ ٱلنَّاسَ ﴾ على الخصوص ، أَي : المؤمنين . وقيل : الفطرة هي العهد الذي أَخذه الله تعالى على ذُرِّيَّة

آدم حين أخرجهم نَسَماً من ظهره ، ونحوه حديث معاذ رضي الله عنه حين مرَّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : يا مُعاذ ، ما قوام هذه الأُمَّة ؟ قال : الإخلاص ، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والصلاة وهي الدين ، والطاعة وهي العصمة ، فقال عمر رضي الله عنه : صدقت (١) .

و [ٱلْقَيِّم] بناءُ مبالغة من القيام الذي هو بمعنى الاستقامة .

وقوله تعالى : [مُنِيبِينَ] يحتمل أن يكون حالًا من قوله : ﴿ فَطَرَ ٱلنَّاسَ ﴾ ، لا سيَّما على رأي من رأى أن ذلك خصوص في المؤمنين ، ويحتمل أن يكون ذلك من قوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ ، وجَمَعَه لأن الخطاب بإقامة الوجه هي للنبي صلى الله عليه وسلم ولأُمَّته ، ونظيرها قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾(٢) و «ٱلْمُنِيبُ» : الراجع المخلص المائل إلى جهة ما تودُّه نفسه ، و «ٱلْمُشْرِكُونَ» المشار إليهم في هذه الآية هم اليهود والنصارى ، قاله قتادة ، وقال ابن

---

(١) أخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له : ما قوام هذه الأمَّة ؟ قال : ثلاثٌ ، وهُنَّ المُنْجيات : الإخلاصُ ، وهو الفطرة ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، والصلاة ، وهي المِلَّة . والطَّاعةُ ، وهي العصمة ، فقال عمر : صدقت . (تفسير الطبري ، والدر المنثور) .

(٢) من الآية (١) من سورة (الطلاق) .

زيد : هم اليهود ، وقالت عائشة وأبو هريرة رضي الله عنهما : هي في أهل القبلة [١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولفظة الإشراك — على هذا — فيها تجوُّز ، فإنهم صاروا في دينهم فِرَقاً ، و «الشِّيَع» : الفِرَق ، واحدها : شِيعَة ، وقوله : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ معناه أنهم مفتونون بآرائهم ، مُعجبون بضلالهم ، وذلك أصيل فيهم . وقرأت فرقة : «فَارَقُوا دِينَهُمْ» بالألف [٢] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

هذا ابتداءُ إنحاءٍ على عَبَدَة الأصنام المشركين بالله تعالى غَيْرَه ، بيَّن تعالى أنهم كسائر البشر في أنَّهم مَتى مسَّهم ضرٌّ دعوا الله سبحانه ،

---

(١) فيكون معنى قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾ «مِنْ أهْلِ الأهواء والبِدَع» ، كذا وصَّحه القرطبي ، ولعَلَّ هذه الجملة قد سقطت من النساخ ، وهو تأويل أبي أمامة أيضاً .

(٢) هي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبها قرأ حمزة والكسائي ، والمعنى : فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه ، وهو التوحيد .

وتركوا الأصنام مطروحة ، ولهم في ذلك الوقت إنابةٌ وخضوع ، فإذا أذاقهم رحمته ، أي : باشَرَهُم أمْرُهُ بها ، والذوق مستعار ، إذ هم طائفة تشرك به أصناماً ونحو هذا ، و [إذَا] للمفاجأة ، فلذلك صلحت في جواب [إذَا] الأُولى ، فهي بمنزلة الفاء ، وهذه الطائفة هي عَبَدَة الأصنام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويلحق من هذه الألفاظ شيءٌ للمؤمنين إذا جاءهم فرحٌ بعد شِدَّة ، فعلَّقوا ذلك بمخلوق ، أو بحذق آرائهم ، أو بغير ذلك ؛ لأن فيه قِلَّة شكر الله تبارك وتعالى ، ويسمى شركاً مجازاً .

وقوله تعالى : [لِيَكْفُرُوا] اللام لام كَيْ ، وقالت فرقة : هي لام الأمر على جهة الوعيد والتهديد . وأمَّا قوله تعالى : [فَتَمَتَّعُوا] فأمر على جهة الوعيد والتقرير ، أي : قل لهم يا محمد : فَتَمَتَّعُوا .

وقرأ أبو العالية : «فَيَتَمَتَّعوا» بياء قبل التاء ، وذلك عطف على [لِيَكْفُرُوا] ، أي : لتطول أعمارهم على الكفر ، وفي حرف ابن مسعود : «فَلْيَتَمَتَّعُوا» ، ورُوي عن أبي العالية : «فَيُمَتَّعُوا» بضم الياء دون تاء أولى ، وفي مصحف ابن مسعود : «تَمَتَّعُوا» ، كذا قال هارون . وقرأ عامة الناس : [تَعْلَمُونَ] بالتَّاء على المخاطبة ، وقرأ أبو العالية : [يَعْلَمُونَ] بالياء على ذكر الغائب .

وقوله تعالى : [أَمْ] هي بمعنى (بَلْ) وألِف الاستفهام ، كأنه أضرب عن صدر الكلام ورجع عن هذه الحُجَّة . و «السُّلْطَانُ» ها هنا : البُرهان ،

من رسول أو كتاب ونحوه ، و السُّلْطان في كلام العرب جمع سَلِيطٍ ، كرغيف ورُغفان ، وغَدير وغُدْران ، فهو مأْخوذٌ من التَّسَلُّط والتَّغلُّب ، ولَزِمَ هذا الاسمُ في العرف الرئيسَ؛ لأنه تَسَلُّطٌ بوجه الحق ، وهو اسم جمع من حيث هي أنواعُ الغَلَبَة والملك عنده ، وقال قوم : هو اسم مفرد وزنه فُعْلان .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ معناه أنَّه يُظهر حجتهم ، ويُغَلب مذهبهم ، وينطق بشركهم ، قاله قتادة ، فيقوم بذلك مقام الكلام ، كما قال تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾[1] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال الناس متى تأْتيهم شدة وضرٌّ وَلَجُوا منه إلى سَعَةٍ ، ذَكَر في هذه الآية الأمر أيضاً من الطرف الآخر بأن ذكر الرحمة

(١) من الآية (٢٩) من سورة (الجاثية) .

تعقبها الشِّدَّة ، فلهم في الأُولى تضرُّعٌ ثم إشراكٌ ، ولهم في الثانية فرحٌ وبطر ثم قنوط ويأس ، وكلُّ أحدٍ يأْخذ من هذا الخُلُق بقسط ، فمنهم المُقِلُّ ومنهم المُكْثر ، إلَّا من ربطت الشريعة على قلبه ، وتأَدَّب بأدب الله تعالى ، فصبر عند الضَّرَّاء ، وسكن عند السَّرَّاء ، ولم يبطر عند النعمة ، ولم يقنط عند الابتلاء . وقوله تعالى : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، أي أن الله تعالى يمتحن الأُمم ، ويصيب منهم عند فشو المعاصي وظهور المناكر ، ولذلك فقد يصاب شخص لِسُوء أعماله بشيءٍ وَحْدَه ، ويعفو الله تعالى عن كثير . والقُنُوط : اليأْسُ ، وقرأ أبو عمرو ، وجماعة : [يَقْنِطُونَ] بكسر النون ، وقرأ نافع ، والحسن ، وجماعة بفتحها .

وجواب الشرط في قوله : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ ﴾ قوله : ﴿ إِذَا هُمْ ﴾ ، وذلك أنها للمفاجأَة لا يُبْتَدَأُ بها ؛ لأَنها بمنزلة الفاء ، ويجاب بها الشرط ، وأَما التي للشرط أَو التي فيها معنى الشرط فيُبْتَدَأُ بهما .

ثم ذكر تعالى الأَمر الذي من اعتبره لم ييأَس من روح الله تعالى على حال ، وهو أن الله تبارك وتعالى يخص من شاء من عباده ببسط الرزق ، فينبغي لكل عبد أن يكون راجياً ما عند ربِّه ، ثم أمر تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أمراً تدخل الأُمة فيه ، وهذا على جهة النَّدْب إلى إيتاء ذي القُرْبَى حقَّه من صلة المال وحُسْن المعاشرة ولين القول .

قال الحسن : حقُّه المواساة في اليُسْر ، قال : ومعظم ما قصد أمر المعونة بالمال ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (في المال حق سوى الزكاة)[١]، وكذلك للمسكين وابن السبيل حق ، وبيّن أن حقَّ هؤلاءِ إنما هو في المال وغير ذلك ، وكذلك يلتزم القريب المعدم الذي يُقْضَى حقُّه أن يَقْضِي هو أيضاً حقَّ قريبه في جودة العشرة ، و «وَجْهُ اللهِ» هنا جِهَةُ عبادته ورضاه ، و [ٱلْمُفْلِحُونَ] : الفائزون بِبُغْيَتِهِم ، البالغون لآمالهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي والدارمي في الزكاة ، قال الدارمي في سُنَنه : «أخبرنا محمد بن الطفيل ، ثنا شريك ، عن أبي حمزة ، عن عامر ، عن فاطمة بنت قيس ، قالت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنَّ في أموالكم حقّاً سوى الزكاة) . » .

قرأ الجمهور : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ ﴾ بمعنى : أعطيتم ، وقرأ ابن كثير : ﴿ وَمَا أَتَيْتُمْ ﴾ بغير مدٍّ ، بمعنى : ما فعلتم ، كما تقول : أَتَيْتُ صواباً وأَتَيْتُ خطأً ، وأجمعوا على المدِّ في قوله : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ ﴾ .

والرِّبَا : الزيادة .

واختلف المتأولون في معنى هذه الآية ـ فقال ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، وطاوس : هذه آية نزلت في هِبات الثواب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسَّلام وغيره ، فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تبارك وتعالى[1] .

وقال ابن عباس أيضاً ، وإبراهيم النَّخَعي : نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى تمويلهم ونَفْعهم والتَّفَضُّل عليهم ، وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع لهم ، وقال الشعبي : معنى الآية أن ما خدم الإنسانُ به أحداً ، وخفَّ له لينتفع به في دنياه ، فإن ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كلُّه قريب وجزءٌ من التأويل . ويحتمل أن يكون معنى هذه الآية النهي عن الرِّبا في التجارات . لمَّا حَضَّ عزَّ وجلَّ على نفع ذوي

(١) هكذا في جميع الأصول .

القُرْبَى والمساكين وابن السبيل أَعْلَمَ أن ما فعل المرءُ من ربا ليزداد به مالًا ـ وفِعْله ذلك إنما هو في أموال الناس ـ فإن ذلك لا يربو عند الله تعالى ولا يزكو ، بل يتعلق فيه الإثم ومَحْق البركة ، وما أعطى الإنسان من زكاة تنميةً لماله وتطهيراً ، يريد بذلك وجه الله تعالى ، فذلك هو الذي يُجَازى به أضعافاً مضاعفة على ما شاء الله تعالى له.

وقال السُّدي : نزلت هذه الآية في رِبَا ثقيف ؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش .

وقرأ جمهور القراء السبعة : [لِيَرْبُو] بالياء وإسناد الفعل إلى الرِّبَا ، وقرأ نافع وحده : [لِيُرْبُوا] بضم الياء والواو ساكنة ، بمعنى : يكونوا ذوي زياداتٍ ، وهذه قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وأهل المدينة ، والحسن ، وقتادة ، وأبو رجاء ، والشعبي . قال أبو حاتم : هي قراءتنا ، وقرأ أبو مالك : «لِتُرْبُوهَا» بضمير مؤنث ، و «المُضْعِف» الذي هو ذو أضعاف من التراث ، كما أن المؤلف الذي له الألْف ، وكما تقول : أخصب إذا كان ذا خصب ، وهذا كثير ، ومنه أَرْبَى المتقدم في قراءة من قرأ : [لِتُرْبُوا] بضم التاء .

ثم كرَّر مخاطبة الكفرة في أمر أوثانهم ، فذكر أفعال الله تعالى التي لا شريك له فيها ، وهي الخَلْق والرزق والإماتة والإحياء ، ولا يمكن

أن ينكر ذلك عاقل ، ثم وقف الكفار – على جهة التقرير والتوبيخ – ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ ﴾ أي : الذين جعلتموهم شركاء ، مَن يفعل مِنْ شيء من ذلك ؟ وهذا الترتيب بـ [ثُمَّ] هو في الإيجاد شيئاً بعد شيء ، ومن هنا أدخل الفقهاءُ الولد مع أبيه في تعقيب الأجناس إذا كان اللفظ : «ثُمَّ على أعقابهم ، ثم على أعقاب أعقابهم» . ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عن مقالتهم في الإشراك . وقرأ الجمهور : [يُشْرِكُونَ] بالياء من تحت ، وقرأ الأعمش ، وابن وثاب بالتاء من فوق .

ثم ذكر تعالى – على جهة العبرة – ما ظهر من الفساد بسبب المعاصي في قوله : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ، واختلف الناس في معنى «البَرِّ والبَحْرِ» في هذه الآية – فقال مجاهد : البَرُّ : البلادُ البعيدة من البحر ، والبَحْرُ : السَّواحلُ والمدن التي على ضفة البحر والأنهار الكبار . وقال قتادة : البَرُّ : الفيافي ومواضع القبائل والصحارى ، والبحرُ : المدن ، جمع بَحْرَة [1] .

---

(١) في (اللسان – بَحَر) : «العرب تقول لكل قرية : هذه بَحْرَتُنا ، والبَحْرَةُ : الأرْضُ والبَلْدَة ، وفي حديث القسامة : قَتَلَ رجُلا بِبَحْرَةِ الرُّغاء ، والبَحْرَةُ : البَلْدَةُ ، وفي حديث عبد الله بن أُبَيّ : اصطلح أهْلُ هذه البُحَيْرَة أنْ يَعْصِبُوه بالعصابة» . ويتضح من هذا أن البَحْرَة هي البلدة ، وأنها تُصَغَّر عَلَى بُحَيْرَة ، ولكن لم نجد أن البُحر جمع لها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومنه قول سعد بن عبادة رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن عبد الله بن أبي سلول : «ولَقَدْ أَجمع أهل هذه البُحَيْرَة على أن يُتَوِّجُوهُ » الحديث(١) . ومما يؤيد هذا أن عكرمة قرأ : «في البَرِّ والبُحُور »(٢) ، ورويت عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال مجاهد أيضاً : ظهورُ الفساد في البر قتال بني آدم لأَخيهم ، وفي البحر أَخذ

(١) أخرجه البخاري في التفسير ، والأدب ، والاستئذان ، ومسلم في الجهاد ، وأحمد في المسند ٥-٢٠٣ ، ولفظه كما في المسند عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة فدكية ، وأردف وراءه أسامة بن زيد وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر ، حتى مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، فيهم عبد الله بن أُبَيّ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أُبَيّ أنفه بردائه ثم قال : لا تغبروا علينا ، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن ، فقال له عبد الله بن أُبَيّ : أيها المرء لا أحسن من هذا ، إن كان ما تقول حقّاً فلا تؤذينا في مجالسنا ، وارجع إلى رحلك ، فمن جاءك منا فاقصص عليه ، قال عبد الله ابن رواحة : اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك ، قال : فاستَبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى همُّوا أن يتواثبوا ، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخفضهم ، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال : أيْ سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حباب ؟ يريد عبد الله بن أُبَيّ ، قال كذا وكذا ، قال : اعف عنه يا رسول الله واصفح ، فوالله لقد أعطاك اللهُ الذي أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة أن يُتَوِّجُوه فيعصبونه بالعصابة ، فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك ، فذاك فعل به ما رأيت ، فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أي بالجمع كما نصَّ على ذلك في البحر المحيط .

السفن غصْباً ، وقال بعض العُبَّاد : البحرُ : القَلْبُ ، والبَرُّ : اللِّسان ، وقال الحسن : البَرُّ والبَحْرُ هما المعروفان المشهوران في اللغة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول صحيح .

وظهور الفساد فيهما هو ارتفاع البركات ، ونزول رزايا وحدوث فتن ، وتغلُّب عدوٌّ كافر ، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الفساد في البحر : انقطاع صيده بذنوب بني آدم ، وقلَّما توجد أُمَّة فاضلة مطيعة مستقيمة الأَعمال لا يدفع الله عنها هذه ، والأَمر بالعكس في أَمر المعاصي وبطر النعمة ، وكذلك كان أَمر البلاد في وقت بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، قد كان الظلم عمَّ الأَرْض برًّا وبحراً ، وقد جعل الله تعالى هذه الأَشياء ليجازي بها على المعاصي ، فيُذيق الناس عاقبة ذنوبهم لعلهم يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ تقديره : جزاءَ ما كسبت ، ويجوز أَن تتعلق الباءُ بـ [ظَهَرَ] ، أَي : بِكَسْبهم المعاصي في البر والبحر ، وهو نفس الفساد الظاهر ، والتَّرَجِّي في «لَعَلَّ» هو على معتقدنا وبِحَسَب نظرنا في الأُمور .

وقرأت عامة القراء والناس : [لِيُذِيقَهُمْ] بالياء ، وقرأ قنبل عن ابن كثير ، والأعرج ، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي بالنون [١] ، ومعناهما بيِّن ، وقرأ أيضاً أبو عبد الرحمن : «لِتُذِيقَهُم» بالتاء من فوق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

هذا تنبيهٌ لقريش وأمْرٌ لهم بالاعتبار بمن سلف من الأُمم وبِسُوء عواقبهم بكفرهم وإشراكهم ، ثم أَمَر تعالى نَبِيَّه عليه الصلاة والسلام بإقامة وجهه ، والمعنى : اجعل قصدكَ ومسعاك للدِّين ، أي لطريقه ولأعماله واعتقاداته . و [الْقَيِّم] أصله : قَيْوِم ، اجتمعت الياءُ والواوُ وسبقت الياءُ وهي ساكنة وأُبْدِلت الواو ياءً وأُدغمت الأُولى في الثانية . ثم حذَّره تبارك وتعالى من يوم القيامة تحذيراً يعُمُّ العالم ، وإياهم القصد ، و ﴿ لَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ معناه : ليس فيه رجوع لعمل ولا رغبة ،

---

(١) وهي أيضاً قراءة أبي حيوة ، وسلام ، وسهل ، وروح ، وابن حسَّان . وهي قراءة قنبل من طريق ابن مجاهد ، وابن الصباح ، وأبو الفضل الواسطي عنه ، ومحبوب عن أبي عمرو .

ولا عنه مرتحل ، ويحتمل أن يريد : لا يَرُدُّهُ رادٌّ حتى لا يقع ، وهذا ظاهر بحسب اللفظ ، و [يَصَّدَّعُونَ] معناه : يتفرقون بعد جمعهم ، وهذا هو التصدع ، ومعنى «يتفرَّقون» : إلى الجنة وإلى النار .

ثم قسَّم الفريقين بأحكام تلحقهم من أعمالهم في الدنيا ، ثم عبَّر عن الكفر بـ «عَلَيْهِ» ، وهي تعطي الثِّقَل والمشقَّة ، وعن العمل الصالح باللام التي هي لام الملك (١)، و [يَمْهَدُونَ] يُوطئون ويُهيئون ، وهي استعارة منقولة من الفُرُش ونحوها إلى الأحوال والمراتب . وقال مجاهد : هذا التَّمهيد هو للقبر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

اللام في [لِيَجْزِيَ] متعلقة بـ [يَصَّدَّعُونَ] ، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف تقديره : ذلك ، أو : فَعَلَ ذلك ليجزي ، وتكون

(١) في بعض النسخ : كلام المِلْكِ . أي : مثل لام الملك .

الإشارة إلى ما تقرر من قوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ﴾ ليس الحب بمعنى الإرادة ، ولكنه بمعنى : لا يُظْهر عليهم أَمارات رحمته ، ولا يرضاه لهم ديناً ، ونحو هذا .

ثم ذكر تعالى من آياته أَشياءَ تقتضي كل عقل بأَنه لا مشاركة للأَوثان فيها ، وهي ما في الريح من المنافع ، وذلك أَنها بُشرى بالمطر ، ويذيق الله بها الرحمة ، يعني الغيث والخصب ، ويلقح بها الشجر وغير ذلك ، وتجري السفن بها في البحر ، ويبتغي الناسُ بها من فضل الله تعالى في التجارات في البحر ، وفي ذَرْو الأَطعمة وغير ذلك .

ثم آنَسَ محمداً صلى الله عليه وسلم بأَن ضرب له مثل من أَرسل من الأَنبياء ، ثم وعد تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم وأُمَّته النصر ؛ إذْ أَخبر أَنه جعله حقًّا عليه تبارك وتعالى ، و [حَقًّا] خبر [كَانَ] قدَّمه اهتماماً ، لأَنه موضع فائدة الجملة[1] ، وبعض القراءِ في هذه الآية وقف على قوله : [حَقًّا] ، وجعله من الكلام المتقدم ، ثم استأْنف جملة مكونة من قوله : ﴿ عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذا قول ضعيف ؛ لأَنه لم يدر قدر ما عرضه في نظم الآية .[2]

---

(١) واسم [كَانَ] على هذا هو [نَصْرُ] ، وترتيب الكلام : وكان نصر المؤمنين حقاً علينا .

(٢) الذي قرأَ بالوقف على [حَقّاً] هو أبو بكر ، وتقدير الكلام ، وكان عقابُنا حقاً ، وهذا تقدير القرطبي ، وقدره الزمخشري : وكان الانتقام منهم حقاً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

إثارة السُّحب : تحريكها من سكون وتَسْيِيرُها ، وبَسْطُها في السماء هو نشرها في الآفاق ، و «الْكِسَفُ» : القِطَعُ . وقرأ جمهور القراء : [كِسَفاً] بفتح السِّين ، وقرأ ابن عامر : [كِسْفاً] بسكون السِّين ، وهي قراءة الحسن ، وأبي جعفر ، والأعرج ، وهما بناءان للجمع ، كما يقال : «سِدْرَةٌ وسِدْر» بسكون الدال ، و «سِدَر» بفتح الدال ، وقال مكي : من أسكن السِّين فمعناه : يجعل السحاب قطعة واحدة ، و [الْوَدْق] : الماءُ يمطر ، ومنه قول الشاعر :

فَلَا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَــــا وَلَا أَرْضَ أَبْقَــلَ إِبْقَالَهَا (١)

(١) البيت لعامر بن جُوَيْنٍ الطَّائي ، وهو في كتاب سيبويه ، والعيني ، وابن يعيش ، وشواهد المغني ، وابن الشجري ، وهمع الهوامع ، وخزانة الأدب ، والشاعر يصف أرضاً=

و [خِلاله] : الفطور الذي بين بعضه وبعض ؛ لأَنهُ مُتَحلل الأَجزاء . وقرأَ الجمهور : ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ بكسر الخاء وأَلف بعد اللام ، جَمْعُ خَلَل كجَبَل وجِبَال ، وقرأَ عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وابن عباس ، والضحاك ، والحسن – بخلاف عنه – : ﴿مِنْ خَلَلِهِ﴾ ، وهو اسم جنس . والضمير في [خِلَالِهِ] يحتمل أَن يعود على «السحاب» ، ويحتمل أَن يعود على «الكِسْف» في قراءَة من قرأَ بسكون السِّين ، وذكِّر الضمير مراعاةً لِلَّفظ لا لمعنى الجمع ، كما تقول : «هذا تَمْرٌ جَيِّدٌ»[1] ، و ﴿مِنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَاراً﴾[2] ، ومن قرأَ : [كِسَفاً] بفتح السِّين فلا يعيد الضمير إلَّا على السحاب فقط[3] .

= أخصبت لكثرة الغيث ، والمُزْنة : واحدة المُزْن ، وهو السحاب يحمل الماء ، والوَدْق : المطر ، وأَبْقَلَت : أخرجت البَقْل ، وهو من النبات : ما ليس بشجر ، ويستشهد النحويون بالبيت على حذف التاء من الفعل (أَبْقَلَت) لضرورة الشعر ، ويسوِّغ ذلك أن الأرض بمعنى المكان ، أما ابن عطية فقد استشهد بالبيت هنا على أن (ودقت ودقها) بمعنى : أمطرت مَطَرها ، فالوَدْق هو ماء المطر .

(١) لأن علماء اللغة يقولون : كلُّ جمع بينه وبين واحده الهاء لاغير فالتذكير فيه حَسَن ، وهذا ينطبق على «تَمْرٍ وتَمْرَة وشَجَرٍ وشَجَرَة» .

(٢) يظهر أن في الكلام نقصاً سقط من النساخ ، وأن أصل التعبير : «هذا تمر جَيِّدٌ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَاراً﴾ فقد عاد الضمير عليه مذكَّراً في قوله : ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ .» فالضمير في (مِنْهُ) يعود على [الشَّجَر] .

(٣) لأن السحاب اسم جنس يجوز تذكيره وتأنيثه .

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ تـأْكيد أفاد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار ، وذلك أن قوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ يحتمل الفسحة في الزمان ، أي : من قبل ذلك ، أي : من قبل أن ينزل بكثير من الأيام ونحوه ، فجاء قوله : ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ بمعنى أنَّ ذلك متصل بالمطر ، فهو تـأْكيدٌ مُقَيِّد[1]. وقرأ يعقوب ، وعيسى ، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ : [يُنْزَلَ] مخففة ، وقرأت عامة القراء بالتثقيل في الزَّاي ، وقرأ ابن مسعود : «عَلَيْهِمْ لَمُبْلِسِينَ» بسقوط ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ . و «الْإِبْلَاسُ» : الكَوْنُ في حال سوءٍ مع اليـأْسِ مِنْ زوالها .

ثم عجَّبَه بمخاطبة يُرادُ بها جميع الناس من أثر رحمة الله وهي المطر ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، [أَثَرِ] بالإفراد ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [آثَار] بالجمع ، واختلف عن عاصم .

وقوله : ﴿ كَيْفَ يُحْيِي ﴾ يحتمل أن يكون الضمير الذي في الفعل للأثر ، ويحتمل أن يكون لله تعالى ، وهذا أظهر . وقرأت فرقة :

---

(١) وقال قطرب : إن [قَبْل] الأولى للإنزال والثانية للمطر ، أي : وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر ، وقيل : المعنى : من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزَّرع ، ودَلَّ على الزَّرع الْمَطَرُ إذْ بسببه يكون ، ودلَّ عليه أيضاً : ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً ﴾ ، وقيل : المعنى : من قبل السحاب من قبل رؤيته . ولكن أكثر النحويين يرون الرأي الذي ذكره المؤلف .

﴿ كَيْفَ تَحْيَا ﴾ بالتّاء المفتوحة [ٱلْأَرْضُ] بالرفع . وقرأ الجحدريُّ ، وابن السَّمَيْفَع ، وأبو حيوة : [تُحْيِي] بتاءٍ مضمومة على أن إسناد الفعل إلى ضمير الرحمة نصباً . قال أبو الفتح : «قوله : ﴿ كَيْفَ تُحْيِي ﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال حملًا على المعنى ،كأنه قال : محْيِيَةً (١) » ، وهذه الحياة والموت استعارة في القحط والإعْشَاب . ثم أخبر تبارك وتعالى ـ على جهة القياس والتّنْبيه عليه ـ بالبعث والنُّشور ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴾ عمومٌ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

---

(١) قال أبو الفتح ابن جنّي : « ذهب بالتأنيث في قوله : ﴿ كَيْفَ تُحْيِي ﴾ إلى لفظ الرحمة ، وذلك لأن الرحمة قد يقوم مقامها أثرُها ، كما تقول : رأيْتُ عليك النعمةَ ، ورأيتُ عليك أثرَ النعمة » . ثم قال : « وجملةُ ﴿ كَيْفَ تُحْيِي ﴾ في موضع نصب على الحال ، حملا على المعنى لا على اللفظ ، لأن اللفظ استفهام ، والحال ضرب من الخبر ، والاستفهام والخبر معنيان متدافعان ، وتلخيص كونها حالاً أنه كأنه قال : « فانظر إلى أثر رحمة الله مُحْيِيَةً الأرضَ بعد موتها » .

ثم أخبر تعالى عن حال تقلُّب ابن آدم في أنه بعد الاستبشار بالمطر إذا بعث الله ريحاً فاصْفَرَّ بها النباتُ ظلَّ يكفر قَلَقاً منه وَقِلَّةَ تَوكُّلٍ وتسليم لله عزَّ وجلَّ . والضمير في [فَرَأَوْهُ] للنبات كما قُلْنَا ، أو للأَثر وهو حُوَّة النبات الذي أُحييت به الأَرض ، وقال قومٌ : هو للسحاب ، وقال قوم : هو للرِّيح ، وهذا كله ضعيف . واللام في [لَئِنْ] مؤذنة بِمَجيءِ القَسَم ، وهو في [لَظَلُّوا] ، فاللام لام القَسَم . وقوله تعالى : [ظَلُّوا] فعل ماض أنزله منزلة المستقبل واستنابه منابه ؛ لأَن الجزاءَ هنا لا يكون إلَّا بفعل مستقبل ، لكن استُعْمل الماضي موضع المستقبل في بعض المواضع توثيقاً لوقوعه .

وقوله تعالى : ﴿فإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَى﴾ الآية ... استعارة للكفار ، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية في سورة النمل[1] . وكلُّهم قرأَ : ﴿وَلَا تُسْمِعُ﴾ بتاءٍ مضمومة ونصب [الصُّمَّ] ، وقرأَ ابن كثير ، وعباسٌ عن أَبي عمرو : [تَسْمَعُ] بتاءٍ مفتوحة [ٱلصُّمُّ] رفعاً . وقرأَ الجمهور : ﴿بِهَادِ ٱلْعُمْيِ﴾ بالإِضافة ، وقرأَ يحيى بن الحرث ، وأبو حيوة : [بِهَادٍ] بالتنوين [ٱلْعُمْيَ] نصباً . وقوله : ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا

(١) عند تفسير قوله تعالى في الآية (٨٠) : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ .

مَنْ يُؤْمِنُ﴾ معناه : إنْ تُسْمع إسماعاً ينفع ويُجدي ، وأما سماع الكفرة فغير مُجْدٍ فاستويا . وقوله تعالى : ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ ، لما كان الهدى يتضمن الصرف عديت بـ [عَنْ] كما تتعدى (صرف) ، ومعنى الآية : ليس في قدرتك يا محمد ولا عليك أن تهدي . وقرأ ابن أبي عبلة : «من ضلالتهم» (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿* ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

هذه أيضاً آية بَيِّنٌ فيها أن الأوثان لا مدخل لَها في هذا الأمر . وقرأ جمهور القراء والناس بضم الضاد في [ضُعْف] ، وقرأ عاصم ،

---

(١) قال الفراء : «كلٌ صوابٌ ، من قال : ﴿عَنْ ضَلالَتِهِمْ﴾ كأنه قال : ما أنْتَ بصارفِ العُمْيَ عن الضلالة ، ومن قال : [مِنْ] قال : مَا أنْتَ بمانعهم من الضلالة» . (معاني القرآن ٢ـ٣٢٦) .

وحمزة بفتحها ، وهي قراءة ابن مسعود وأبي رجاءٍ ، والضَّمُّ أصوب ، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح فردَّها عليه بالضم [1]، وقال كثير من اللغويين : ضمُّ الضاد في البدن وفَتْحها في العقل ، وروي عن عبد الرحمن ، والجحدري ، والضحاك أنهم ضموا الضاد في الأول والثاني ، وفتحوا [ضَعْفاً] [2]، وقرأ عيسى بن عمر : ﴿ مِنْ ضُعُفٍ ﴾ بضمتين ، وهذه

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذي وحسَّنه ، وابن المنذر ، والطبراني ، والشيرازي في الألقاب ، والدارقطني في الأفراد ، وابن عدي ، والحاكم ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه ، والخطيب في تالي التلخيص — عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قرأتُ على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ ، فقال : ﴿ مِنْ ضُعْفٍ ﴾ يا بُنَيَّ . (الدر المنثور) .

(٢) قال القرطبي : « وقرأ الجحدري : ﴿ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ ﴾ بالفتح فيهما ، [ضُعْفاً] بالضم خاصة » اهـ . فقارن هذا بما ذكره ابن عطية . وما في البحر المحيط يوافق ما قاله ابن عطية . وقد حدث خلاف في الرواية عن عاصم ، وذكر الإمام الحافظ ابن الجزري ذلك في كتابه : « النشر في القراءات العشر » فقال : « وروينا عن حفص من طرق أنه قال : ما خالفت عاصماً في شيء من القرآن إلا في هذا الحرف ، وقد صحَّ عنه الفتح والضم جميعاً ، فروى عنه عبيد ، وأبو الربيع الزهراني ، والفيل عن عمرو عنه الفتح روايةً ، وروى عنه أبو هُبَيْرة ، والقواس ، وزرعان عن عمرو عنه الضم اختياراً » ، وقال الحافظ أبو عمرو : « والاختياري في رواية حفص من طرق عمرو وعبيد الأخذ بالوجهين : بالفتح والضم ، فأتابع بذلك عاصماً على قراءته ، وأوافق به حفصاً على اختياره » . ثم علَّق الحافظ ابن الجزري على ذلك فقال : « وبالوجهين قرأتُ له ، وبهما آخذ » .

الآية إنما يراد بها حال الجسم ، والضعف الأول هو كون الإنسان من ماء مهين ، والقوة بعد ذلك الشبيبة وشدة الأمر ، والضعف الثاني الهرم والشّح ، هذا قول قتادة وغيره .

ثم أخبر تعالى عن يوم القيامة أن المجرمين يُقْسِمون لجاجاً منهم ونشوزاً على مالا علم لهم به ؛ أنهم ما لبثوا تحت التراب غير ساعة ، وهذا اتباع لتخيلهم الفاسد ، ونظرهم في ذلك الوقت على ما كانوا في الدنيا يبتغون ، فيؤفكون عن الحق ، أي : يُصرفون .

وقيل : المعنى : ما لبثوا في الدنيا ، كأنهم استقلُّوها لمَّا عاينوا أمر الآخرة (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يضعفه قوله تعالى : ﴿ كَذلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ ؛ إذ لو أرادوا تقليل الدنيا بالإضافة إلى الآخرة لكان منزعاً شديداً ، وكان قولهم : ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ تجوُّزاً ، أي : في القدر والموازنة .

ثم أخبر تعالى عن الذين أُوتُوا العلم والإيمان أنهم يقفون في تلك الحال على الحق ، ويعرفون أنه الوعد المتقرر في الدنيا . وقال بعض

---

(١) وهذا كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .

المفسرين : إنما أراد : «أُوتُوا الإِيمانَ والعِلْمَ» ، ففي الكلام تقديم وتأْخير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يحتاج إلى هذا ، بل ذكر العلم يتضمن الإيمان ، ولا يصف اللهُ تعالى بِعِلْم مَنْ لم يعلم كلَّ ما يوجب الإيمان ، ثم ذكر الإيمان بعد ذلك تنبيهاً عليه وتشريفاً لأمره ، كما قال : : ﴿ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ (١) ، فنبَّه تبارك وتعالى على مكان الإيمان وخصه تشريفاً (٢) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

---

(١) من الآية (٦٨) من سورة (الرحمن) ، وهي قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ .

(٢) الذي قال بالتقديم والتأخير هو قتادة ، وحقيقة القول عنده يتضح من التقدير الذي قدره ، فقد قال : «تقديره : (أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان لقد لبثتم) ، وعلى هذا تكون [في] بمعنى الباء ، أي : أوتوا العلم بكتاب الله» ، ونقل ذلك عنه الطبري ، ثم ابن عطية ، ولكنهما قدَّرا تقديراً آخر غير الذي ذكرناه هنا ، وقد نقل الشوكاني في فتح القدير عن الواحدي قوله : «والمفسرون حملوا هذا على التقديم والتأخير ، على تقدير : (وقال الذين=

هذا إخبارٌ عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة ، في أنهم لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يُعطون عُتْبى ، وهي الرِّضى ، و [يُسْتَعْتَبُونَ] بمعنى : يعتبون ، كما تقول : يملك ويستملك ، والباب في (اسْتفْعَل) أنه طلب الشيء ، وليس هذا منه ؛ لأن المعنى لا يفسد إذا كان المفهوم منه : ولا يطلب منهم عُتْبى (١) .

وقرأ عاصم ، والأعمش : [يَنْفَعُ] بالياء ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى ﴾ (٢) ، وحَسُن هذا أيضاً بالتفرقة التي بين الفعل وما استند إليه ، كما قال الشاعر :

وهلْ يرجع التَّسْليمَ أو يَكْشِفُ الْعَمَى ثلاثُ الأَثَافي والدِّيَارُ الْبَلَاقِعُ؟ (٣)

=أوتوا العلم في كتاب الله) » ، وهذا غير ما قدَّره قتادة في حديثه الذي رواه الطبري ، ونقله ابن عطية هنا . وقد قال أبو حيان في « البحر المحيط» أيضاً : «ولعلَّ هذا القول لا يصح عن قتادة ؛ فإنَّ فيه تفكيكاً للنظم لا يسوغ في كلام غير فصيح ، فكيف يسوغ في كلام الله ، وكان قتادة موصوفاً بعلم العربية فلا يصدر عنه مثل هذا القول » .

(١) معنى هذا أن اسْتَفْعَل بمعنى الفعل المجرد وهو (عتب) ، أي : هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب ، قال ذلك أبو حيان في البحر ، وقد قيل : المعنى لا يعاتبون على سيئاتهم بل يعاقبون ، وقيل : لا تطلب لهم العُتْبى .

(٢) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة) .

(٣) الأثافي : جمع الأُثْفِيَّة والإِثْفِيَّة ، وهي الحجر الذي توضع عليه القِدْر ، والعادة أن توضع القِدْر على ثلاثة أحجار ويترك موضع الحجر الرابع خالياً ليدفع منه الحطب تحت=

ثم أخبر تعالى عن قسوة قلوبهم ، وعجرفة طباعهم ، في أنه ضرب لهم كلَّ مثل ، وبيَّن عليهم بيان الحق ، ثمَّ هُمْ مع ذلك عند الآية والمعجزة يكفرون ويُلحفون ويعمهون في كفرهم ، ويصفون أهل الحق بالأباطيل . ثم أخبر تعالى أن هذا إنما هو من طَبْعِه وخَتْمِه على قلوب الجهلة الذين قد حتم عليهم الكفر في الأزل ، وذهب أبو عبيدة إلى أنه من قولهم : «طَبَعَ السَّيْفُ» ، أي : صَدِئَ أشَدَّ صدإٍ (١) .

ثم أمر تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وقوَّى نفسه بتحقيق الوعد ، ونهاه عن الاهتزاز لكلامهم ، أو التحرك واضطراب النفس لأقوالهم ؛ إذْ هم لا يقين لهم ولا بصيرة .

وقرأ ابن أبي إسحق ، ويعقوب : [يَسْتَحِقَّنَّكَ] بحاءٍ غير معجمة وقاف ، من الاستحقاق(٢) ، والجمهور على الخاءِ المعجمة والفاءِ ،

= القِدْر ، وثالثة الأثافي : الجبل ؛ لأن العرب كانت إذا لم تجد حجراً ثالثاً أسندوا القدور إلى الجبل . والديار البَلاقع : التي لا شيء فيها ، وقد جمعوا فقالوا : «أرضٌ بلاقع» لأنهم جعلوا كل جزء منها بلقعاً ، والمكان البلقع هو الخالي ، وقد يوصف به الأنثى والجمع ، فيقال : أرْض بَلْقع وديارٌ بلْقع ، والشاهد أن الفعل (يرجع) جاء بالياء للفرق بينه وبين ما استند إليه وهو (ثلاث ...) بفاصل من الكلام .

(١) جاء في (اللسان ــ طَبَع) : «وأصْلُ الطَّبْع الصَّدأُ يكثر على السيف ... ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرها من المقابح التي تأتي على القلب» .

(٢) قال أبو الفتح ابن جني في المحتسب : «أيْ : لا يَغْلِبُنَّك ، فيصيروا أحقّ منك بنفسك ، هذا محصول هذه القراءة» .

من الاستخفاف ، إلَّا أن أَبي إسحق ويعقوب[1] سكَّنا النون من [يَسْتَخِفَّنْكَ] . وروي أن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه كان في صلاة الفجر ، فناداه رجل من الخوارج بأَعلى صوته يقرأُ هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾[2] ، فَعَلِمَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مقصده في هذا ، وتعريضه به ، فأَجابه وهو في الصلاة بهذه الآية : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[3] .

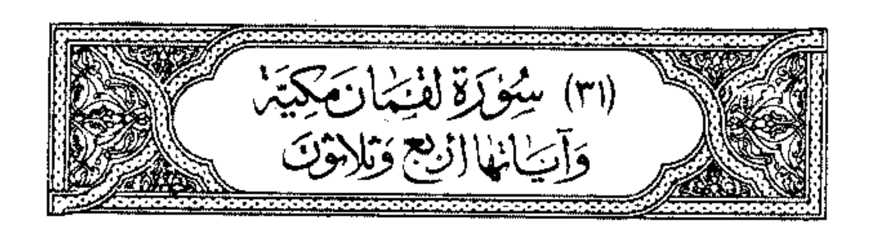
كمل تفسير سورة الرُّوم والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) الذي في البحر المحيط أن الذي سكَّن النون هو ابن أبي عبلة ويعقوب .
(٢) الآية (٦٥) من سورة (الزُّمَر) .
(٣) أخرجه ابن أبي شيْبَة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم والبيهقي في سننه . (الدر المنثور) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكيَّة غير آيتين ، قال قتادة : «أوَّلُهما ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا في ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾[1]» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « ثلاث آيات ، أوَّلُهن ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا في الأَرْضِ ﴾ » ، وآياتها أربع وثلاثون آية .

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السُّور ، وفي ترتيب [تِلْكَ] مع كل قول منها . و [ٱلْحَكِيم] يصحُّ أن يكون من الحكمة ، ويصحُّ أن يكون من الحُكْم . وقرأ جمهور القراء : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب على الحال من المبهم ، ولا يصح أن يكون من [ٱلْكِتَابِ] ؛ لأنه مضافٌ إليه ، وقرأ حمزة ، والكسائي بالرفع على تقدير : هو هدى ، وخصَّصه للمحسنين من حيث لهم نفعه ، وهم نظروه بعين الحقيقة ، وإلَّا فهو هدى في نفسه ، وفي قراءة ابن مسعود : «هُدًى وَبُشْرى للمؤمنيِنَ» .

ثم وصف تعالى المحسنين بأنهم الذين عندهم اليقين بالبعث وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعندهم إقامة الصلاة وإيتاءُ الزَّكاة ، ومِنْ صِفَتهم ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان ، فقال : (أن تعبد الله كأنك تَرَاه ، فإنْ لم تكن تراه فإنَّهُ يراك) الحديث [١] .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والتفسير ، ومسلم في الإيمان ، وأبو داود في السُّنَّة ، والترمذي في الإيمان ، وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد في أماكن كثيرة ، ولفظه كما جاء في البخاري في تفسير سورة لقمان : عن أبي هريرة رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر ، قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم =

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ ، رُوي أنَّها نزلت في قُرَشي اشترى جارية مُغَنِّية لتُغَنِّي بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسَبِّه ، فنزلت الآية في ذلك ، ورُوي أنه ابن أخطل ، ورُوي عن أبي أمامة الباهلي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (شراءُ المُغَنِّيَات وبيعهن حرام) ، وقرأ هذه الآية ، وقال : (في هذا المعنى نزلت عليَّ هذه الآية) [(١)] ، وبهذا فسَّر ابن مسعود ، وابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، ومجاهد ، وقال الحسن : لَهْوُ الحديث : المعازِفُ والغناءُ.

وقال بعض الناس : نزلت في النضر بن الحارث لأنه اشترى كتب رستم واسفنديار ، وكان يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحدثهم بتلك الأباطيل ، ويقول : أنا أَحْسَنُ حديثاً من محمد[(٢)] ، وقال قتادة :

= رمضان ، قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ...) ثم سأله عن الساعة ، فأجابه مُبيِّناً أشراطها ، فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هذا جبريل جاء ليُعَلِّم النَّاس دينهم) .

(١) أخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (لا تبيعوا القينات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ، ولا خير في تجارة فيهن ، وثمنهن حرام ، في مثل هذا أُنزلت الآية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ إلى آخر الآية . (الدر المنثور) . وفي ابن كثير : ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وضَعَّف من رواته عليَّ بن زيد » .

(٢) قال القرطبي : « حكاه الفراء والكلبي وغيرهما » ، وجاء ذلك في أسباب النُّزول للواحدي عن الكلبي ومقاتل بدون سند ، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن=

الشراءُ في هذه الآية مُستعارٌ ، وإنما نزلت في أحاديث قريش ، وتَلَهِّيهم بـأمر الإسلام ، وخوضهم في الأَباطيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فكأَن تَرْك ما يجب فعله ، وامتثال هذه المنكرات شراءٌ لها ، على حدِّ قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾[1]. وقد قال مُطَرِّف : شراءُ لَهْو الحديث استحبابُه ، قال قتادة : ولعلّه لا يُنفق فيه مالًا ، ولكن سماعه هو شراؤُه ، وقال الضحاك : لَهْوُ الحديث الشِّرْكُ ، وقال مجاهد أَيضاً : لَهْوُ الحديث الطبْلُ ، وهذا ضربٌ من الغِنَاء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يترجَّح أن الآية نزلت في لهْو حديث مضاف إلى كُفْر ، فلذلك اشتدت أَلفاظ الآية بقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ وبالتوعد بالعذاب المهين . وأَما لفظة الشراء فتحتمل الحقيقة والمجاز على ما بيَّنَّا ، و «لَهْوُ ٱلْحَدِيثِ» كلُّ ما يُلْهي من غِنَاء

= عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ يعني باطل الحديث ، وهو النضر بن الحارث بن علقمة ، اشترى أحاديث العجم وصنيعهم في دهرهم ، وكان يكتب الكتب من الحيرة والشام ويكذب القرآن ، فأعرض عنه فلم يؤمن .

(١) من الآية (١٦) من سورة (البقرة) .

وخنًا ونحوه ، والآية باقية المعنى في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن ليس لِيُضِلُّوا عن سبيل الله بكفر ، ولا لِيَتَّخذوا الآياتِ هزُوًا ، ولا عليهم هذا الوعيد ، بل لِتعَطُّلِ عبادة ، وبِقَطْعِهم زمناً بمكروه ، ولكونهم من جملة العصاة ، والنفوس الناقصة تروم تتْميمَ ذلك النقص بالأحاديث ، وقد جعلوا الحديث من القِرَى ، وقيل لبعضهم : أتَملُّ الحديث ؟ فقال : إنما يُمَلُّ العتيق القديم المعاد ؛ لأن الجديد من الأحاديث فيه الطرافة التي تَمْنَع من الملل .

وقرأ نافع ، وعاصم ، والحسن : [لِيُضِلَّ] بضم الياء ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بفتحها ، وفي حرف أُبَيٍّ : «لِيُضِلَّ الناس عَنْ سبيلِ اللهِ» . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : [ويَتَّخِذَهَا] بالنصب عطفاً على [لِيُضِلَّ] ، وقرأ الباقون : [ويتَّخِذُهَا] بالرفع عطفاً على [يَشْتَرِي] [1] .

والضمير في [وَيتَّخِذَهَا] يحتمل أن يعود على ﴿ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ ﴾ المذكور أوَّلًا ، ويحتمل أن يعود على «السَّبيل» ، ويحتمل أن يعود على «الأحاديث» ؛ لأن «الحديث» اسم جِنْسٍ بمعنى الأحاديث ، وكذلك ﴿ سَبِيلِ ٱللهِ ﴾ اسم جِنْسٍ ، ولِكُلِّ وجهٍ من الحديث وجْهٌ يليق به من السبيل .

---

(١) ويجوز أن يكون مستأنفاً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

هذه دليلُ كفرِ هذا الذي نزلت فيه الآية التي قبلها . و «الْوَقْر» في الأُذن : الثقل الذي يُغَيِّرُ إدراك المسموعات ، وجاءت البشارة بالعذاب من حيث قُيِّدت ونُصَّ عليها .

ولما ذكر عزَّ وجلَّ حال هؤلاء الكفرة وتوعدهم بالنار على أفعالهم عقَّب بذكر المؤمنين وما وعدهم به من جنَّات النَّعيم ؛ لِيَتَبَيَّن الفرقُ . و ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ منصوبٌ على المصدر ، و [حَقًّا] مصدرٌ مؤكد .

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على «السماء» فيكون المعنى : إن السماء بغير عمَدٍ ، وأنها تُرَى كذلك ، وهذا قول الحسن والناس ، و [تَرَوْنَهَا] ـ على هذا القول ـ في موضع

نصب على الحال ، ويحتمل أن يعود الضمير على «العَمَد» ، فيكون [تَرَوْنَهَا] صفةً لِلْعَمَد في موضع خفض ، ويكون المعنى : إن السماء لها عَمَدٌ لكن غير مرئية ، قاله مجاهد ، ونَحَا إليه ابن عباس رضي الله عنهما ، والمعنى الأول أصح ، والجمهور عليه ، ويجوز أن تكون [تروْنَهَا] في موضع رفع على القطع ، ولَا عَمَدَ ثَمَّ .

و «الرَّوَاسي» هي الجبال التي بثت في الأرض ، وقوله : ﴿ أَنْ تَمِيدَ ﴾ بمعنى : ألَّا تميد[1] ، والمَيَدُ : التَّحرُّك يَمْنَةً ويَسْرةً وما قرب من ذلك. وقوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي : من كل نوع . والزَّوْجُ في اللغة : النَّوْعُ والصنف ، وليس بالذي هو ضد الفرد ، وقوله تعالى : [كَرِيم] يحتمل أن يريد مَدْحه من جهة إتقان صنعته وظهور حسن الرُّتبة والتَّحكم للصنع فيها ، فيعُمُّ حينئذ جميع الأنواع ؛ لأن هذا المعنى في كلها ، ويحتمل أن يريد مدحه بكرم جوهره ، وحسن منظره ، وما تقتضي له النفوس بأنه أفضل من سواهُ حتى يستحق الكرم ،

---

(١) هذا رأي الفراء ، ذكره في (معاني القرآن) ونقله عنه الطبري ، ثم ابن عطية وبعض المفسرين ، قال : «[وَأَنْ] في هذا الموضع تكفي من (لا) ، كما قال الشاعر :

والمُهْرُ يَأبَى أنْ يزال مُلْهِبَا

معناه : يأبى أن لا يزال » اهـ . والمُلْهِبَ : الشديد الجري ، وقد ألهب الفرسُ : اضطرم جريُه .

فتكون الأَزواج ـ على هذا ـ مخصوصة في نفائس الأَشياءِ ومُستحسَناتها ، ولما كان عُظْمُ الموجودات كذلك خصص الحجة بها . وقوله : [أَنْبَتْنَا] يعم أَنواع الحيوان وأَنواع النبات والمعادن(١) .

ثـم وقف تعالى الكفار ـ على جهة التوبيخ وإظهار الحُجَّة ـ على أن هذه الأَشياءَ هي مخلوقات(٢) الله تبارك وتعالى ، ثم سأَلهم أن يوجدوا ما خلق الأَصنامُ والأَوثان وغيرُهم مِمَّن عُبِد ، أي : أَنهم لم يخلقوا شيئاً ، بل هذا الذي قريشٌ فيه ضلالٌ مبينٌ ، ثم ذكَّرهم بالصفة التي تعُمُّ معهم سواهم مِمَّن فعل فعلهم من الأُمم ، وقوله : [ماذَا] يجوز أن تكون [ما] استفهاماً في موضع رفع بالابتداء ، و [ذَا] خبرها بمعنى (الذي) ، والعائد محذوف ، ويجوز أن تكون [مَا] مفعولةً بـ [أَرُوني] ، و [ذَا] صلة ، و [مَا] بمعنى (الذي) ، والعائد محذوف ، تقديره في الوجْهيْن : خَلَقَه(٣) .

---

(١) في بعض النسخ : «يعم أنواع المعادن والنبات» .

(٢) لأن كلمة [خَلْق] في الآية الكريمة بمعنى : مَخْلُوق ، كقولهم : دِرْهَمٌ ضَرْب الأمير ، أي : مَضْروبه .

(٣) قال أبو حيان : «ويجوز في [مَاذَا] أن تكون كلها موصولة بمعنى (الذي) ، وتكون مفعولا ثانياً لـ [أَرُوني] ، وهذا قليل ، ذكره سيبويه» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

لُقْمان رجلٌ حكيمٌ بحكمة الله تعالى ، وهي الصواب في المعتقَدات ، والفقه في الدين والعمل (١) ، واخْتُلف ـ هل هو نبي مع ذلك أو رجلٌ صالح فقط ؟

فقال بِنُبوَّته عكرمة والشعبي ، وقال بصلاحه فقط مجاهد وغيره ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (لم يكن لقمان نبيًّا ، ولكن كان عبداً كثير التفكير ، حسَنَ اليقين ، أحبَّ الله فأَحبَّه ، فمنَّ عليه بالحكمة ، وخيَّره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق ، فقال : ربِّ إن خيَّرتني قبلتُ العافية وتركت البلاءَ ، وإن عزَمْتَ عليَّ فسمعاً وطاعةً فإنك ستعصمني) (٢) ، وكان قاضياً

---

(١) في بعض النسخ : « والفقه في الدين والعقل » ، وهو ما جاء في القرطبي نقلا عن ابن عطية.

(٢) أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لقمان كان عبداً كثير التفكُّر ، حسن الظن ، =

في بني إسرائيل ، نوبيًّا أسود مُشَقَّق الرجلين ذا مشافر ، قاله سعيد ابن المسيب ، ومجاهد ، وابن عباس . وقال له رجلٌ كان قد رعى معه الغنم : ما بلغ بك يا لقمان ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والصَّمْتُ عما لا يعنيني ، وقال ابن المسيب : كان من سودان مصر ، من النُّوبة ، وقال خالد بن الربيع (١) : كان نجاراً ، وقيل : كان خيَّاطاً ، وقيل :

= كثير الصمت، أحبَّ الله فأحبَّه الله تعالى ، فمَنَّ عليه بالحكمة ، نودي بالخلافة قبل داود عليه السلام ، فقيل له : يالقمان ، هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق ؟ قال لقمان : إن أجبرني ربي عزَّ وجلَّ قَبِلْتُ ، فإني أعلم أنه إن فعل ذلك أعانني وعلَّمني وعصمني ، وإن خيَّرني ربي قبلتُ العافية ولم أسأل البلاء ، فقالت الملائكة : يا لقمانُ لِمَ ؟ قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان ، فيُخْذل أو يُعان ، فإن أصاب فبالحَرَى أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنَّة ، ومن يكون في الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفاً ضائعاً ، ومن يختار الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا و لا يصير إلى ملك الآخرة . فعجبت الملائكة من حُسن منطقه ، فنـام نومة فغطَّ بالحكمة غَطّاً ، فانتبه فتكلم بها ، ثم نودي داود عليه السلام بعده بالخلافة ، فقبلها ولم يشترّط شرط لقمان ، فأهوى في الخطيئة ، فصفح الله عنه وتجاوز ، وكان لقمان يوازره بعلمه وحكمته ، فقال داود عليه السلام : طوبى لك يالقمان ، أوتيت الحكمة فصرفت عنك البليَّة ، وأوتي داود الخلافة فابتُلي بالذنب والفتنة) . ذكره الإمام السيوطي في الدرّ ، أما حديث ابن عمر رضي الله عنهما فقد ذكره القرطبي بالنَّص الذي ذكره ابن عطية هنا ، ثم قال : وزاد الثعلبي : فقالت الملائكة ... إلى آخر ما في (الدرّ المنثور) من رواية أبي مسلم الخولاني .

(١) قال الحافظ بن حجر العسقلاني : « هو خالد بن الربيع العبسي الكوفي ، مقبول ، من الثانية ».. (تقريب التهذيب) .

كان راعياً . وحِكَمُ لقمان كثيرة مأثورة ، قيل له : أيُّ الناس شرٌّ ؟ قال : الذي لا يبالي إذا رآه الناس مُسيئاً.

وقوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ ﴾ يجوز أن تكون [أنْ] في موضع نصب على إسقاط حرف الجرِّ ، أي : بأن اشكر لله ، ويجوز أن تكون مُفَسِّرَة ، أي : كانت حكمته دائرة على الشُّكر لله تعالى ومعانيه . وجميعُ العبادات والمعتقدات داخلة في شكر الله تبارك وتعالى . ثم أخبر تعالى أن الشاكر حظه عائد عليه ، وهو المنتفع بذلك ، والله تعالى غني عن الشكر ، فلا ينفعه شكر العباد ، وحميدٌ في نفسه ، فلا يضر كفْرُ الكافرين . و [حَمِيدٌ] بمعنى : محمود ، أي : هو مستحق الحمد بصفاته وذاته .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ يحتمل أن يكون التقدير : واذكر إذ قال ، واختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه ، واسم ابنه تاران(١) . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : [يَا بُنَيِّ] بالشَّدِّ والكسر في الياء ، في الثلاثة ، على إدغام إحدى الياءيْن في الأُخرى ، وقرأ حفْص ، والمفضل عن عاصم : [يَا بُنَيَّ] بالشَّدِّ والفتح في الثلاثة ، على قولك : يا بُنَيًّا ، ويا غلاما . وقرأ ابن أبي برة عن ابن كثير : [يا بُنَيْ] بسكون الياء ، و ﴿ يا بُنَيِّ إِنَّهَا ﴾

(١) في القرطبي : (ثاران) بالثاء ، وفي بعض الأصول (تابان) بالتاء .

بكسر الياءِ ، و ﴿ يا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ ﴾ بفتح الياءِ ، وروى عنه قنبل بالسكون في الأُولى والثَّالِثة ، وبكسر الوُسْطى . وظاهر قوله : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أنه من كلام لقمان ، ويحتمل أن يكون خبراً من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان ، مُتَّصلًا به في تأْكيد المعنى ، ويؤيد هذا الحديث المأْثور : (إنه لمَّا نزلت : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أَيُّنَا لَمْ يظلم ؟ فأَنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فسكن إشفاقهم) (١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وإنما يسكن إشفاقهم بأَن يكون ذلك خبراً من الله تعالى ، وقد يسكن الإِشفاق بأَن يذكر الله عزَّ وجلَّ ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسَّداد .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ من الآية (٨٢) من سورة (الأنعام) ، والحديث ذكره القرطبي ، وقال عنه : «وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه» ، وذكر الإمام السيوطي في (الدر المنثور ٣–٢٦ ، ٢٧) أنه أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والدارقطني في الافراد ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه — عن عبد الله بن مسعود ، ولفظه كما في الدُّرّ : (قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ، وأيُّنا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون ، أَلَمْ تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، إنما هو الشِّرْك) . ومن هذا النَّص يتضح أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ من كلام لقمان ، وهو ما رجَّحه ابن عطية والمفسرون . (وقد سبق الكلام على ذلك في الجزء الخامس صفحة ٢٦٦) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

هاتان الآيتان اعتراض أثناء وصيَّة لقمان ، ووجَّه الطبري ذلك بأنها من معنى كلام لقمان ، ومِمَّا قصده ، وذلك غير متوجِّه ؛ لأن كون الآيتين في شأْن سعد بن أَبي وقاص – حسب ما ذكره بعد – يضعف أن يكون مما قاله لقمان ، وإنما الذي يشبه أنه اعتراض أثناء الموعظة ، وليس ذلك بِمُفْسِدٍ الأَول منها ولا الآخر ، ولما فرغ من هاتين الآيتين عاد إلى الموعظة على تقدير إضمار : « وقال أَيضاً لقمان » ، ثم اختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه .

وهذه الآية شَرِكَ(١) الله تعالى الأُمَّ والوالد منها في رتبة الوصية بهما ، ثم خصَّص الأُمَّ بدرجة ذِكْر الحمل ، وبدرجة ذِكْر الرضاع(٢) ،

(١) تأتي (شَرِكَ) بمعنى (شَارَكَ) ، يقال : شَرِكْتُه البيعَ والميراثَ أَشْرَكُه شَرِكَةً ، فهو يريد أن الله تعالى جعل لكلٍ من الأم والأب نصيباً في الوصيَّة بهما .

(٢) في بعض النسخ : « ثم خصص الأم بذكر درجة الحمل ، وبذكر الرضاع » .

فتحصَّل للأُم ثلاث مراتب ، وللأَب واحدة ، وأشبه ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم - حين قال له رجلٌ - : من أبرُّ ؟ قال : (أُمَّك ، قال : ثُمَّ منْ ؟ قال : أُمَّك ، قال : ثُمَّ مَنْ ؟ قال : أُمَّك ، قال : ثُمَّ مَنْ ؟ قال : ثُمَّ أَباكَ) (١) ، فجعل له الربع من المبرَّة كالآية .

و ﴿ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ ﴾ معناه : ضعفاً على ضعف ، وقيل : أشار إلى مشقَّة الحمل ومشقة الولادة بعده ، وقيل : أشار إلى ضعف الولد وضعف الأُم معه ، ويحتمل أنه أشار إلى تدرُّج حالها في زيادة الضَّعف ، كأنه لم يعيِّن ضعْفين ، بل كأنه قال : حملته أُمه والضعف يتزَيَّد بعد الضعف إلى أن ينقضي أَمدُه . وقرأ عيسى الثقفي : ﴿ وَهَناً عَلَى وَهَنٍ ﴾ بفتح الهاء ، ورويت عن أبي عمرو ، وهما بمعنى واحد .

وقرأ جمهور الناس : [وَفِصالُهُ] ، وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، والجحدري ، ويعقوب : [وفَصْلُهُ] ، وأشار بالفصال إلى تحديد مُدَّة الرضاع ، فَعبَّر عنه بغايته ونهايته ، والناس مجمعون [على العامَيْن] (٢) في مدة الرضاع في باب الأَحكام والنفقات ، وأما في تحريم اللبن فحددت فرقة بالعامَيْن (٣) لا زيادة ولا نقص ، وقالت فرقة : العامان

(١) أخرجه البخاري ، وأبو داود ، وابن ماجه في الأدب ، وأخرجه مسلم في البر ، والإمام أحمد في مسنده (٥-٣ ، ٥) . (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) .

(٢) زيادة من القرطبي الذي نقل هذه الفقرة من كلام ابن عطية كاملة .

(٣) في القرطبي : بالعَام لا زيادة ولا نقص .

وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متَّصل الرضاع في حكم واحد يحرم ، وقالت فرقة : إن فُطم الصبي قبل العامين ونزل اللبن فإن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرم .

وقوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ ﴾ يحتمل أن يكون التقدير : بأن اشكر ، ويحتمل أن تكون مفسرة ، وقال سفيان بن عُيَيْنة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما . وقوله تعالى : ﴿ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ توعُّد أثناء الوصيَّة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ ﴾ الآية . رُوي أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقَّاص ، وذلك أن أمه ــ وهي حَمْنَةُ بنتُ أبي سفيان بن أُميَّة ــ حلفت ألَّا تأْكل ولا تشرب حتَّى يفارق دينه ويرجع إلى دين آبائه وقومه ، فلجَّ سعد في الإسلام ، ويروى أنها كانت إذا أجهدها العطش شَجُّو فاها ، ويروى : شَجَرُوا ، أي : فتحوه بعود ونحوه وصبوا ما يرمقها ، فلما طال ذلك ورأت أن سعداً لا يرجع أكلت ، ففي هذه القصة نزلت الآياتُ ، قاله سعد بن أبي وقَّاص والجماعة من المفسرين [1] .

---

(١) أخرج أبو يعلى ، والطبراني ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن أبي عثمان الهندي أن سعد بن أبي وقاص قال : أنزلت في هذه الآية ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي ﴾ . وقد تقدم هذا في تفسير سورة (العنكبوت) الآية رقم (٨) ، ص ٣٦٠ من هذا الجزء ، وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وواطأت الآية الأُولى الأَمر بِبِرِّ الوالدين وحكمه ، ثم حَكَمَ بأَنَّ ذلك لا يكون في الكفر والمعاصي ، وجُمْلة هذا الباب أَن طاعة الأَبوين لا تُراعى في ركوب كبيرة ، ولا في ترك فريضة على الأَعيان ، وتلزم طاعتهما في المباحات ، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب ، ومنه أَمر الجهاد الكفاية ، والإِجابة للأُم في الصلاة مع إِمكان الإِعادة ، مع أَن هذا أَقوى من الندب ، لكن يُعَلَّل بخوف هلكة عليها ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أَقوى من الندب ، وخالف الحسن في هذا التفصيل ، فقال : إِنْ منعته أُمه من شهود العشاء الآخرة شفقة فلا يطعها .

وقوله : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ يعني : الأَبَوَيْن الكافرين ، أَي : صلهما بالمال ، وادْعهما برفق ، ومنه قول أَسماءَ بنت أَبي بكر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم ـ وقد قدمت عليها خالتُها ، وقيل : أُمها من الرضاعة ـ فقالت : يا رسول الله ، إِن أُمِّي قد قدمت عليَّ وهي راغبة ، أَفَأَصِلُها ؟ قال : نعم ، وراغبة ، قيل : معناه : عن الإِسلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأظهر عندي أنها راغبة في الصلة ، وما كانت لتُقْدِم على أسماء لولا حاجتها ، ووالدة أسماء هي قُتَيْلة بنت عبد العُزَّى بن عبد أسعد[١] ، وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ وصيَّةٌ لجميع العالم ، كأَنَّ المأمور الإنسان ، و [أَنَابَ] معناه : رجع إلى الشيء ، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين ، وحكى النَّقَّاش أن المأمور سعد ، والذي أناب أبو بكر رضي الله عنهما ، وقال : إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان ، وطلحة ، وسعيد ، والزُّبير ، فقالوا : آمنت ؟ قال : نعم ، فنزلت فيه ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ ﴾[٢] ، فلما سمعها الستَّة آمنوا ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنَابُوا إِلَى ٱللهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللهُ ﴾[٣] . ثم توعَّد تعالى بالبعث من القبور ، والرجوع للجزاء ، والوقوف على صغير الأعمال وكبيرها .

---

(١) الذي في القرطبي : «عبد العزّى بن عبد أسد» .

(٢) من الآية (٩) من سورة (الزُّمَر) .

(٣) من الآيتين (١٧) ، (١٨) من سورة (الزُّمَر) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

المعنى : وقال لقمان : يا بُنَيَّ ، وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قُدرة الله تعالى ، وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهِّمه ؛ لأن الخَرْدَلَة يقال : إنَّ الحِسَّ لا يُدْرِك لها ثقلا ؛ إذ لا ترجح ميزاناً . وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بها علماً . وقوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ عبارة تصلح للجواهر ، أيْ : قدْر حبة ، وتصلح للأعمال ، أي : مازِنَتُه على جهة المماثلة قدر حبَّة ، فظاهر الآية أنه أراد شيئاً من الأشياء خفيًّا قدر حبة ، ويؤيد ذلك ما روي من أن ابن لقمان سأل أباه عن الحبة تقع في مثل البحر ، أيعلمها الله ؟ فراجعه لقمان بهذه الآية . وذكر كثير من المفسرين أنه أراد الأعمال والمعاصي

والطَّاعات ، ويؤيد ذلك قوله : ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ ، أي : لا يفوت .
وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف . فيضاف ذلك إلى تَبْيين قدرة الله تعالى ، وفي القول الآخر ليس ترجية ولا تخويف .
ومما يؤيد قول من قال : «هي من الجواهر» قراءة عبد الكريم الجزري : [فَتكِنّ] بكسر الكاف وشد النون ، من الكِنِّ الذي هو الشيءُ المغطَّى .

وقرأ جمهور النَّاس : ﴿ إنْ تَكُ ﴾ بالتَّاءِ من فوق [مِثْقَالَ] بالنصب على خبرِ «كان» ، واسمُها مضمر تقديره : مسأَلَتُكَ ـ على ما رُوي ـ أو : المعصية أو الطاعة على القول الثاني ، والضمير في [إنَّها] ضمير القصة ، وقرأ نافع وحده بالياءِ نصباً [مِثْقَالُ] بالرفع على اسم «كان» ، وهي التَّامَّة ، وأسند إلى المثقال فعلًا فيه علامة التأْنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه ، وهذا كقول الشاعر :

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسَفَّهَتْ أَعَالِيهَا مَرُّ ٱلرِّيَاحِ النَّوَاسِمِ(١)

وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر .

---

(١) البيت لذي الرُّمَّة ، وقد سبق الاستشهاد به في أكثر من موضع ، وتسفهت : استخفت واهتزت ، من السَّفه وهو خفة العقل وضعفه ، والنَّواسم : الخفيفة الهبوب . يصف الشاعر نساءً في أثناء مشيهن فيقول: إذا مشَيْن اهتَزَزْن في مَشْيِهِنَّ وتَثَنَّيْن كأنهن رماح منصوبة مرت عليها الرياح فاهتزت وتَثَنَّت . وهو في الديوان ، وفي كتاب سيبويه . ومثله في التأنيث بسبب الإضافة إلى مؤنث قول الشاعر :

وتَشْرَقُ بالقَوْلِ الَّذي قَدْ أذَعْتَـهُ كَما شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الـدَّمِ

وقوله : ﴿ فَتَكُنْ في صخْرَةٍ ﴾ ، قيل : أراد الصخرة التي عليها الأَرض والحوت والماءُ ، وهي على ظهر ملَك ، وقيل : هي صخرة في الريح .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف ، لا يُثْبته سند ، وإنما معنى الكَلام المبالغة والانتهاءُ في التفهيم ، أَي : إنَّ قدرته مثال ما يكون في تضاعيف صخرة ، وما يكون في السماءِ وفي الأَرض . وقرأَ قتادة : [فَتَكِنْ] بكسر الكاف والتخفيف : من : وَكَن يَكِنُ ، وتقدمت قراءَة عبد الكريم [فَتَكِنَّ] .

وقوله : ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ إن أَراد بها الجوهر فالمعنى : يأْتِ بها إن احتيج إلى ذلك ، إن كانت رزقاً ونحو هذا ، وإن أَراد الأَعمال فمعناه : يأْت بذكرها وحفظها ليجازي عليها بثواب أَو بعقاب . و ﴿ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ صفتان لائقتان بإظهار غرائب القدرة .

ثم وصَّى ابنه بِعُظْم الطَّاعات ، وهي الصلاة والأَمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا إنما يريد به بعد أن يَمْتَثِل هو في يقينه ، ويَزْدَجِرَ عن المنكر ، وهنا هي الطَّاعات والفضائل أَجمع .

وقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر ، فهو إشعارٌ بأَنَّ المغيِّر يؤْذَى أَحياناً ، وهذا القدر

هو على جهة الندب والقوة في ذات الله عزَّ وجلَّ ، وأمَّا على اللزوم فَلَا .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ معناه : مما عزمه اللهُ وأمر به ، ويحتمل أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائِم أهل الحَزْم السالكين طريقَ النجاة ، والأول أصوب ، وبكليهما قالت طائفة (١) .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وابن محيصن : ﴿ وَلَا تُصَاعِرْ ﴾ . وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، والحسن ، ومجاهد ، وأبو جعفر : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ ﴾ . وقرأ الجحدري : ﴿ وَلَا تُصْعِرِ ﴾ بسكون الصاد ، والمعنى متقارب ، والصَّعَر : المَيْل ، ومنه قول الأعرابي: «وقد أقام الدهرُ صعري بعد أن أقمتُ صعره » ، ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التَّغْلبي :

وكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَــدَّهُ أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَــوَّمِ (٢)

---

(١) قال أبو حيَّان : « والظاهر أنه يريد لازمات الأمور الواجبة ؛ لأن الإشارة بـ[ذَٰلِكَ] إلى جميع ما أمر به ونهى عنه » . هذا والعَزْم مصدر ، فيحتمل أن يراد به المفعول ، أي : من معزوم الأمور ، ويحتمل أن يراد به الفاعل ، أي : عازم الأمور ، كقوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾ .

(٢) هذا البيت مختلف في نسبته ، وفي قافيته ، ففي معجم الشعراء للمرزباني أنه لعمرو ابن حُنَيّ التغلبي ، وعمرو هذا فارس جاهلي ، قال هذا البيت من أبيات رواها محمد بن داود في قتل التغلبيين عَمْرَو بن هند ، وهي :

نُعَاطِي المُلُوكَ الحَقَّ ما قَصَدوا بِنَــا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَــرَّمِ
أنِفْتُ لَهُمْ مِنْ عَقْلِ عَمْرِو بن مَرْثَدٍ إذَا وَرَدُوا ماءً وَرُمْحِ بن هَرْثَــمِ
وكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صَعَّــرَ خَــدَّهُ أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَــوَّمِ =

أي : فَتَقَوَّمْ أَنْتَ ، قاله أبو عبيدة ، وأنشده أبو عبيدة : (فَتَقَوَّمَا) وهو خطأٌ ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة ، وفي بيت آخر :

. . . . أَقَمْنَا لَهُ مِنْ خَدِّهِ المُتَصَعِّرِ (١)

فالمعنى : ولا تمل خدَّك للناس كبراً عليهم ، وإعجاباً ، واحتقاراً لهم ، وهذا هو تأويل ابن عباس – رضي الله عنهما – وجماعة ، ويحتمل أن يريد أيضاً الضد ، أي : ولَا سؤالًا ولا ضراعة بالفقر ، والأول

= والمعنى : تَقَوَّمْ أَنْتَ ، أي : قَوِّمْ نَفْسَكَ . وكذلك نسبه الطبري والقرطبي وابن عطية لعمرو بن حُنَيٍّ هذا ، لكنهم اختلفوا في القافية ، فهي في القرطبي كما رواها ابن عطية هنا ، وهي في الطبري (فتقوما) كما ذُكرت في مصادر متعددة ، إذْ أن المرزباني نفسه يقول : ويروى هذا البيت من قصيدة المتلمس التي أولها :

يُعَيِّرُنِي أُمِّي رِجَالٌ ولَنْ تَرَى أخَا كَرَمٍ إلا بأنْ يَتَكَرَّمَا

وفي (مجاز القرآن) نسبه أبو عبيدة للمتلمس ، وكذلك في (اللسان – صَعَرَ) ، وفي (موسوعة الشعر العربي بيروت) ورد البيت ضمن القصيدة المذكورة للمتلمس ، وهو البيت السابع فيها ، والرواية في هذا كله : (فَتَقَوَّمَا) بالألف . وصَعَّر معناه : أمال خَدَّه من الكِبْرِ ، والجبَّار : العاتي من الملوك ، والمعنى : إذا ما تكبَّر هذا الطاغية وتجبَّر قوَّمْنَا اعوجاجه فتَقَوَّم . والشاهد أن (صَعَّرَ) بمعنى أمال وجهه من الكِبْر . والصَّعَر في الأصل داءٌ يصيب الإبل في رؤوسها حتى يلف أعناقها ويلوي رؤوسها ، وفي الحديث : (يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلا أصْعَر أو أبْتَر) يعني رُذالة الناس الذين لا دين لهم ، على أن في البيت رواية أخرى ذكرها الشوكاني ولم ينسبها ، وهي :

وكُنَّا إذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشَيْنَا إلَيْهِ بِالسُّيُوفِ نُعَاتِبُهْ

(١) هذا عجز البيت ، وأَقَمْنَا : أصْلحنا وقَوَّمْنَا ، والمتصعِّر : المائل كبراً ، ومعنى هذا الشطر يوحي بأن الصدر مثل البيت السابق .

أظهر بدلالة ذكر الاختيال والفخر بعده ، وقال مجاهد : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ ﴾ أراد به الإعراض وهجره بسبب أخيه .

و «المَرَحُ» : النَّشاط ، و «المَشْيُ مَرَحاً» هو في غير شغل ولغير حاجة ، وأهل هذا الخُلق ملازمون للفخر والخُيَلَاءِ ، فالمَرِح مُخْتَال في مشيته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (مَنْ جرَّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة)(١)، وقال : (بينما رجل من بني إسرائيل يجُرُّ ثوبه خُيَلَاء خسف الله به ، فهو يتجلجل في الأَرْضْ إلى يوم القيامة)(٢)، وقال مجاهد : الفَخور هو الذي يعدد ما أُعطي ولا يشكر الله تبارك وتعالى ، قال : وفي اللفظ الفخر بالنسب وغير ذلك .

ولما نهاهُ عن الخُلُق الذميم رسم له الخُلُق الكريم الذي ينبغي أن يستعمله ، من القَصْدِ في المَشْي ، وهو أَلَّا يتخرق في إسراع ،

---

(١) في ابن كثير : «عن ابن أبي ليلى ، عن ابن بريدة ، عن أبيه مرفوعاً (مَن جَرَّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه)،ورواه عن إسحق بن إسماعيل،عن سفيان،عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله» . وفي رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي قال : «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره بطراً) ، مُتَّفَق عليه» اه .

(٢) ذكره الإمام أبي زكريا النووي في رياض الصالحين ، وقال عنه : مُتَّفَق عليه ، وقال ابن كثير في تفسيره : «وحدثنا محمد بن بكار ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعاً (لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره ، وبينما رجل يتبختر في برديه أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة) ، وروى الزهري عن سالم عن أبيه : (بينما رجل ... الخ) . اه .

ولا يُرائي في إبطاءٍ وتضاؤُل ، وعلى نحو ما قال القائل :

كُلُّنَا يَمْشِـي رُوَيْـد كُلُّنَا يَطْلُبُ صَيْد

غَيْرَ عَمْرِو بن عُبَيْد (١)

وألّا يمشي مختالًا متبختراً ، ونحو هذا مما ليس بقصد . وغَضٌّ الصوتُ أوْفر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه . ثم عارض متمثّلًا بصوت الحمير على جهة التشبيه ، أي : تلك هي التي بعُدت عن الغَضِّ فهي أنكر الأصوات ، فكذلك كل ما بعُد عن الغَضِّ من أصوات البشر فهو في طريق تلك ، وفي الحديث : (إذا سمعتم نهيق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً)(٢)، وقال سفيان الثوري : صياح كل شيءٍ تسبيح إلّا صياح الحمير . وقال عطاءٌ : نهيق الحمير دعاءٌ على الظَّلَمة .

و [أَنْكَرُ] معناه : أقبح وأوحش ، و [أَنْكَرُ] عبارة تجمع المذامّ اللاحقة للصوت الجهير ، وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير ، على خُلُق الجاهلية ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) سبق الاستشهاد بهذه الأبيات في هذا الجزء عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾ من سورة الفرقان . (ص ٦٦ هامش ١) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي عن أبي هريرة ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في (الجامع الصغير)، ولفظه كما ذكره السيوطي : (إذا سمعتم أصوات الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً) .

جَهِيرُ الْكَلَامِ جَهِيرُ العُطَاسِ جَهِيرُ الرُّوَاءِ جَهِيرُ النَّعَمْ
ويَعْدُو عَلَى الأَيْنِ عَدْوَ الظَّلِيم ويَعْلُو الرِّجَالَ بخَلْقٍ عَمَمْ (١)

فنهى الله تعالى عن هذه الخلق الجاهلية . وقوله : ﴿ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ أراد بالصوت اسم الجنس ، ولذلك جاء مفرداً . وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ أَصْوَاتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ بالجمع في الثاني دون لام . والغَضُّ ردُّ طَفَحان الشيء ، كالنَّظر ، وزمام الناقة ، والصوت ، وغير ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١) ﴾

هذه آية تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع ، وذلك أن تسخير هذه الأمور العظام كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح

(١) الرُّواء : المنظر الحسن والبَهاء . والنَّعَمْ : المال السائم ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل ، وجمعه : أنعام وأناعيم ، والأَيْنُ : التَّعب والإعياء ، والظَّليمُ : ذكرُ النَّعام ، وجمعه ظُلْمان ، والخَلْقُ العَمَمْ : التَّام الكامل ، يمدحه بهذه الصفات التي ذكرها على عادة العرب في الجاهلية .

والحيوان والنبات إنما هو لمسخَّرٍ ومالك . وقرأ يحيي بن عمارة ، وابن عباس : [وَأَصْبَغَ] بالصاد على بدلها من السين ؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سفلها إلى علوها فتردُّها صاداً ، والجمهور قراءتهم بالسين . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، والحسن ، والأعرج ، وابن جعفر ، وابن نصاح ، وغيرهم : [نِعَمَهُ] جمع (نِعْمَةٍ) ، كسِدْرَةٍ وسِدَر بفتح الدال ، و «الظاهرة» هي الصحة وحُسْن الخِلْقَة والمال وغير ذلك ، و «الباطنة» المعتقداتُ من الإيمان ونحوه ، والعقلُ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الظَّاهرة : الإسلام وحُسْن الخِلْقَة ، والباطنةُ : ما ستر من سيِّئ العمل ، وفي الحديث : (قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قد عرفنا الظَّاهرة ، فما الباطنة ؟ قال : ستْر ما لو رآك الناس عليه لمَقَتُوكَ)(١) .

---

(١) أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عطاء رضي الله عنه قال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ قال : هذه من كنوز عليٍّ ؛ قال : سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أما الظاهرة فما سوّى من خلقك ، وأما الباطنة فما ستر من عورتك ، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم . وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي ، وابن النجار مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وزادوا في آخره : (يا ابن عباس ، إن الله تعالى يقول : ثلاث جعلتهن للمؤمن : صلاة المؤمنين عليه من بعده ، وجعلت له ثلث ماله أُكَفِّر عنه من خطاياه ، وسترت عليه من مساوئ عمله فلم أفضحه بشيء منها ، ولو أبديتُها لنبذه أهله فمن سواهم) . وأخرجه الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن الباطنة التنفس والهضم والتغذي ومالا يُحصى كثرة ، ومن الظاهرة عمل الجوارح بالطاعة ، قال المحاسبي : الظاهرة : نِعَم الدنيا ، والباطنة : نِعم العقبى . وقرأ جمهور من الناس : [نِعْمَةً] على الإفراد ، فقال مجاهد : المراد «لا إلٰه إلّا الله» ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أراد الإسلام ، والظاهر عندي أنه اسم جنس ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (١) .

ثم عارض بالكفرة مُنَبِّهاً على فساد حالهم ، وهم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، وقال النقاش : الإشارة إلى النضر بن الحارث ونظرائه ؛ لأنهم كانوا ينكرون الله تعالى ويشركون الأصنام في الألوهية ، وذلك جدالهم ، و ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : لم يُعْلِمْهم من يُقْبَل قوله ، ولا عندهم هُدَى قلبٍ ولا نُورَ بصيرة يُقيمون بها حُجَّة ، ولا يبتغون بذلك كتاباً من الله يبشر بأنه وحي ، بل ذلك دعوى منهم وتخرُّص ، وإذا دُعوا إلى اتباع وحي الله رجعوا إلى التقليد المحض بغير حجة ، فسلكوا طريق الآباء . ثم وقف الله تعالى – وهم

---

(١) من الآية (١٨) من سورة (النحل) .

المراد بالتوقيف – على اتباعهم دين آبائهم ، أيكون وهم بحال من يصير إلى عذاب السعير ؟ فكأن القائل منهم يقول : هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير ، فدخلت ألف التوقيف على حرف العطف كما كان اتساق الكلام ، فتأمله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

لما ذكر الله تعالى حال الكفرة أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين ليَتَبيَّنَ الفرقُ وتتحرَّك النُّفوس إلى طلب الأفضل . وقرأت عامة القراء : [يُسْلِمْ] بسكون السين وتخفيف اللام ، وقرأ عبد الله بن مسلم ، وأبو عبد الرحمن : [يُسَلِّمْ] بفتح السِّين وشد اللام ، ومعناه : يخلص

وجهه ويستسلم به (١) ، و «الوَجْهُ» هنا الجارحة ، استُعير للقصد ؛ لأن القاصد للشيء فهو مستقبله بوجهه ، فاستُعير ذلك للمعاني ، و «المُحْسِن» هو الذي جمع القول والعمل ، وهو الذي شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإسلام (٢) .

و «ٱلْعُرْوَةُ ٱلْوُثْقَىٰ» هي استعارةٌ للأمر المنجي الذي لا يخاف عليه استحالة ولا إخلال ، والعُرى موضع التعلُّق ، فكأن المؤمن متعلق بأمر الله تبارك وتعالى ، فشبَّه ذلك بالعروة ، و [الأُمُور] جمع أَمْر ، وليس بالمضاد للنهي . ثم سلَّى عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه الصلاة والسلام عن مَوْجِدَته لكفر قومه وإعراضهم ، فأمره ألَّا يحزن لذلك ، بل يعمد إلى ما كُلِّفَ من التبليغ ويُرجع الكل إلى الله تعالى . وقرأت فرقة : [يُحْزِنْكَ] من الرباعي ، وقرأت فرقة : [يَحْزُنْكَ] من الثلاثي ،

---

(١) عُدِّي الفعل [يُسْلِمْ] هنا بـ (إلى) فقيل : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لأنَّ المعنى أنه سلَّم نفسه إلى الله تعالى ، كما يُسَلَّم المتاع إلى الرَّجُل إذا دُفع إليه ، والمراد : التوكل عليه والتفويض إليه . وعدِّي باللام في قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ لأن المعنى أنه جعل وجهه وهو ذاته سالماً لله ، أيْ : خالصاً له .

(٢) وذلك في الحديث المشهور الذي أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم ، وفيه أن جبريل عليه السلام سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وأجابه صلوات الله وسلامه عليه ، ثم سأله عن الساعة ، فأجابه عن علاماتها ، وكان فيما قال له عن الإسلام : (الإسلام أن تَعْبُد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان) . وقد سبق ذكر هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ من هذه السورة . الآية رقم (٣) ص ٤٨٢ وما بعدها .

و «ذات الصُّدور» ما فيها ، والقصد من ذلك : إلى المعتقدات والآراء ، ومن ذلك قولهم : «الذئب مغبوط بذي بطنه»(١)، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : ذو بطن بنت خارجة » . و «الْمَتَاعُ ٱلْقَلِيلُ» هو العُمْر في الدنيا ، و «ٱلْعَذَابُ ٱلْغَلِيظُ» معناه : المغَلَّظ المؤلم .

ثم أقام عليهم الحُجَّة في أمر الأصنام بأنهم يُقِرُّون بأن الله تعالى هو خالق المخلوقات ، ويدعو مع ذلك إلٰهاً غيره ، والمعنى : قل الحمد لله على ظهور الحُجَّة عليكم . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ إضراب عن مقدر ، تقديره : ليست دعواهم بحق ، ونحو هذا ، وقوله : [أَكْثَرُهُمْ] على أصله ؛ لأن منهم من شذَّ فعَلِم كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل . ويحتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى من هو مُعَدٌّ أن يسلم . ثم أخبر على جهة الحكم وفصل القضية بأن الله عزَّ وجلَّ له ملك السمٰوات والأرض وما فيهما ، أي : وأقوال هؤلاء لا معنى لها ولا حقيقة ، والمعنى : الذي لا حاجة به في وجوده وكماله

(١) هذا مثل يقال عن الذئب ، وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً ، إنما يظن به البطنة لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر :

وَمَنْ يَسْكُنِ البَحْرَيْنِ يعْظُم طحَالُهُ وَيُغْبَطُ ما في بَطْنِهِ وهوَ جائِعُ

وقيل : بل قيل في الذئب ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، قال الشاعر :

• لَكَالذِّئْبِ مغبُوطُ الحشا وَهْوَ جَائِعُ •

إلى شيء ، ولا نقص بجهة من الجهات ، و [ٱلْحَمِيد] : المحمود ، أي : كذلك هو بذاته وصفاته .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب هذه الآية أن اليهود قالت : يا محمد ، كيف عُنينا بهذا القول ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١) ونحن قد أُوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تِبْيَانُ كل شيء؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (التوراة قليل من كثير) ، ونزلت هذه الآية (٢) ، وهذا هو القول الصحيح ،

---

(١) من الآية (٣٥) من سورة (الإسراء) .

(٢) قال السيوطي في (الدر المنثور) : «أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما» ، وفيه اختلاف في بعض الألفاظ عما هنا ، وفي الدر أيضاً أن ابن مردويه أخرج مثله عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أيضاً في عبارة طويلة ، وذكره ابن كثير من رواية ابن إسحق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير ، عن ابن =

والآية مدنية . وقال قوم : إن سبب الآية أن قريشاً قالت : سيتم الكلام لمحمد وينحسر ، فنزلت . وقال السُّدي : قالت قريش : ما أكثر كلام محمد ، فنزلت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والغرض منها الإعلام بكثرة كلمات الله تعالى ، وهي في نفسها غير متناهية ، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى ؛ لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ، وأيضاً فإن الآية إنما تضمنت أن كلمات الله تعالى لم تكن لتنفذ ، وليس تقتضي الآية أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والنحو .

وقال أبو عليٍّ : المراد بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود . وذهبت فرقة إلى أن الكلمات هنا إشارة إلى المعلومات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ينحو إلى الاعتزال من حيث يرون أنه مخلوق ، نوَّر الله تعالى قلوبنا بهداه .

= عباس ، ومحمد بن أبي محمد قال عنه الحافظ بن حجر في التقريب : « شيخ لعبد الرازق مجهول » ، وابن عطية هنا يؤكد أن الآية مدنية على خلاف ما ذكره ابن كثير من أن المشهور أنها مكيَّة ، ولا يكون سبب النزول هو مافي هذا الحديث إلا إذا كانت الآية مدنية ، والله أعلم .

وقرأ أبو عمرو وحده من السبعة ، وابن أبي إسحق ، وعيسى : [وَٱلْبَحْرَ] بالنصب عطفاً على [مَا] التي هي اسم [أَنَّ] ، وقرأ جمهور الناس : [وَٱلْبَحْرُ] بالرفع على أنه ابتداءٌ ، وخبره في الجملة التي بعده ؛ لأن تقديره : «هذه حالُه» ، كذا قدره سيبويه ، وقال بعض النحويين : هو عطف على [أَنَّ] ؛ لأنها في موضع رفع بالابتداء[1] . وقرأ جمهور الناس : [يَمُدُّهُ] ، من (مَدَّ) ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [يُمِدُّه] من [أَمَدَّ) ، وقالت فرقة : هما بمعنى واحد ، وقالت فرقة : مدَّ الشيءُ

---

(١) استدل النحويين بهذه الآية على بطلان ماادعاه الزمخشري وغيره من أن خبر (إنَّ) التي تأتي بعد (لَوْ) لا يكون اسماً جامداً ولا اسماً مشتقاً ، بل يجب أن يكون فعلا ، قالوا : هذا قول باطل ، لأن [أقلامٌ] هنا خبر [أنَّ] وهي واقعة بعد (لَوْ) ، وهذا كثير في كلام العرب ، ومنه قول الشاعر :

وَلَوْ أَنَّهَا عُصْفُورَةٌ لَحَسِبْتَهَا مُسَوَّمَةً تَدْعُو عَبِيداً وَأَيْمَمَا

وقال آخر :

مَا أَطْيَبَ العَيْشَ لَوْ أَنَّ الْفَتَى حَجَرٌ تَنْبُو الْحَوَادِثُ عَنْهُ وَهُوَ مَلْمُومُ

وأما ما ذكره ابن عطية من قول بعض النحويين : إن [البَحْرُ] بالرفع معطوف على [أنَّ] ؛ لأنها في موضع رفع بالابتداء — فيحتاج إلى نظر ، وذلك لأنه لا يجوز ذلك إلا إذا كانت (أنَّ) بعد [لَوْ] في موضع رفع على الابتداء ، مع أن المشهور أن (لَوْ) لا يليها المبتدأ اسماً صريحاً إلا في ضرورة شعر ، نحو قول الشاعر :

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِي شَرِق كُنْتُ كَالغَصَّانِ بالماءِ اعْتِصَارِي

وعلى هذا لا يجوز ذلك في الآية الكريمة ، وإن كان بعض النحويين يجيزه .

بعضه بعضاً ، وأَمَدَّ الشيءُ ما ليس منه (١) ، فكأَن الأَبْحُر السبعة المتوهمة ليست من البحر الموجود . وقرأ جعفر بن محمد : ﴿ وَٱلْبَحْرُ مِدَادُهُ ﴾ ، وهو مصدر ، وقرأ ابن مسعود : «وَبَحْرٌ يَمُدُّهُ» ، وقرأ الحسن : «مَا نفِد كلامُ اللهِ تَعَالى» .

ثم ذكر تعالى أمر الخلْق والبعث أنه في الجميع وفي شخص واحد بالسواء ؛ لأَنه كله «بكن فيكون» ، قاله مجاهد ، وحكى النَّقَّاش أن هذه الآية في أُبيٍّ بن خلف ، وأَبي الأَسود وبنيه ، ومنبه بن الحجاج ، وذلك أَنَّهم قالوا : يا محمد ، إِنَّا نرى الطفل يُخْلق بتدريج وأنت تقول : الله يعيدنا دفعة واحدة ، فنزلت الآية بسببهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

هذا تنبيه خُوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به جميع العالم ، وهذه عبرة تدل على أَن الخالق المخترع أَن يكون (٢) الليل

(١) يقول الفراء : «والشيءُ إذا مدَّ الشيءَ فزاد فكان زيادة فيه فهو يَمُدُّه ، تقول : دِجْلة تَمُدُّ بئارنا وأنهارنا ، والله يُمِدُّنا بها ، وتقول : قد أَمْدَدْتُك بأَلفٍ فمدُّوكَ» .
(٢) يريد : أن الخالق المخترع كوْنَ الليل بتَدَرُّج .

بتدرج ، والنهار كذلك ، فما قَصُرَ من أحدهما زاد في الآخر ، ثم بالعكس ينقسم الزمان بحكمة بارئ العالم ، لا ربَّ غيره .

و [يُولِـجُ] معناه : يُدخل ، و «الْأَجَلُ الْمُسَمًّى» : القيامة التي تنتقض فيها هذه البنية وتُكوَّر الشمس . وقرأ جمهور القراء : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء من فوق ، وقرأ عباس عن أبي عمرو [يَعْمَلُونَ] بالياء .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ، الإشارة بـ [ذَلِكَ] إلى هذه العبرة وما جرى مجراها ، ومعنى ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : صفة الألوهية له حق ، فيحسن في القول تقدير (ذو) ، وكذلك البابُ متى أُخبر بمصدر عن عيْن ، فالتقدير : ذو كذا ، و (حَقٌّ) مصدر ، ومنه قول الشاعر :

. . . . فَإِنَّمَـا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَـارُ (١)

---

(١) هذا عجز بيت للخنساء ، وهو من قصيدة مشهورة ترثي فيها أخاها صخراً ، وتتحدث عن صفاته ، والضمير (هي) يعود على الناقة التي فقدت ولدها فظلت حزينة قلقة تقبل وتدبر من شدة مابها إذا ذكرت وليدها ، وقد ذكرتْها الخنساءُ في أبيات ، قالت :

فَمَا عَجولٌ عَلَى بَوٍّ تُحِيطُ بِهِ ... قَدْ سَاعَدَتْهَا على التَّحْنَانِ أَظْآرُ
أَوْدَى بِهِ الدَّهْرُ عَنْهَا فَهْيَ مُرْزِمَةٌ ... لَهَا حَنِينَانِ إِصْغَارٌ وَإِكْبَارُ
تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّى إِذَا ذَكَرَتْ ... فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

والعجول : هي الواله من النِّساء أو الإبل التي فقدت وليدها ، لعجلتها في الذهاب والمجيء ، =

وهذا كثير . ومتى قلت : كذا وكذا حقٌّ ، فإنما معناه : اتِّصافُ كذا بكذا حقٌّ .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ ﴾ يصحُّ أَنْ يريد الأَصنام ، وتكون [مَا] بمعنى (الذي) ، ويكون الإخبارُ عنها بالباطل على نحو ما قدَّمناه في [ٱلْحَقُّ] ، ويصحُّ أَن تكون [مَا] مصدرية ، كأَنه قال : وأَنَّ دعاءكم آلِهَة من دونه الباطل ، أَي الفعل الذي لا يُؤَدِّي إلى الغاية المطلوبة به . وقرأَ الجمهور : [تَدْعُونَ] بالتاء من فوق ، وقرأَ : [يَدْعُونَ] بالياء ابنُ وثَّاب ، والأَعمش ، وأَهل مكة ، ورويت عن أَبي عمرو . وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

= والمُرْزِمَة: من الإرزام ، وهو ضربٌ من حنين الناقة علَى وليدها حين ترأمُه بصوت تخرجه من حلقها لا تفتح به فاها ، والشاهد هنا أنها أخبرت بمصدر عن عين ، فقالت : (هي) أي الناقة ، (إقبالٌ وإدبارٌ) ، فوجب تقدير (ذات) للمؤنث كما تقدر (ذو) للمذكر ، أي : ذاتُ إقبال وإدبار .

الرُؤْية في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ رؤْية العين يترتب عليها النظر والاعتبار ، والمخاطَب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد النَّاسُ أجمع . و [ٱلْفُلْكَ] جمعٌ وواحدٌ بلفظ واحد . وقرأ موسى بن الزُّبير : [ٱلْفُلُكَ] بضم اللام . وقوله : ﴿ بِنِعْمَةِ ٱللهِ ﴾ يحتمل أن يريد ما تحمله السفن من الطعام والتجارات والأرزاق ، فالباءُ للإِلْصَاقِ ، ويحتمل أن يريد : بالريح وتسخير الله تعالى البحر ونحو هذا ، فالباءُ باءُ السبب . وقرأ الجمهور : [بِنِعْمَةِ] ، وقرأ الأعرج ، ويحيى بن يعمر : [بِنِعْمَاتِ] على الجمع المسَلَّم ، وقرأ ابن أبي عبلة : [بِنَعِماتِ] بفتح النون وكسر العيْن .

وذكر تعالى من صفات المؤمن الصَّبَّار والشَّكور على الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ ، وقال الشعبي : «الصَّبْر نصف الإِيمان ، والشُّكر نصفه الآخر ، واليقين الإِيمانُ كلُّه» .

وغَشِـي : غَطَّى أو قَارَب ، و «الظُّلَلُ» : السحابُ ، وقرأ محمد ابن الحنفية : «كالظِّلال» ، ومنه قول النابغة يصف البحر :

يُمَاشِيهِنَّ أَخْضَـــرُ ذُو ظِلَالٍ عَلَى حافاتِهِ فِلَقُ ٱلــدِّنَانِ [(١)]

(١) البيت للنابغة الجعدي ، وهو في وصف البحر كما قال المؤلف ، وقد ذكره أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، ومعنى يماشيهنَّ : يمتدُّ معهن في سَيْرهن ، وظلال البحر : أمواجه ؛ لأنها حين ترتفع تغطي السفينة ومن فيها فكأنها تُظَلِّل الجميع ، والدِّنان : جمع دَنّ بالفتح ، وهو راقود الخمر الكبير .

ووصف تعالى في هذه الآية حالة البشر الذين لا يعتبرون حق العبرة ، والمقصد بالآية تَبْيين آية تشهد العقولُ بأَن الأَصنام والأَوثان لا شركة لها فيها ولا مدخل .

وقوله تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ ، قال الحسن : منهم مؤمن يعرف حق الله تعالى في هذه النعم ، وقال مجاهد : يريد : منهم مقتصد على كفره ، أَي : منهم من يسَلِّم لله تعالى ويفهم نحو هذا من القدرة ، وإن ضلَّ في الأَصنام من جهة أَنه يُعَظِّمها بسيرته ولسانه .

و «ٱلْخَتَّارُ» : القبيح الغَدْر ، وذلك أَن نِعَم الله تعالى على العباد كأَنها عهودٌ ومِنَنٌ يلزم عنها أَداءُ شكرها والعبادة لمُسْدِيها ، فمن كفر بذلك وجحد به فكأَنه خَتَر وخَانَ ، ومن الخَتْر قول عمرو بن معديكرب الزبيدي :

فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْـــرٍ مَلأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وخَتْرِ (١)

وقال الحسن : الخَتَّارُ هو الغَدَّارُ . و [كَفُور] بناءُ مبالغة .

---

(١) استشهد أبو عبيدة أيضاً بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾. والخَتْرُ : الغَدْرُ ، أو هو أقبح أنواع الغدر والخيانة كما أشار ابن عطية ، يقول : إن أبا عمرو هذا غدرٌ وختر مُجَسَّمَان ، فإذا رأيته رأيت الغدر والختر وأمسكتهما بيديك مُجَسَّمين في شخصه . و [خَتَّار] في الآية للمبالغة ، والفعل من باب ضَرَبَ ونَصَرَ ، تقول : خَتَر يَخْتِر بكسر التاء ، وخَتَر يَخْتُر بضم التاء . ويروى البيت : (وإنَّك) بالواو .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

[يَجْزِي] معناه : يقضي ، والمعنى : لا ينفعه بشيءٍ ، ولا يدفع عنه شيئاً ، و ﴿ هُوَ جَازٍ ﴾ جملة في موضع الصفة ، أي : ولا يجزي مولودٌ قد كان في الدنيا يجزي[١]. و [ٱلْغَرُورُ] : التَّطميع بما لا يتحصل ، و [ٱلْغَرُورُ] : الشيطان ، بذلك فسَّر مجاهد والضَّحَّاك ، وقال : هو الأَمل والتسويف . وقرأَ سِمَاكُ بْنُ حَرْب[٢] ، وأَبو حيوة : [ٱلْغُرُور]

---

(١) قال بعض المفسرين : « لما كان الوالد أكثر شفقة على الولد من الولد على أبيه بدأ به أوَّلا ، وأتى في الإسناد إلى الوالد بالفعل المضارع المقتضي للتجدد ؛ لأن شفقته على الولد متجددة في كل حال ، وأتي في الإسناد إلى الولد باسم الفاعل لأنه يدلُّ على الثُّبوت ، والثُّبوتُ يصدق بالمرة الواحدة » .

(٢) هو سِمَاك — بكسر السين وتخفيف الميم — بن حرب بن أوس بن خالد الذّهليّ البكري الكوفي ، أبو المغيرة ، صدوقٌ ، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة ، وقد تغير بأَخِرَة ، فكان بما يُلَقَّن ، من الرابعة ، مات سنة ثلاث وعشرين . (تقريب التهذيب)

بضم الغين ، وقال سعيد بن جُبَيْر : معنى الآية أن تَعْمل المعصية وتَتَمنى المغفرة .

وقرأ الجمهور : [يَجْزِي] بفتح الياء ، من (جَزَى) ، وقرأ عكرمة : [يُجْزِي] بضم الياء على ما لم يُسَمَّ فاعله ، وحكى ابن مجاهد قراءة : [لَا يُجْزِئُ] بضم الياء وبالهمز . وفي رفع [مَوْلُودٌ] اضطرابٌ من النحاة ، قال المهدوي : «ولا يكون مبتدأً لأنه نكرة وما بعده صفة لهٌ فيبقى بغير خبر»(١) . وقرأ ابن أبي عبلة ، وابن أبي إسحق ، ويعقوب : ﴿ وَلَا تَغُرَّنْكُمْ ﴾ خفيفة النون .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ ﴾ الآية . ذكر النقاش أن رجلًا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الخمس ، ورُوي أنه سأل عن بعضها فنزلت الآية حاصرةً لمفاتيح الغيب التي لا يعلمها

---

(١) أما عن اضطراب النحاة في إعراب [مَوْلُودٌ] فقد نصّ أبو حيان في البحر على جواز وجهين في إعرابه : أحدهما أن يكون معطوفاً على [وَالِدٌ] ، والجملة في قوله : ﴿ هُوَ جَازٍ ﴾ صفةٌ لـ [مَوْلُود] . والثاني أن يكون مبتدأً ثانياً ، و ﴿ هُوَ جَازٍ ﴾ خبره ، والجملة خبر الأول ، وأما ما ذكره المهدوي من أنه لايكون مبتدأً لأنه نكرة وما بعده صفةٌ له فيبقى بغير خبر — فقد أجاب عنه أيضاً أبو حيان بقوله : «وجاز الابتداءُ به وهو نكرة لوجود مُسَوِّغ ذلك وهو النفي ، وذهل المهدوي فقال ... الخ » .

إلَّا الله عزَّ وجلَّ ، ذكر ذلك مجاهد [١] ، ولن تجد من المغيبات شيئاً إلَّا هذه أو ما يفيده النظر والتأويل .

و ﴿ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ مصدرٌ مضاف إلى مفعول ، أي : كلُّ ما شأنه أنْ يُعْلَم من أمر الساعة ، ولكن الذي استأثر الله به هو علم الوقت ، وغير ذلك فذا علم ببعض منه . وكذلك نزول الغيث أمر قد استأثر الله عزَّ وجلَّ بتفصيله وعَلِمَ وقته الخاصَّ به . وأَمْرُ الأَجِنَّة كذلك ، وأفعالُ البشر وجميعُ كسْبِهم كذلك ، وموضعُ موت كل بشر كذلك الأَصقاع والموضع الخاص بالجسد [٢] .

---

(١) الحديث الذي رواه مجاهد أخرجه الفريابي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدر المنثور : (جاء رجلٌ من أهل البادية فقال : إن امرأتي حُبْلى فأخبرني ما تلد ؟ ، وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموتُ ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية) . كما ذكر السيوطي أن ابن المنذر قد أخرج مثله عن عكرمة ، وفي (أسباب النزول) ذكر الواحدي حديث مجاهد بدون سند ، وكذلك ذكره البغوي في تفسيره ، وذكره القرطبي في تفسيره عن مقاتل ، قال : إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أن السُّنَّة قد وردت بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب ، قال : فروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ قال : ورواه البخاري .

(٢) أسند الله تعالى العلم إلى نفسه ، وأسند الدراية للنفس لما في الدراية من معنى الحيلة ، ولذلك يُوصف اللهُ سبحانه بالعلم فيقال : عالم ، ولا يوصف بالدراية ، فلا يقال : دارٍ .

وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿ بِأَيَّةِ أَرْضٍ ﴾ بفتح الياء وزيادة تاء تأنيث [١].
و ﴿ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ صفتان مشابهتان لمعنى الآية .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كلُّ شيءٍ أُوتي نَبِيُّكُم إلَّا مفاتيح الخمس ، ثم تلا الآية [٢] .

وقرأ : ﴿ وَيُنْزِلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ خفيفةً أهلُ الكوفة ، وأبو عمرٍو ، وعيسى ، وقرأ : [يُنَزِّلُ] بالتثقيل نافع ، وأبو جعفر ، وعاصم ، وشيبة . وذكر أبو حاتم في ترجيح التثقيل رأياً .

كمل تفسير سورة لقمان والحمد لله ربِّ العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) جاز ذلك لأن الأرض أُضيفت إلى الموت ورُبطت به ، وهي لغة قليلة . وقال الأخفش : يجوز مررْتُ بجارية أيِّ جارية ، وشبَّه سيبويه تأنيث « أيّ » بتأنيث « كُلّ » في قولهم : « كُلَّتُهن » .

(٢) أخرجه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن مسعود ، ذكر ذلك السيوطي في (الدر المنثور) ، وفي الدرّ أيضاً أن أحمد والطبراني أخرجا عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أُوتيتُ مفاتيح كلّ شيءٍ إلا الخمْس : ﴿ إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... ﴾ الآية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السُّورة مكيَّة غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهي قوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُون ... ﴾ إلى تمام ثلاث آيات ، ويأْتي تفسيرها(١) . وقال جابر بن عبد الله : «ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام حتى يقرأ : ﴿ الٓمٓ تَنْزِيلُ ﴾ السجدة ، و ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ (٢) .

---

(١) هذا ما قاله الكلبي ومقاتل وابن عباس . وقال غيرهم : إلا خمس آيات ، من قوله تبارك وتعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ إلى قوله : ﴿ الَّذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، وآيات هذه السورة ثلاثون آية ، وقيل : تسع وعشرون .

(٢) قال القرطبي : «وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ تَنْزِيلُ ﴾ السجدة ، و ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ ﴾ ، » . وقد روى البخاري ذلك في صحيحه في كتاب الجمعة عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه مسلم أيضاً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ ﴾

*

[تَنْزِيلُ] يصح أن يرتفع بالابتداء والخبر [لَا رَيْبَ] ، ويصح أن يرتفع على أنه خبر ابتداءٍ ، وهو : إمَّا الحروف المشار إليها على بعض الأقوال في أوائل السُّور ، وإمَّا : «ذلك تنزيل» ، أو نحو هذا من التقدير بحسب القول في الحروف .

وقوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، أي : هو هكذا في نفسه ، ولا يراعى ارتياب الكفرة ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ متعلق بـ [تَنْزِيل] ، ففي الكلام تقديم وتأخير . ويجوز أن يتعلق بقوله : [لَا رَيْبَ] ، أي : لا شكَّ فيه من جهة الله تعالى ، وإن وقع شكٌّ للكفرة فذلك لا يُرَاعى(١).

= أما حديث جابر رضي الله عنه فقد أخرجه أبو عبيد في فضائله ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والدارمي ، والترمذي ، والنسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه . ذكر ذلك الشوكاني في (فتح القدير) ، وذكره السيوطي في (الدر المنثور) .

(١) قال مكي : أحسن الوجوه في الإعراب أن تكون ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ في موضع الحال ، و ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الخبر .

والرَّيْبُ : الشَّكُّ ، وكذلك هو في كل القرآن إلَّا قوله : ﴿ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾[(١)].

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ إضرابٌ ، وتقديره أنه قال : بَل أيقولون ، و [ٱفْتَرَاهُ] : اختلقه ، ثم ردَّ تعالى على مقالتهم هذه ، وأخبر أنه الحق من عند الله تعالى ، واللام في قوله : [لِتُنْذِرَ] يجوز أن تتعلق بفعل مضمر تقديره : أنزله لِتُنْذر ، فيوقف حينئذ على قوله : ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ أي : لم يباشرهم ولا رأوْه هم ولا آباؤُهم العرب، أمَّا قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[(٢)] فَيَعُمُّ من بوشر من النُّذر ومن يُسمع به ، فإن العرب من الأُمم التي خلَت فيها النُّذُر على هذا الوجه ، لأنها علمت بإبراهيم وبَنِيه عليهم السلام ودعوتِهم ، وهم ممن لم يأْتهم نذيرٌ مباشر لهم سوى محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، ومقاتل : المعنى : لم يأْتهم نذيرٌ في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام [(٣)] .

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (الطور) : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ .

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (فاطر) .

(٣) يقول أبو حيان في معرض الردّ على رأي للزمخشري حاول فيه التوفيق بين آية فاطر وآية السجدة هذه : «لقد فهم المفسرون أن (مَا) في قوله تعالى : ﴿ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ =

وقوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ يقضي بأن يوماً من أيام الجمعة بقي لم يُخلق فيه شيءٌ ، وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدأ يوم الأحد ، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء ، فهذا مستقيم مع هذه الآية ، ووقع في كتاب مسلم أن الخلق ابتدأ يوم السبت ، فهذا يخالف الآية ، اللَّهُمَّ إلَّا أن يكون أراد في الآية جميع الأشياء غير آدم عليه السلام ، ثم يكون يوم الجمعة هو الذي لم يُخلق فيه شيءٌ مما بين السماء والأرض ؛ لأن آدم لم يكن حينئذ مما بينهما . وقد تقدم القول في قوله تعالى : ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ بما فيه كفاية ، و [ثُمَّ] في هذا الموضع لترتيب الجمل ، لا لأن الاستواء كان بعد أن لم يكن ، وهذا على المعنى المختار في معنى [ٱسْتَوَىٰ] .

= نافية، وعندي أنها موصولة ، والمعنى : لِتُنْذِر قوماً العقاب الذي أتاهم ، و ﴿ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ متعلق بـ (أَتَاهُمْ) ، أي أتاهم على لسان نذير من قبلك ، وكذلك المعنى في قوله : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ إذ تقديره : لِتُنْذِرهم العقاب الذي أُنْذِره آباؤُهم ، فـ [مَا] مفعولة في الموضعين ، و (أنذر) تتعدى إلى اثنين ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقَدْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً ﴾ ، وهذا القول جارٍ على ظواهر القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إلا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ و ﴿ إِنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ .

ونفْيُ الشفاعة محمولٌ على أحد وجهين : إمَّا نفيٌ عن الكَفَرَة ، وإمَّا نَفْي الشفعاءِ من ذاتهم على حدّ شفاعة الدنيا ؛ لأن شفاعة الآخرة إنما هي بعد إذن الله تعالى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ﴾

[ٱلْأَمْر] اسم جنس لجميع الأُمور ، والمعنى : ينفذ الله تعالى قضاءه لجميع ما يشاؤه ، ثم يرجع إليه خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا مقداره – إن لو سير فيه السير المعروف من البشر – ألف سنة ؛ لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة ، هذا أحد الأقوال ، وهو قول مجاهد ، وابن عباس ، وقتادة ، وعكرمة ، والضحاك . وقال مجاهد أيضاً : إن المعنى أن الضمير في [مِقْدَارُهُ] عائد على التدبير ، أي : كأن التدبير المنقضي في يوم القيامة ألفُ سنة لو دبَّرهُ البشر . وقال مجاهد أيضاً : المعنى أن الله تعالى يُدَبِّر ويُلقي إلى الملائكة أُمور ألف سنة من عَدِّنا ، وهو اليوم عنده ، فإذا فرغت ألْقى إليهم مثلها ، فالمعنى أن الأُمور تُنَفَّذ عنده لهذه المدة ، ثم تصير إليه آخراً ؛

لأَن عاقبة الأُمور إليه . وقيل : المعنى : يُدَبِّر الأَمر من السماء إلى الأَرض في مدَّة الدنيا ، ثم يرجع إليه في يوم القيامة ، ويوم القيامة مقداره أَلف سنة من عدِّنا ، وهو على الكفار قدر خمسين أَلف سنة لِهَوْلِهِ وشُنعته حسب ما في سورة «سَأَلَ سَائِلٌ»(١) . وسنذكر هناك ما فيه من التأْويل والأَقوال إن شاءَ الله تعالى .

وحكى الطبري في هذه الآية عن بعضهم أَنه قال : «قوله : ﴿ في يَوْمٍ ﴾ إلى آخر الآية متعلق بقوله قبل هذا : ﴿ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ومُتَّصل به ، أي أَن تلك السِّتَّة كل واحد منها من أَلف سنة (٢)» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ ضعيف مُكرهةٌ أَلفاظ هذه الآية عليه ، رادَّةٌ له الأَحاديثُ التي تُثْبِت أَيام خلق الله تعالى المخلوقات ، وحَكَى(٣) أَيضاً عن ابن زيد ، عن بعض أَهل العلم أَن الضمير في [مِقْدَارُهُ] عائد على «العروج» ، والعروج : الصعود ، والمعارج : الأَدراج التي يصعد عليها .

وقالت فرقة : معنى الآية : يُدبِّر أَمر الشمس في أَنها تصعد وتنزل في يوم ، وذلك قدر أَلف سنة .

(١) أي سورة المعارج ، وقد ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ، الآية رقم (٤) .

(٢) أي : مُكونٌ من أَلف سنة . (٣) أَي : الطبريُّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أيضاً ضعيف ، وظاهرٌ عودُ الضمير في [إِلَيْهِ] على اسم الله تعالى ، كما قال : ﴿ ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾[1]، وكما قال : ﴿ مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾[2]، وهذا كله بريءٌ من التَّحيُّز . وقيل : إن الضمير يعود على [ٱلسَّمَاءِ] لأنها قد تُذَكَّر .

وقرأ جمهور الناس : [تَعُدُّونَ] بالتاء ، وقرأ الأعمش ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ : [يَعُدُّونَ] بالياء من تحت .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦) ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ (١٠) * قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

---

(١) من الآية (٩٩) من سورة (الصافات) ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

(٢) من الآية (٢٦) من سورة (العنكبوت) ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قالت فرقة : أراد بالغيب الآخرة وبالشهادة الدنيا ، وقيل : أراد بالْغيب ما غاب عن المخلوقين ، وبالشهادة ما شوهد من الأَشياءِ ، فكأَنه حصر بهذه الأَلفاظ جميع الأَشياء .

وقرأ جمهور الناس : [خَلَقَهُ] بفتح اللام على أنه فعل ماضٍ ، ومعنى [أَحْسَنَ] : أَتْقَنَ وأَحكم ، فهو حسنٌ من جهة ما هو لِمَقَاصِدِه الَّتِي أُريد لها ، ومن هذا المعنى قال ابن عباس ، وعكرمة : ليست اسْتُ القرد بحسنة ولكنها متقنة محكمة . والجملة في [خلَقَهُ] يحتمل أن تكون في موضع نصب صفة لـ [كُلّ] ، أو في موضع خفض صفة لـ [شَيْءٍ] . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [خَلْقَهُ] بسكون اللام ، وذلك منصوب على المصدر ، والضمير فيه إمَّا عائد على الله تعالى ، وإمَّا على المفعول ، ويصح أن يكون بدلًا من [كُلّ] ، وذهب بعض الناس – على هذه القراءة – إلى أن [أَحْسَنَ] معناها : أَلْهَمَ ، وأن هذه الآية بمعنى قوله : ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[1] ، أي أَلهم الرجل إلى المرأة ، والجَمَل إلى النَّاقة ، وهذا قولٌ فيه بُعْد ، ورجَّحه الطبري .

---

(١) من الآية (٥٠) من سورة (طه) ، وهي قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ .

وقرأ جمهور الناس : [وَبَدَأَ] ، وقرأ الزهري : ﴿ وَبَدَا خَلْقَ الْإِنْسَانِ ﴾ بألف دون همز ، وبنصب القاف ، قال أبو الفتح : ذلك على البدل لا على التخفيف.(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأنه أبدل الألف من الهمزة ، وبَدِي(٢) لغة الأنصار ، قال ابن رواحة :

باسْم الإلٰهِ وبِهِ بَدِينَا ولَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا (٣)

و [الْإِنْسَان] : آدم ، عدَّد أمره على بنيه ؛ إذْ خَلْقُه خلْق لهم ؛ من حيث هو مُنْسِل لهم . و «النَّسْل» : ما يكون عن الحيوان من الولد ، كأنه مأخوذٌ من : «نَسَلَ الشيءُ» إذا خرج من موضعه ، ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾(٤)، ومنه : «نسلَ

---

(١) قال أبو الفتح ابن جني : «ومثله بيت الكتاب :

رَاحَتْ بِمَسْلَمَةَ البِغَالُ عَشِيَّةً فارْعَيْ فَزَارَةُ لا هَنَاكِ الْمَرْتَعُ

ولو كان تخفيفاً قياسياً لجعل الهمزة بيْن بيْن ، ولو أسندتَ الفعل إلى نَفْسِكَ على التخفيف القياسي قلت : بَدَاتُ بألف لاهمز في لفظها ، وعلى البدل قلتَ : بديْتُ ، كما حُكي عنهم : قَرَيْتُ وَأخْطَيْتُ» .

(٢) بِكَسْر عين الكلمة وياء بعدها ، وهي لغة طيِّء ، قال ذلك أبو حيان في البحر .

(٣) الشاهد فيه قوله : (بَدِينا) بكسر الدال وبعدها ياء ، وهي لغة الأنصار في (بَدَأَ) .

(٤) من الآية (٩٦) من سورة (الأنبياء) .

ريشُ الطائر» إذا تساقط . و «السُّلَالَةُ» من : سُلَّ يُسلُّ ؛ فكأَن الماءَ يُسَلُّ من الإنسان ، ومن ذلك قول الشاعر :

فَجَاءَتْ بِهِ عَضْبَ الْأَدِيمِ غَضَنْفَرَا سُلَالَةَ فَرْجٍ كانَ غَيْرَ حَصِينِ (١)

و «الْمَهِينُ» : الضعيف ، يقال : «مَهُن الإنْسَانُ» إذا ضعف وذلَّ (٢).

وقوله تعالى : [نَفَخَ] عبارة عن إفَاضة الروح في جسد ابن آدم ، والضمير في [رُوحِهِ] لله تعالى ، وهي إضافة مِلْكٍ إلى مَالِكٍ، وخَلْقٍ

(١) البيت لحسَّان بن ثابت ، وهو في ديوانه ــ تحقيق سيِّد حنفي حسنين . د ــ أثبته تحت رقم (٦٨) في صفحة ٣٩٦ ضمن (إضافات لأبيات ومقطعات لم ترد في النسخة الأم) ، وهو أيضاً في (اللسان ــ سَلَلَ) ، قال : «وسُلالَة الشَّيْء : ما اسْتُلَّ منه ، والنُّطفة سلالة الإنسان ، قال حسَّان : البيت» . ويروى البيت : (حَمَلَتْ به) بدلا من (فَجَاءَتْ) ، (وقال محقق اللسان ــ طبعة دار المعارف ــ القاهرة) في الهامش : عَضْب بالضاد المعجمة ، هكذا في الأصل ، ولعله بالصاد المهملة ، ولعلَّ الذي دفعه إلى ذلك أن المعاني اللغوية المعروفة لكلمة (عَضْب) لا تناسب المعنى هنا اللّهم إلا أن يراد به غِلَظُ الجِلْد ومتانته . والغَضَنْفَر : هو الرجل الغليظ الجثة مِثْل الغُضَافِر ، يقال : غَضْفَر الشَّيْءُ إذا ثَقُل . والسُّلالَة : الولد يخرج من بطن أمِّه ، فهو سَلِيلٌ وسُلالَة ، وفي اللسان : «قال أبو الهيثم : السُّلالَةُ : مَا سُلَّ مِنْ صُلْب الرجل وتَرَائب المرأة ، والمؤلف يستشهد بالبيت على أن السُّلالَة هو الوَلَد حين يُسَلُّ من أبيه وأمه ، ومثل هذا البيت قول هند بنت النعمان التي كانت تعتز بنفسها ، وتزوجت رجلا لا تطيقه فقالت :

وَهَلْ كُنْتُ إلا مُهْرَةً عَرَبِيَّةً سُلالَةَ أفْرَاسٍ تَحَلَّلَهَا بَغْلُ؟

(٢) يُقال : مَهُن الرجل بضم الهاء بمعنى : ضعف وَذَلَّ ، أما مَهَن بفتح الهاء فمعناها : صارت له مهنة ، ومصدر الأولى : مَهَانَةً ، ومصدر الثانية : مَهْناً ومَهْنَةً ومِهْنَةً .

إلى خَالق . ثم أظهر تعديد النعم عليهم في أن خصَّهم في قوله : [لَكُمْ] [بضمير](١) السمع والأبصار والأفئدة ، وهي لمن تقدم ذكره أيضاً (٢). كما خصَّ آدم بالتَّسوية ونفخ الروح ، وهو لجميع ذرِّيته ، وهذا كله تجاوز واقتضاب وترْكٌ لما يدل عليه المنطوق به . ويحتمل أن يكون [ٱلْإِنْسَان] في هذه الآية اسم جنس . وقوله تعالى : [قَلِيلًا] صفة لمصدر محذوف ، وهو في موضع الحال حين يحذف الموصوف به .

والضمير في [قَالُوا] للكفار الجاحدين البعثَ من القبور ، المستبعدين لذلك دون حجة ولا دليل ، وموضع [أَئِذَا] نصب بما في قوله : ﴿ أَئِنَّا لَفِـي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؛ لأن معناه : لنعاد . واختلف القراءُ في [أَئِذَا] ، وقد تقدم استيعاب ذكره في غير هذا الموضع .

وقرأ جمهور القُرَّاءِ : [ضَلَلْنَا] بفتح اللام ، وقرأ ابن عامر ، وأبو رجاءٍ ، وطلحة ، وابن وثاب : [ضَلِلْنَا] بكسر اللام ، والمعنى : تَلِفْنَا وتقطَّعت أَوْصالُنَا فذهبنا حيث لم نوجد ، ومنه قول الأخطل :

كُنْتَ القَذى في مَوْجٍ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ   قَذَفَ الأَتِيُّ بِهِ فَضَلَّ ضَلَالَا (٣)

---

(١) هكذا في الأصول ، ولو حذفت لاستقام المعنى .

(٢) يريد بمن تقدم آدم عليه السلام حيث تقدم في قوله : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ .

(٣) قال الأخطل هذا البيت مخاطباً جرير فيما كان بينهما من هجاء ، وقبل هذا البيت يقول :

وَإِذَا سَمَا لِلْمَجْدِ فَرْعَا وَائِـلٍ   وَاسْتَجْمَعَ الوَادي عَلَيْكَ فَسَالا =

ومنه قول النابغة :

فَآبَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ وغُودِرَ بالْجُولَانِ حَزْمٌ وَنَائِلُ (١)

أي : مُتْلفوه دفناً ، ومنه قول امرئ القيس :

. . . . تَضِلُّ الْمَدَارِي في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ (٢)

= وفَرْعا وائل هما بكر وتغلب . والقَذَى: ما يصيب العين بالأذى حين يقع فيها ما يحمله الهواء من التراب ، والأكدر : غير الصافي ، والمُزْبد : الذي علاه الزَّبد ، والزَّبَد هو ما يعلو الماءَ من رغوة فيها ما يحمله الماءُ من أعشاب أو عيدان . والأتِيُّ : الذي يأتي من مكان بعيد مندفعاً في قوة . يقول الأخطل لجرير : إذا اجتمع فَرْعا وائل في يوم من أيام الفخار مع القبائل ، وكانوا كالسيل القوي المندفع من مكان بعيد كنت أنت يا جرير كالقَذَى الذي يتوه وسط هذا السيل القوي فلا يبقى منه أثر ، وهو بهذا يُعَرِّض بجرير وأبيه ، فهو الحقير الضئيل بين عِلْية القوم من بكر وتغلب . والشاهد في البيت أن الضلال هنا بمعنى الفناء والضياع وسط الأشياء .

(١) البيت من قصيدة قالها النابغة يرثي النعمان بن الحارث الغساني . ومُضِلُّوه : الذين دفنوه وأخفوه في التراب ، وهذا هو الشاهد هنا ، ويُروى : مُصَلُّوه بالصاد المهملة ، وهي الرواية المشهورة ، والمعنى : الذين صلُّوا عليه من الرهبان الذين تجمعوا حوله يدعون له ؛ لأن النعمان ابن الحارث كان من الذين تنصروا في الجاهلية ، ورواها أيضاً أبو عبيدة : مُطِلُّوهُم بالطاء المُهملة وبضمير الجمع ، يريد المُطِلِّين عليهم في دينهم ، يقال : أطَلَّ على فلان في دينه إذا كان له عليه فضل ، هكذا قال أبو عبيدة مع أن معاجم اللغة لم تورد هذا المعنى ، ومعنى قوله : (بِعَيْن جَلِيَّة) أنهم رجعوا بعد أن شاهدوا بأعينهم موته ودفنه ، وفي هذا إشارة إلى أن من لم يروا ذلك يكادون لا يصدقون خبر موته لجلالة قدره وعظم منزلته بين الناس ، والجولان : اسم المكان الذي دفن فيه ، وهو بالشام جنوبي دمشق ، وعلى الحدود الفاصلة بين سوريا وفلسطين .

(٢) هذا عجز بيت من معلقته المشهورة ، والبيت بتمامه :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العُلا تَضِلُّ المَدَارِي في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ =

وقرأ الحسن البصري : [صَلَلْنَا] بالصاد غير منقوطة وفتح اللام ، قال الفراءُ : ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومعناه : صِرْنَا من الصَّلَّة ، وهي الأَرْض اليابسة الصلبة ، ويجوز أن يراد به : من التَّغَيّر ، كما يقال : «صَلَّ اللَّحْم»(١) ، ورويت هذه القراءة

= والغدائر : جمع الغديرة وهي الخُصلة من الشَّعر ، ومُسْتَشْزِرَاتٌ — من الاسْتِشْزَارِ وهو الارتفاعُ والرَّفْعُ جميعاً ، وبهذا يكون الفعل منه لازماً أو متعدياً ، فمن رواه مُسْتَشْزِرَاتٌ — بكسر الزاي — جعله من الفعل اللازم ، ومن رواه بفتح الزاي جعله من المتعدي ، والمَدَاري : جمع مدراة وهي الآلة التي يُسَوَّى بها الشَّعْر ويُرَجَّل ، أي المشْط ، ويُروى بدلاً من المداري : العِقَاص : وهو خَيْطٌ يُشَدُّ به الشَّعْر مما يُسَمَّى بالعقص ، يقال : عقصت المرأة شعرها عقْصاً إذا أخذت كل خُصلة منه فلَوَتْها ثم عقدتْها حتى يبقى فيها التواءٌ ثم أرسلتها . والمثنى : الذي ثُني بعضه على بعض ، والمرسل : الذي ترك دون عقْصٍ أو ثني ، والشاهد فيه أن يَضِلُّ بمعنى يغيب ويختفي بين الشعر ما ثُني منه وما أُرسل . يقول : ذوائب شعرها مرتفعة أو مرفوعة إلى فوق ، وشعرها لكثرته وطوله منه المثنى ومنه المرسل ، وفيه تغيب المدارى .

(١) في (اللسان — صَلَّ) : « الصِّلَّة : الأرض اليابسة ، وقيل : هي الأرض التي لم تُمْطَر بين أرضين مَمْطورَتين ، والجمع : صِلال ، وقال أبو عبيدة : قَبَرَه في الصِّلَّة وهي الأرض » ، وعلى هذا يمكن تخريج المعنى في الآية على هذه القراءة ، كذلك يمكن فهم الآية على المعنى المشهور الذي ذكره أبو الفتح ابن جني ، وذكره أيضاً ابن عطية ، وهو من : صلَّ اللَّحْم يَصِلُّ صلولا وأصَلَّ : أنْتَن مطبوخاً كان أو نَيِّئاً ، قال الحطيئة :

ذاك فتىً يَبْذُلُ ذا قِدْرِهِ لا يُفْسِدُ اللَّحْمَ لَدَيْهِ الصُّلولُ

وقال زهير :

تُلَجْلِجُ مُضْغَةً فيها أَنِيضٌ أَصَلَّتْ فَهِيَ تَحْتَ الكَشْحِ داءُ

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبان بن سعيد بن العاص ، وقرأ الحسن أيضاً : [صَلِلْنَا] بالصاد غير منقوطة وكسر اللام ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأبو حيوة : [صَلَّلْنَا] . بالصاد غير منقوطة وكسر اللام وشدِّها .

وقولهم : ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ، أي : أَئِنَّا لفي هذه الحالة نُعاد ويجدد خلقنا . وقوله تعالى : [بَلْ] اضرابٌ عن معنى استفهامهم ، كأنه قال : ليسوا مستفهمين ، بل هم كافرون جاحدون بلقاء الله تعالى .

ثم أمر تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بجملة الحال غير مفصلة ، فبدأ بالإخبار من وقت تفقد روح الإنسان إلى الوقت الذي يعود فيه إلى ربِّه ، فجمع الغائبين الأُولى والآخرة ، و [يَتَوَفَّاكُمْ] معناه : يستوفيكم ، ومنه قول الشاعر :

إنَّ بَنِي الْأَدْرَمِ لَيْسُوا مِنْ أَحَدْ وَلَا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ في الْعَدَدْ (١)

---

(١) البيتان في (اللسان — وفى) ، ونسبهما لمنظور الوَبْرِي ، والرواية فيه (الأَدْرد) بدلا من (الأدرم) وفي (التاج) أن الشاعر هو منظور العنبري . ومعنى (ليْسوا من أحد) : لا تجعلهم قريش منها ، ومعنى (ولا تَوَفَّاهم في العدد) أنها لا تستوفي بهم عددها ، فهم غير معدودين و لا محسوبين بيْن الناس . وقد استشهد أبو عبيدة بالبيتين في مجاز القرآن ، وعنه أخذ صاحب اللسان .

و ﴿ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ اسمه عزرائيل ، وتصرفه كله بأمر الله تعالى وخَلْقِه واختراعِه ، ورُوي في الحديث أن البهائم كلها يَتَوَفَّى اللهُ أَرْواحها دون مَلَك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأنه يعدم حياتها[1] ، وكذلك الأمر في بني آدم ؛ إلَّا أنه نوع شُرِّف بتصرف مَلَك وملائكة معه في قبض أرواحهم ، وكذلك أيضاً غلظ العذاب على الكافرين في ذلك . ورُوي عن مجاهد أن الدنيا بين يَدَيْ ملَك الموت كالطست بين يدي الإنسان يأْخذ من حيث أُمر .

---

(١) نقل القرطبي عن ابن عطية هذا الحديث وتعليقه عليه بقوله : «كأنه يعدم حياتها» ، ثم قال : «وقد رُوي خلافه ، وأن ملَك الموت يتوفى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة» ، ثم ذكر الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد ، ولفظه : سمعت أبي يقول : (نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملَك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا ملَك الموت ارفُق بصاحبي فإنه مؤمن ، فقال ملَك الموت : يا محمد ، طِبْ نَفْساً وقرَّ عيناً ، فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما في الأرض بيت مَدَر ولا شَعْر في برٍّ ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات ، حتى إنِّي أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض رُوح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها) . وقد ذكر ابن كثير الحديث بنفس السند ، وعقَّب عليه بكلام لجعفر بن محمد راوي الحديث .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ تعجيب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأُمَّته من حال الكفرة ومما حلَّ بهم . وجواب [لَوْ] محذوف ؛ لأَن حذفه أَهول ؛ إذْ يُتْرك الإِنسان فيه مع أَقصى تخيُّله . و [ٱلْمُجْرِمُونَ] هم الكافرون ؛ بدليل قولهم : ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ ، أَي أَنهم كانوا في الدنيا غير موقنين . و «تَنْكِيسُ الرُّؤُوسِ» هو من الهول والذل والهمِّ بحلول العذاب وتعلُّق نفوسهم بالرجعة إلى الدنيا ، وفي القول محذوف تقديره : يقولون ربَّنا ، وقولهم : ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أَي : ماكنا نُخْبَر به في الدنيا فكنا مكذبين به ، ثم طلبوا الرجعة حين لا ينفع ذلك .

ثم أَخبر تبارك وتعالى عن نفسه أَنه لو شاء لهدى الناسَ أَجمعين ، أَي : يلطف بهم لطفاً يؤمنون به ويخترع الإِيمان في قلوبهم . هذا

مذهب أَهل السُّنَّة . وقال بعض المفسِّرين : لَعَرَض عليهم آية يضطرهم بها إلى الإيمان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول بعض المعتزلة ، إلَّا أَن من أَشرنا إليه من المفسِّرين لم يَدْرِ قَدْر القول ولا مغزاه ولذلك حكاه ، والذي يقود المعتزلة إلى هذه المقالة أَنهم يَرَوْن أَن من يقدر على اللطف بإنسان حتى يؤمن ولا يفعل فإن ذلك ليس من الحكمة ولا من الأَمر المستقيم ، والكلام على هذه المسأَلة يطول وله تواليفه . و [ٱلْجِنَّة] : الشياطين .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ ﴾ بمعنى : يقال لهم : ذُوقُوا ، و [نَسِيتُمْ] معناه : تركتم ، قاله ابن عباس – رضي الله عنهما – وغيره ، وفي الكلام حذف مضاف تقديره : عمل ، أَو عدة ونحوه . وقوله : ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ سَمَّي العقوبة باسم الذنب ، وقوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَي : بِتَكَسُّبِكُم الآثام .

ثم أَثنى عزَّ وجلَّ على القوم الذين يؤمنون بآياته ، ووصفهم بالصفة الحسنة ، من سجودهم عند التذكير وتسبيحِهم وعدم استكبارهم ، بخلاف ما يصنع الكفرة من الإعراض عند التذكير ، وقول الهُجْر ، وإظهار التكبُّر ، وهذه السجدة من عزائم السجود في القرآن ، وقال

ابن عباس رضي الله عنهما : السجود هنا بمعنى الركوع ، وقد رُوي عن ابن جريج ، ومجاهد أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا إذا أُقيمت الصَّلاة خرجوا من المسجد ، فكأن الركوع يقصد من هذا ، ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية ، وأيضاً فمن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما أن القارئ للسجدة يركع ، واستدل بقوله : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

جَفَا الرَّجلُ الموضع : إذا تركه ، وتجافى الجنْبُ عن مضجعه : إذا تركه ، وجافى الرجل جنبه عن مضجعه ، وفي الحديث : (يجافي

(١) من الآية (٢٤) من سورة (ص) .

بعضديه عن جَنْبَيْه)(١) أي يبعدهما عن بدنه ، فقوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾ أي تبتعد وتزول ، ومنه قول عبد الله بن رواحة :

نَبِـيٌّ تَجَافَى جَنْبُهُ عَنْ فِرَاشِهِ إذا اسْتَثْقَلَتْ بالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ(٢)

ويروى : «يَبِيتُ يُجَافِي» ، قال الزَّجَّاج ، والرُّمَّاني : التَّجافي : التَّنَحِّي إلى جهة فوق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول حسن ، وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سبٍّ ونحوه . و «الْجُنُوبُ» : جمع جَنْب ، و «الْمَضَاجِـع» : موضع الاضطجاع للنوم . وقال أنس بن مالك : أراد بهذه الآية الصلاة بين المغرب والعشاء ، وقال عطاءٌ ، وأبو سلمة : أراد صلاة العشاء الآخرة .

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد ، ولفظه كما أخرجه البخاري في الصلاة عن عبد الله بن مالك بن بُحَيْنَةَ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلّى فرّج بين يديه حتى يبدو بياض إبطيه .

(٢) هذا بيت من الشعر ضمن ثلاثة أبيات رواها الإمام أحمد عن أبي هريرة ٣–٤٥١ ، قال أبو هريرة : إن أخاً لكم كان لا يقول الرفث – يعني ابن رواحة ، قال :

وَفِينَا رسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَـــهُ إذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ اللَّيْلِ سَاطِعُ

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إذَا اسْتَثْقَلَتْ بالكَافِرِينَ المَضَاجِعُ

أرَانَا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ مُوقِنَاتٌ أنَّ ما قَالَ وَاقِـــعُ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكانت الجاهلية ينامون في أول الغروب ، ومن أيِّ وقت شاءَ الإنسان ، فجاءَ انتظار وقت العشاءِ الآخرة غريباً شاقًّا ، وقال انس ابن مالك أيضاً : أراد انتظار صلاة العشاءِ الآخرة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل ، وفي ذلك أحاديث كثيرة (١) . قال الضحاك : «تجافي الجَنْبِ هو أن يصلي الرجلُ العشاءَ والصبح في جماعة» . وهذا قولٌ حسن ، يبعده لفظ الآية (٢) ، وقال الجمهور من المفسرين : أراد بهذا التجافي صلاة النوافل بالليل

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا التأْويل أكثر الناس ، وهو الذي فيه المدح ، وفيه حديثٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم يذكر قيام الليل ثم يستشهد

---

(١) من ذلك ما رواه الترمذي وصححه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة ، وكذلك ما أخرجه البخاري في تاريخه ، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه ، قال : نزلت ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ في صلاة العشاء . وكذلك ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ ، قال : هم الذين لا ينامون قبل العشاء ، فأثنى عليهم ، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه ، فوقتها قبل أن ينام الصغار ويكسل الكبير .

(٢) هكذا في جميع الأصول .

بالآية . ذكره الطبري عن معاذ بن جبل رضي الله عنه (١) . ورجح الزجاج هذا القول بأنهم جوزوا بإجفاء ، فدل ذلك على أن العمل إجفاءً أيضاً هو قيام الليل .

---

(١) حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أخرجه أيضاً أبو داود الطيالسي في مسنده ، والقاضي إسماعيل بن إسحق ، وأبو عيسى الترمذي ، وقال فيه : حديث حسن صحيح ، ولفظه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (ألا أدُلُّك على أبواب الخير : الصوم جُنَّة ، والصدقة تُطْفِيءُ الخطيئة كما يطفئُ الماءُ النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل) ، قال : ثم تلا : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾حتَّى بلغ : [يَعْمَلُونَ] ، وفي (الدر المنثور) قال السيوطي : « أخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن نصر في كتاب الصلاة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان — عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله ، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار ، قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتُقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدُلُّكَ على أبواب الخير ؟ : الصوم جُنَّةٌ ، والصدقة تطفئُ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ [يَعْمَلُونَ] ، ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذِرْوَةِ سنامه ؟ فقلتُ : بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أُخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى يا نبي الله ، فأخذ بلسانه فقال : كُفَّ عنك هذا ، قلت : يا رسول الله ، وإنَّا لَمُؤَاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثَكِلَتْكَ أُمك يا معاذ ، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟ »

وهذا الحديث هو الحديث التاسع والعشرون من الأربعين النَّوَوِيَّة ، وقد علَّق الحافظ ابن رجب الحنبلي على تصحيح الترمذي لهذا الحديث في أثناء شرحه لهذا الحديث في كتابه: (جامع العلوم والحكم) بما يفيد أنه لا يوافق على ما قاله الترمذي من أنه حديث حسن صحيح لاعتبارات ذكرها هناك . والله أعلم .

وقوله : [يَدْعُونَ] يحتمل أن يكون في موضع الحال من الموصوفين ، أي وقت التجافي ، ويحتمل أن يكون صفة مستأنفة ، أي : تتجافى جنوبهم وهم أيضاً في كل أحوالهم يدعــون في ليلهم ونهارهم ، و «ٱلْخَوْفُ» من عذاب الله ، و «ٱلطَّمَعُ» في ثواب الله . و [يُنْفِقُونَ] قيل : معناه : الزكاة المفروضة ، وقيل : النوافل والصدقات غير المفروضة ، وهذا القول أمدح .

ثم ذكر تعالى ما وعدهم من النَّعيم مِمَّا لم تعلمه نفْس ولا بَشَر ولا مَلَك .

وقرأ حمزة وحده : [أُخْفِــي] بسكون الياء ، كأنه قال : «أُخفِــي أَنَا» ، وهي قراءة الأعمش ، ورُوي عنه : «ما أَخفيتُ لهم من قُرَّات أعين» ، وقرأ عبد الله : «مَا نُخْفِــي لهم» بالنون المضمومة ، ورَوى المفضل عن الأعمش : «ما يُخْفَى لهم» بالياء المضمومة وفتح الفاء ، وقرأ محمد بن كعب : «ما أَخْفَى » بفتح الهمزة ، أي : ما أخفي الله لهم ، وقرأ جمهور الناس بفتح الياء على بناء الفعل للمفعول . و [مَا] يحتمل أن تكون بمعنى الذي ، فعلى القراءة الأُولى فَثَمَّ ضمير محذوف تقديره : أُخفيه ، وعلى قراءة الجمهور فالضمير الذي لم يُسَمَّ فاعله يجري في العودة على (الذي) ، ويحتمل أن تكون استفهاماً ، فعلى

القراءة الأُولى فهي في موضع نصبٍ بـ [أُخْفِـي] ، وعلى القراءة الثانية هي في موضع رفع بالابتداء .

و «قُرَّة الْعَيْن» : ما تلذُّه وتشتهيه ، وهي مأْخوذة من القُرِّ(١) ، كما أن «سخنة العين» مأْخوذة من السَّخَانة ، وأَصل هذا ـ فيما يزعمون ـ أن دمع الفرح بارد ، ودمع الحزن سخن .

وفي معنى هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قال الله عزَّ وجلَّ : أَعددتُ لعباديَ الصالحين مَالَا عيْنٌ رأَتْ ، وَلَا أُذنٌ سمعتْ ، ولَا خطرَ على قلب بشر ، واقرءُوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِـيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(٢) . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «في التوراة مكتوبٌ : على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع مالا عيْنٌ رأَت ، ولا أُذن سمعَتْ ، ولا خطر على قلب بشر» . وقرأَ ابن مسعود ، وأَبو هريرة ، وأَبو الدرداء رضي الله عنهم : «قُرَّاتِ» على الجمع . وقوله : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، أَي : بِتَكَسُّبِهِمْ .

---

(١) القَرُّ: البرْد ، أوجبوا الفتح مع الحرّ للمشاكلة ، والقُرُّ : البَرْدُ ، (عن اللسان) .

(٢) رواه الشيخان: البخاري ، ومسلم ، ورواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن جرير الطبري في التفسير ، وذكره الإمام السيوطي في (الدر المنثور) ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وأحمد ، وهناد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً ﴾ الآية . روى عطاءُ بن يسارٍ أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والوليد بن عقبة ابن أبي مُعيط ، وذلك أنهما تلاحنا ، فقال له عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه : اسكت فإنك فاسق ، فنزلت الآية[1]. وذكر الزجاج ، والنحاس ، وغيرهما أنها نزلت في عليٍّ وعقبة بن أبي مُعيط ، وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكِّيَّة ، لأن عقبة لم يكن بالمدينة ، وإنما قُتل في طريق مكة منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر ، ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفِسْق على الوليد ، وذلك يحتمل أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيءٍ كان في نفسه ، أو لما رُوي من نقله عن بني المصطلق ما لم يكن حتى نزلت فيه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾[2]، ويحتمل أيضاً أن تطلق الشريعة ذلك عليه لأنه كان على طرف مما ينبغي ، وهو الذي شرب الخمر في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وصلى الصُّبْحَ بالناس أربعاً ،

---

(١) ذكره الشوكاني في فتح القدير ، ونسب إخراجه إلى أبي الفرج الأصبهاني في الأغاني ، والواحدي ، وابن عدي ، وابن مردويه ، والخطيب ، وابن عساكر ، من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه : قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنا أحَدُّ منك سناناً ، وأنشط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال له علي رضي الله عنه : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت الآية .

(٢) من الآية (٦) من سورة (الحجرات) .

ثم التفت وقال : أتريدون أن أزيدكم ؟ ونحوه مما يطول ذكره .

ثم قسَّم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر ؛ لأن التكذيب الذي في آخر الآية يقتضي ذلك ، وقرأ طلحة : «جَنَّةُ» بالإفراد ، وقرأ أبو حيوة : [نُزْلًا] بإسكان الزاي ، والجمهور على ضمها ، وسائر ما في الآية بيِّنٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

الضمير في قوله تعالى : [لَنُذِيقَنَّهُمْ] لكفار قريش ، أعلم الله تعالى أنه يصبهم بعذاب دون عذاب الآخرة لعلهم يتوبون ويتعظون ، ولا خلاف أن العذاب الأكبر هو عذاب الآخرة ، واختلف المتأولون في تعْيين العذاب الأدنى - فقال إبراهيم النَّخعي ، ومقاتل : هو السنون التي أجاعهم الله فيها ، وقال ابن عباس ، وأُبيٌّ بن كعب : هي مصائب الدنيا من الأمراض ونحوها ، وقاله ابن زيد ، وقال ابن مسعود ، والحسن بن عليٍّ : هو القتل بالسيف كبدر وغيرها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فيكون ـ على هذا التأويل ـ «الرَّاجعُ» غير «الذي يَذُوقُ» ، بل الذي يبقى بعده (١) ، وتختلف رتبتا ضمير الذوق مع ضمير لعلَّ . وقال أُبيٌّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أيضاً : هي البطشة واللزام والدخان ، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً : عنى بذلك الحـدود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويتَّجه ـ على هذا التأويل ـ أن يكون في فسقة المؤمنين . وقال مجاهد : عنى بذلك عذاب القبر .

ثم قال تعالى ـ على جهة التعجب والتقرير ـ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ، أي : لا أحد أظْلَم ممن هذه صفته ، وهي بخلاف ما تقدَّم في صفة المؤمنين من أنهم إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خرُّوا سُجَّداً ، ثم توعَّد

---

(١) وقد قيل : إن معنى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ : لعَلَّهم يريدون الرجوع ويطلبونه ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ ، وسُمِّيت إرادة الرجوع رجوعاً كما سمِّيت إرادة القيام قياماً في قوله سبحانه : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾ ، ويدلُّ على ذلك قراءة من قرأ : [يُرْجَعُون] على البناء للمفعول .

تبارك وتعالى المجرمين ، وهم الذين يتجاسرون على ركوب الكفر والمعاصي بالقوة ، وظاهر الإجرام هنا أنه الكفر .

وحكى الطبري عن يزيد بن رفيع أنه قال : إن قول الله في القرآن : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُون ﴾ إنما هو في أهل القَدَر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يريد القائلين بأن أفعال العبد من قبله ، قال : ثم قرأ يزيد بن رفيع : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِين في ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ، يوْمَ يُسْحَبُونَ في ٱلنَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَر ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [1] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا المنزع من البعد مالا خفاء به . وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عَقَد لواءً في غير حقٍّ ، أو عقَّ والدَيْه ، أو مشى مع ظالم ينصره) [2] .

---

(١) الآيات (٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩) من سورة (القمر) .

(٢) قال الإمام السيوطي في (الدر المنثور) : «أخرجه ابن منيع ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه بسند ضعيف عن معاذ بن جبل رضي الله عنه» ، وقال ابن كثير بعد إخراجه : «هذا حديث غريب» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قرأ الناسُ : ﴿ في مِرْيةٍ ﴾ بكسر الميم ، وقرأ الحسن بضمها . واختلف المتأَولون في الضمير الذي في [لِقَائِهِ] على من يعود ؟ فقال أَبو العالية الرياحي ، وقتادة : يعود على [مُوسَى] ، والمعنى : لا تَكُ في شك من أَنك تَلْقى موسى ، أَي : في ليلة الإِسراء ، وهذا قول جماعة من السلف ، وقاله المُبَرِّد حين امتحن أَبا إِسحق الزجاج بهذه المسأَلة . وقالت فرقة : الضمير عائد على [ٱلْكِتَاب] ، أَي أَنه لقي موسى حين لقيه موسى عليه السلام ، والمصدر في هذا التأْويل يصح أَن يكون مضافاً إِلى الفاعل ، بمعنى : لقي الكتاب موسى ، ويصح أَن يكون مضافاً إِلى المفعول ، بمعنى : لقي الكتاب ـ بالنصب ـ موسى عليه السلام . وقال الحسن : الضمير عائد على ما يتضمنه القول من المِحْنَة والشدة التي في إِخْباره بأَنه آتى موسى الكتاب ، كأَنه قال : ولقد آتينا موسى هذا العبْءَ الذي أَنت بسبيله ، فلا تَمْتَر أَنك تلْقى ما لَقي

هو من المِحْنَة بالناس ، وكأن الآية تسْلِيَةٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم .
وقالت فرقة : معناه : فلا تك في شكٍّ من لقائه في الآخرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ ضعيف .

وقالت فرقة : الضمير عائد على مَلَك الموت الذي تقدم ذكره ، وقوله : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أيضاً ضعيف .

والمِرْيَةُ : الشَّكُّ . والضمير في [جَعَلْنَاهُ] عائد على [مُوسَى] ، وهو قول قتادة ، ويحتمل أن يعود على [ٱلْكِتَاب] .

و [أَئِمَّة] : جمع إمام ، وهو الذي يُقتدى به ، وأَصْلُه خَيْطُ الْبَنَّاء ، وجمهور النحويين على [أَيِمَّة] بياءٍ وتخفيف الهمزة ، إلَّا ابن أبي إسحق فإنه جوَّز اجتماع الهمزتين وقرأ : [أَئِمَّةً] . وقرأ جمهور القراء : ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ بفتح اللام وشدّ الميم ، وقرأ حمزة والكسائي : ﴿ لِمَا صَبَرُوا ﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم ، وهي قراءة ابن مسعود ، وطلحة ، والأعمش ، والأُولى في معنى الظرف ،

والثانية كأنه قال : لِأَجل صبرهم ، ف [مَا] مصدرية ، وفي القراءتين معنى المجازاة ، أي : جعلهم أَئِمَّةً جزاءً على صبرهم على الدنيا ، وكونهم موقنين بآيات الله تبارك وتعالى وأوامره وجميع ما تُورده الشريعة . وقرأ ابن مسعود : «بِمَا صَبَرُوا» .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الآية حُكْم يعم جميع الخَلْق ، وذهب بعض المتأولين إلى تخصيص الضمير ، وذلك ضعيف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾

[يَهْدِ] معناه : يُبَيِّن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقرأ جمهور الناس : [يَهْدِي] بالياء ، فالفاعِلُ اللهُ في قول فرقة ، والرسولُ في قول فرقة ، والمصدرُ في قول فرقة ، كأنه قال : أَو لم يُبَيِّن لهم

الهُدى . وجوَّز الكوفيون أن يكون الفاعل [كَمْ] ، ولا يجوز ذلك عند البصريِّين ؛ لأنها في الخبر على حكمها في الاستفهام في أنها لا يعمل فيها ما قبلها . وقرأ أبو عبد الرحمن : ﴿ نهْدِ لَهُمْ ﴾ بالنون ، وهي قراءة الحسن وقتادة . فالفاعِلُ اللهُ تعالى ، و [كَمْ] في موضع نصب : فعند الكوفيين بـ [نَهْدِ] ، وعند البصريين بـ [أَهْلَكْنَا] على القراءتين جميعاً . وقرأ جمهور الناس : [يَمْشُونَ] بفتح الياء وتخفيف الشِّين ، وقرأ ابن السميفع اليماني : [يُمَشُّونَ] بضم الياء وفتح الميم وشد الشِّين ، وقرأ عيسى بن عمر : [يُمْشُونَ] بضم الياء وسكون الميم وشين مضمومة مخففة ، والضمير في [يَمْشُونَ] يحتمل أن يكون للمُخَاطبين بالبيِّنة المُحْتَجِّ عليهم ، ويحتمل أن يكون للمُهْلَكِين ، فـ [يَمْشُونَ] في موضع الحال ، أيْ : أُهلكوا وهم ماشون في مساكنهم . والضمير في [يَسْمَعُونَ] لِلْمَنْهِيِّينَ . ومعنى الآية إقامة الحجة على الكفرة بالأُمم السالفة الذين كفروا فأُهلكوا .

ثم أقام عزَّ وجلَّ الحُجَّة عليهم في معنى الإيمان بالقدرة وبالبعث بأَنْ نبَّههم على إحْياء الأَرض الموات بالماء ، و «السَّوْقُ» هو بالسحاب ، و «الجُرُز» : الأَرْضُ العاطِشَةُ التي قد أكلت نباتها من العطش والقيظ ،

ومنه قيل للأَكول: جرُوزٌ ، قال الشاعر :

* خَبٌّ جَرُوزٌ وَإِذَا جَاعَ بَكَى *(١)

ومَنْ عبَّر عنها بأَنها الأَرض التي لا تُنْبت فإنها عبارة غير مخلصة . وعمَّ تعالى كلَّ أَرض هي بهذه الصفة ؛ لأَن الآيَةَ فيها والعبرةَ بيِّنةٌ . وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – وغيره أَيضاً : الأَرض الجُرُزُ هي أَرْضُ (أَبْيَن)(٢) من اليمن ، وهي أَرض تشرب بسيول لا بمطر . وجمهور الناس على ضم الراءِ ، قال الزَّجَّاج : وتُقرأُ : [الجُرْز] بسكون الراءِ (٣) .

---

(١) هذا بيت من مشطور الرجز ، أورده القرطبي ، والشوكاني في (فتح القدير) ، وذكر الطبري جزءاً منه ، وبعده يقول الراجز :

* وَيَأْكُلُ التَّمْرَ وَلا يُلْقِي النَّوَى *

ويقال : رجلٌ خَبٌّ وخِبٌّ بالفتح والكسر ، أي : خدَّاعٌ خبيث مُنْكر ، والجَرُوز : الذي يأكل ما أمامه ولا يبقي على شيءٍ منه ، يصفه بالخبث والشراهة . وهو الشاهد هنا .

(٢) أَبْيَن يُفْتح أوله ويكسر ، وهو بوزن أحمر ، ويقال (يَبْيَن) ، وهو مِخْلافٌ باليمن ، منه عدن ، يقال : إنه سُمِّي بأَبْيَن بن زهير بن أيمن ، من سبأ ، وقال الطبري : عَدَن وأَبْيَن ابْنَا عدنان بن أُدد ، وأنشد الفراءُ :

مَا مِنْ أُنَاسٍ بين مِصْرَ وعَالِجٍ وَأَبْيَنَ إلا قَدْ تَرَكْنَا لَهُم وِتْرَا
وَنَحْنُ قَتَلْنَا الأَزْدَ أَزْدَ شَنُوءةٍ فَمَا شَرِبوا بَعْداً عَلَى لَذَّةٍ خَمْرَا

(٣) في الجُرُز أربع لغات : جُرْزٌ وجُرُزٌ ، مثلُ عُسْرٍ وعُسُرٍ ، وجَرْزٌ وجَرَزٌ ، مثل نَهْرٍ ونَهَرٍ ، وجمع الجُرُزِ جِرَزَةٌ ، مثل جُحْرٍ وجِحَرَةٍ ، وجمع الجَرَزِ أجْرَازٌ ، مثل سَبَبٍ وأَسْبَابٍ . (عن اللسان – جرز) .

ثم خصَّ الله تعالى الزرع بالذكر تشريفاً له ؛ ولأنه عُظْم ما يقصد بالنبات ، وإلَّا فعرف أكل الأنعام إنما هو من غير الزرع ، لكنه أوقع الزرع موقع النبات ، ثم فصل ذلك بأكل الأنعام وبني آدم . وقرأ أبو بكر بن عياش ، وأبو حيوة : [يأْكُلُ] بالياء من تحت ، وقرأ ابن مسعود : [تُبْصِرُونَ] بالتاء من فوق ، وقرأ جمهور الناس : [يُبْصِرُونَ] بالياء .

ثم حكى عن الكفرة أنهم يستفتحون ويستعجلون فصل القضاء بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، على معنى الهُزْء والتكذيب . وَ [ٱلْفَتْح] : الحُكم ، هذا قول جماعة المفسرين ، وهو أقوى الأقوال ، وقالت فرقة : الإشارة إلى فتح مكة

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، يردُّه الإخبارُ بأن الكفرة لا ينفعهم الإيمان ، فلم يبْق أن يكون الفتح إلَّا إمَّا حُكم الآخرة ، وهو قول مجاهد ، وإمَّا [فَصْل] (١) الدنيا كبدر ونحوه . وقوله تعالى : ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ إشارة إلى الفتح الأول حسب محتملاته . فالألف واللام في [ٱلْفَتْح] الثاني للعهد ، و [يَوْمَ] ظرف ، والعامل فيه [يَنْفَعُ] ، و [يُنْظَرُونَ] معناه : يُؤَخَّرُونَ.

(١) أي الفَصْل الذي يستعجلونه بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم أمره تبارك وتعالى بالإعراض عن الكفار دون انتظار الفرج ، وهذا مما نسخته آية السيف[١] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أي العذابَ ، بمعنى أن هذا حكمهم وإن كانوا لا يشعرون . وقرأ محمد ابن السميفع : [مُنْتَظَرُونَ] أي : لِلْعذاب النازل بهم[٢] ، والله أعلم .

كمل تفسير سورة السجدة والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١) في قوله تعالى في الآية (٥) من سورة (براءة) : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ . قال القرطبي : «وقيل : الآية غير منسوخة ؛ إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهُدْنة وغيرها» .

(٢) ورويت هذه القراءة عن مجاهد ، وابن مُحَيْصِن ، قال الفراء : «ولا يصح هذا إلا بإضمار ، مجازُه : إنهم مُنْتَظَرُون بهم» ، وقال أبو حاتم : «الصحيح الكسر ، أي : انتظر عذابهم إنهم مُنْتَظِرُون هلاكك» . وقد وضح بعضهم المعنى على قراءة الفتح فقال : «معناها : وانتظر هلاكهم فإنهم أحِقَّاء بأن يُنْتَظَر هلاكُهم ، يعني أنهم هالكون لامحالة ، وانتظر ذلك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه» ، ذكر ذلك الزمخشري ؛ وهو معنى قول ابن عطية ، وقد أخذه عن الفراء ، والله أعلم .

انتهى الجزء الحادي عشر بعون الله وتوفيقه ، والحمد لله ربِّ العالمين . ويليه الجزءُ الثاني عشر بمشيئة الله تبارك وتعالى ، ويبدأُ بقوله تبارك وتعالى في أَول سورة الأَحزاب :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

فهرست آيات الجزء الحادي عشر

الآية	الصفحة

تفسير سورة الشعراء

الآية	الصفحة

تفسير سورة النمل

الآية	الصفحة

تفسير سورة القصص

تفسير سورة العنكبوت

تفسير سورة الروم

الآية	الصفحة

تفسير سورة لقمان

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٦ لسنة ١٩٨٦ م



مؤسسة دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع
ص ٠ ب ١٦٧١ ـ الدوحة ـ قطر